ذاكرة الكتابة

159

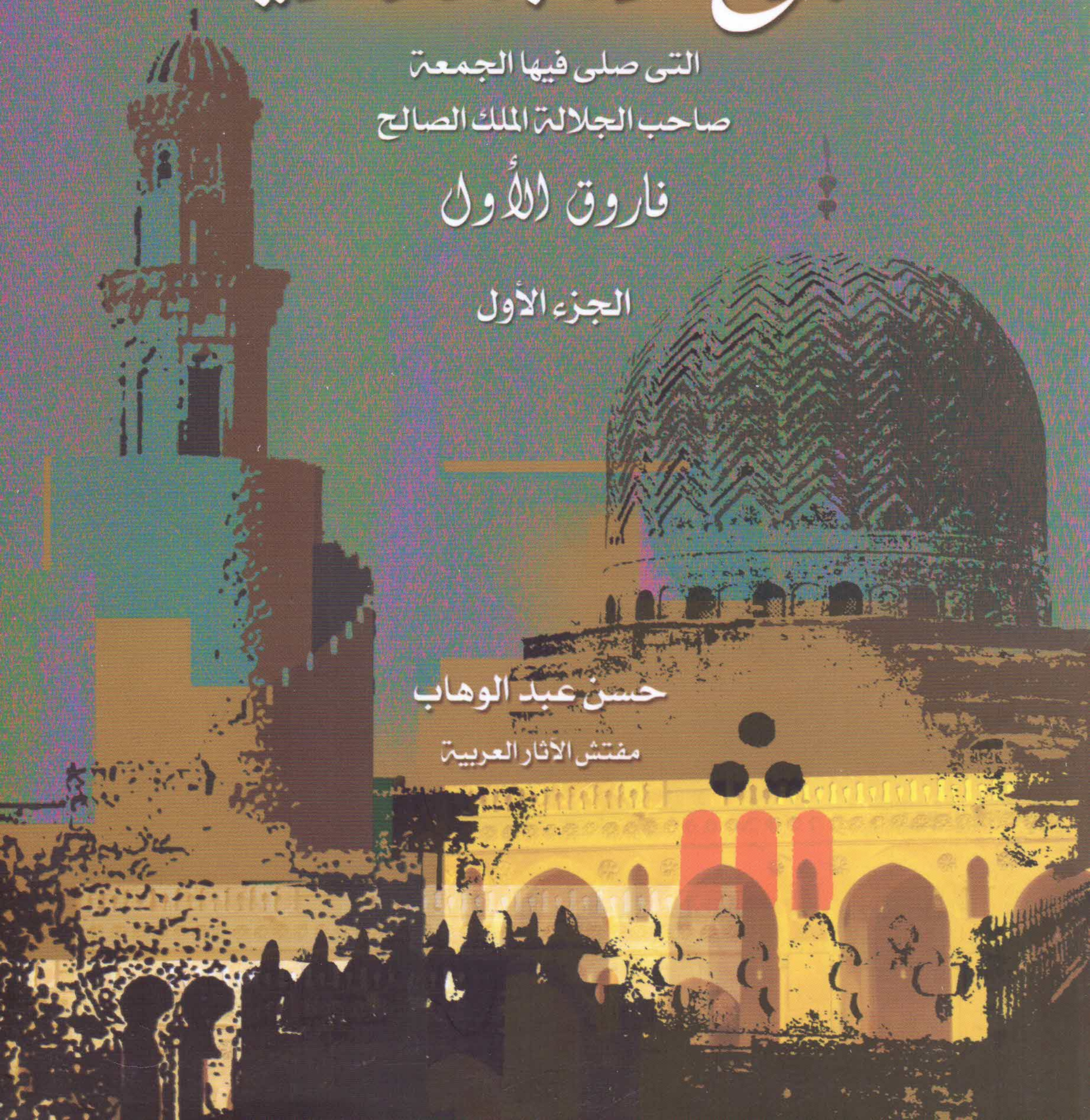
تاريخ المساجد الأثرية

التى صلى فيها الجمعة

صاحب الجلالة الملك الصالح

فاروق الأول

الجزء الأول



حسن عبد الوهاب

مفتش الآثار العربية

كل ما هو عالٍ و رفيع فى تجارب العمارة الإنسانية، إنما جاء به السياق النابع من صروح الأهرام و المسلّات و المعابد المصرية، من هنا جاءت عمارة و هندسة المساجد، ليس فى مصر فحسب بل و فى العالم أجمع .

www.gocp.gov.eg

الثمن : [redacted]

تصميم الغلاف : فكرى يونس

تاريخ المساجد الأثرية

التى صلى فيها فريضة الجمعة حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح

فاروق الأول

تأليف

حسن عبد الوهاب

مفتش الآثار العربية

الجزء الأول

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
ذاكرة الكتابة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• تاريخ المساجد الأثرية
• تأليف: حسن عبد الوهاب
• هذه الطبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2014م
• تصميم الغلاف:
فكرى يونس
• رقم الإيداع: ٢٥١٧/ ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-718-617-9
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 7947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

ذاكرة الكتابة (159)

تعنى بنشر أبرز الأعمال الفكرية والأدبية والنقدية التى طبعت فى بدايات القرن العشرين

تاريخ المساجد الأثرية

التى صلى فيها فريضة الجمعة حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح
فـاروق الأول

تقديم

كل ما هو عال ورفيع فى تجارب العمارة الإنسانية إنما جاء به السياق نابعًا من صروح الأهرام والمسلات والمعابد المصرية التى أسسها المصريون على ضفاف النيل، من هنا جاءت عمارة وهندسة المساجد ليس فى مصر فحسب بل وفى العالم أجمع وتطورت عنها المساجد الأندلسية والهندية، فالإسلام لم يقرر نموذجًا معماريًا لبناء المساجد أو المنازل أو القصور أو تخطيط المدن. فقد كان مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة مؤلفًا من قسمين قسم مغطى أطلق عليه فيما بعد اسم الحرم، وقسم مكشوف أطلق عليه الصحن، ولم يكن له مئذنة أو قبة أو محراب فهذه التوابع اللازمة لأداء فريضة الصلاة أصبحت عناصر أساسية فى تكوين عمارة المسجد فيما بعد، والتى طبقت عمارة المساجد فى كل بلدان العالم مع بعض الملامح التى لا تمس جوهر عمارة المسجد المصرى، ولعل جامع عمرو بن العاص بمصر عتيقة هو أول جامع تأسس فى مصر وتم تطوير عمارته ليصبح نموذجا يحتذى فى غيره من المساجد، كذلك كان جامع الأزهر وجامعته أشهر جامع خرجت منه أروع صيغة للمقرئة فى العالم ومنها عرفت أعجب وأشهر القراءات التى نبعت من التراث الغنائى المصرى.

عبد العزيز جمال الدين

حول تاريخ المساجد الأثرية
للدكتور حسن عبد الوهاب

بعد صدور كتاب (مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر) للأستاذ المؤرخ (محمد فؤاد شكرى) فى العدد الأخير من سلسلة (ذاكرة الكتابة)، اكتشفت عزيزى القارئ أننا قد قدمنا فى السلسلة (السياسى) و(التاريخى) و(الأدبى)، وبقيت زاوية الفنون ناقصة ولا تجد ما يعبر عنها فى مسيرة السلسلة، لذا كان ضرورياً أن يقع اختيارنا على كتاب يعد درة من درر الفنون الإسلامية، ألا وهو كتاب (تاريخ المساجد الأثرية) لكبير مؤرخى العمارة الإسلامية الدكتور (حسن عبد الوهاب) الذى يغطى بكتابه ناحية مهمة من نواحى الفن الإسلامى، فكتابه (تاريخ المساجد الأثرية) والذى سبق كتب كثيرة فى هذا المجال، حيث كان الأول فى الأهمية العلمية والتاريخية من حيث أنه الأسبق، فقد تلته كتب أخرى لا تقل أهمية عنه، صدر الكتاب فى المرة الأولى فى العام ١٩٤٦ عن دار الكتب المصرية، ثم تلاه كتاب (مساجد مصر) الذى طبعته هيئة المساحة لحساب (وزارة الأوقاف) وهو من الكتب الشديدة الأهمية والندرة معًا (صدر فى العام ١٩٤٨) أى بعد كتاب أستاذنا الجليل الدكتور (حسن عبد الوهاب) الذى يعد من أهم علماء الآثار الإسلامية، وأحد أقطاب الفنون الإسلامية، هذا بخلاف كتاب الدكتورة سعاد ماهر (مساجد مصر وأولياؤها الصالحين).

ولد الدكتور (حسن عبد الوهاب) فى ٣١ أغسطس من العام ١٨٩٨ بالقرب من حى مصر القديمة، وهو حى كثرت فيه الدور المميزة بمشربياتها ونوافذها التى تحمل طاقات زخرفية شديدة الدقة والحضور الفنى، و(حسن عبد الوهاب) قد تربى فى أسرة من الأسر الدينية المتحضرة، فأبوه كان عالمًا من علماء الأزهر الشريف، كما كان جده من أعلام القراءات ورسم المصحف، وكان أستاذه العلامة الجليل (أحمد باشا تيمور) وفى صغره حفظ (حسن عبد الوهاب) القرآن وعلوم الدين فى أروقة الأزهر الشريف، ثم التحق بما يعرف بتجهيزية دار العلوم، ثم التحق بعد ذلك بخدمة لجنة الآثار العربية، وذلك فى عهد

السلطان حسين كامل، كذلك عمل (حسن عبد الوهاب) مع العالم السويسرى هرتس بك والمصرى محمد باشا أحمد أول من تولى الآثار العربية من المصريين، إضافة إلى أنه قد عمل مع العالم الفرنسى (جاستون فيت) صاحب الكتاب الشهير (القاهرة مدينة الفن والتجارة)، وقد كان لهؤلاء العلماء دوراً كبيراً فى ترميم كثير من مساجد مصر الإسلامية ومدارسها ومشاهدها، على أسس علمية وفنية حتى منتصف الأربعينيات، وكانت مصر حينذاك تزخر بأجيال الصناع من الفنيين فى الرخام والخشب والحجارة والنحاس والمزخرفين، وبين أيديهم اشتغل الدكتور (حسن عبد الوهاب) مفتشاً للآثار الإسلامية حتى أحيل إلى المعاش فى العام ١٩٥٨، ساعد الدكتور (حسن عبد الوهاب) فى تميزه بين علماء الآثار كونه كان مصوراً فوتوغرافياً موهوباً زاول مهنة التصوير الفوتوغرافى، وذلك منذ بدأ اشتغاله بالآثار على الرغم من بدائية آلات التصوير آنذاك (أوائل القرن العشرين) ولـ(حسن عبد الوهاب) بحوث علمية مهمة تتناول حياة الصناع ونظم العصور الإسلامية، وتخطيط المدن، وجاء كتابه الذى بين إيدينا (تاريخ المساجد الأثرية) ليصبح متحفاً فنياً مهماً، حيث جاء الكتاب فى جزأين، الأول جاء للدراسة العلمية والتحليل الفنى المعمارى، وكان الجزء الثانى سجلاً حافلاً بلقطات دقيقة للعمارة الإسلامية ممثلة فى مساجد مصر الأثرية، إضافة إلى الكثير من التفاصيل المعمارية التى تساعد على رصد دقائق العمل الهندسى، لقد اختار الدكتور (حسن عبد الوهاب) فى كتابه أكبر المساجد وأشهرها إضافة إلى نموذج (المدرسة) و(الخانقاه) لنصبح أمام كتاب يرصد بالدليل التنوع المبهر فى العمارة الإسلامية بمصر ونتعرف من خلال كتاب (تاريخ المساجد الأثرية) على تاريخ منشأ المسجد وتحقيق تاريخ إنشائه ووصفه، إضافة إلى الأدوار التى مر بها من زيادة وتعمير، وللدكتور (حسن عبد الوهاب) العديد من الاكتشافات المهمة فى الآثار الإسلامية منها، كشف محراب المعز لدين الله بالجامع الأزهر، إضافة إلى اكتشاف تابوت المشهد الحسينى، والكشف عن فسيفساء قبة الصالح نجم الدين أيوب، بالإضافة إلى اكتشاف العديد من التحف الفنية والمصاحف الشريفة المحفوظة بالمتاحف المصرية، كذلك اكتشف اسم مهندس مدرسة السلطان حسن، شارك الراحل الدكتور (حسن عبد الوهاب) فى العديد من المؤتمرات العلمية والدولية.

كما شارك فى عضوية العديد من المجالس العلمية واللجان منها (عضو المجلس الأعلى

للآثار - عضـور المجمع العلمى المصرى، عضو لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، عضو اللجنة التاريخية المصرية، عضو لجنة المتحف البحرى) وللراحل العظيم مؤلفات مهمة فى العمارة الإسلامية بالعربية والإنجليزية والفرنسية، ومنها (رمضان - تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها - العمارة فى عصر محمد على - تاريخ الشرطة فى العصر الإسلامى) إضافة إلى كتابه الهام (جامع السلطان حسن وما حوله) حصل الدكتور (حسن عبد الوهاب) على جائزة الدولة التقديرية فى العام ١٩٦٨، وذلك للأسف بعد رحيله بعام، حيث رحل عن عالمنا فى العام ١٩٦٧ تاركًا روحه فى كل ما كتبه وغى ظل اكتشافاته عاش اسمه يليق به وبمصر ومكانتها بين حضارات العالم.

طارق هاشم



حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك الصالح

فاروق الأول ملك مصر

مولاى

إلى مقامك السامى أتشرف بأن أرفع تاريخ مجموعة من المساجد الأثرية في عاصمة ملكك السعيد، كان من حسن طالعها إشراق نور طلعتك عليها، وأدائك فريضة الجمعة فيها.

ومن بشائر اليمن أن تزدهر المساجد وتعمر في عهدك السعيد (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

ولقد عم فضلك يا مولاى نواحى الحياة جميعها، وانتفع بإرشادك وحسن توجيهك العالم والصانع والفنان، وسرت على نهج من خلد التاريخ ذكرهم في نشر العلوم والفنون، فشجعت العلماء والمؤلفين، وأضفت إلى تراث مصر ثروة علمية وفنية تنطق بفضلك ورعايتك. وكان لتاريخ مصر وآثارها أوفر نصيب.

وإن الرعاية التى تشمل بها رعاياك المخلصين، وما تبثه فيهم من روح التنشيط قد بعثت فيهم الهمة وقوة العزيمة.

وإنها لمنة كبرى يا مولاى أن يوفقنى الله لإخراج هذا السفر مشمولا برعايتك وعنايتك.

دمت يا مولاى نصيرا للعلوم وعمادا للفنون.

العبد الخاضع المخلص

حسن عبد الوهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فقد آستنّ الملك الصالح "فاروق الأوّل" سنة حسنة بأدائه فريضة الجمعة فى مساجد متفرّقة ، فى أنحاء عاصمة ملكه السعيد ، فكان خير قدوة فى أداء الفريضة ، وكانت خير فرصة لشعبه الوفىّ فى اجتلاء طلعته المشرقة .

وقد خصّ جلالته المساجد الأثرية بعنايته ، فأولاها النصيب الأوفر من آختياره . وكان هذا من أكبر الأسباب لإصلاحها وإعدادها ، إذ تفضل — رعاه الله — فأمر بإصلاح الكثير منها .

وهذه المجموعة من المساجد حوت أهمها وأكبرها ، وجمعت بين المسجد الجامع ، والمدرسة ، والخانقاه . وتنوّعت فيها العمارة الاسلامية فى عصورها المختلفة بمصر تنوّعا يساعد الباحث على الوقوف على تطوّر تصميماتها ، وزخارفها ، وتفاصيلها العمارية .

وقد تفضل مولاى — حفظه الله ورعاه — فأضاف إلى عنايته بتعميرها فضل نشر تاريخها .

وإنها لنعمة كبرى أولانيها وغمرنى بها ، أن هيأ لى نشر تاريخها ، متوجا باسمه الكريم ، ومزوّدا بالرسوم والصور الفوتوغرافية التى تساعد على اجتلاء محاسنها ، وتتبع رقيها وتطوّرها .

وقد تناولت فى هذا الكتاب تاريخ منشئ المسجد، وتحقيق تاريخ إنشائه ووصفه، والأدوار التى مرت به من زيادات وتعمير، مع شرح المميزات الفنيـة لكل منها، والتعريف بمواطن الجمال فيها .

وسيرى القارئ فيما يقرؤه من هـذه المجموعة الأثر العظيم الذى للبيت العلوى الكريم فى تعمير المساجد وإصلاحها ، إذ ما من مسـجد إلا ناله من هـذا البيت إصلاح وتدعيم ، حتى أصبحت فى عهد "الفاروق" فخـر الآثار الإسلامية وعنوان مجدها .

حفظ الله الملك المفدى، وأعز به الإسلام، وأعلى به منار الدين م

حسن عبد الوهاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

تمهيد

نشـــأة المســاجـــد

المسجد والجـامع

المسجد — الموضع الذى يُسجد فيه . قال الزجّاج : كل موضع يُتعبّد فيه فهو مسـجد . ألا ترى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « جُعِلتْ لى الأرض مسجدا وطَهورًا » .

وقال عز وجل : ﴿ومَنْ أظلمُ ممن منع مساجدَ الله أن يُذكرَ فيها آسمُه﴾ المعنى على هذا المذهب : من أظلم ممن خالف قبلة الإسلام .

الجـامع — نعت للمسجد ، وإنمـا نعت بذلك لأنه علامة الاجتماع . وما كانوا فى الصدر الأوّل يفردون كلمـة « الجامع » ، وإنمـا كانوا تارة يقتصرون على كلمة المسجد ، وطورا يصفونها فيقولون المسجد الجامع ، وآونة يضيفونها الى الصفة فيقولون مسجد الجامع . ثم تجوّز الناس بعدُ واقتصروا على الصفة فقالوا للمسجد الكبير وللذى تصلى فيه الجمعة وإن كان صغيرا الجامع ، لأنه يجمع الناس لوقت معلوم (١) .

واوّل مسجد بنى فى الإسلام هو مسجد قُباء الذى يقال له مسجد التقوى ، لقوله تعـالى فيه : ﴿ لَمَسجِدٌ أُسِّسَ على التقوى من أوّل يوم ﴾ .

وروى أبو سعيد الخدرى أن النبى صـلى الله عليه وسـلم سئل عن المســجد الذى أسس على التقوى فقال : هو مسجدى (أى مسجد المدينة) . وهذا لا يعارض الأوّل ، إذ كل منهما أسس على التقوى ، غير أن قوله سبحانه : من أوّل يوم يقتضى أن يكون مسجد قباء ، لأن تأسيسه كان من أوّل يوم حلول الرســول صلى الله عليه وسلم دار هجرته . ويرى الحافظ ابن حجر أن السر فى جوابه صلى الله عليه وسلم دفع توهم أن ذلك مقصور على مسجد قباء (٢) .

ولمـا افتتح عمر بن الخطاب البلدان كتب الى أبى موسى الأشعرىّ وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخـذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة ، وكتب الى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثـل ذلك ، وكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك أيضا ، وكتب الى أمراء أجناد الشام ألّا يتبدّدوا الى القرى ، وأن ينزلوا المدائن ،

---

(١) المقريزى ج ٢ ص ٤٠٨ ، تاريخ مساجد بغداد وآثارها ص ٥ — ٦ (٢) وفاء الوفا ج ٢ ص ١٦

وأن يتخذوا فى كل مدينة مسـجدا واحدا ولا تتخذ القبائل مساجد . فكان النـاس متمسكين بأمر عمر وعهده . وكانت صلاة الجمعة تؤدّى فى المسجد الجامع[1] .

ظلت صلاة الجمعـة تؤدّى فى جامع عمرو بالفسطاط باعتباره أوّل جامع أنشئ فيها ، الى أن قَدِم صالح بن على بن عبد الله بن عباس من العراق فى طلب مروان بن محمـد آخر خلفاء بنى أمية سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) فنزل بعسكره فى شمالى الفسطاط وبنى هناك الأبنية ، فسمى هذا الموضع بالعسكر. ثم أقيمت صلاة الجمعـة فى مسجد بناه الفضل بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) عرف بجامع العسكر .

استمرّت[2] الخطبة تقام فى هذين المسجدين حتى بنى أحمد بن طولون مسجده فى سـنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) فأبطل صلاة الجمعة من جامع العسكر ، وظلت تقام بجامعه وجامع عمرو ، الى أن قَدم جوهر القائد وبنى الجامع الأزهر سـنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) فكانت الجمعـة تقام فى جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون والجامع الأزهر .

وفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) أنشأت السيدة تغريد أم الخليفة الفاطمى العزيز بالله جامع القرافة المعروف بجامع الأولياء . ثم أنشأ العزيز بالله جامعه بباب الفتوح فى سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) وأقام الجمعة فيه فى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) وأتمه ابنه الحاكم بأمر الله وصلى فيه الجمعة فى شهر رمضان سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) كما أنشأ الحاكم جامعى المقس وراشدة ؛ فكانت الجمعة تقام فى هذه الجوامع كلها الى أن انتهت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وأبطلت الخطبة من الجامع الأزهر واستمرّت فيما عداه .

وهذا هو السر فى كبر مساحة هذه المساجد ، فقـد أعدّت لتجمع عددا كبيرا بل أمة مجموعة . ثم كثر إنشاء المساجد والمدارس فى أنحاء مصر والقاهرة وتعدّدت الخطبة .

نشأة المدارس بمصر — كانت مصر فى القرون الخمسـة الأولى للعصر الإسـلامى مركزا للعلوم ومقصدا للطلاب ، وكانت مساجد : عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم ودار الحكمة عامرة بالدراسات المختلفة .

ومع أن الفاطميين حينما اسـتولوا على مصر دعوا فيهـا لمذهب الشيعة وولوا فقهاءهم مناصب القضاء لم يستطيعوا التغلب على المذاهب السنية والتمسك بها .

ولمـا قامت الدولة الأيوبية قضى سلاطينها — وكانوا شافعية — على التشيع وأنشئوا المدارس لفقهاء الشافعية والمـالكية .

(١) المقريزى ج ٢ ص ٢٤٦ (٢) المقريزى ج ٢ ص ٢٤٤

وقد شاركت الإسكندرية القاهرة فى نهوضها العلمى والثقافى فى تلك الحقبة، إلا أن لها فضل السبق فى إنشاء المدارس للذاهب السنية . ففى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) — والدولة الفاطمية قائمة — أنشأ الوزير رضوان بن الولخشى وزير الخليفة الحافظ لدين الله مدرسة بالإسكندرية[١] ، كما أنشأ العادل أبو الحسن على بن السلار وزير الخليفة الفاطمى الظافر، المتوفى سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) بالإسكندرية[٢] مدرسة أخرى، وكان شافعىّ المذهب .

وكان لملك مصر صلاح الدين يوسف الأيوبى أكبر الفضل فى إنشاء المدارس وانتشارها فى أنحاء مصر، فإنه عمل جاهدا على القضاء على مذهب الشيعة و إنعاش مذاهب أهل السنة ببناء المدارس لفقهائها ، و بغير ذلك من الوسائل . وكان لمذهب الشافعى الحظ الأكبر من عنايته خصّ به القضاء لكونه مذهب الدولة .

وأول مدرسة له بمصر هى المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص ، أنشأها سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) . وفى السنة نفسها أنشأ المدرسة القمحية بجوار جامع عمرو أيضا، الأولى برسم الفقهاء الشافعية ، والأخرى برسم الفقهاء المالكية، وكان وقتئذ وزيرا للخليفة العاضد[٣] .

وعند ما أصبح سلطانا لمصر أمر فى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) بانشاء المدرسة الصلاحية بجوار قبر الإمام الشافعى، كما أمر بإنشاء مدرسة بجوار المشهد الحسينى .

وفى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) أمر بإنشاء المدرسة السيوفية[٤] برسم فقهاء الحنفية ، وهى أول مدرسة وقفت عليهم[٥] ، كما أنشأ فى الإسكندرية مدرسة و بيمارستانا ودارا للغاربة فى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م)[٦] .

ثم اقتدى به أولاده وأمراؤه فى بناء المدارس فى مصر والقاهرة وغيرها من بلاد القطر، وحذا حذوهم من مَلك مصر بعدهم .

وفى الوقت الذى أعدّت فيه المدرسة لتؤدّى فيها الشعائر الدينية ، أعدّت أيضا لتكون مراكز ثقافية، فقد عُنى بها وأُغدقت على أساتذتها وطلبتها الخيرات، كما عنى بصحتهم، وكان لها أكبر الأثر فى النهضة العلمية بمصر .

(١) ابن ميسر، ص ٨٣ (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٥٢٧ ، الروضتين ج ١ ص ٩١ (٣) المقريزى ج ٢ ص ٣٦٣ ، ابن خلكان ج ٢ ص ٦٠٠ (٤) المدرسة السيوفية حل محلها الآن مسجد المطهر . (٥) المقريزى ج ٢ ص ٣٦٦ (٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قسم ١ ص ٧٦

وتصميم المسجد الجامع أربعـة إيوانات مسقوفة فى الغالب، ومحمولة عقودها على عمد رخامية أكبرها إيوان المحراب، الذى يشتمل على عدّة أروقة؛ ويتوسّط الإيوانات صحن مكشوف تتوسطه قبة تحتها فسقية — والى أن ظهرت المدرسة كان المسجد لا يلحق به مدفن لا للمنشئ ولا لغيره — .

أما تصميم المدرسـة فيشتمل على إيوانين ، أو أربعـة إيوانات معقودة متقابلة تكوّن شكلا متعامدا ، أكبرها إيوان المحراب، وأصغرها الإيوانان الجانبيان، ويتوسطها غالبا صحن مكشوف به قبة الفسقية، ويلحق بها عادة مدفن للمنشئ وسبيل يعلوه كتّاب[1] ومساكن للطلبة ؛ ولما صغر حجمها غطى الصحن وآستغنى عن الفسقية وعن قبتها .

ومع ذلك وجدت مدارس اشتملت على إيوانين معقودين ، وآخرين مسقوفين ذات عمـد وعقود، أو إيوانين معقودين شرقىّ وغربىّ ، وآخرين صغيرين تكتنفهما حجرات .

وفى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) غلب تصميم المدرسة على المسجد، فأنشئ على مثالها الكثير من المساجد، بصرف النظر عن كونه خصص لدراسة مذهب أو لا . وكان يكتب عليها تارة مدرسة ، وأخرى مسجد ، مما يعزز القول بأن هذه الأسماء ترجع الى وظيفة البناء لا الى البناء نفسه، وكان مدلولها الغرض الذى أقيم من أجله لا طراز بنائه .

على أن تصميم المسجد ظل سائرا جنبا الى جنب مع المدرسة، وزيد على المسجد إلحاق السبيل والكتّاب به، ومدفن للمنشئ أحيانا .

وإذا كان تصميم المدرسة قد أخذ فى التلاشى فى العصر العثمانى فان تصميم المسجد ظل قائما فى مصر والأقاليم حتى الآن .

(١) يؤثر عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أنه أوّل من بنى دارا للحديث ، وشاد فى كثير من بلاده مكاتب للأيتام، وقرر لهم ولمعلميهم مرتّبات وافرة .

أثر الدول الإسلامية التى حكمت مصر

فى العمارة الإسلاميـــة

أول من حكم مصر من أمراء المسلمين فاتحها عمـرو بن العـاص الذى ولى عليهـا من قبـل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . ثم تقلب عليها الولاة من قبل الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الخلفاء الأمويين والعباسيين، وذلك من سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) الى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) .

ولم يبق من عصر الخلفاء الراشـدين سوى جامع عمرو، وقـد جدّد وأصبح يمثل عدّة عصور، ومدينة الفسطاط وهذه رغم تمثيلها لعصور مختلفة لم يبق منها سوى أطلالها .

أما الدولة العباسية فقد بقى منها مقياس النيل بجزيرة الروضة الذى أمر بإنشائه الخليفة المتوكل على الله سنة ٢٤٥ — ٢٤٧ هـ (٨٥٩ — ٨٦١ م) .

الدولة الطولونية — سنة ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ (٨٦٨ — ٩٠٤ م) .

استقلّت هذه الدولة بحكم مصر بفضل مؤسسها أحمد بن طولون . وفى أيامها أدخلت الى مصر أساليب العمارة والزخارف العراقية . وأنشأ أحمد بن طولون مدينة القطائع (١) وقصره الكبير والميدان . وأنشأ المســجد ودار الإمارة والبيمارستان وقناطر المياه . وعنى بصيانة كثير من الآثار التى كانت موجودة فى عصره مثل المقياس ومنار الإسكندرية .

وعنى ابنه خمارويه بالقصر الذى أنشأه والده وبحديقته، فحوّل الميدان وجعله كلّه بستانا زرع فيــه أنواع الرياحين ، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا متقن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص كى تخـرج منها الميـاه فتنحدر الى الفساقى، وغرس فيـه ريحانا بنقوش موضوعة ونصوص مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقراض . وبنى فيه برجا من خشب الساج المنقوش ووضع فيه الطيور المغرّدة، كما أطلق فيه الطيور العجيبة كالطواويس وغيرها . ثم أضاف إلى القصر

---

(١) القطائع حدّدها المغفور له محمـد بك رمزى بأن حدّها البحرى يبدأ من جامع سنجر الجاولى بشارع مراسينه ثم يسـير الى الشرق فى شوارع الخضـيرى ، الصليبة وشيخو ، ثم ميدان محمـد على الى باب العزب ، والحـدّ الشرق سـور القلعة من باب العزب ، ثم يسير الى الجنوب بجوار خط عرب آل اليسار الى أن ينتهى عند جامع النورى هناك ، والحدّ القبلى يبدأ من جامع النورى المذكور الى باب القرافة ، ثم الى باب السيدة نفيسة ، ثم يسير الى الغرب حيث ينتهى الى جامع زين العابدين قسم السيدة ، والحدّ الغربى يبدأ من جامع زين العابدين وينتهى الى جامع سنجر الجاولى .

جناحا جديدا سماه بيت الذهب طلّى جدرانه كلها بالذهب والألوان ، ونقش فيه صورته وصور جواريه ومغنياته بأحسن تصوير ، وأقام وسط هذا الجناح بركة من الزئبق .

وأنشأ ميدانا آخر أكبر من ميدان أبيه جعل به حديقة للحيوان جمع بها الأسود والفيلة ، كما تعددت إصطبلات خيوله . وهكذا نالت مصر قصب السبق فى العناية بالحدائق ومنها حدائق الحيوان .

غير أن هذا كله لم يعمّر سوى ٣٨ عاما ثم زال بزوال الدولة الطولونية التى لم يبق من منشآتها سوى أجزاء من قناطر المياه جهة البساتين ، ودار اكتشفتها دار الآثار العربية جهة مسجد أبى السعود ، ثم المسجد الكبير . وكفى بهذا المسجد شاهدا على مبلغ حضارة هذه الدولة وعظمتها الخالدة بما حواه من فنون عديدة ونقوش جصية اعتبرت أسسا للزخارف الجصية فى مصر ، وبما تشعر به ضخامته من العظمة والفخامة .

الدولة الإخشيدية — سنة ٣٢٤ — ٣٥٨ هـ (٩٣٥ — ٩٦٩ م) .

بعد أن انقرضت الدولة الطولونية عادت مصر ولاية عباسية من سنة ٢٩٢ هـ — ٣٢٢ هـ (٩٠٤ — ٩٣٤ م) ولم تلبث كثيرا حتى تغلّب عليها محمد بن طُغُج[(١)] الإخشيد وصارت مملكة إخشيدية من سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) إلى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) .

ومع أنها عمّرت زهاء ٣٥ سنة فان الآثار التى أنشئت فى عهدها اندثرت اللهم إلا بقايا مشهد آل طباطبا وشواهد قبور لوحظ فى كثير منها أن الزخارف تتخلل كتاباتها وتحيط بها ، مما يؤكد نشأة الزخرفة فى الكتابات الكوفية قبل العصر الفاطمى .

الدولة الفاطمية — سنة ٣٥٨ — ٥٦٧ هـ (٩٦٩ — ١١٧١ م) .

مؤسّس هذه الدولة فى مصر الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، فهو الذى أرسل قائده جوهرا الكاتب الصقلى لفتحها والاستيلاء عليها . وكانت مصر غنما يسيرا للدولة الفاطمية ، ولكنها كانت أسطع جوهرة فى تاجها وأعظم قطر فى تلك الإمبراطورية الشاسعة التى تسيطر عليها .

وفى أيام هذه الدولة أخذت أنوار الحضارة الاسلامية تنبثق من هذه المدينة الزاهية على أرجاء الأرض ، وأخذ الفن المصرى الاسلامى يتألق فى جميع نواحيه .

وفى رعاية هذه الدولة وثبت العمارة الاسلامية وثبة قوية حتى قاربت الكمال لأن خلفاءها تباروا فى إنشاء المساجد والحصون والقصور والمناظر والبساتين ، كما تبارت نساؤهم فى هذا المضمار الخيرى .

(١) طغج : تفسيره عبد الرحمن . والإخشيد لقب ملوك فرغانة ومعناه ملك الملوك .

المظلم . وفى هـذا العصر الزاهى انتشر الزخرف فى وجهات المساجد وعنى بتصميمها ، فأدخلت عليهـا أساليب جديدة ، كما أدخلت الى مصر بعض أساليب العمارة من بلاد المغـرب ، وانتعش التصوير ونبغ المصوّرون . وترقّت ودقّت صناعة الجص والأخشاب، وأنشئت فى عهدها مشاهد على القبور المنسوبة إلى أهـل البيت ، لهـا تصميم خاص، كما امتازت دون غيرها باستعمال المحـاريب الخشبية المتنقلة ، وانتشر البناء بالحجـر بجانب الطوب . وتهذبت المنارة، وارتفعت القبـة ، ونقش داخلها وتطورت من بساطتها إلى تضليع ظاهرها ، وانتقال مقرنصها من حطّة إلى حطّتين مع تعدّد طاقاته .

وكانت أيامهم كلهـا أعيادا بمـا ابتكروه من حفلات جمعت بين جلال الملك وطرب الشعب وبهجته . وكثير من الحفلات والتقاليد الباقية حتى الآن مدين بظهوره إلى هذه الدولة .

وهـذه الدولة وإن كان الزمن قد اعتدى على أكثر منشآتهـا العمارية كما أباد التعنت الدينى والسياسى منشآتها المدنيـة التى أهمها القصران والمناظر . إلا أنهما أبقيا على بعض منشآتها الدينية والكثير من طرفها الأثرية .

وجولة بين الآثار الدينية والحصون الباقية من عصرهم ، وزيارة لدار الآثار العربيـة لمشاهدة طرف هذا العصر فى شتى الفنون تجعلنا نوقن بمـا كتبه المؤرّخون وشادوا به من ثراء هذه الدولة التى كانت أيام حكمها لمصر مواسم لها وأعيادا .

الدولة الأيوبية — سنة ٥٦٧ — ٦٤٨ ﻫ (١١٧١ — ١٢٥٠ م) .

انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر زهاء قرنين وخلّفت وراءها ثروة فنية ضخمة . ولكن أكثر خلفائها لم يكن لهم من الخلافة إلا اسمها، فلم يأت النصف الأوّل من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميـلادى) إلا كان الأمر والنهى فى أيدى وزرائهم ، واستطاع أحدهم أن يخلع الخليفة، وأن يقضى على بقية الفاطميين. . ذلك هو صلاح الدين يوسف بن أيوب خصم الصليبيين وقاهرهم، والذى أخذ على عاتقه هو وأفراد أسرته أن يقف للفرنج بالمرصاد ، وأن يكون حجر عثرة فى سبيل الصليبيين حتى كانت أيامه وأيام خلفائه كلها فتحا وجهادا ضدّهم .

وقد ظلت مصر خاضعة للأيوبيين نحو ثمانين عاما ازدهرت فيهـا العمارة والفنون الإسـلامية ولكن مع الأسف قد أبيدت منشآتهم ، وبقى عدد قليل منها غير كامل ، ولكنه مع قلته يعطينا فكرة صريحة عن مقدار ازدهار العمارة والفنون فى هذه الدولة .

ففى عهدها أنشئت المدارس للمذاهب ، وللحديث الشريف وتطورت العمارة تطورا ملموسا ، وظهر تخطيط المدرسة وشاع ، كما تطور طراز القبة والمنارة . بل وجد نوع من القباب اقتصر ظهوره على هذه الدولة ، كما اتخذ بعضها من الخشب وكسى بالرصاص .

وشاع الخط النسخى بجانب الخط الكوفى على الآثار ، وازدهرت صناعة الأخشاب والنحاس وبلغت قمة مجدها ، وظهر نوع جديد من السقوف المعروفة بالقصع ، وتقدمت صناعة الجص ، وظهر الزجاج الملون فى الشبابيك ، كما ظهرت للمرة الثانيــة الفسيفساء المذهبة فى المحاريب ، وشاع استعمال الرخام فيها ، وفتحت الشبابيك بأسفل وجهات المساجد وحليت أعتابها بالنقوش ، وأخذت صناعة الحجر فى الرقى والانتشار ، وعنى بتحصين مصر فأنشئت القلعة وأحيطت مصر والقاهرة بسور حجرى . وظهرت الخوانق والرُبُط ، كما ألحق السبيل والكتّاب وأحواض[1] شرب الدواب بالمدرسة .

وفى عهد هذه الدولة أيضا ظهرت بعض تأثيرات أندلسية فى صناعة الجص .

دولة المماليك البحرية — سنة ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ (١٢٥٠ — ١٣٨٢ م) .

يحق لنا أن ننعت عصر المماليك البحرية بالعصر الذهبى . وكيف لا يكون عصرا ذهبيا وقد ازدهرت فيه العمارة الاسلامية أيما ازدهار وتنافس فيه الملوك والأمراء فى تشييد المنشآت العمارية الخيرية والمدنية . وإذا كان قد رُوى أنه فى عهد الوليد بن عبد الملك كان الناس إذا التقوا تساءلوا[2] عن البناء والصناع ، فقد كان الحال كذلك فى عصر هذه الدولة التى أنشأ فيها الملك الناصر محمد ابن قلاوون ديوانا للأشغال .

وقد عمرت دولة المماليك البحرية بمصر زهاء ١٣٦ سنة كانت الحالة فيها هادئة موفقة . كما كانت مصر تنعم فيها برغد ورخاء . وقامت بالحكم فيها أكثر هذه المدة أسرة واحدة توارثت الحكم على رأسها المنصور قلاوون . وفى عهد هذه الأسرة ظهرت فى العمارة تأثيرات سورية . كما ظهرت فيها بعض التأثيرات الفارسية والأندلسية . وهذه التأثيرات لم تكن عامة فى جميع العمارات ، بل كانت فى بعضها ، وخاصة فى منشآت المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد بن قلاوون .

ولم تلبث العمارة فى هذا العصر أن تمصرت وأخذت طابعا خاصا بها ميزها عن شتى الفنون ، حيث تركزت قواعدها وترقت أبنيتها . وظهر تحسن كبير فى القبة والمنارة وتنوعت أشكالها ، وتهذبت صناعة النجارة والتطعيم فى الخشب ، وظهرت صناعة جديدة وهى تلوين الجص المنقوش

(١) أقدم ما عرف من هذه الأحواض ، الحوض الذى كان خلف الجامع الأقمر المنشأ سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) .
(٢) خلافة الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك . من كتاب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ص ١٦

وتغطيته بزجاج رقيق[(١)] . كما استحدثت تأثيرات أندلسية فى صناعة الجص التى بلغت أوجها ، وأخرى فارسية على القباب والمنارات و بعض الزخارف . وظهرت لأول مرة كتابة التاريخ بالأرقام الهندية وتطعيم الخشب بالنحاس ، وارتقت صناعة الزجاج بالمينا ، واتخذت منه مشكاوات لإضاءة المساجد . وشاع إنشاء الخوانق والربط ، وظهرت بواكير الكساء بالقاشانى فى قمم المنارات ورقاب القباب ، وظهر المنبر الرخامى بجوار المنبر الخشبى ، وازدهرت صناعة الرخام ، ووجدت منه نماذج دقيقة جدا مع الصدف وأخرى مطعمة ، وانتشر إنشاء الحمامات العامة والفنادق والوكالات . واستعمل الحجر فى بناء القباب والمنارات ، وارتقى تصميم وجهات المساجد والمدارس ، وانتشر الخط الكوفى المربع ، وانتشرت الأبواب النحاسية مع تنوع أشكالها وتكفيتها بالذهب والفضة ، كما انتشرت الثريات النحاسية وارتقت صناعتها .

المماليك الجراكسة — سنة ٧٨٤ — ٩٢٣ هـ (١٣٨٣ — ١٥١٧ م) .

إذا أطلقنا على عصر العمارة فى دولة المماليك البحرية العصر الذهبى ، بجدير بهذا العصر أن يطلق عليه العصر الماسى .

فبعد أن تطورت العمارة فى دولة المماليك البحرية وتركزت ، تم تمصيرها فى هذه الدولة ، وأخذت زخرفها وازينت . وتغلب تصميم المدرسة على المسجد وازدادت المنارة رشاقة وجمالا ، كما حفلت القبة من خارجها بنقوش هندسية ، وأخرى مورقة ، وأصبح الغالب فى بنائها الحجر بدل الطوب ، أو الطوب والحجر معا ، حتى أصبحت مصر جديرة بأن يطلق عليها مدينة القباب والمنارات ، واضطرد التقدم فى صناعة النجارة وأدخل على تطعيمها نوع جديد هو الزرنشان .

وصناعة الرخام ، وإن كانت قد تقدمت تقدما عظيما فى عصر المماليك البحرية ، فانها ظلت على تقدمها وتخطى جمالها من الوزرات الى الأرضيات . وكذلك ارتقت صناعة النجارة فى السقوف ، وتطورت المقرنصات ونقشت ، وشاع الزخرف فى الوجهات وفى صنج العقود الداخلية ، وصغر حجم المدرسة دون أن تفقد شيئا من مميزاتها الكثيرة . وغطيت صحونها بسقوف جميلة ، وانتشرت المحاريب الحجرية ونقشت وطعمت بالرخام .

وامتاز هذا العصر أيضا بمميزات عمارية مثل تعدد المنارات والقباب فى مسجد واحد . وجعل السبيل والكتاب وحدة عمارية . وكثر إنشاء الأحواض لشرب الدواب .

---

(١) من هذا النوع نموذج وحيد فى محراب قبة رباط أحمد بن سليمان بحارة حلوات المنشا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) .

ومع تقدم التفاصيل المعمارية فقد تأخرت الزخارف الجصية ، ولكنها عوضت بتقدم بالغ فى صناعة الشبابيك الجصية والتوفيق فى اختيار ألوانها .

الدولة العثمانيــة — سنة ٩٢٣ — ١٢١٣ هـ (١٥١٧ — ١٧٩٨ م) .

كان لسقوط دولة المماليك الجراكسة، ودخول مصر فى حوزة الدولة العثمانية أثر كبير فى تأخر الفنون والعمارة الإسلامية . فما أن تم للسلطان سليم الاستيلاء على مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) حتى جمع مهندسيها وفنانيها وخيرة صناعها من بناءين ونجارين ومرخمين وأرسلهم الى استامبول[١] . وبذلك قضى على النشاط الفنى والصناعى فى مصر الى حد كبير .

وبسبب تولى حكام أتراك نائبين عن السلطان فى الحكم ، أدخلت على العمارة الإسلامية أساليب تركية جديدة لم تكن مألوفة بمصر . فقد أنشأ سليمان باشا مسجده بالقلعة سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ م) على طراز مساجد الآستانة المستنبط من بعض الكنائس البيزنطية، فهذا المسجد مكون من قبة كبيرة مكسوة بالقاشانى، أمامها صحن كبير مكشوف، تحيط به أروقة ذات قباب صغيرة كسيت بالقاشانى أيضا، إلا أن تفاصيله من رخام وشبابيك جصية ظلت متأثرة بالصناعة المصرية .

وحذا حذوه فى التصميم مع اختلاف فى التفاصيل مهندس مسجد الملكة صفية سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) . وكان الحال كذلك فى مسجد سنان باشا ببولاق سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م) ، إلا أنه استعيض عن الحوش المكشوف بأروقة معقودة حول وجهاته الثلاث . ومثله مسجد محمد بك أبى الذهب سنة ١١٨٧ هـ (١٧٧٣ م) مع اختلاف فى التفاصيل .

وكذلك وجدت تكايا جاء تصميمها على شكل خاص مثل تكية سليمان باشا بالسروجية ، فهى وإن كانت من الداخل تركية الطراز إلا أن التفاصيل فى بابها ووجهاتها مصرية بحتة . أما تكية السلطان محمود وسبيلها فإنها تركية الطراز، ومثلها سبيل السلطان مصطفى .

ووجدت عدة تصميمات جديدة للمساجد ، فمن مربع تتوسطه أربعة عمد تحمل السقف ، الى مستطيل أو مربع مكون من إيوانين أو روافين تتوسطهما[٢] طرقة ، الى مساجد مثل المساجد الجامعة ذات الصحن المكشوف .

(١) ابن إياس، ج ٣ ص ١٢٢ ، الكواكب السائرة . (٢) هذا النوع سبق العصر العثمانى بمصر فقد وجد بمسجدى الأشرف برسباى بالصحراء المنشأ سنة ٨٣٥ هـ (١٤٣١ م) وجانم البهلوان المنشأ سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٨ م) .

وقد لحق التأخر مواد البناء والصناعة فتأخرت المنارة والقبة وسادتهما البساطة الى حدّ بعيد، وظهرت قباب هرمية فوق القبور، وأخرى محمولة على عمـد رخامية كما تأخرت النجارة وانعدمت الزخارف الجصية وكثير من الفنون .

ومع تأخر هذه الفنون فقـد بقيت صناعة الرخام والنقش فى السقوف محتفظة بدقتها وجمالها . وكذلك صناعة كسوة الأبواب النحاسـية ، وفى كثير منها أبدل بالنحاس الفضة ، ووجدت عناصر جديدة للزخرف، وهى كسوة الجدران والقباب والمحاريب بالقاشانى ، وانتشر إنشاء الدور ذات المقاعد والفساقى والمشربيات الجميـلة التى تجمّل كثـيرا من أحياء القاهرة القديمة ، كما انتشر انشاء الوكالات وانشاء السبيل والكتّاب فوقه .

وفى الوقت الذى نرى فيه هذا التنوع فى العمارة وتفاصيلها بمصر ودخول عناصر جديدة فيها ، نجد العمارة اتخذت طريقا آخر مكملا لعصر المماليك الجراكسة فى بلدان الوجهين البحرى والقبلى لا يمت بصلة الى الطـراز الذى كان سائدا فى مصر فى ذلك الوقت ، بل ظل يقتبس من طراز دولتى المماليك بشكل مبسط فى مواد البناء مع المحافظة عليه وعلى جمال التناسب . وفى بعض هـذه البلاد ازدهر البناء بالطوب والتفنن فى نقشه وخاصة فى رشيد التى امتازت منازلها بطراز خاص ، كما انتشر الخط الكوفى المربع .

العمارة فى عصر محمد على — كان لنظام الحكم فى عصر الولاة العثمانيين والبكوات أسـوأ الأثر فى حالة مصر الفنية والأدبية والاقتصادية. فاضمحلت الصناعات والفنون والآداب، وتأخرت الزراعة وقلت الثروة العامة .

ولمـا جاء المغفور له محمد على باشا اسـتطاع بحكمته وحسن سياسـته أن يبعث فى مصر روحا جديدا وينهض بها فى سنوات معدودات ، فشقت الترع ، وأصلحت الجسور، وأنشئت المدارس والمصانع لشتى الصناعات . وكان من أثر رعايته ونهضته هذه أن دبت الحياة فى مصر بمـا استقدمه من الإخصائيين الأجانب الذين لم ينتفع بعبقريتهم فحسب ، بل انتفع بهـم أيضا فى إعداد طائفـة من المصريين .

وكان لاستعانته بمهندسين وعمال أجانب وأروام أثر فى إيجاد عناصر جديدة فى العمارة والزخرفة لم تكن موجودة . فقـد وجدت تصميمات جديدة للقصور ، كما وجدت عناصر جديدة للزخرفة . وميزت الوجهات بالكرانيش المخضرفة بنهاية الوجهات والشـبابيك البيضاوية والعمد الرشـيقة من

الرخام ، واتخذت الأبنية من الخشب والطوب . وقلّ استعمال الرخام الملون الدقيق وحل محله الرخام الأبيض والألبستر المستورد من محاجر بنى سويف . وانعدمت المشربيات وحلت محلها الشبابيك الحديثة، وشاع فرش طرقات الحدائق بالزلط الملون برسوم هندسية ونباتية .

هـذا وقد تأثرت المساجد المنشأة فى عصره بالطراز العثمانى ، فمسجده الكبير أنشئ على مثال مسجد السلطان أحمد بالآستانة . كما أقيم المسجد الذى أنشأه جهة الخانقاه على الطراز التركى .

وتقدمت فى هذا العصر صناعة النحاس وخاصة فى الشبابيك والمقاصير المصبوبة .

وظهرت فيه زخارف تمثل زهورا وعناقيد عنب وستائر ومناظر طبيعية . وهذا النوع من الزخرف شاع فى تركيا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، ويعرف عند الفنيين باسم "روكوكو" (Rococo) . وقـد دخل اليها بعـد انتشاره فى أوروبا على أيدى فنانين من جنوبى إيطاليـا وصقلية ، غير أن الفنان التركى لم يقبله بحذافيره بل هذبه حسب الذوق المحلى مراعاة للتقاليد الإسلامية .

وقـد ثبت لدينا أن العمال الذين قاموا بأعمال النقش فى قصور محـمد على كانوا أتراكا وأجانب ممن اشتغلوا فى استامبول وتأثروا بالفن التركى وتقاليده .

وشاع فى عصر محـمد على باشا وأسرته إنشاء نوع جديد من الأسبلة المكسوّة جدرانها بالرخام، والمحلاة بالزخارف، والمكتوبة بخطوط كبار الخطاطين، مما ساعد على وجود طائفة من نوابغ الخطاطين الأتراك نهضوا بهـذا الفن ووضعوا قواعده بمصر . كما شاع تغطية القباب والمظلات وقمم المنارات بالرصاص .

كذلك استعان محمد على بمهندسين فرنسيين لانشاء المصانع والحصون والقصور تتلمذت عليهم مجموعة كبيرة من المصريين .

وفى عصر المغفور له الخـديو اسماعيل بدأ التهذيب والتغيير يدخل على هـذا الطراز . ثم سرى الطراز الأوربى رويدا رويدا حتى طغى على هذا الطراز واحتل مكانه .

وأخيرا نرى حفيده الفـاروق — حفظه الله ورعاه — ينهض بمصر وبطرزها المعمارية ويعـنى بالتراث الفنى الذى تركه عاهل مصر الكبير محمد على فيعيد اليـه رونقه وبهاءه ، بمـا يضفى عليه من عناية وإصلاح .

جامع عمرو بن العاص

ميدان عمرو بن العاص (*)

عمرو بن العاص — القائد العظيم، والسياسى المحنّك، عمرو بن العاص بن وائل القرشى السهمى الصحابى. كان من أجلاء قريش وأحسنهم رأيا وتدبيرا. أسلم يوم الهدنة وقيل بعد الحديبية ثم هاجر (1).

كان خبيرا بشؤون الحرب، ولذلك عهد إليه النبي صلى الله عليه وسلم بإمرة الجيش فى غزوة ذات السلاسل مع وجود أبى بكر وعمر، كما ولى الإمرة فى غزوة الشام لأبى بكر وعمر، ثم افتتح مصر عام ٢٠ من الهجرة (٦٤١ م) وتولى إمارتها لعمر بن الخطاب، وظل بها فى خلافة عثمان بن عفان إلى أن عزله عنها، ثم أعاده إلى إمارتها ثانيا معاوية بن أبى سفيان فى ربيع الأول سنة ٣٨ هـ (٦٥٨ م) وبقى بها إلى أن توفى ليلة عيد الفطر سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) ودفن بالقرافة الكبرى (2). وذهب بعض المؤرخين إلى أنه مدفون مع عُقبة بن عامر.

إنشاء الجامع — هو أول جامع أنشئ بديار مصر. أنشاه عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) بعد فراغه من فتح الاسكندرية وعودته منها. ويعرف بتاج الجوامع والجامع العتيق. وكان وقتئذ مشرفا على النيل. وقد وقف على تحرير قبلته جمع من الصحابة رضى الله عنهم. ورحم الله ابن دقماق المؤرخ حيث يصفه بقوله (3): « إمام المساجد، ومقدّم المعابد، قطب سماء الجوامع، ومطلع الأنوار اللوامع، موطن أولياء الله وحزبه؛ طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه، وواظب على القيام بنواحيه، وتقرب منه إلى صدر المحراب، وخر إليه راكعا وأناب ».

مساحته وقت إنشائه — كانت مساحة الجامع وقت إنشائه ٥٠ ذراعا × ٣٠ ذراعا يحيط به الطريق من كل جهة. ولا صحن له. تسوده البساطة، فليس له محراب مجوّف ولا منارة ولا فرش. وجدرانه عارية من البياض والزخرف. وله بابان فى بحريه وبابان فى غربيه وبابان يقابلان دار عمرو (4). واتخذ له منبرا. فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بكسره قائلا له: "أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك" فكسره. ويقال إنه أعاده بعد وفاة عمر (5).

(*) أنظر الصور من رقم ١ — ٤ بمجموعة الصور الفوتوغرافية.

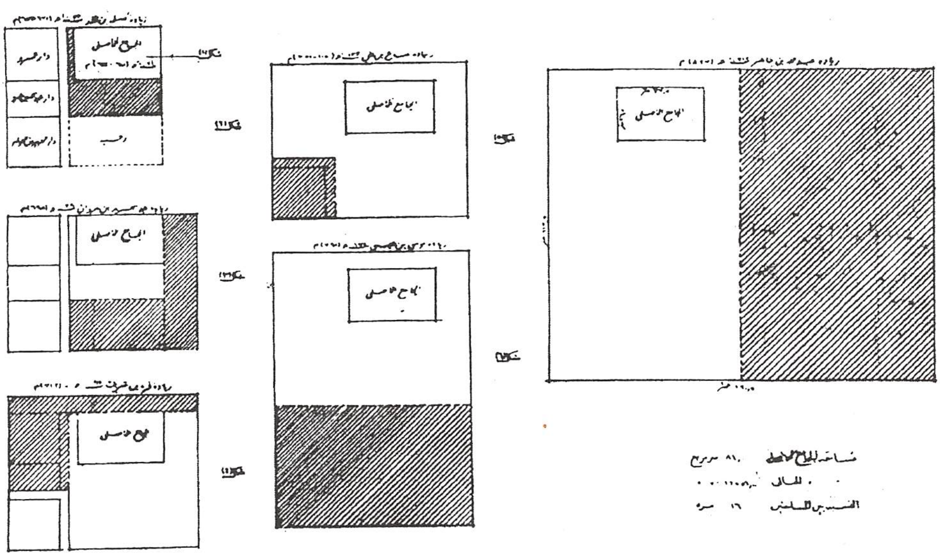
(1) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦١ (2) المعارف لابن قتيبة ص ١٢٤، التنبيه والاشراف ص ٣٠٢، تاريخ الرسل والملوك للطبرى ج ٦، ص ١٠٣ تاريخ مصر وولاتها للكندى ص ٣٣ و ٣٤ (3) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٥٩ (4) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٧ (5) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٤١

وصف الجـامع — ظل الجامع على مساحتـه حتى سـنة ٥٣ هـ (٦٧٢ م) حيث زاد فى مساحته مَسْلمة بن مخلد الأنصارى أمير مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان . وزخرف جدرانه وسقوفه، وأنشأ به أربع صوامع للمؤذنين فى أركانه نقش اسمه عليها، ثم أمر باتخاذ المنار فى المساجد، وأمر بفرشه بالحصر بدل الحَصْباء .

وفى سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) أزال والى مصر عبدالعزيز بن مروان جدرانه ووسعه من جوانبه .

وفى سنة ٩٣ هـ (٧١٠ م) هدمه الأمير قرة بن شريك العبسى والى مصر بأمر الخليفة الوليد ابن عبد الملك . ثم زاد فى مساحتـه وأحدث فيه محرابا مجوفا ووضع به منـبرا خشبيا سنة ٩٤ هـ (٧١٢ م) وأحدث به المقصورة وذهّب تيجان أربعة عمد تجاه المحراب. وصار للجامع أربعة أبواب فى شرقيه، ومثلها فى غربيه، وثلاثة فى الجهة البحرية .

تطور تخطيط الجامع



وفى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) زاد فيه صالح بن على والى مصر من قبل الدولة العباسية، وأصلح جزءا من مؤخر الجامع ومقدمه .

وفى سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) زاد فيه موسى بن عيسى أمير مصر من قبل الخليفة هارون الرشيد من الناحية البحرية حيث أدخل فيه رحبة أبى أيوب .

وفى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) أمر عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل الخليفة المأمون بتوسيع الجامع ، فأضيف الى أرضه مثلها من الجهة القبلية ، وبذلك بلغت مساحته ١١٢,٥٠ × ١٢٠,٥٠ وهى مساحته الحالية . ويمكن تصوير زيادة ابن طاهر برسم خط مار بمركز دوران المحراب الكبير الحالى ، وبمنتصف فتحة الباب الأوسط المقابل له بالوجهة الغربية . فهذا الخط يقسم الجامع قسمين ، البحرى منهما يعادل بالتقريب مسطح الجامع الى عهد موسى بن عيسى ، والقبلى هو زيادة ابن طاهر التى هى خاتمة الزيادات(١) كما هو موضح بالرسم .

الاصلاح والتجميل — بعد أن انتهت مرحلة توسيع الجامع وجه ولاة مصر عنايتهم الى إصلاحه وزخرفته(٢) ، فمن ذلك العمارة التى أجراها به خمارويه بن أحمد بن طولون عقب الحريق الذى حدث عام ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) وأتلف زيادة عبد الله بن طاهر .

وفى سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) نقش أكثر العمد وطوق فى أيام الأخشيد(٣) ، ولم ينتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) إلا والمسجد كان بالغا حدّه من الزخرف . فقد زاره الرحالة أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى البشارى قبل سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) ووصفه بالفخامة و « أنه حسن البناء ، وفى حيطانه شىء من الفسيفساء ، على(٤) أعمدة رخام أكبر من جامع دمشق ، وهو أعمر موضع بمصر » .

وفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) أمر الحاكم بأمر الله باهداء الجامع مصاحف وربعات . كما أرسل إليه تنورا كبيرا من الفضة . ولم يقتصر على ذلك بل أجرى به عمارة فى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) .

وفى سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) أمر الخليفة المستنصر بالله بعمل منطقة من الفضة فى صدر المحراب الكبير ، وجعل لعموديه أطواقا من فضة .

وفى سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) عملت للامام فى زمن الصيف مقصورة خشبية ومحراب من خشب الساج منقوش بعمودين من الصندل . على أن ترفع هذه المقصورة فى الشتاء اذا صلى الامام فى المقصورة الكبيرة(٥) . ولهذا الخبر أهميته فقد أوضح اختصاص المحاريب المتنقلة التى اقتصر ظهورها على الدولة الفاطمية ، ومنها ثلاثة فى دار الآثار العربية .

(١) جامع عمرو للرحوم محمود باشا أحمد ص ١٠ مع تعديل فى التعبير عن الاتجاهات . (٢) ننشر أهم هذه الأعمال لا على سبيل الحصر بل نذكرها للتاريخ حيث لا فائدة تعود على القارئ منها وقد تلاشت جميعها . (٣) المقريزى ، ج ٢ ص ٢٤٩ (٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٩٩ (٥) المقريزى ، ج ٢ ص ٢٥١

ومن هـذه الحوادث نرى أن الجامع بلغ ذروة مجده فى الدولة الفـاطمية[1] ، يعزز ذلك ما ذكره ناصر خسرو الرحالة الفارسى، فقد زاره سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٨م) ووصفه «بأنه قائم على أربعمائة عمود من الرخام . والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بالواح الرخام الأبيض التى كتب عليها آيات من القرآن بخط جميل . وتحيط بالمسجد الأسواق من جهاته الأربع وعليها تفتح أبوابه» . وبعد أن وصف الثريا الفضية التى أهداها اليه الحاكم بأمر الله قال: «وكان يوقد فى ليالى المواسم أكثر من سبعمائة قنديل[2] . وإن المسجد يفرش بعشر طبقات من الحصير الملون بعضها فوق بعض، ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل ، وهو مكان اجتماع سكان المدينـة الكبيرة ، ولا يقل من فيه فى أى وقت عن خمسـة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك » .

وفى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨م) أحرقت الفسطاط خوفا من احتلال الصليبيين لها، واستمرت النيران مستعرة بها ٥٤ يوما ، فتخربت مبانيها وتشعث جامع عمرو .

أعمـال الاصـلاح — عقب هـذا الحريق أجريت بالجامع عدة عمارات متعاقبـة ، نذكر منها عمارة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) ، تليها عمارة الظاهر بيبرس البندقدارى عام ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) . فعمارة المنصور قلاوون سـنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) . ثم عمارة الأمير سلار سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) . وتخلف من هذه العمارة الشبابيك الجصية بالوجهة الغربية والمحراب الجصى الخارجى فى هذه الوجهة وهو محراب حافل بالزخارف والكتابات النسخية . فعمارة الرئيس برهان الدين ابراهيم بن عمـر رئيس التجار بمصر سـنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) . ثم عمارة السلطان قايتباى سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م) .

وآخر عمارة أجريت به فى العصر العثمانى هى عمارة الأمير مراد بك سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) . فإنه هـدم داخل الجامع وأعاد بناءه بسبب ميـل عمده وسقوط إيواناته . فبنيت عقـوده فى وضع غير وضعها الطبيعى ذلك أنه غيّر اتجاه عقود الأروقة فجعلها عمودية على جدار القبلة ، ونتج عن ذلك أن صارت أرجل العقود قاطعة للشبابيك فسدّتها . وبنى به منارتين هما الباقيتان الى الآن .

ووافق الفراغ من هذه العمارة آخر جمعة من شهر رمضان، فاحتفل بافتتاحه وأثبت تاريخ هذه العمارة فى ألواح تاريخية فوق الأبواب الغربية والمحرابين الكبير والصغير .

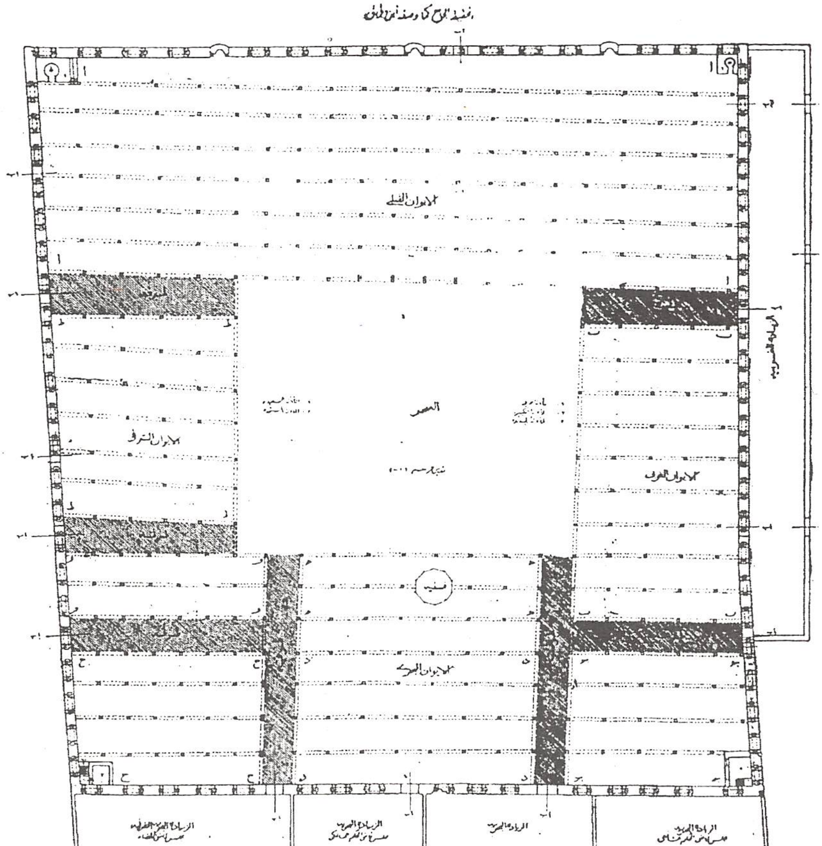
---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى ص ١٥٧

(٢) سفرنامه تعريب الأستاذ يحيى الخشاب ص ٥٩

عناية الأسرة العلوية بالجامع — وقد عنى المغفور له محمد على باشا بهذا الجامع فأصلحه وأعاد صلاة الجمعة فيـه ووقف عليه أوقافا . وفى سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) سقط إيواناه القبلى والبحرى وما زالا على حالهما الى الآن . وقد جددت سقوفه وقومت مبانيه فى سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) .

وقد اهتم به المغفور له الملك فؤاد الأول — رحمه الله — فأمر فى سنة ١٩٢٦ م بإعداد مسابقة ومنح جوائز لمن يضع أحسن مشروع يمثل الجامع فى أزهى عصوره .



تخطيط الجامع كما وصـفه ابن دقماق

وفى عهـده أصلح الإيوان الكبير بالجـامع وقومت عمـده وأصلحت عقوده ، أجريت به الاستكشافات القيمة التى ألقت ضوءا جديدا على تخطيط هذا الجامع .

وفى عهـد الملك الصالح " فاروق الأول " أطال الله ملكه . أصلحت بعض عقـوده ونقش محرابه ، واعتمد مشروع تخلية ما حول الجامع من جوانبه الأربعة بمقدار أربعين مترا .

الجامع من الناحية الفنية — ظل الأثريون ومن عنوا بدراسة الجامع ينظرون اليه نظرة تاريخية لما لازم إنشاءه من ذكريات تاريخية مجيدة، دون أن يكون للبحث الفني فيه أى أثر، الى أن عنى بدراسته المرحومان كوربت بك ومحمود باشا أحمد والأستاذ كريسويل دراسات مستفيضة.

وكان للحفريات التى قام بها المرحوم محمود باشا أحمد أهمية كبرى ، فانها أسفرت عن نتائج عظيمة، ترتب عليها تخطيط الجامع طبقا لما وصفه ابن دقماق نقلا عن ابن المتوج المتوفى سنة ٧٣٠ ﻫ (١٣٣٠ م) ، فظهر أنه كان يتكوّن من سبعة أروقة فى مقدّمه، ومثلها فى مؤخره ، وخمسة أروقة فى كل من جانبيه ، واستخلص أن مناراته كانت خمسا : أثنتان بطرفى الوجهة الشرقية ، وثلاث بالوجهة الغربية، ووضع له مسقطا أفقيا ننقله عنه . وأنه كان للجامع ١٣ بابا كشف منها خمسة فى الوجهة البحرية، وباب قاعة الخطيب بالوجهة الشرقية على يمين المحراب الكبير، وثلاثة فى الوجهة القبلية . وهذا العدد مضافا اليه الأبواب الثلاثة بالوجهة الغربية يجعل أبواب الجامع معروفة عدا الباب الثالث عشر، وقد حدّد موضعه بالوجهة القبلية على مسقطه الأفقى . وأن زياداته كانت أمام الوجهة الغربية، وفى القسم الشرقى من الوجهة القبلية .

وأهم الاستكشافات التى ظهرت بهذا الجامع بعض الشبابيك القديمة بالوجهتين القبلية والغربية المنقسمة الى قسمين والمشتملة على عمودين ، وهى مجلدة بالخشب من الداخل والخارج وكذلك الأكتاف والعارضة الفاصلة بينها مجلدة بالخشب الحافل بالنقوش المورقة الدقيقة مما لا نظير له فى أثر آخر بمصر. ويكتنف كل شباك من الخارج طاقتان مسدودتان، وبها بقايا جص مفرغ . وهذه الشبابيك وحدها تعطى فكرة صادقة عن مقدار الثروة الفنية التى كانت بهذا الجامع . وتدلنا على أنه كان غنيا بزخارفه .

ويرى الأستاذ كريسويل أن هذه الأخشاب بنقوشها عباسية[(١)] ترجع الى عمارة ابن طاهر . ويرى المغفور له محمود باشا أحمد أنها فاطمية ترجع الى القرن السادس الهجرى .

واذا أخذنا برأى الأستاذ كريسويل لأن زخرفة الأخشاب تسبق العصر الفاطمى ، فلماذا وجدت أيضا فى القسم القديم بالمسجد الذى لم يجدّده ابن طاهر، خصوصا أن الشباك الغربى البحرى عمل على مثالها وهو بعيد عن الجزء الذى أضافه ابن طاهر . فهل عمارته تناولت السور الغربى أيضا؟ هذا ما لم يثبته أحد من المؤرخين .

---

(١) Early Muslim Architecture by K.A.C. Creswell. Part II. p. 181.

وزاد على هـذا المغفور له محمود باشا أحمد أن عمارة ابن طاهر قد زالت[1] بسبب الحريق الذى حدث بالجامع سنة ٢٧٥ هـ . (٨٨٨ م) فيحتمل جدا عدم وجود بقايا بالجامع ترجع الى ذلك العهد فى النصف الذى عمله ابن طاهر . ثم عطف ثانية على نجارة الجامع القديمة بقوله :

« كان المعروف عن نجارة الجامع القـديمة أنه لم يبق منها الآن إلا أجزاء من الطبالى الخشبية المزخرفة التى تعـلو بعض التيجان بالأعمـدة القائمة بالإيوان الشرقى . ولكن وجدت طبالى أخرى فى المسجد لم تكن معروفة من قبـل » وقد حمله ذلك على ترجيح أن جميع تيجان عمـد الجامع كانت مغطاة بطبالى مزخرفة من هذا القبيل . « ولمـا كان من الآراء التى أبديت عن هذه الطبالى القديمة العهد رأى يقول إنها أخذت للجامع من عمارة بنيت قبل عهد بناء الجامع الطولونى أو على الأقل فى زمن عبد الله بن طاهر سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) فاننا نرتاب فى وجود بناية بمصر تحوى من الطبالى ما يكفى لتغطية نحو ٤٠٠ تاج بالجامع الأصلى وزياداته . كذلك لا نظن أنها جلبت من الخارج بل صنعت خصيصا للجامع . على أن هـذه الطبالى لم تكن وحدها المشتملة على هذه الزخرفة بل هى أيضا فى الشبابيك المكتشفة . ثم أكد بأنه لا يمكن الجزم بأن هذا الزخرف تم على يد ابن طاهر بعد ما تحقق من أنه عجز عن إتمام تبليط الجزء الذى أضافه الى الجامع ، وانتهى إلى أنه يميل الى الظن بأن البقية الباقية من نجارة جامع عمرو سواء كانت طبالى أو أحزمة أو حلوق شبابيك إنما هى فاطمية الطراز على رغم ما يبدو عليها » .

وهى آراء لهـا وجاهتها . وإذا كنت أوافقه عليهـا فيما يتعلق بابن طاهر ، خصوصا أن هـذه الأخشاب وجدت فى أجزاء لا علاقة لابن طاهر بها ، فانى لا أوافقه على أنهـا من القرن السادس الهجرى . ولعلها تكون فى نهاية القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الهجرى وتأثرت صناعتها ببعض الأخشاب التى كانت بالمسجد .

القضاء والمـالية بالجامع — لم يقتصر جامع عمـرو على أداء الفرائض الدينية به فحسب ، بل كانت فيه محكمة لفض المنازعات الدينية والمدنية ، وكانت تعقد جلساتها فى زيادة الجامع الغربية الموجود فى جزء منها الآن المحراب الجصى الخارجى .

كذلك كان به بيت المـال فقد عاينه ووصفه الرحالة ابن رسته[2] من علماء القرن الثالث الهجرى بأنه كان موجودا أمام المنبر ووصفه بأنه شبه قبة عليها أبواب من حديد .

ويرى الأستاذ محمود عكوش بك أن بيت المـال هـذا والقباب التى وجدت بالمساجد الكبيرة بمصر والشام وعرفت ببيت المـال إنمـا أعدت لإيداع أموال اليتامى[3] .

(١) المقريزى ، ج ٢ ص ٢٥٠ (٢) الأعلاق النفيسة ص ١١٦

(٣) نظرة فى الآثار العربية — النشرة الزراعية أغسطس سنة ١٩٤٣

جامعة عمرو — كانت حلقات الدروس تقام فى الجامع ، فبعضها لإرشاد العامة الى ما ينفعهم ويفقههم فى دينهم . وبعضها حلقات لدروس الفقه والحديث وعلوم القرآن والأدب .

ولما قدم مصر الإمام محمد بن إدريس الشافعى[1] سنة ١٩٩ هـ أو ٢٠١ ألقى دروسه بجامع عمرو، وظلت حلقات الدروس فى ازدياد حتى إنها بلغت ٣٣ حلقة سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٧ م) منها ١٥ حلقة للشافعيين و ١٥ للمالكيين و ٣ حلقات للحنفيين[2] .

وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (نهاية القرن العاشر الميلادى) بلغت حلقات الدروس بالجامع ١١٠[3] ، فاذا قدرنا أن كل حلقة بها ٢٠ مستمعا يكون مجموع الطلبة ٢٢٠٠ طالب يتزعمها أئمة الفقهاء والقراء وأهل الأدب والحكمة .

وقد أطلق على أماكن حلقات دروس كبار العلماء بالجامع[4] اسم زوايا ، فعرف درس الشافعى بزاوية الإمام الشافعى لأنه كان يدرس فيها الفقه . وقد حرص على التدريس بها أعيان الفقهاء وأجلة العلماء .

ومنها الزاوية المجدية نسبة الى واقفها مجد الدين أبى الأشبال الحارث بن مهذب الدين المتوفى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) وكانت بصدر الجامع بجوار المحراب الكبير . واختص بالتدريس فيها قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسى . ويعدّ التدريس بها من الوظائف الجليلة .

ومنها الزاوية الصاحبية حول مئذنة عرفة وكان بها مدرسان : أحدهما مالكى، والآخر شافعى .

ومنها الزاوية الكمالية بالمقصورة المجاورة لباب الجامع الذى يدخل إليه من سوق الغزل . نسبة الى كمال الدين السمنودى — وغيرها زوايا أخرى رصدت عليها أوقاف كثيرة .

وقد بلغت حلقات التدريس بالجامع سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) بضعا وأربعين[5] حلقة لا تكاد تنفض منه .

وكان يقام بالجامع حلقات دروس ووعظ للسيدات تصدرتها فى الدولة الفاطمية حوالى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) واعظة زمانها أم الخير الحجازية .

ولم تنقطع أخبار التدريس بهذا الجامع إلا فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) .

ضريح عبد الله بن عمرو — يشاع أن القبة الموجودة بالركن البحرى الشرقى بالجامع بها قبر عبد الله بن عمرو . وهذا غير موثوق به ، فقد اختلف المؤرخون فى موضع دفنه ،

(١) رسالة خطية فى تراجم الشافعية . (٢) كتاب المغرب فى حلى المغرب ، ج ٤ ص ٢٤ (٣) أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٥ (٤) المقريزى ، ج ٢ ص ٢٥٥ و ٢٥٦ (٥) المقريزى ، ج ٢ ص ٢٥٦

فذكروا أنه توفى سنة ٦٥[1] هـ ودفن فى داره الصغيرة بمصر . وترجمه ابن الأثير فى أسد الغابة[2] فقال : «توفى سنة ٦٣هـ وقيل سنة ٦٥هـ بمصر، وقيل سنة ٦٧ بمكة، وقيل سنة ٥٥ بالطائف، وقيل سنة ٦٨، وقيل سنة ٧٣ هـ» ويقرر أبو الفلاح عبد الحى بن العماد المؤرخ أنه مات سنة ٦٥ هـ على الصحيح[3] .

والأرجح أنه لم يدفن فى الجامع لأن محل القبة كان به منارة ولأن من زاروه من الرحالة لم يذكروه فيه مع أن الأضرحة هدفهم الأول فى الزيارة ، وخاصة عبد الغنى النابلسى الذى زار الجامع حوالى سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) لم يشر إليه مع أنه تجول فى نواحيه ووصف ما رآه، كما أن طراز القبة متأخر .

الاحتفال بالصلاة فى آخر جمعة من رمضان — نشأ هذا التقليد منذ الدولة الفاطمية، فقد كان الخليفة الفاطمى يركب للاحتفال برؤيا شهر رمضان ثم يستريح أول جمعة منه، فاذا كانت الجمعة الثانية أداها فى جامع الحاكم ، فاذا كانت الجمعة الثالثة أداها فى الجامع الأزهر ، فاذا كانت الجمعة الرابعة صدرت الأوامر بأدائها فى جامع عمرو بن العاص فيقوم أهالى القاهرة بعمل الزينات من باب القصر بالنحاسين إلى جامع ابن طولون . ويقوم أهالى مصر القديمة بعمل الزينات حتى جامع عمرو . وبعد أداء الفريضة يعود الخليفة إلى القصر فيصدر السجل وهو بمثابة بلاغ ديوان كبير الأمناء الآن .

ولما أتم مراد بك إصلاح الجامع فى النصف الثانى من شهر رمضان سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) أقيمت فيه آخر جمعة من رمضان فاتخذت عادة حتى اليوم إحياء للعادة القديمة .

غير أنى أرى فى إقامة الصلاة فى هذا الجامع فى نهاية شهر رمضان معنى ساميا حبا الله به هذا القائد العظيم فأحيا ذكرى وفاته سنويا إذ يوافق آخر أسبوع من رمضان الأسبوع الذى توفى فيه عمرو . فقد توفى ليلة عيد الفطر .

ولعمرى إنه لتكريم خليق بهذا القائد العظيم خصوصا أنه يرأس هذا الاحتفال جلالة الملك "فاروق الأول" حفظه الله وأدام ملكه السعيد .

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٢٤ و ١٢٥ (٢) أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٥ ، تهذيب الأسماء ص ٣٦٢

(٣) شذرات الذهب ج ١ ص ٧٣

الجامع الطولونى

ميدان أحمد بن طولون(*)

الجامع الطولونى . ثالث جامع أنشئ للجمعة والجماعة فى مصر . ويعدّ بحق من أقدم الجوامع المحتفظة بتفاصيلها المعمارية وهيكلها الأصلى العظيم .

أحمد بن طولون — الأمير أبو العباس أحمد بن طولون . ولد ببغداد سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) . وكان أبوه مملوكا تركيا من بلاد منغوليا . فتلقى علومه العسكرية فى مدينة سُرّ من رأى، ونشأ نشأة حسنة وتثقف ثقافة دينية فلقى شيوخ المحدثين وسمع منهم، واشتغل بالعلم حتى حصل على قسط وافر منه . وكان هذا من أكبر الأسباب للثقة به . هذا فضلا عما اشتهر به من شجاعة وإقدام .

ولما خُلع المستعين بالله وولى المعتز . تقرر نفى المستعين إلى واسط، فوقع اختياره على أحمد بن طولون لمرافقته فخرج معه وأخلص له .

ولخوف السيدة قبيحة والدة المعتز على ولدها من المستعين ، كتبت إلى ابن طولون بقتل المستعين على أن توليه مدينة واسط . فكتب إليها : «والله لا يرانى الله عز وجل أقتل خليفة له فى رقبتى بيعة وأيمان مغلظة أبداً»(١) . ولهذا السبب زادت محبته وعلا قدره عند الناس .

ولما عاد من واسط بعد قتل المستعين ودخل سر من رأى وافق دخوله تقليد الأمير باكباك حكم مصر وطلبه من يخلفه عليها . فأشاروا عليه بأحمد بن طولون الثقة الأمين فقلده مصر نيابة عنه وضم إليه الجيش .

دخل مصر يوم الأربعاء لسبع بقين من رمضان سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨م) مقلدا الفسطاط وأسيوط وأسوان دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها مثل الاسكندرية وغيرها، فقال حين دخل مصر: «غاية ما وعدت به فى قتل المستعين واسط، فتركت ذلك لله تعالى، فعوضنى ولاية مصر والشام»(٢) .

وبعد وفاة باكباك عيّن ماجور التركى، وكان ابن طولون تزوج ابنته، فترك له الولاية على مصر وضم اليه الاسكندرية أيضا(٣) .

(*) انظر الصور من رقم ٥ — ١٦ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

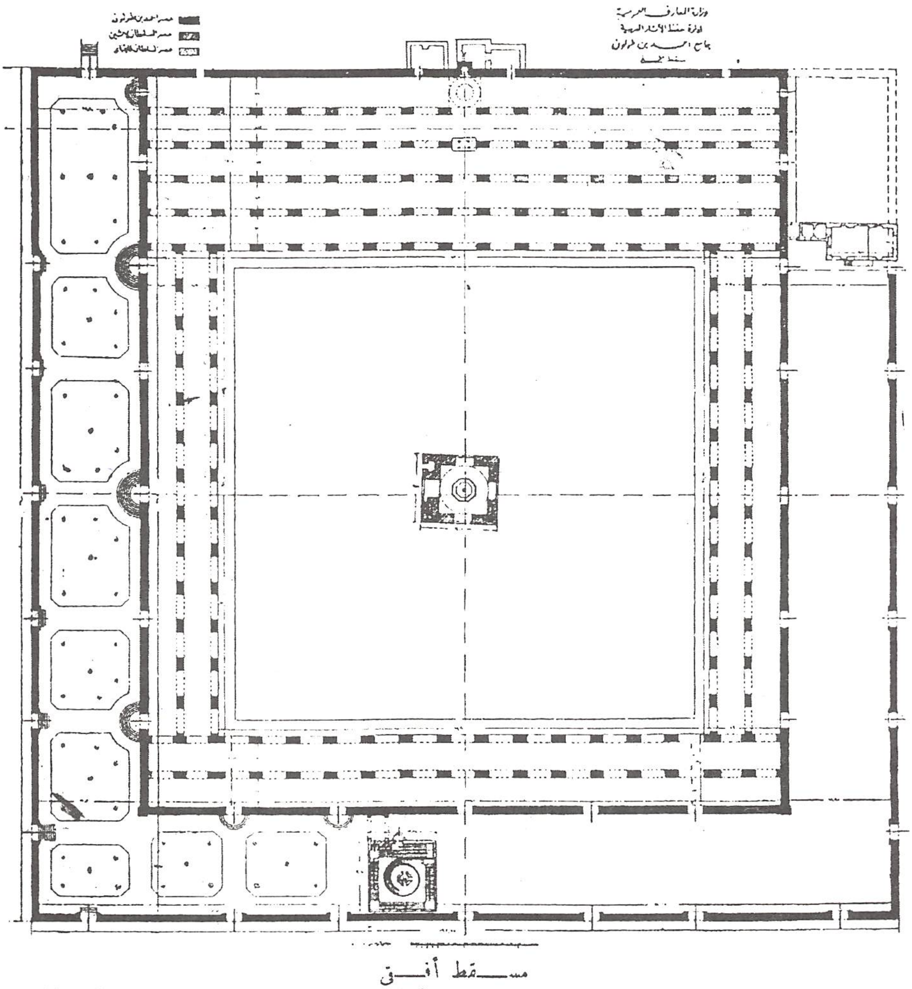
(١) سيرة ابن طولون، ص ٤٠ وسماها المقريزى ، قبيحه .

(٢) النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٦ ، المنتظم فى أخبار الأمم .

(٣) المقريزى، ج ١ ص ٣١٤

وفى سـنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) عهد إليه الخليفة المعتمد على الله بأمر الخراج على مصر والولاية على الثغور الشامية . فكان لقسوته وسطوته خير أثر فى الحكم فسادت السكينة البلاد ونمت ثروتها، ونجح فى الاستيلاء على حكم مصر واستقلالها وجعله وراثيا فى أسرته .

وظلت البلاد خاضعة له ولذريته من بعده حوالى ثمان وثلاثين سنة، تجلى فيها الترف والبذخ . توفى إلى رحمـة الله تعالى سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٤ م) ، وله ملك لا يعادله ملك الخليفة العباسى الذى يشمل الشام والجزيرة و برقة .



مسـقط أفـقى

وقد دفن بالقرافة الصغرى بالقرب من بابها . وكان قبره معروفا وقد عاينه ابن الزيات المؤرخ المتوفى سنة ٨١٤ هـ (١٤١١ م) (١) .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٧٨ ، الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ص ٢٧٨

كان رحمه الله حازما . نمت ثروة البلاد فى عهده وتقدمت . واهتم بالأسطول المصرى، فانشأ كثيرا من المراكب الحربية . وكان محبا للعلم كثير الصدقات ، كما كان شغوفا بالعمارة، فقد أصلح منار الاسكندرية ومقياس النيل، وأنشأ حصن الجزيرة ومسجد التنور ، ومدينة القطائع والقصر والميدان والبيمارستان ودار الامارة وقناطر المياه ثم الجامع الكبير .

تاريخ الجامع ووصفه — بعد أن فرغ ابن طولون من بناء القصر والميدان شرع فى بناء الجامع سنة ٢٦٣هـ (٨٧٦م)، واستمر العمل سائرا فيه إلى أن انتهى منه فى شهر رمضان سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨م) .

وهو من أكبر المساجد حيث تبلغ مساحته مع الزيادات ستة أفدنة ونصفا . ووضع تصميمه على مثال المساجد الجامعة، صحن كبير مكشوف تحيط به أروقة ذات عقود .

وهو على شكل مربع تقريبا ضلعه ١٦٢,٢٥ × ١٦١,٥٠ يشغل منه المسجد مع جدرانه مستطيلا مقاسه ١٣٧,٨٠ × ١١٨,١٠ ويتوسطه صحن مكشوف مربع تقريبا مقاسه ٩٢,٣٥ × ٩١,٨٠

ويحيط بالجامع من جوانبه القبلية والبحرية والغربية أروقة غير مسقوفة تعرف بالزيادات ، وهى من المسجد، ومثلها موجود فى جامع سر من رأى وفى جامع سوسة .

وأسوار هذه الزيادات عالية تسودها البساطة، فتحت بها أبواب تقابل أبواب الجامع، تتوجها من أعلى شرفة مفرغة . كما فتحت بأسوار الجامع أبواب وشبابيك علوية بينها حنايا وطاقات مخوصة تتوجها من أعلى شرفات .

وعدد أبواب الجامع ٢١ يقابلها مثلها فى الزيادات . ويوجد فى بعض الأبواب معابر خشبية قديمة بها زخارف مورقة .

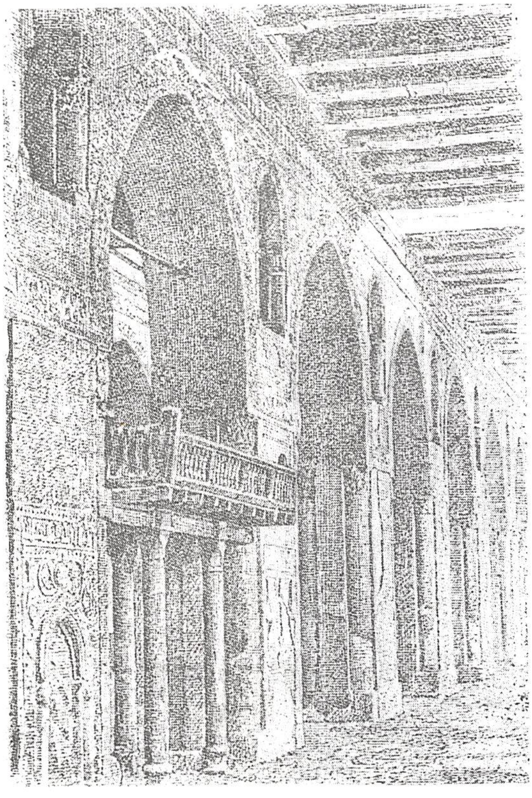
وهذه الأبواب تعددت كى تؤدى إلى المساكن والأسواق حول الجامع، حيث كان العمران كبيرا والتجارة رائجة، حتى قيل إن مسطبة كانت خلف الجامع مساحتها ذراع فى ذراع بلغت أجرتها كل يوم ١٢ درهما يستغلها ثلاثة أفراد : أحدهم فى بكرة النهار لبيع الغزل، والثانى لخباز بعد الظهر إلى العصر، والثالث من العصر إلى المغرب لبيع الحمص والفول[١] .

فإذا تجاوزنا سور الزيادة فمن أى باب من أبواب الجامع نصل إلى الإيوانات التى يتوسطها صحن كبير . وهنا تتجلى عظمة هذا الأثر الخالد الحافل بشتى الصناعات والفنون .

(١) النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١١

ولنيمم وجهنا شطر المحراب بالإيوان الشرقى، وهو عادة يكون أكبر الإيوانات وأكثرها أروقة وأحفلها زخرفا . وهذا هو شأن الإيوان المذكور، فهو يشتمل على خمسة أروقة، ويتوسط جداره الشرقى المحراب، وبه منبر وبه تاريخ إنشاء الجامع . وتوجد به محاريب طولونية وفاطمية ومملوكية .

ونظرة إلى المسقط الأفقى نرى أنه اشتمل على خمسة أروقة فى الشرق، ورواقين فى كل من باقى الإيوانات . وهذه الأروقة مكونة من دعائم مبنية بالطوب مقاس كل دعامة منها ٢٫٥٠ × ١٫٣٠ مخلق فى نواصيها الأربع عمد وتيجان تحمل عقودا ستينية، حليت حافاتها بزخارف جصية نباتية . وقد لجأ المهندس إلى التخفيف عن ظهر العقود فقتح فيها شبابيك خلقت بأكتافها عمد رشيقة، وحليت حافاتها بزخارف متنوعة .



الدعائم بالرواق الشرقى

واختيار المهندس هذه الدعائم بدل العمد برهن على حسن ذوقه فقد تخلص بها من العمد الرخامية المختلسة من هنا وهناك مع عدم تماثلها لا فى الطول ولا فى السمك . ونفذ رغبة طيبة لابن طولون حيث تورع عن أخذ العمد من الكنائس والأديرة المتخربة .

وقد اتبعت طريقة بناء الدعامات فى مشهد آل طباطبا، وفى جامع الحاكم بأمر الله .

ويعلو العقود إفريز زخرفى من الجص يعلوه إزار خشبي يحيط بأروقة الجامع مكتوب فيه بالخط الكوفى البارز سورتا البقرة وآل عمران . وقد جددت إدارة حفظ الآثار العربية السقف على مثاله القديم .

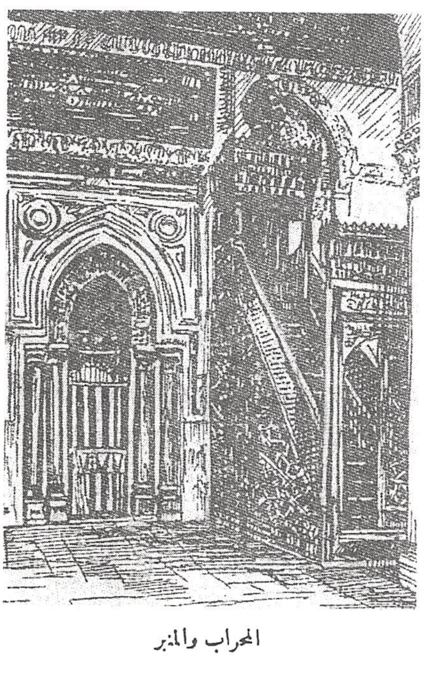
ولأول مرة يستعمل الأسمنت المسلح فى السقوف الأثرية ، فقد لجأ الى هذه الطريقة المغفور له محمود باشا أحمد المدير السابق للآثار العربية ، فعمل السقف بتقاسيمه القديمة من الأسمنت المسلح . ثم غلفه بالأخشاب القديمة والجديدة المطابقة للقديم .

ويحيط بجدرانه الأربعة من أعلى مائة وتسعة وعشرون شباكا من الجص مفرغة بأشكال هندسية وأخرى نباتية ، تنوعت أشكالها ، واحتفظت جميعها بزخارف أطرها الخارجية ، كما احتفظت بالكثير من زخارف باطن عقودها ، بينما طرأ تجديد على بعض حشوها المفرغ وبعض الأطر حولها المكتوبة والمنقوشة فى عهد الدولة الفاطمية ، وفى عمارة المنصور لاجين ، وفى العصر الحديث .

ويرى جناب الأستاذ كريسويل أنه ما زال بين طاقات الجامع ذات الشبابيك الجصية القديمة وهى ثمانون ، أربعة من طراز خاص ، قوام رسمها دوائر متشابكة . وهذا الشكل نفسه يرى فى زخرفة باطن العقود بجبل الطارات القبلى .

ولذلك يعتقد أن هذه الشبابيك الأربعة ترجع الى زمن ابن طولون ، وجميعها بجدار القبلة ، وهى التى تقع فى العد تحت رقم ٥ و٦ و١٥ و١٦ إذا عددنا الطاقات من الشمال الى اليمين[١] .

ويرى هرتس باشا أن زخرفة باطن شبابيك الجامع الطولونى هى عين زخرفة مدفن قلاوون . وهيكل المحراب طولونى مع السطر المكتوب بالكوفى أعلاه عدا التيجان الأربعة فوق عمده فهى من الرخام المفرغ كل اثنين منهما متشابهان ، وهى دقيقة الصنع من الطراز البيزنطى القديم .



المحراب والمنبر

(١) الجامع الطولونى ص ٥٨ — ٥٩

ويتجويف المحراب عصابة من الفسيفساء المذهّبة كتب بها بالخط النسخى : " لا إله إلا الله محمد رسول الله " وهذه الفسيفساء والطاقية الخشب بالمحراب ومقرنص القبة أعلاه من عمل المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) .

وبمناسبة الفسيفساء أنتهز هذه الفرصة لأنبه الى خطأ شائع ، وهو تسمية الرخام الدقيق بالمحاريب والوزرات بفسيفساء . والحقيقة أن الفسيفساء ما كانت من فصوص زجاجية صغيرة مذهبة وملونة . وهى صناعة بيزنطية استعان المسلمون فى القرون الأولى بعمال من بيزنطية على صناعتها ، فكانوا يُستقدمون الى دمشق والقدس والأندلس مع خاماتها لصناعتها . وفى تلك البلدان نماذج ممتعة منها وخاصة بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة وصحن الجامع الأموى ومحراب وقبة الجامع الكبير فى قرطبة .

كما ثبت أن جامع عمــرو بن العاص كان به فى القرن الرابع الهجرى « العاشر الميلادى » فسيفساء . هذا عدا ما كان موجودا منها فى الكنائس المسيحية .

غير أن النمــاذج القديمة بمصر انعدمت كلها ، وبقيت نمــاذج لا شك فى أن صناعتها دمشقية عملها عمــال من دمشق حذقوا هذه الصناعة مع تفاوت بينهــا وبين القديمة وهى نمــاذج محدودة فى أجزاء بسيطة من المحاريب تخللتها دوائر صدفية . فأقدم قطعة معروفة منها تلك التى فى طاقية محراب قبة شجر الدرّ سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) .

وفى سنة ١٩٣٦م اكتشفتُ قطعة جديدة هى طاقية محراب قبة الصالح نجم الدين سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) لم تكن معروفة من قبل . وفى طاقية محراب مدرسة قلاوون ســنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٤ م) ثم عصابة بمحراب الجامع الطولونى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) ثم فى تواشيح محراب المدرسة الطيبرسية سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) وفى طاقية محرابى المدرسة الأقبغاوية سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) . وأخيرا طاقية محراب مسجد الست حدق المنشأ سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) . وقد اكتشفتها فى شهر مايو سنة ١٩٣٧ .

المنـــبر — يجاور المحراب منبر خشبى جميل اتخذت حشواته من خشب الساج الهندى (التك) والآبنوس دقت بالأويمة الدقيقة بنقوش مورقة فى منتهى الدقة ، ليس هو المنبر القديم للجــامع ، بل هو من عمل الملك لاجين المنصورى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وهو الذى نقل المنبر القديم الى الجامع الظاهرى بالمنشاة على شاطئ النيل[1] . وقد تلاشى الجامع الظاهرى والمنبر ، ولم يبق لهما أثر .

أما منبر لاجين فقد بقى حتى سنة ١٨٤٥ م حينما عاينه ورسمه مستر جيمس ويلد[2] ، أمين متحف ســوان بلوندره ، ثم امتدت اليه الأيدى بالسلب والنهب . الى أن عنى المرحوم هرتس باشا بجمع

(١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج ٤ ص ١٢٠ (٢) تاريخ ووصف الجامع الطولونى ص ٩٥

حشواته من أوروبا ، وصور لحشوات أخرى استعان بها مع الباقى منه على إصلاح المنبر وإعادته الى أصـله . ومكتوب على بابه : " أمر بعمل هـذا المنبر المبارك مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين المنصورى فى العاشر من صفر سنة ست وتسعين وستمائة " .

والملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين المنصورى ولى ملك مصر بعـد[1] خلع الملك العادل كتبغا فى نصف صفر سـنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وهو الذى قام بعمارة كبـيرة فى الجامع تناولت إصلاحه إصلاحا شاملا و إصلاح شبابيكه . وعمل القبة أعلى المحراب ، والمنبر والمنارة والقبة بوسط الصحن . والسبيل الذى جدّده فيما بعد السلطان قايتباى فى الزيادة القبلية . وذلك وفاء لنذر نذره لتعمير هذا الجامع حينما اختفى فى منارته وهو خرب فى فتنة قتل الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، وقد وفى بنذره ، وعهد بإجراء هذه الأعمال الى الأمير علم الدين سنجر الدواداري[2] .

وبهذا الإيوان عدّة محاريب جصية غير مجوّفة ، منهـا اثنان بالدعامتين القائمتين بمنتصف حبل الطارات الثانى ممـا يلى الصحن الأيمن منهما ، وتحيط به زخارف دقيقة وكتابات كوفية منها : " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هـذا المحراب خليفة فتى مولانا وسـيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليـه وعلى آبائه الطـاهرين وأبنائه المنتظرين السـيد الأجل الأفضـل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين " .

وفى سطر صغير تحت السطر الأفقى ما نصه : " ثقـة الإمام فخر الأحكام القاسم عبـد الحاكم ابن وهيب بن عبد الرحمن" . وتحته سطر آخر مكتوب فيه : "لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولىّ الله" . وباقى الكتابات آيات قرآنيـة ، و بوسط عقده الأوسط مكتوب بخط كوفى كبير : " فاسجدوا لله واعبدوا " . وهذا المحراب يرجع الى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) .

أما المحراب الأيسر فهو تقليد للأيمن عمله المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وكتب عليه اسمه بالخط الكوفى بما نصه : " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هـذا المحراب المبارك مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين سلطان الإسـلام والمسلمين ... " . وقد تطرّق التلف الى هذا المحراب .

وفى الصف الرابع من حبـل الطارات بجـانبى دكة المبلّغ محـرابان آخران من الجص : الأيمن منهما طولونى ومكتوب عليه : "لا إله إلا الله محمد رسول الله" . وبه زخارف كبيرة مورقة شديدة

(١) ابن اياس ج ١ ص ١٣٦ (٢) ابن الفـرات ج ٨ ص ٢٢٩

البروز . والآخر فاطمى ومكتوب به : " لا إله إلا الله محمد رســول الله " ، وقد أحيط بزخارف مورقة مشرشرة .

ويوجد على يســار المحراب الكبير محراب جصى جميــل حافل بالزخارف والكتابات الكوفية والنسخية يرجع الى منتصف القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى . ومكتوب عليــه بالخط النسخ قوله تعالى : " قد نرى تقلب وجهك فى السماء " . الآية .

ومكتوب حول عقده بالخط الكوفى قوله تعالى : " فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " .

وتعدّد المحاريب رأيناه فى المساجد فى جميع عصورها . ويبدو لى أن الدافع الى عملها هو تعدّد المذاهب . يعزز هــذا الرأى ما أثبته ابن كثير من أن الصاحب تقى الدين بن مراجل ناظر الجامع الأموى بدمشق عمل فيه محرابين للحنفية والحنابلة سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م) .(1)

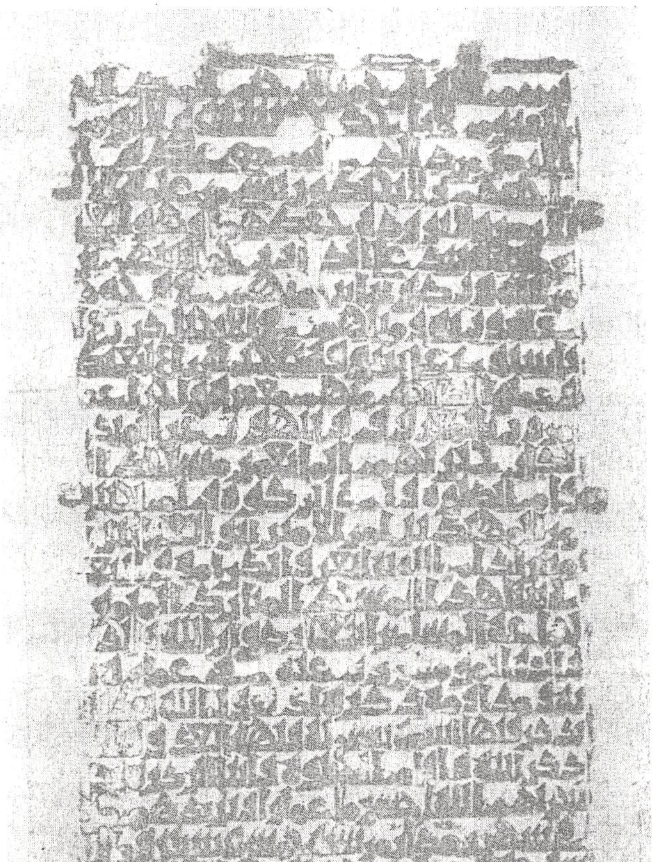
دار الإمارة — وعلى يمين المنبر باب كان يؤدّى الى دار الإمارة التى أنشأها أحمد ابن طولون وأثثها بالفرش والستور ، كانت مخصصة لنزوله حينما يذهب الى صلاة الجمعة فيجلس فيها ويجدّد وضوءه ثم يدخل منها الى مقصورة المسجد . وقد ذهبت هــذه الدار ولم يبق منها سوى مدخلها وبه بقايا كوابيل للسقف تمثل رأس فيل بنابيه . وهى طرفة نادرة .

ويلاحظ أن العقــود المحيطة بالصحن وما يتصل بهــا من عقود الايوانات كان باطنها محــلى بزخارف جصية بقيت منها ثلاث قطع فى الإيوان البحرى . أما الإيوان القبلى فقد احتفظ بالكثير من هذه الزخارف ، وكان محتجبا تحت البياض واكتشفته لجنة حفظ الآثار العربية . أما الموجود منها بالإيوان الغربى فحديث عدا العقد البحرى منه فان زخارفه قديمة .

ونظرة الى الزخارف القديمة الباقية بباطن العقود تكشف لنا عن عبقرية الصانع التى تجلت فيها . فهى مكوّنة من خطوط متقاطعة بداخلها زخارف مورّقة تنوّعت الى درجة أنهــا اختلفت فى كل عقد منها . ولم تقف عبقرية الصناع عند هذا الحدّ ، بل شملت زخارف الجامع بأكمله ، فبينما نرى الزخارف حول عقود الأروقة والشبابيك اتفقت ، نراها اختلفت وتنوّعت فيما حول عقود الطاقات بخواصر العقود وفى الإفريز الجصى أســفل السقف . وكما تنوّعت أشكال الشبابيك تنوّعت كذلك الزخارف فى باطن عقودها ، وفى أشكال التيجان الجصية والصرر المحلى بها وجه الصحن ، مما يدل

(1) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٠٤

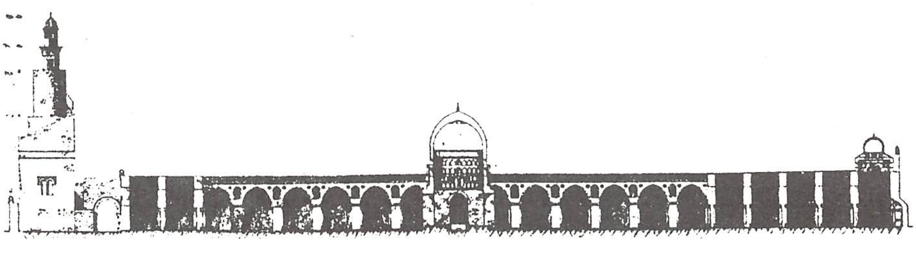
على أن هذه الزخارف عملت على بيتها حسب اصطلاح الصناع ولم يعمل لها فرم . وبذلك اشتمل هذا الجامع على أغنى مجموعة وأقدمها من الزخارف الجصية ، وعلى إحدى دعائم الإيوان الشرقى ثبت النصف الأول الذى عثر عليـه من اللوحة التـذكارية لإنشاء المسـجد مكتوبة بالخط الكوفى البسيط ونصها كاملا :



اللـــوح التاريخى

"بسم الله الرحمن الرحيم الملك الحق المبين الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعـلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم محمد رسول الله والذين معه أشـدّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من

الله ورضـوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التورئة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلوة وآتى الزكوة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أمر الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين أدام الله له العـز والكرامة والنعمة التامة فى الآخرة والأولى ببناء هذا المسجد المبارك الميمون من خالص ما أفاء الله عليه وطيبه لجماعة المسلمين ابتغاء رضـوان الله والدار الآخرة وإيثارا لما فيه تسنية الدين وألفـة المؤمنين ورغبـة فى عمارة بيت الله وأداء فرضـه وتلاوة كتابه ومداومة ذكره إذ يقول الله تقـدس وتعالى فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب فى شهر رمضان من سنة خمس وستين ومائتين سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلم على المرسلين والحمـد لله رب العالمين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمدا وآل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كأفضـل ما صليت وترحمت وباركت على إبراهيم ... ... وعلى آل إبراهيم وأنعم إنك حميد مجيد(١) » .



قطاع رأسى

القبة وسط الصحن — هذه ثالث قبة أقيمت فى هذا الصحن . فقد احترقت قبة الفوارة الأولى التى أنشأها ابن طولون . وقـد كانت مشبكة من جميع جوانبها وفوقها قبة مذهبة قائمـة على عشر عمد رخام يحيط بها ستة عشر عمودا فى جوانبها . وكانت مفروشة كلها بالرخام ، وتحت القبة

(١) الجامع الطولونى ص ٢٣ و ٢٤

قصعة من رخام سعتها أربعة أذرع فى وسطها فوارة . وفى السطح علامات الزوال، ولها درابزين من خشب الساج[1] . وقد احترقت هذه القبة سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٦ م) .

وهدمت الثانية وهى التى أنشأها العزيز بالله ، وقيل أمه تغريد،[2] سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) . وحلت محلها القبة القائمة الآن التى أنشاها المنصور لاچين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وهى قبة كبيرة مقاس كل من ضلعيها البحرى والقبلى ١٢,٧٥ مترا والشرقى والغربى ١٤,١٠ محمولة على أربعة عقود كانت شبابيكها محلاة من الخارج بزخارف وكتابات كوفية . وبرقبتها من الداخل كتبت آية الوضوء . ويتوسطها فسقية . ويسترعى النظر فيها وجود سلم فى سمك جدارها يوصل الى سطح قاعدتها المربعة .

المنارة — أقيمت المنارة فى الزيادة الغربية لصق حائط الزيادة على مسافة ٠,٤٠ سم وهى مبنية بالحجر مقاس قاعدتها ١٢,٧٨ متر × ١٣,٦٥ متر، وسلمها من الخارج بأربع قلبات يصعد منه إلى سطح فسلم حلزونى نصف دائرى يوصل إلى سطح آخر يرتكز عليه الجزء العلوى وهو على هيئة مبخرة . وهى المنارة الوحيدة فى مصر ذات السلم الخارجى وهى تشابه منارة سامرا .

وهذه المنارة موضع خلاف بين الأثريين، فالبعض يرى أن المنصور لاچين جدّدها سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) على مثالها القديم ضمن عمارته للجامع . بينما يرى البعض الآخر أنها لابن طولون عدا قمتها المثمنة فهى من عمل لاچين . واختلط الأمر على فريق ثالث فلم يجزم بشىء .

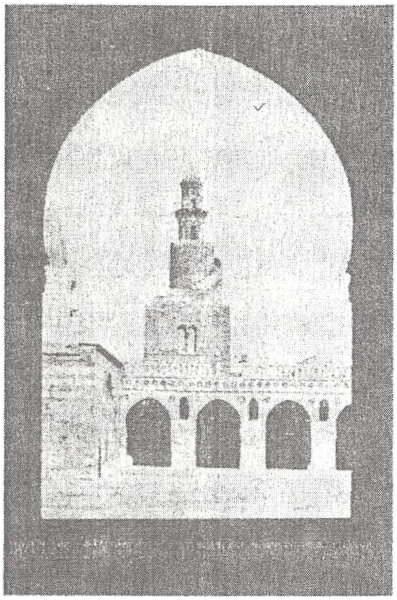
وحجة ما استبعد أنها من عمل لاچين أنه لم يبنها على طراز منارات عصره . ودليل من يجزم بأنها من تجديد لاچين أن العقدين الموجودين على شكل حدوة الفرس الذين يصلان المنارة بالمسجد يرجعان إلى زمن متأخر عن ابن طولون، ولأن هناك شباكين يقطعانهما فى مرورهما .

ويرى الأستاذ كريسويل بأن هذه العقود وعقدا من قبليهما بأول السلم وأربعة أزواج من العقود المسدودة بالوجوه الأربعة من المربع التحتانى من المنارة والأعمدة اللولبية المضلعة بها ظهرت لأول مرة فى مدرسة وتربة قلاوون .

وإذا ثبت أن المنصور لاچين اختفى بالمنارة[3] وكانت متخربة فهذا دليل على أنه أدرك بقايا منارة ابن طولون . وكونه أمر بعمل محراب له يطابق المحراب المستنصرى الفاطمى مخالفا فى ذلك طراز زخارف وقته، واستبداله بقاعدة كتابة النسخ الخط الكوفى دليل على أنه بنى المنارة التى اختفى فيها طبقا لأصلها الذى وجدها عليه ، وبنى قمتها التى كانت مفقودة على ما أرجح مثل قمة المنارات فى نهاية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

(١) المقريزى، ج ٢ ص ٢٦٨ (٢) ابن دقماق، ج ٤ ص ١٢٣ (٣) ابن الفرات، ج ٨ ص ٢٣٠

وفكرة عمله محرابا مطابقا للمحراب المستنصرى هى التى جعلت جناب الأستاذ كريسويل[1] يميل إلى أن المنارة من بناء السلطان لاچين . والمرجح أن أكبر قسم من المنارة كان موجودا وقتها فبناها على مثاله ، وإلا كان بناها طبقا لمنارات عصره .



المنارة

ويرى مسيو بتريكولو الباشمهندس الأسبق للآثار العربية أن المنارة[2] من بناء لاچين وهى مشيدة من أسفل إلى أعلى فى وقت واحد ، وعلى قاعدة واحدة . وذلك على أثر الاستكشافات التى أجراها بها فقد نقب البناء بعرض متر وسمك ثلاثة أمتار تقريبا فى الجانب الجنوبى من الكتلة المكوّنة للقاعدة بارتفاع الصفف التى على هيئة شباك فتبين أن البناء على امتداد سمك الثقب من نوع واحد . وأنه لا يوجد فاصل فى أجزاء البناء من خارجه أو داخله ، ولم تصادفه أى علامة يستدل بها على وجود بناء داخلى يسبق عهد البناء الخارجى .

العشارى — ذكر المقريزى وابن دقماق[3] أن المنارة كان عليها عشارى ، وأن ابن طولون قال أنه وجده فى كنز . وقد بقى هذا العشارى حتى سقط سنة ١١٠٥ هـ[4] (١٦٩٣ م) فهل أعاده لاچين أو عمله مثل عشارى قبة الشافعى ؟

المهندس — نأسف جدّ الأسف لخلو آثارنا من أسماء مهندسيها اللهم إلا النزر اليسير مما نلتقطه من بين السطور فى كتب التاريخ . ولذلك نرى الخلاف قائما على جنسية مهندس ابن طولون . فبينما نرى المقريزى يعبر عنه بالنصرانى نرى آخرين يرجحون أنه مهندس المقياس أحمد بن محمد الحاسب الذى قدم من العراق لبناء المقياس الجديد سنة ٢٤٥ — ٢٤٧ هـ (٨٥٩ — ٨٦١ م) بالروضة .

وسواء أكان نصرانيا أم الحاسب فكلاهما عراقى لأن نشأة ابن طولون كما أسلفنا كانت فى سامرا عاصمة العباسيين . ومن المعقول أن ينقل إلى مصر الثقافة الفنية العراقية التى نشأ فى ظلالها

(١) (Early Muslim Architecture — K.A.C. Creswell. Part II, p. 354-355) .

(٢) Bulletin du Comité, 1915-1919, p. 21. (٣) ابن دقماق ج ٤ ص ١٢٣ (٤) الجبرتى ج ١ ص ٢٥

فأدخل إلى وادى النيل أساليب العراق فى العمارة والفنون . وهذا التأثير نراه مجسما فى زخارف الجامع ومنارته .

أما الصناع فالغالب أنهم من أهل مصر، ويحتمل أن يكون بينهم عراقيون . ولم نعثر على اسم أحد منهم عدا بعض النجارين ، فقد عثرت على اسمى اثنين منهم : أحدهما محمد بن عبيد ، والآخر محمد بن ... مكتوبان على أجزاء من السقف القديم .

وبمناسبة الصناع أشير إلى السنة الحسنة التى أستنها ابن طولون فى بناء مسجده حينما عاينه فى شهر رمضان أثناء العمل فرأى العمال يشتغلون إلى وقت الغروب، فسأل : متى يشترى هؤلاء الضعفاء إفطارا لأولادهم ! وأمر بصرفهم وقت العصر . فاتخذ هذا سنة من وقتها .

رسم الجامع — لم نعثر حتى الآن على تصميمات عمارية قديمة للآثار ، ولكن وجدنا فى ثنايا التاريخ أن هناك رسوما كانت تعمل للعمارة قبل تنفيذها . أما ما يتعلق بالجامع الطولونى فقد ثبت أن مهندسه رسم الجامع على رق وعرضه على ابن طولون فأقره .

الأساس ومواد البناء — معلوم أن الجامع أقيم على جبل يشكر، ولذلك نرى أساسه فى حدوده القبلية على الصخر مباشرة ، بينما هو فى حدوده البحرية على عمق خمسة أمتار . والمواد المستعملة فى بنائه هى الطوب الأحمر ، وهى المادة الأساسية المستعملة فى المنشآت العمارية حتى أوائل الدولة الفاطمية .

أعمال الإصلاح — أجريت بالجامع عدة إصلاحات فى عصور مختلفة . منها عمارة بدر الجمالى الوزير الفاطمى سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) . وقد أثبتها فى لوح رخامى فوق باب بسور الزيادة البحرية ونصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معد أبى تميم الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين . أمر بتجديد هذا الباب وما يليه عند عدوان النار على ما أبدعه المارقون فيه السيد الأجل أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الإمام أبو النجم بدر المستنصرى أدام الله قدرته وأعلى كلمته ابتغاء ثواب الله وطلب مرضاته وذلك فى صفر سنة سبعين وأربعمائة . والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد النبى وآله الطاهرين وسلم تسليما "(١) .

ثم جاءت بعدها عمارة الخليفة الحافظ لدين الله سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) .

(١) Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe, vol. VII. p. 199,

وفى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) اتخذه المغاربة مأوى لهم ينزلون فيه عند مرورهم بمصر للحج[1] . وقد تشعث الجامع وتخرب وقتئذ ، كما اتخذ مخبزا . فقد جاء فى حوادث سنة ٦٦٢ هـ . (١٢٦٣ م) أن الظاهر بيبرس البندقدارى أمر أن يفرق على أرباب الزوايا كل يوم مائة أردب بعد عملها خبزا بجامع ابن طولون[2] .

عمارة السلطان حسام الدين لاچين المنصورى — هى أهم عمارة وأكبرها أجريت بالمسجد سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) أثبت تاريخها فى لوح خشبى فوق القبة مكتوب فيه :

" أمر بإنشاء هذه القبة المباركة والفسقية والساعات الشريفة مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاچين المنصورى فى سنة ست وتسعين وستمائة " .

وقد صرف على عمارته من خالص ماله ٢٠ ألف دينار[3] . وابتاع الملك المنصور من بيت المال منية أندونة من أرض الجيزة ووقفها على المدرسين والمشتغلين والموظفين فى الجامع . ورتب فيه دروسا للحديث والتفسير والفقه على المذاهب الأربعة ومدرسا للطب وأنشأ مكتبا وسبيلا .

وفى دولة الناصر محمد بن قلاوون ولى نظارته القاضى كريم الدين[4] الكبير، وأنشأ فيه منارتين على طرفى جداره الشرقى بناهما بالطوب، وكانتا أسطوانتى الشكل، هدمت الأولى فى القرن الثالث عشر الهجرى، والثانية البحرية الشرقية فى سنة ١٩٣٣ لخلل بهما .

وفى سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠م) أنشأ الحاج عبيد بن محمد بن عبد الهادى البازدار رواقا بجوار المنارة وجدّد ميضأة بجانب الميضأة القديمة ، وقد زالتا كما زالت التربة والمصلى اللتان أنشأهما الشيخ شرف الدين المدينى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤ م) فى عمارة سور الزيادة الغربية سنة ١٩٤٣

وفى القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) كان الجامع مهملا فأنشئ فيه مصنع لعمل الأحزمة الصوفية . وظل على إهماله حتى سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) فتحوّل الى ملجأ للعجزة والطاعنين فى السنّ تحت إشراف كلوت بك فلحق بالجامع تلف كبير .

عناية لجنة حفظ الآثار العربية بالمسجد — أدركت إدارة حفظ الآثار العربية هذا الجامع سنة ١٨٨٢ م . فوجدته مغلقا وعقوده مسدودة وسقوفه مفقودة وآيلة الى السقوط والدور تحجبه من جميع نواحيه ، ومنبره يكاد يكون معدوما ، وزخارفه مشوّهة ومحتجبة ، وتنقص منه الباكة المشرفة على الصحن بالإيوان الشرقى، فوجهت إليه عنايتها .

(١) المقريزى، ج ٢ ص ٢٦٨ (٢) السلوك، ج ١ قسم ٢ ص ٥٠٨
(٣) ابن الفرات، ج ٨ ص ٢٢٩ ، التحفة السنية ص ١٤٦ (٤) المقريزى، ج ٢ ص ٢٦٩

وفى المدة بين سنى ١٨٩٠ — ١٩١٨ قامت بإزالة الأبنية المستحدثة التى كانت بداخل الإيوانات وأزالت الأتربة والأنقاض . وأصلحت القبة التى فوق المحراب والمنارة الكبيرة والمنبر والشبابيك الجصية وجزء من السقف . كما قامت بالمحافظة على الزخارف الجصية وهدمت بعض الدور التى كانت تحجب الوجهة الشرقية للجامع وأصلحت المنارة البحرية الشرقية .

عناية المغفور له الملك فؤاد بالمسجد — فى سنة ١٩١٨ رغب المغفور له الملك فؤاد فى إعادة إقامة الشعائر الدينية فى الجامع فصلى فيه فريضة الجمعة فى ٢٢ رجب سنة ١٣٣٦ هـ (٣ مايو سنة ١٩١٨) وأمر بتخلية جوانبه وتميم إصلاحه .

وفى عهده تمت تخلية الوجهة البحرية للجامع وفتحت أبوابها وأصلحت أسوارها وأزيلت الأبنية المحدثة بالزيادة القبلية . كما أخلى قسم كبير من الوجهتين الشرقية والغربية ، وتم تبليط أروقة الإيوانات الغربية والبحرية والقبلية وأصلحت الزخارف الجصية بباطن العقود . وأصلح السبيل الموجود فى الزيادة القبلية وأزيلت الأتربة من الزيادات ومهدت هى والصحن ، وأعيد بناء الرواق المشرف على الصحن من الإيوان الشرقى ، كما عمل لجميع الأروقة سقف من الأسمنت المسلح برسم السقف القديم ، ثم غلفت بأخشاب أدخلت فيها الأجزاء القديمة ، وأعيد تركيب الإزار الكوفى فيها .

وقد بلغت نفقات هذه الاصلاحات نحو ٤٠,٠٠٠ جنيه كما بلغت نفقات نزع الملكية نحو ٤٥,٠٠٠ جنيه .

عناية الملك الصالح فاروق الأول بالجامع — وفى عهد الملك الصالح فاروق الأول أصلح كثير من الشبابيك الجصية كما أصلح المحراب المستنصرى ونزعت ملكية بعض الدور التى تلاصق الزيادة الغربية بجوار المنارة الكبيرة . كما بدأت مصلحة التنظيم فى نزع ملكية بقية الدور التى تحجب الوجهتين الشرقية والقبلية .

وما زالت أعمال الإصلاح جارية به . وهكذا يتم الفاروق — حفظه الله ورعاه — ما بدأه والده العظيم وينفذ رغبته . وسيتم فى عهده السعيد تخلية هذا الجامع العظيم وإصلاحه إصلاحا شاملا كاملا إن شاء الله .

الجامع الأزهر

ميدان الأزهر (*)

إذا كان جامع عمرو بن العاص أول جامع أسس بالفسطاط فالجامع الأزهر(1) أول جامع أسس بالقاهرة . ولكل منهما زعامته ورسالته العلمية .

قدم القائد جوهر الكاتب إلى مصر من قبل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فاتحا لها، فتم له ذلك بدون عناء فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ٦ يوليه (سنة ٩٦٩ م) .

وفى يوم الجمعة ٢٠ شعبان من هذه السنة توجه إلى الجامع العتيق (جامع عمرو) لأداء فريضة الجمعة ، وكان خطيبه يومئذ هبة الله بن أحمد، فخطب خطبة بليغة ختمها بالدعاء للمعز بما نصه :

« اللهم ارفع درجته وأعل كلمته وأوضح حجته واجمع الأمة على طاعته والقلوب على موالاته ومحبته واجعل الرشاد فى موافقته وورثه مشارق الأرض ومغاربها وأحمده مبادئ الأمور وعواقبها فانك تقول وقولك الحق : ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾ اللهم اجعل راياته عالية مشهورة وعساكره غالبة منصورة . وأصلح به وعلى يديه واجعل لنا منك واقية عليه(2) » .

ونحن بدورنا نردد هذا الدعاء للمليك المفدى فاروق الأول حفظه الله . ثم أنشأ جوهر(3) القصر الكبير وتأنق فى زخرفته وأثاثه، وأعده لنزول سيده المعز لدين الله، وأعد به سريرا مذهبا لجلوسه عليه .

ولما قدم المعز(4) لدين الله إلى القاهرة نزل فيه فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م). فصارت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة(5) .

(*) انظر الصور من رقم ١٧ — ٢٨ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) لفظة الأزهر تؤدى عدة معان منها : يوم الجمعة ، والقمر ، والمشرق الوجه .

(٢) اتعاظ الحنفا ص ٧٥

(٣) القائد جوهر — أبو الحسن جوهر بن عبد الله المعروف بالكاتب الصقلى ، عهد اليه المعز لدين الله بفتح مصر على رأس جيش كبير فتم له فتحها بدون عناء كبير وأقام بها متوليا إدارة شؤونها وجباية أموالها إلى أن عزله المعز لدين الله فى سنة ٣٦٤ هـ (٩٧٤ م) .

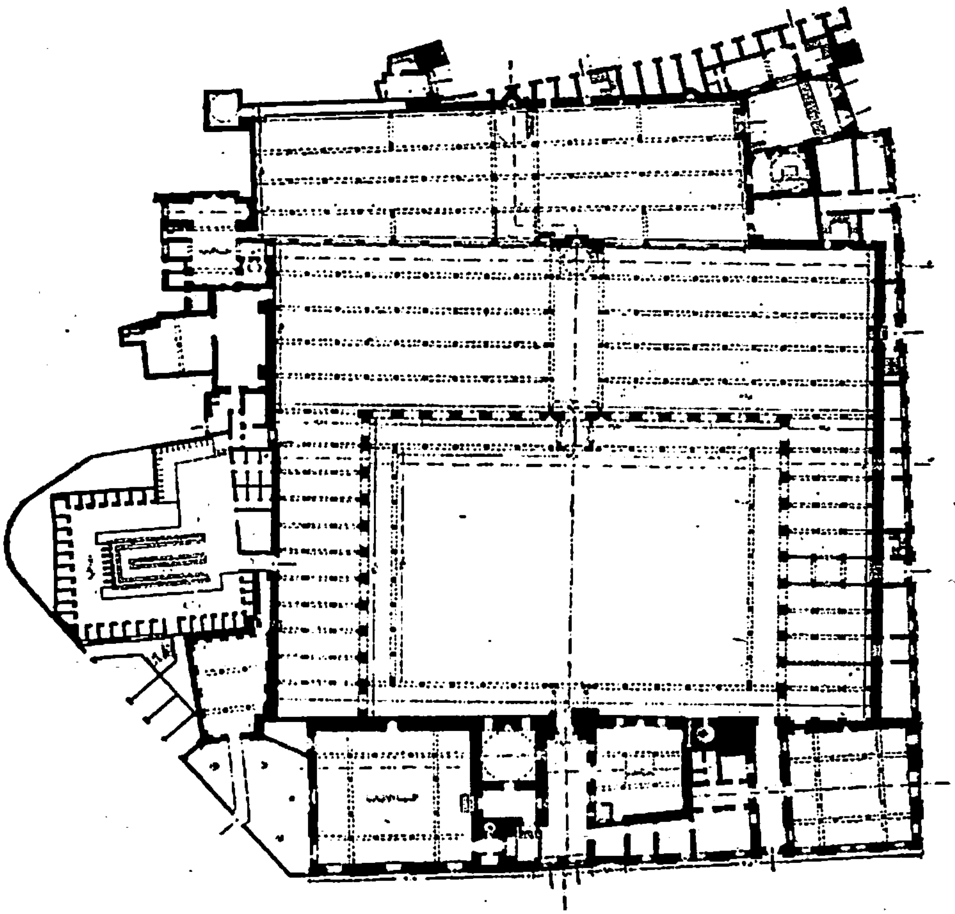
وفى خلافة ابنه العزيز بالله عهد إلى جوهر بقيادة جيش إلى دمشق فى سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ثم استبقاه فى خدمته إلى أن توفى سنة ٣٨١ هـ (٩٩٢ م) وكان أديبا حسن السيرة .

(٤) المعز لدين الله — مؤسس الدولة الفاطمية فى مصر، ورابع الخلفاء العبيديين بالمغرب . ولى الخلافة بعد أبيه المنصور بنصر الله سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) ، وهو الذى عهد إلى قائده جوهر بفتح مصر . ولما تم له فتحها كتب إليه يبشره ويستدعيه إليها وأنه أقام الدعاء له بها وبالشام والحجاز ، وكان قدومه إلى القاهرة فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) واتخذها مقرا لخلافته ، وبقى بها إلى أن توفى سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، وكان عاقلا حازما أديبا رحمه الله .

(٥) فضائل مصر لابن زولاق ص ١٦

وهذا القصر وباقى القصور الفاطمية كانت من عجائب الأبنية ، بل كانت مضرب الأمثال فى الفخامة . وقد أتحفنا المؤرخون بوصف خزائن القصور وما حوته من طرف قيمة مما لا يكاد يصدقه العقل .

إنشاء الجامع — وفى أثناء بناء القصر شرع جوهر أيضا فى بناء الجامع ليصلى فيه الخليفة وليكون مسجدا جامعا للقاهرة أسوة بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط . والجامع الطولونى بالقطائع .



مســقط أفــق

كذلك أعد ليكون معهدا لفئة معينة من الطلاب لتعليم الفقه الشيعى ونشره . فبدأ فى بنائه فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) . وانتهى العمل وأقيمت أول جمعة به فى ٧ رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢م) وعرف بجامع القاهرة . وكتب بدائر القبة التى فى الرواق الأول على يمين المحراب ما نصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى وذلك فى سنة ستين وثلثمائة " .

وقد اندثرت هذه الكتابة مع القبة أيضا غير أن الجامع الذى نراه اليوم ليس كله بالجامع الفاطمى الذى وضع أساسه جوهر، بل هو مجموعة من الآثار ضمت إليه فى أزمنة مختلفة سأتناولها بالشرح .

تصميم الجامع — كان مسقطه الأفقى وقت إنشائه مكونا من ثلاثة إيوانات حول الصحن، الشرقى منها مكوّن من خمسة أروقة . وبكل من الجانبين القبلى والبحرى ثلاثة أروقة . المشرف على الصحن منها قائم على أكتاف مبنية . أما الحد الغربى فلا أروقة به ويتوسطه الباب العمومى الذى كانت تعلوه المنارة ولعله كان بارزا عن الوجهة .

وقد فتحت بأعلى الجدران شبابيك جصية مفرغة بأشكال هندسية تتخللها مضاهيات مزخرفة أحيطت بافريز مكتوب فيه بالخط الكوفى المزخرف آيات من القرآن . وما زالت بقايا هذه الشبابيك تحدد الجامع القديم فى جدران إيوان القبلة الشرقية والقبلية والبحرية .

ويشطر الإيوان الشرقى مجاز يتجه مباشرة إلى المحراب ارتفعت عقوده كما ارتفع سقفه عن مستوى ارتفاعات الإيوان . وقد حليت حافات عقوده بآيات من القرآن مكتوبة بالخط الكوفى . كما حليت وجهات عقوده بزخارف نباتية مورقة .

وعقود هذا المجاز هى الباقية بهذا الإيوان من عقوده القديمة، بينما تغيرت باقى العقود غير مرة . وينتهى هذا المجاز إلى المحراب القديم .

ويعلو هذا المحراب قبة مملوكية ترجع الى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) حلت محل القبة الفاطمية القديمة . كما كان ينتهى طرفا هذا الإيوان بقبتين غير موجودتين الآن . ولكنا استخلصنا وجودهما من أمرين : أحدهما فنى، والآخر تاريخى .

أما الفنى فتصميم جامع الحاكم إذ اشتمل على ثلاث قباب . وأما التاريخى فقد أثبت المقريزى نصا تاريخيا كان مكتوبا على القبة التى فى الرواق الأوّل على يمين المحراب والمنبر . وكذلك ما جاء فى حجة وقف الحاكم بأمر الله على المسجد بما نصه : " ما قدر لصيانة القباب فوق السطح " .

هذا هو وصف جامع المعز لدين الله الذى أنشأه جوهر لسيده وعمل له ثلاثة أبواب فى جدرانه القبلية والبحرية والغربية .

العناية بالجامع وإصلاحه فى العصر الفاطمى — لم تمض على الجامع فترة حتى عنى بإصلاحه العزيز بالله بن المعز فجدّد فيه أشياء لعلها أعمال تكميلية . وحوالى سنة ٤٠٠ ﻫ (١٠٠٩ م) جدّده الحاكم بأمر الله، ووقف عليه وعلى جامع المقس والجامع الحاكمى ودار العلم أعيانا دوّنها فى وقفية كبيرة، خص الأزهر بحصة منها وزعت على مرافقه وشئونه استخلصت منها أنه كان للجامع قباب فوق السطح . وأنه خصص له تنورين وسبعة عشر قنديلا من فضة للاضاءة فى شهر رمضان . على أن تعاد لحفظها فى مكان خصص لها . وأنه إلى وقت الحاكم كان له صهريج وساقية ولم تعمل له دورة مياه .

وقد بقى من عمارة الحاكم بأمر الله باب ذو مصراعين من خشب شوح تركى به حشوات منقوشة . وارتفاعه ٣,٢٠ متر عليه اسم الحاكم، وبه أثر إصلاح ظاهر . ويبدو أن بعض حشواته حديثة الصنع خصوصا الحشوات الخفيفة الحفر . كما يلاحظ فيه انقلاب الحشوات المكتوبة عند إعادة تركيبها . وصحتها : " مولانا أمير المؤمنين الامام الحاكم بأمر الله صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه " . وهو مودع الآن بدار الآثار العربية .

وكذلك ينسب إلى الحاكم أو إلى العزيز بالله الزخارف والكتابات الكوفية الجصية بمؤخر الإيوان الشرقى من الداخل . وقد طغى عليها التجديد فشوّه أكثرها .

وممن عنى باصلاحه أيضا الخليفة الفاطمى المستنصر بالله . ولكن لم تحدّد ماهية هذه الأعمال . ولكنها لا تعدو أعمالا زخرفية أو تكميلية .

وفى سنة ٥١٩ ﻫ (١١٢٥ م) أمر الخليفة الآمر بأحكام الله أن يعمل للجامع محراب من الخشب فعمل . وهو محراب مزخرف بالنقوش بطرفيه عمودان رشيقان . وعظمه من خشب قرو تركى وتجويفته من فلق وتواشيحه من خشب جميز والحشوات من خشب نبق . ويعلوه لوح مكتوب فيه بالخط الكوفى :

" بسم الله الرحمن الرحيم حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا . مما أمر بعمل هذا المحراب المبارك[1] برسم الجامع الأزهر الشريف بالمعزية القاهرة مولانا وسيدنا المنصور أبى على الامام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ابن الامام المستعلى بالله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين وعلى آبائهم الأئمة الطاهرين بنى الهداة الراشدين وسلم تسليما الى يوم الدين فى شهور سنة تسع عشرة وخمس مائة الحمد لله وحده " .

(١) فى الأصل المبراك .

بق الجامع على حالته حتى تراءى للخليفة الحافظ لدين الله على ما أرجح أن يزيد فيه فى المدة بين سنى ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ (١١٢٩ — ١١٤٩ م) فلم يجد متسعا سوى الصحن . فأضاف اليه رواقا يحيط به من جوانبه الأربعة وقبة على رأس المجاز . حفلت جوانبها وقطبها بالزخارف والكتابات الكوفية . وكلها آيات من القرآن ، منها آية الكرسى ، وآيات من أول سورة يس .

ومكتوب أعلى المقرنص : "بسم الله الرحمن الرحيم إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض الى قوله تعالى : آدعوا ربكم تضرعا وخفية" .

وقد حفلت هذه الكتابات بزخارف جميلة . وهى من أرق نماذج الخط الكوفى فى العصر الفاطمى .

وتعتبر هذه القبة أقدم قبة نقشت من الداخل . و إن كانت قد سبقتها قبة مشهد الجيوشى بالمقطم إلا أن النقش فيها اقتصر على قطب القبة . فقد كتب فيه "محمد" بشكل زخرفى مكرر .

وطريقة إضافة رواق على الصحن هى إحدى التأثيرات التى دخلت الى مصر من بلاد المغرب ، فقد رأيتها فى مساجد عقبة بالقيروان ، والجامع الكبير بسوسة ، والزيتونة بتونس . وتعرف هناك بالمجنّبات .

و بمناسبة العقود المعروفة بالفارسية حول هذا الصحن وطرزها ، أحب أن أنبه الى خطأ شائع هو أن هذه العقود ظهرت بظهور الدولة الفاطمية بمصر . والحقيقة أن عقود الدولة الفاطمية تقرب من عقود الجامع الطولونى كما هو مشاهد فى عقود المجاز بالجامع الأزهر ، وفى عقود الجامع الحاكمى . وحقيقة كان أول ظهور لهذا العقد فى الدولة الفاطمية ، ولكن فى منتصف حكمها حيث نراه لأول مرة فى قبة بدر الجمالى حوالى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) . ثم شاع بعد ذلك فى العمائر الفاطمية .

والآن وقد انتهينا من الأعمال الفاطمية بالأزهر يجدر بنا أن نلقى نظرة على ما بقى به من تفاصيل فاطمية . وهذه التفاصيل تنحصر فى :

(أولا) عقود المجاز بجانبيه وما اشتملت عليه من زخارف وكتابات كوفية بحافتها . وترجع الى عصر إنشاء الجامع .

(ثانيا) الزخارف والكتابات حول الشبابيك الجصية الباقية فى الجنب القبلى ، وفى أول الجنب الشرقى ، وفى الجنب البحرى . وكلها من عصر إنشاء الجامع وتبين حدوده الأصلية .

(ثالثا) المحراب الكبير بكتاباته ونقوشه ، وهو المحراب القديم للمسجد . وقد كان محتجبا لمدة سبعة قرون حتى تم كشفه فى يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ، وقد كان لى شرف اكتشافه . فأزيلت الكسوة الخشبية التى كانت تكسو طاقيته فظهرت نقوشه وكتاباته . فيقرأ حول العقد من الخارج

بالخط الكوفى المزهر قوله تعالى : " قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون " . و بالعقد الداخلى بالخط الكوفى المزهر الصغير قوله تعالى : " قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له و بذلك أمرت وأنا أول المسلمين " .

وكان بحنية الطاقية زخارف جصية بارزة مذهبة على أرضية خضراء ، تلفت عند تغطيتها بالخشب و بقيت تفاصيلها .

(رابعا) زخارف وكتابات مؤخر الجامع من الداخل ترجع الى عصر الحاكم بأمر الله لاتفاقها مع زخارف الجامع الحاكمى . وقد طغى التجديد عليها . كما طرأ تغيير على عقود طرفيه فى عمارة الحافظ لدين الله فقد حولت الى عقود فارسية .

(خامسا) القبة على رأس المجاز وقد احتفظت بنقوشها وكتاباتها الكوفية . وترجع الى عصر الحافظ لدين الله .

أما الزخارف والكتابات حول الطاقات بوجه عقود الصحن فانها حديثة عملت سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) . كما أن قبة المجاز والعقود حول الصحن أجريت بها إصلاحات كثيرة .

بدء التدريس — كان أول درس ألقى بالجامع الأزهر فى شهر صفر سنة ٣٦٥ هـ [(١)] (٩٧٥ م) إذ جلس على بن النعمان القاضى وأملى مختصر أبيه فى فقه الشيعة . و يعرف هذا المختصر بالاختصار .

وفى سنة [(٢)] ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) طلب الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلّس من الخليفة العزيز بالله أن يصل رزق جماعة من الفقهاء فقرر لهم مرتبات ، وأعد دارا لسكناهم بجانب الجامع الأزهر . فاذا كان يوم الجمعة حضروا الى الجامع وعقدوا حلقات دروسهم بعد الصلاة الى صلاة العصر . وكانت عدتهم خمسة وثلاثين رجلا . كما ألف ابن كلّس كتابا فى فقه الطائفة الاسماعيلية كان يجلس لقراءته بنفسه . ولما بنى العزيز بالله مسجده المعروف بجامع الحاكم سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) أذن للفقهاء الموجودين [(٣)] بالجامع الأزهر أن يعقدوا حلقات دروسهم فيه .

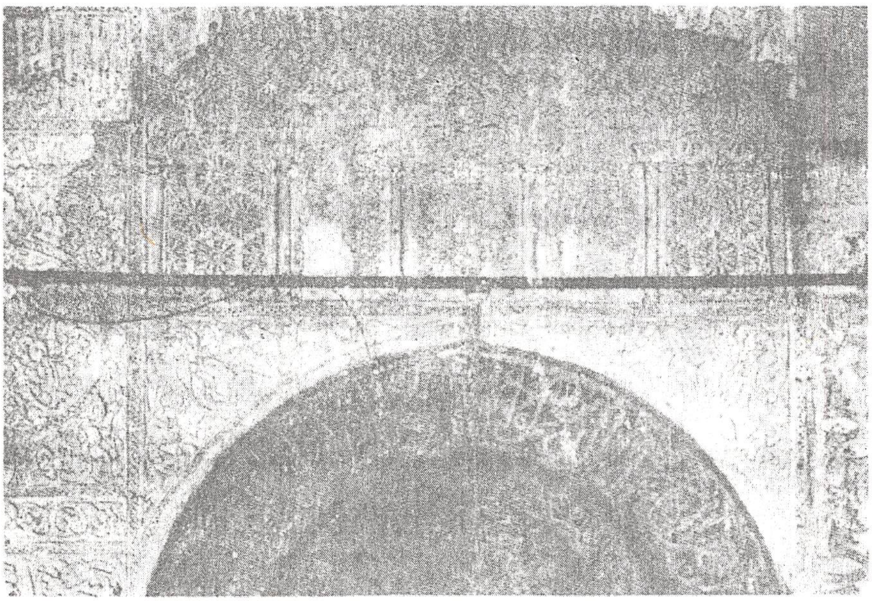
الأزهر فى الدولة الأيوبية — لقد أفل نجم الأزهر فى الدولة الأيوبية إذ وجه ملك مصر صلاح الدين يوسف الأيوبى همته الى محاربة الشيعة ومؤازرة المذهب السنى ، فأبطلت الخطبة [(٤)] من الجامع الأزهر عملا بمذهب الشافعى وهو امتناع إقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد اكتفاء

(١) المقريزى ج ٢ ص ٣٤١ (٢) المقريزى ج ٢ ص ٢٧٣ (٣) المقريزى ج ٢ ص ٢٧٧

(٤) المقريزى ج ٢ ص ٢٧٥

باقامتها بالجامع الحاكمى . وظلت معطلة فيه مائة عام الى أن أعيدت اليه فى أيام السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى .

والذى يسترعى النظر فى أخبار هذه الحقبة ما علمناه فى حوادث سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) من أنه كان للجامع زيادة . لأن المحتسب (١) هدم فى هذه السنة حوانيت واصطبلا كان صدر الدين بن درباس أنشأها فى زيادة الجامع الأزهر بجوار داره .



الزخارف المملوكية أعلى المحراب

دولتا المماليك البحرية والجراكسة — لقد عنى ملوك وأمراء هاتين الدولتين بالجامع الأزهر وتباروا فى إصلاحه والزيادة فيه . ففى يوم الجمعة ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) أقيمت فيه صلاة الجمعة ، بسبب أن الأمير عز الدين أيدمر (٢) الحلى كان مجاورا للجامع ، فاستأذن السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فى عمارته فأذن له ، وتبرع له بجملة من المال ، كما أمر بعمل منبر له لم يبق منه إلا لوحته التاريخية المحفوظة بمتحف الجزائر ونصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمل هذا المنبر المبارك لجامع الأزهر مولانا السلطان الملك الظاهر المجاهد المرابط المؤيد المنصور ركن الدنيا والدين أبى الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين

(١) السلوك ج ١ ص ١٢١ (٢) المقريزى ج ٢ ص ٢٧٥

بالديار المصرية أعز الله أنصاره بتاريخ الثالث عشر من ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية " .

وقد تناولت هذه العمارة إصلاح ما وهى من جدرانه ، وتبييضه وتبليطه وبعض إصلاحات أخرى . وقد بقى من هذه العمارة الزخارف الجصية الدقيقة التى تعلو المحراب القديم ، والكسوة الخشبية التى كانت تغطى طاقيته بزخارفها .

وقد تبرع الأمير بيليك الخازندار بعمل مقصورة كبيرة ، عين فيها بعض الفقهاء[1] لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعى، ومحدثا للحديث النبوى . ومن ذلك الوقت بدأ الأزهر يشارك بقية مدارس مصر والقاهرة فى أداء رسالته العلمية .

وعلى أثر زلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) عنى الأمير سلار بعمارة الجامع . ثم توالت عليه الرعاية والاصلاح . فأصلحه القاضى نجم الدين محمد بن حسين الأسعردى محتسب القاهرة سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٤م)، والأمير سعد الدين بشير الجامدار الذى أزال منه الصناديق والخزائن التى كانت تشوهه، وذلك فى سنة ٧٦١ هـ (١٣٥٩ م)، وأنشأ سبيلا وكتابا عند الباب القبلى للجامع .

المماليك الجراكسة — لما ولى الأمير الطواشى بهادر مقدم المماليك[2] السلطانية نظر الجامع ، آستصدر مرسوما من الملك الظاهر برقوق ، بأن من يموت من مجاورى الأزهر من غير وارث شرعى وترك ثروة ، تؤول ثروته الى مجاورى الجامع . ونقش ذلك على حجر ثبته عند الباب الكبير الغربى .

وقد عثرت على هذا المرسوم وهو منقوش على لوح رخامى، آحتفظت به فى المسجد ونصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم رسم بالأمر الشريف السلطانى الملكى الظاهر أبو سعيد برقوق عز نصره أن يكون موجود من يتوفى الى الله تعالى من الفقراء المجاورين وأرباب وظايفه ولم يكن له وارث شرعى يكون لصالح جامع الأزهر بمقتضى العلامة الشريفة بتاريخ سابع شهر ربيع الأول سنة آثنين وتسعين وسبع مائة " .

وفى سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧م) هدمت منارة الجامع وكانت قصيرة، وبنيت مكانها منارة جديدة أطول منها، كان الفراغ من عمارتها فى شهر ربيع الآخر سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ م) . وقد بقيت هذه المنارة حتى هدمت فى شهر شوال سنة ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) لظهور خلل بها .

---

(١) المقريزى ج ٢ ص ٢٧٥ (٢) مقدم المماليك : المشرف على منار المماليك وعلى تربيتهم .

ولأجل بنـاء منارة حجرية أخرى فوق الباب الغربي للجامع ، هدم الباب المذكور وأعيد بناؤه بالحجر ، وأقيمت المنارة الجديدة فوق عقده[1] . غير أن هـذه المنارة أيضا لم تعمر كثيرا فهدمت سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) لظهور خلل بها وأعيد بناؤها .

وهنا نلاحظ أنه لم يرد ضمن العمارات التى أجريت بالجامع منذ العصر الفاطمى حتى سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ م) ، عمل ترميم أو إصلاح فى منارته ، ممـا يعزز وجود منارته القديمة دون أن يؤثر عليها زلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) لأنها كانت خفيفة وقصيرة كما قيل فى وصفها .

وكذلك أكدت الحوادث أنها كانت فوق البـاب (الغربى) للجامع شأن المنارات الفاطمية ، وهو الباب الذى جدده السلطان قايتباى وأقام منارته بجواره[2] .

وفى شهر شوّال سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) شرع الملك الأشرف برسباى[3] فى عمل صهريج بالصحن تم بناؤه فى صفر سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٥ م) . وهذه العملية أظهرت آثار فسقية كانت بالصحن .

وأهم العمارات التى أجريت فى دولة المماليك الجراكسـة العمارة التى أجراها السلطان قايتبـاى سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) ، فقد هدم بابه الكبير الغربى وهو الباب القديم للجامع الذى كانت تعلوه المنارة ، وجدده على ماهو عليه الآن ، وأقام على يمينه منارة رشيقة .

وهـذا الباب والمنارة من طرف العمارة الاسـلامية ، فقد حفل الباب بنقوش وكتابات كوفية مزخرفة نصها : " بسم الله الرحمن الرحيم . وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا . الى قوله تعالى فادخلوها خالدين " . والخط الكوفى بهذه القاعدة نادر جدًا فى أبواب هذا العصر .

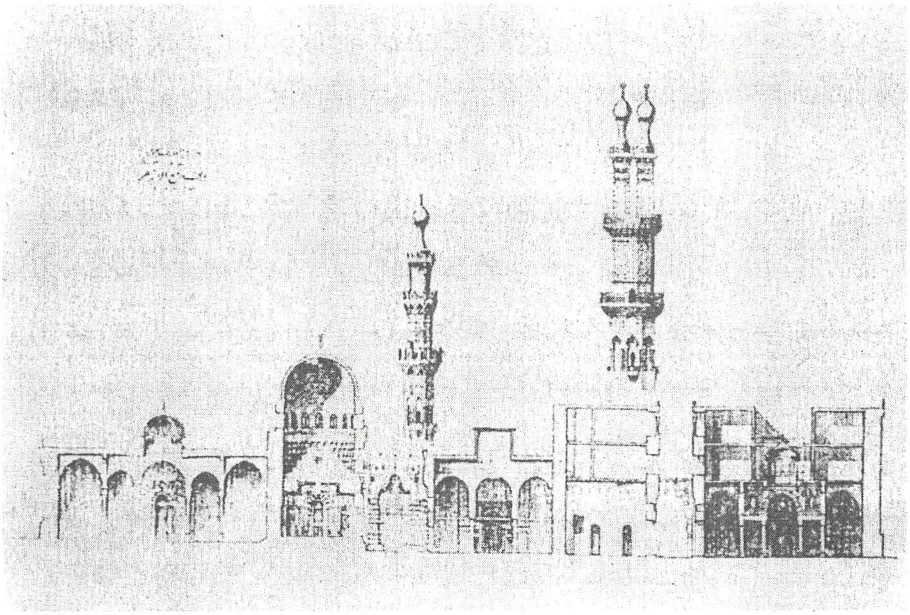
وكذلك حفلت المنـارة بنقوش وكتابات نسخية وكوفيـة ، وهى مكونة من ثلاث دورات ، وامتازت بدقة الصناعة وجمال التناسب .

وفى سـنة ٨٨١ هـ (١٤٧٦ م) زار السلطان قايتباى الجامع الأزهر[4] ، وأمر بالسـير فى ترميمه وإصلاحه ، كما أمر بهدم الخلوات التى كانت بالسطح ، وتجديد دورة المياه .

وفى سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٥ م) أذن السلطان قايتباى للخواجا[5] مصطفى بن الخواجا رستم ، بإجراء إصلاحات بالجامع وعمل مقصورة خشبية على وجه الإيوانات الثلاث حول الصحن ، وأثبت هذه العمارة فى لوحة تاريخية مكتوب فيها :

(١) المقريزى ج ٢ ص ٢٧٦ (٢) الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠٩ (٣) النجوم الزاهرة ج ٦ قسم ٢ ص ٥٨٠ (٤) ابن إياس ج ٢ ص ١٦٩ (٥) ابن إياس ج ٢ ص ٢٨٥

" أمر بتجديد هـذا الجامع سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى على يد الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود بن الخواجا رستم غفر الله لهم بتاريخ شهر رجب عام إحدى وتسعمائة " .



قطاع رأسى

وفى سنة ٩١٥ هـ (١٥١٠ م) أمر السلطان قانصوه الغورى ببناء منارة للجامع ، تلك المنارة الضخمة ذات الرأس المزدوجة (١) . وهى منارة عالية امتازت بتلبيس القاشانى ببدن دورتها الثانية . كما امتازت بوجود سلمين فيما بين دورتيها الأولى والثانية لا يرى الصاعد فى أحدهما الآخر . وهى إحدى النكت الفنية فى العمارة الإسلامية .

ولهذا السلم مثلان آخران أحدهما فى منارة قوصون والآخر فى منارة أزبك اليوسفى . وإذ قد انتهينا من أعمال الاصلاح فى الأزهر الى نهاية دولة المماليك الجراكسة ، فنورد المنشآت التى أضيفت اليه ، ثم نتبعها بالاصلاحات التى عملت فى العصر العثمانى لأنها تشملها أيضا .

المدرسة الطيبرسية — هذه المدرسة على يمين الداخل الى الجامع الأزهر ، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى ، نقيب الجيوش فى دولة الناصر محمد بن قلاوون ، وجعلها مسجدا

(١) ابن إياس ج ٣ ص ٦٢

لله تعالى زيادة فى الجامع الأزهر، وقرر بها دروسا للفقهاء الشافعية، وألحق بها ميضأة وحوضا لشرب الدواب. وانتهت عمارتها سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م).

ويقرر المقريزى أن الأمير طيبرس عنى برخامها[1] وتذهيب سقوفها، بدرجة أن أحدا لا يمكنه محاكاة ما فيها من صناعة الرخام، فإن جميعه أشكال محاريب. وألحق بها مكتبة.

وهذا الوصف كشف لنا عن عبقرية المقريزى فى الناحية الفنية، فإن صناعة الرخام فى محراب هذه المدرسة، من أدق ماوجد من نوعها وأندره، فالجزء الأسفل منه مكوّن من طاقات مقرنصة، محمولة على عمد رخامية صغيرة، لها تيجان رخامية أيضا. وتواشيحها من رخام مدقوق به فروع زخرفية بارزة، وباقى المحراب من رخام أبيض لبّست فيه ألوان الرخام بأشكال زخرفية، وحلّيت تواشيحه وأعلاه بفسيفساء مذهبة. وهو محراب قيم لم يبق منها سواه والوزرة بجانبيه. كما بقيت شبابيكها النحاسية المفرغة بأشكال هندسية. وتعتبر ثانى أنموذج من النحاس المصبوب، إذ الأول فى شبابيك قبة الصالح نجم الدين.

وقد اشتهر الأمير طيبرس بحسن السيرة، وبقى فى نقابة الجيش الى أن توفى فى ٢٠ ربيع الآخر سنة ٧١٩ هـ (١٣١٩ م) ودفن فى مكان بمدرسته باق حتى الآن، وعليه قبة بسيطة.

ومما يؤثر عنه أنه لما فرغ من بناء هذه المدرسة، أحضر اليه المشرفون على عمارتها حساب مصروفها، فلما قدّم اليه استدعى طستا فيه ماء وغسل أوراق الحساب كلها، من غير أن يقف على شيء منها، وقال: شيء خرجنا منه لله تعالى لا نحاسب عليه.

وهذا يذكرنى بما فعلته السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد حينما عرضت عليها مصاريف عين الماء التى أجرتها الى مكة، إذ أخذت الدفاتر وألقت بها فى النهر، وقالت: تركنا الحساب ليوم الحساب[2]. وبما فعله السلطان أبو الحسن، أحد ملوك المغرب، لما فرغ من بناء مدرسته بمكناسة الزيتون، فانه جلس على كرسى أمام صهريجها، وجيء بالحساب المتضمن نفقات البناء، ففرقه فى الماء دون أن يطلع عليه[3].

المدرسة الأقبغاوية: هذه المدرسة على يسار الداخل الى الجامع، وبها الآن مكتبة الأزهر، أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد، أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، سنة ٧٤٠هـ (١٣٤٠م). وعهد بإنشائها الى ابن السيوفى، رئيس المهندسين فى أيام الناصر محمد بن قلاوون.

(١) المقريزى ج ٢ ص ٣٨٣ (٢) نزهة الجليس ج ١ ص ٢٠
(٣) الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى ج ٢ ص ٨٧

والباقى من قديمها الآن مدخلها ووجهة القبة ومحرابها، ومحراب المدرسة والمنارة، وقد أكملت إدارة حفظ الآثار العربية قمة المنارة سنة ١٩٤٥ ،وهذه البقايا تدل على أنها كانت مدرسة حافلة بشتى الصناعات ، لجمال بابها بعمده ونقوشه، ودقة رخامها والفسيفساء المذهبة بمحاريبها . ومكتوب على بابها تاريخ البدء فى عمارتها بمـا نصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم إنمـا يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . أمر بإنشاء هـذه المدرسة المباركة المقـر الأشرف العالى السيفى أقبغا الأوحدى أستاد الآدر العالية الملكى الناصرى . وكان ابتداء العمل المبارك فى شهور سنة تسع وثلاثين وسبعمائة " .

ومكتوب بداخل القبة وعلى المنارة تاريخ الفراغ منهما سنة ٧٤٠ ﻫ (١٣٣٩ م) .

واختيارهذين الأميرين لإنشاء مدرستيهما لصق الوجهة الرئيسية للجامع ، يجعلنى أميل الى أنها كانت فى منتهى البساطة . ولم تكن أكثر من سور به شبابيك علوية، ثم شرفة كما نرى فى الجامع الطولونى.

المدرسة الجوهرية : هذه المدرسة فى الطرف الشرقى البحرى عند باب السر للجامع الأزهر، أنشاها الأمير جوهر القنقبائى، خازندار (١) الملك الأشرف برسباى. وكان إنشاؤه لها فى سنيه الأخيرة. ولمـا توفى سنة ٨٤٤ ﻫ (١٤٤٠ م) دفن فى المدرسة (٢). وهى مدرسة صغيرة، ولكنها اشتملت على جميع تفاصيل المدرسة ، لاشتمالها على أربعـة إيوانات يتوسطها صحن مفروش بالرخام الملون، كما كانت الإيوانات مفروشة بالرخام الدقيق الملون مثل الإيوان القبلى .

وقد حرص مهنـدسها على المضاهاة، فلم يترك بابا ولا دولابا إلا فتح أمامه ما يضاهيه . وبها شبابيك جصية ملونة، كما عنى بتطعيم نجارة الدواليب والأبواب بالسن .

أما ضلف الشبابيك فقد حليت بزخارف حفرت فى وجهها، تقليدا لأبواب المدرسة الظاهرية.

وفى الطرف القبلى الغربى قبة صغيرة حجرية ، لعلها أصغر قبة فى الآثار الاسلامية بمصر بعد قبة المدرسة القاصدية، فرشت أرضيتها بالرخام على شكل محراب ، و يتوسطها قبر المنشئ،وقد حلى سطح القبة بزخارف مورقة تعتبر من بواكير زخرفة القباب .

العصر العثمانى : كان للأزهر نصيب كبير من ولاة مصر وأعيانها فى العصر العثمانى ، فقـد أجريت به أعمال ترميمية ووقفت عليه أوقاف كثيرة . فقد قام بعمارته سـنة ١٠٠٤ ﻫ (١٥٩٥ م) والى مصر السيد محمد باشا (٣) .

(١) خازندار : وظيفتـه الإشراف على خزينة الملك أو الأمير . (٢) الضـوء اللامع للسخاوى ج ٣ ص ٨٢

(٣) الروضة المأنوسة .

وفى ســنة ١٠١٤ هـ (١٦٠٥ م) أجرى به الوزير حسن باشا والى مصر إصــلاحات ، وعمّر رواق الحنفية[1] . وكذلك أصلح سقفه الأمير إسماعيل بك بن ايواظ بك القاسمى المتوفى سنة ١١٣٦ هـ (١٧٢٣ م)[2] .

وفى ســنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) أنشأ الأمــير عثمان كتخدا زاوية للعميان خارج الأزهر . وقــد هدمت أخيرا . وعمر رواق الأتراك ورواق السليمانية (الأفغانيين) وزاد فى رواق الشــوام ورتب لذلك مقررات[3] خيرية .

وفى ســنة ١١٦٣ هـ (١٧٤٩ م) أهداه مزولتين الوزير أحمد باشا كور والى مصر ما زالتا به . وإحداهما مركبة فى الوجهة الغربية للصحن ، ومكتوب عليها :

مزولة متقنـــة * نظـيرها لا يوجد
راسمهـا حاسبهـا * هذا الوزير الأمجد
تاريخهـا أتقنهـا * وزير مصر أحمد
ســـنة ١١٦٣ هـ

وكانت أكبر عمــارة أجريت به تلك التى قام بهـا الأمير عبد الرحمن كتخدا ســنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) ، فقد زاد فى الجامع الأزهر مساحة كبيرة ، بإضافة الأروقة خلف المحراب القديم . وقــد جددها الخديو توفيق باشا سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) . وباقٍ بها محراب من الرخام الدقيق على يساره قطعة مثمنة من الرخام مكتوب فيها بالكوفى المربع الله محمد وأسماء العشرة المبشرين بالجنة . وفوق المحراب قبة ، وبجواره منبر خشبي . ويجاور هــذا المحراب محراب آخر صغير عرف بمحراب الدردير ، بالقرب منه محراب حديث ، أحدثته إدارة حفظ الآثار العربية لتركيب الكسوة الخشبية التى كانت تغطى المحراب القديم .

وفى النهاية القبلية لهــذا الإيوان يوجد باب يؤدّى إلى قبــة أنشأها الأمير عبد الرحمن كتخدا . ودفن فيها سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) . وأمامها سبيل ، ثم باب الصعايدة الذى أنشأه ، وأنشأ منارة بجواره ، ثم أنشأ باب الشوربة فى الطرف الشرقى البحرى ، وأنشأ منارة بجواره .

ومن أعماله بالجامع أيضا تجديد وجهة المدرسة الطيبرسية ، وأبقى بها شبابيكها النحاسية ودائرة من القاشانى بها : " الملك لله وحده " . وأنشأ الباب الغربى الكبير الرئيسى للأزهر . وهو محلى بكتابات وزخارف دقيقة فى الحجــر والرخام يسترعى النظر فيها براعة الخطاط فى كتابة " الصــلاة عماد الدين

(١) الروضة المأنوسة . (٢) الخطط الجديدة ج ٤ ص ١٢ ، الجبرتى ج ١ ص ١١٤
(٣) الجبرتى ج ١ ص ١٦٨ ، الأزهر للأستاذ محب الدين الخطيب ص ٢٠

عجلوا بالصلاة قبل الفوت " بشكل زخرفي نادر، وكان يعلوه كتاب ويجاوره منارة . وبهذا الباب ضمت المدرستان الطيبرسية والأقبغاوية إلى الأزهر [1] . وقد هدم الكتاب والمنارة وفكت مبانى الباب وأعيد بناؤه فى سنة ١٨٩٦ م، عند توسعة الشارع وبناء الرواق العباسى .

وألحقت بالجامع عدة أروقة للمذاهب ، ولأهالى البلاد الاسلامية والبلاد المصرية ، رصدت عليها عدة أوقاف من أمراء مصر وسراتها .

أثر البيت العلوى فى الجامع الأزهر — للأسرة الملكية على هذا المعهد مآثر جليلة وأياد بيضاء . ولا يسعنى قبل أن أمضى فى الحديث إلا أن أسجل لأميرات هذا البيت الكريم ما أسدينه من الخير للأزهر ، فقد وقفت عليه المرحومة الأميرة زينب هانم، كريمة المغفور له محمد على باشا، أوقافا كثيرة تبلغ عشرين ألف جنيه .

ووقفت المرحومة الأميرة جميلة هانم، كريمة المغفور له إسماعيل باشا، أوقافا عظيمة .

ولقد مضى على تأسيس الجامع الأزهر ألف سنة ، كان فيها موضع رعاية ملوك مصر وأمرائها ، ولكنها لا تعدو المنن الفردية ، أما البيت العلوى الكريم فقد تتابعت مآثره على هذا الجامع العظيم منذ حوالى ١٤٥ سنة .

المغفور له محمد على باشا — من مآثره أنه فى سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) أجرى إصلاحات بالأزهر، وأنشأ به رواق السنارية بالتماس الشيخ محمد وداعة السنارى [2] .

وكان موضع رواق الحنفية بيوت مملوكة لأصحابها اشتراها المرحوم عباس باشا الأول ، وأمر بهدمها كى يبنيها رواقا لأهل بلد الشيخ ابراهيم البيجورى شيخ الأزهر، فوافته المنية قبل إتمام هذا العمل، فأتمه المغفور له السيد أبو بكر راتب باشا .

المغفور له سعيد باشا — ولى مصر سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٤ م) . وفى عصره عمر الأزهر عمارة حسنة .

المغفور له اسماعيل باشا — أمر بتجديد باب الصعايدة، الموجود بالنهاية القبلية الشرقية . فجدده أدهم باشا ناظر الأوقاف سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) ونقش عليه أربعة أبيات من الشعر تضمنت اسمه، ونصها :

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٥ ، ٦ (٢) الأزهر للأستاذ محب الدين الخطيب ص ٢٣

بالیمن أقبل باب سعد الأزهر * وسمت محاسـنه بأعجب منظـر
وغدا مجـازا للحقيقة بالهـدى * موصول مورده جميـل المصدر
باب شریف للنجاح مجـرب * انشـاؤه نادى بخـير الأعصر
فی دولة اسمـاعيل داور عصرنا * يمن يسر كمال باب الأزهر

المغفور له محمد توفيق باشا — كانت عنايته بالأزهر كبيرة، ففى سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) عنى بتجديد إيوان عبـد الرحمن كتخدا، وقسم كبير من الإيوان الشرقى القـديم ، ورواق الصعايدة ورواق الحرمين، والعقود حول الصحن وإعادة زخارفها وترميمها .

وفى سـنة ١٨٩٠ جددت عقود وأكتاف مؤخر الإيوان الغـربى ، بكتاباته الكوفية وزخارفه، وعمرت القبة الفاطمية برأس المجاز .

المغفور له الحاج عباس حلمى الثانى — ولمـا ولى الخـديو عباس حلمى باشا الثـانى ، كانت أعمال الإصلاح جارية فى عقود صحن الجامع ،فأدّى فيه فريضة الجمعة،فى شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م) . وأمر بالسير فى تتميم العمارة ، كما أمر باصلاح الحواجز الخشبية، وكتب عليها أنها جدّدت فى عصره سنة ١٣١٠ هـ .

مكـتبة الأزهر — وأصدر الخديو عباس حلمى الثانى أمره فى سنة ١٣١٤ (١٨٩٦م) بانشاء مكتبة الأزهر، فاختيرت لها المدرسـة الأقبغاوية . فأصلحت وجمعت الكتب من بعض أروقة الأزهر وغيرها وأودعت بها، وبلغت نفقاتها ١٦٠٠ جنيه . شملت العمارة وعمل الدواليب . كما اتخذت بقايا المدرسـة الطيبرسية ملحقا لهـا . وما زال لبعض الأروقة مكتبات خاصة تحوى كتبا نادرة .

وبمناسبة مكتبة الأزهر أذكر أنها لازمته منذ إنشائه ، وكانت أمانتهـا من الوظائف الكبيرة ، ففى سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) تولى أمانتها مع خطابة الجامع أبو الفخر صالح[(١)] .

وكان موضعها فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) بجوار المنبر ، فقـد جاء فى وقف كتاب تنبيه الأنام فى بيـان علو مقام نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام من محفوظات خزانة رواق الصعايدة أنه جعـل مقره بخلوة الجـامع الأزهر المعروفة بخزانة الكتب بجوار المنبر .

(١) أخبار مصر، لابن ميسر ص ٦٤

ولا شك أن هذه الخزانة بقيت إلى سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م)، حتى هدمها الأمير عبد الرحمن كتخدا وأدخلها في زيادته . فتفرقت الكتب في الأروقة ، وأودع بعضها في جامع الفاكهاني(١) وجامع العيني .

ولما أنشئت هذه المكتبة ، جمعت فيها الكتب المبعثرة ، ثم أهديت إليها مكتبات أهمها مكتبة المرحوم سليمان باشا أباظه وبها نوادر قيمة، كما أهديت إليها مكتبات المرحومين أحمد باشا راشد ومختار باشا الغازي، وكثير من أجلة مشايخ الأزهر وعلمائه .

وقد بلغت مجلداتها نحو مائة ألف مجلد ، بينها نوادر انفردت بها عن كثير من المكتبات . كما يوجد بها مصاحف وربعات ملوكية، إحداها باسم الناصر محمد بن قلاوون، مودعة في صندوق خاص بها مكفت بالفضة مكتوب عليه اسم صانعه بما نصه : "من صنعة أحمد بن أبارة الموصلي في شهور سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة " . وقد أضيفت إليها أخيرا مجموعة الرقوق المكتوبة بالخط الكوفي والمغربي وهي بقية عدة مصاحف كانت موقوفة على الأزهر . ثم أودعت في صندوق كان على يمين المحراب القديم ، حيكت حوله عدة أقاصيص؛ إلى أن فتح في ١٠ أبريل سنة ١٩٣٤ وأحدها وقفته السيدة زهرا بنت فايق مولات على بن المبارك التبتي على جامع القاهرة المنصورة .

وفي عهد الخديو عباس حلمي الثاني جددت الوجهة الغربية للجامع الأزهر بما فيها الباب الغربي الكبير وأنشئ الرواق العباسي واحتفل بافتتاحه في ٢٤ شوال سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٨ م) .

المغفور له الملك فؤاد الأول — كان عصر المغفور له الملك فؤاد على الأزهر عصر خير وبركة، فقد اكتشف في عصره المحراب الفاطمي القديم، وأصلحت وكملت زخارفه، والزخارف الجصية بالإيوان الشرقي .

وقد أصدر جلالته القانون رقم ٤٦ لسنة ١٩٣٠ للأزهر وكان من أكبر مزاياه إنشاء كليات أصول الدين والشريعة واللغة العربية . فافتتح رحمه الله كلية أصول الدين في ٢٨ مارس سنة ١٩٣٣ ، وكليتي الشريعة واللغة العربية في ٢٩ مارس سنة ١٩٣٣ ، وقد تم في عصره إنشاء مساكن الطلبة والإدارة العامة للمعاهد الدينية .

(١) أعمال مجلس إدارة الأزهر من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ — ١٣٢٢ ص ٢٨

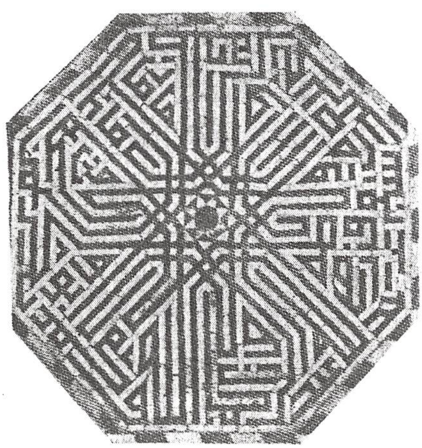
جلالة الملك فاروق الأول — لقد تابع جلالة الملك خطوات والده ، فعنى بالأزهر وعلمائه فقربهم منه وآستن سنة حسنة باستماعه الى الدرس الدينى من المغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى . وتشريفه الاحتفال بأول العام الهجرى فيه وهو إحدى حسناته .

وفى عهده الزاهر أصلحت قمة منارتى الأقبغاوية وقايتباى ، وفرشت جميع أراضيه بالرخام تنفيذا لرغبته السامية .

وكذلك أمر بفرشه بالسجاد الفاخر على نفقة جلالته الخاصة ، فنفذت إرادته وتم عمل السجاد الذى بلغ مقاسه ٣٨٩٣ مترا وعدد قطعه ١٩٣ ، بلغت قيمتها ٧٠٠٠ جنيه .

و إنها لمبرة كبرى يذكرها العالم الاسلامى لجلالة الفاروق بالحمد والثناء ، وقد أتمت وزارة الأشغال إعداد مشروعات بناء الكليات وأقسام التخصص والتعليم الابتدائى والثانوى ، وقاعات المحاضرات العامة والمستشفى ودار الكتب حول الجامع الأزهر ، وستنفذ قريبا فى عهده السعيد إن شاء الله .

وفى يوم الجمعة ٧ صفر سنة ١٣٦٥ أدى فيه حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول فريضة الجمعة ومعه ضيفه العظيم جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، ولعمرى إنه خير تكريم للجامع الأزهر بل هو عيد ألفى له . فقد ألقى فى شهر صفر من سنة ٣٦٥ هـ أى منذ ألف سنة أول درس فى هذا المعهد الإسلامى الذى حفل تاريخه بشتى الذكريات .



العشرة المبشرون بالجنة

الجامع العتيق

باسنا (*)

اسنا — وصفها مؤرخو القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) بأنها بلدة كبيرة حسنة العمارة كثيرة العمران، بها ما يقرب من ثلاثة عشر ألف منزل، وبها مدرستان إحداهما للشافعية[1] أنشأها الأمير أيبك بن عبد الله الصالحى النجمى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) وحمامان وأسواق، وكان بها أسر كبيرة اشتهرت بالعلم والفضائل[2]، حتى قيل إنه كان بها فى وقت واحد سبعون شاعراً. وإليها ينتسب عدد كبير من العلماء والفضلاء منهم بنو السديد، وبنو الخطيب، وبنو أشواق، وبنو النضر، وابن الحاجب النحوى.

وكانت مركزاً تجارياً لشتى السلع[3]، وفى كل سنة ترد عليها قافلة من سنار، حاملة تجارات تلك البلاد من الصمغ والريش وسن الفيل.

وقد عنى بها المغفور له محمد على باشا فيسر لها أعمال الرى، كما أنشأ بها قصراً له فى سنة ١٢٥٢ هـ (١٨٣٦ م). وأنشأ بها مصنعاً لنسج القطن ما زال موجوداً حتى الآن، وثكنات للجيش.

ومن أهم مساجدها الجامع العتيق، ويعرف أيضاً بالعمرى، وهى التسمية التى أطلقت على جميع المساجد القديمة بالأقاليم.

المنشئ — منشئ هذا الجامع هو الوزير الخطير بدر الجمالى. كان مملوكاً أرمنيا لجمال الدولة ابن عمار، فلذلك عرف بالجمالى. تنقل فى الوظائف حتى ولى إمارة دمشق من قبل المستنصر بالله سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م). ثم وليها ثانيا فى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦م). فبلغه قتل ولده شعبان فى عسقلان فخرج فى شهر رمضان سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م). فثار عليه العسكر وأخربوا قصره. ثم تقلد نيابة عكا.

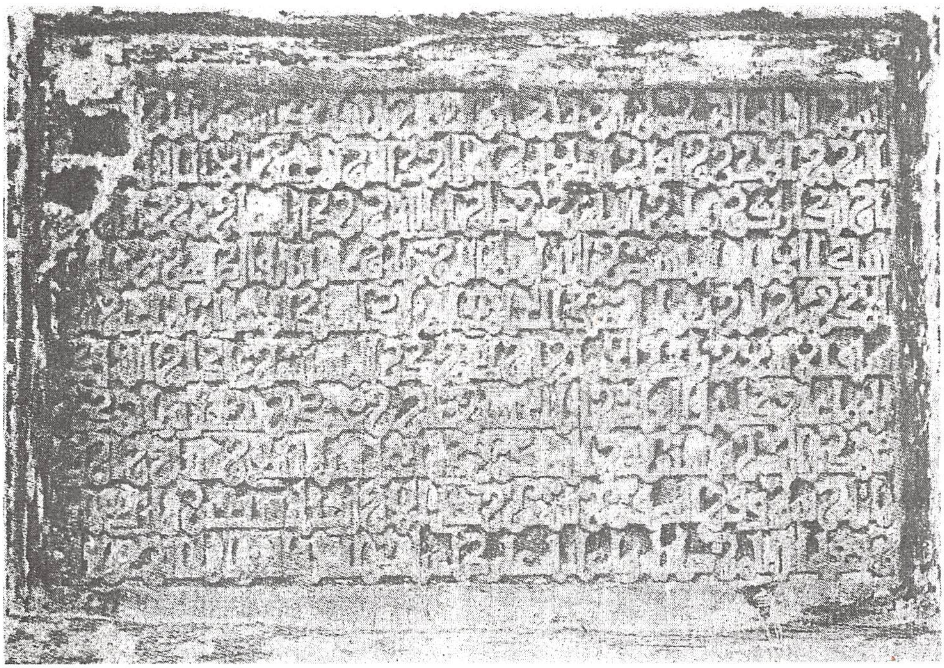
ولما ضعفت حالة المستنصر بالله بمصر واختلت دولته، استدعى بدراً الجمالى على أن يتولى أمورها، فعرض عليه شروطاً كثيرة أجابه إليها. وقدم مصر فى سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣م). فولاه شؤون مصر، وخلع عليه الطيلسان، وزاد فى ألقابه، كافل قضاة المسلمين، فأصلح الدولة وساس أمورها أحسن سياسة.

وكان وزير السيف والقلم، وهو الحاكم فى دولته. ومن محاسنه أنه أباح الأرض للزارعين ثلاث سنوات، حتى عم الرخاء ومكث فى الوزارة إحدى وعشرين سنة، الى أن توفى فى ربيع الأول،

(*) انظر الصور من رقم ٢٩ — ٣٠ بمجموعة الصور الفوتوغرافية.

(١) ابن الفرات ج ٨ ص ٢١٥ (٢) معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٥، الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ص ١٦ (٣) الخطط الجديدة ج ٨ ص ٦١ و ٦٤

وقيـل فى جمـادى الأولى[1] سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) على ما رواه المقريزى وابن الوردى وابن ميسر وأبو الفدا . وذهب ابن خلكان الى أن وفاته كانت سـنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ، ودفن فى قبة أعدها لنفسه خارج باب النصر ، وأرجح أنها هى الموجودة الآن هناك ، والمعروفة بقبة الشـيخ يونس . وكان مغرما بالعمارة ، فجدد جامع العطارين بالأسكندرية ، وسور القاهرة الثانى ، وأنشأ أبواب النصر والفتوح وزويلة ، ومشهد الجيوشى[2] ، ومشهـد الرأس بعسقلان وجامع المقياس ، وعمارة الجامع الطولونى والمشهد النفيسى ، ومسجد الغمرى بالمحلة الكبرى ، ثم هذا الجامع .



لــوحة تاريخيــة

وكان الشروع فى بناء هـذا الجامع فى النصف من شهر ذى الحجة سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٧ م) . والفراغ من عمل سقوفه سـنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) بإشراف القاضى أبى الحسـين على بن أحمـد ابن محمد بن النضر . وكملت منارته سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) بأمر الأجل المنتخب فخر الملك سـعد الدولة أبى منصور سارتكين الجيوشى .

(١) أبو الفدا ، ج ٢ ص ٢٠٥ ، وابن ميسر ، ص ٣٠ ، ٣١ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣١٣

(٢) وينسب هذا المشهد أيضا الى ابنه الأفضل شاهنشاه .

وقد جدّد المسجد وبنيت وجهاته وعقوده بالطوب ، كما بنيت أبوابه ومحاريبه بالطوب الملون، وكتب على بابه القبلي : "جدّد في شهر رجب سنة ١٢٩٥ هـ" . كما توجد به مزولة مؤرخة سنة ١٢٨٧ هـ من حساب خليل أفندي إبراهيم مهندس الخريطة الفلكية ، وقد بقي من المسجد القديم اللوحة التذكارية لإنشائه، مكتوبة بالخط الكوفي ومثبتة على يمين المحراب ونصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين صلوات الله وبركاته على مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين أمر بعمارة هذا الجامع المبارك السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام أبو النجم بدر المستنصري أدام الله قدرته وأعلى كلمته القاضي أبا الحسين علي بن أحمد بن محمد بن النضر فأسس في النصف من ذي الحجة سنة تسع وستين وأربع مائة وسقف في النصف من شهر ربيع الأول سنة سبعين وأربع مائة وفقه الله لمرضاته وأعانه على طاعته كما يصرف اهتمامه الى عمارته " .

وبمناسبة تضمين هذا النص اسم ابن النضر أذكر ما كتبه الأدفوي عن هذه الأسرة وعن الجامع قال[1]:

" وبنو النضر رؤساء أعيان وهم الذين بنوا جامع الخطبة بإسنا بعد العشرين وأربعمائة . وبنى الزيادة التي فيه علي بن محمد منهم في سنة تسع وخمسين وأربعمائة . وكان إذ ذاك ناظر الأحباس بالأعمال القوصية " .

وأهم ما بقي من المسجد منارته القديمة الواقعة في الركن الغربي القبلي، وهي مبنية بالطوب . وقد طرأ على قاعدتها تغير بسيط ، وهي محتفظة بجميع تفاصيلها . وتعتبر على ما أرجح أقدم نموذج مؤرخ كامل للمنارات الإسلامية بمصر ، وعلى منوالها أنشئت المنارات في الوجه القبلي . كما بقيت اللوحة التذكارية لإنشائها، وهي مثبتة على يسار المحراب مكتوبة بالخط الكوفي ونصها[2] :

" بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين. هذا مما أمر بإنشاء هذه المأذنة الأجل المنتخب فخر الملك سعد الدولة تاج المعالي ذو العزين حسام أمير المؤمنين أبو منصور سارتكين الجوشي نصره الله وظفره ووفقه وأحسن عونه في شهور سنة أربع وسبعين وأربعمائة ابتغاء مرضاة الله تعالى وثوابه ورجاء الدار الآخرة والأمن من عقابه رحمه الله تعالى وحشره مع مواليه الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين ورحم من ترحم عليهم آمين يارب العالمين " .

(١) الطالع السعيد ص ١٧

(٢) Bulletin de l'Institut d'Egypte Tom XXIV. p. 146,

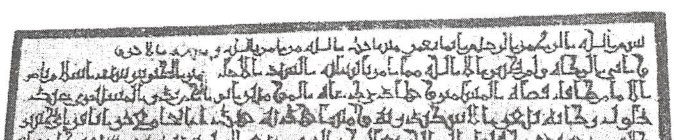
مسجد العطارين

بشارع جامع العطارين [*]

هـذا المسجد من أقدم مساجد الإسكندرية، وكان قائما فى سـوق العطارين فعـرف به، غير أن عوادى الزمن اعتدت عليه فخربته .

وفى سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) زار بدر الجمالى [١] وزير الخليفـة الفاطمى المستنصر بالله مدينـة الاسكندرية، فى طلب ابنـه الأوحد الذى خرج عليه . فرأى هـذا الجامع خربا فأمر بتجديده، وأشار الى ذلك فى لوحة تاريخية لم يبق سواها من المسجد القديم، ونصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله مما أمر بإنشائه السيد الأجل أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الامام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصرى عند حلول ركابه بثغر الاسكندرية ومشاهدته هـذا الجامع خرابا فرأى بحسن ولائه ودينه تجديده زلفا الى الله تعالى وذلك فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربع مائة " .



لـوحة تاريخيـة

وقد ثبتت هـذه اللوحة فى قاعدة المنارة على يسار الداخل من البـاب البحرى الشرقى . ولما كان هـذا المسجد حرما كبيرا لمدينـة الإسكندرية، ومن أكبر مساجدها، فقـد نقل ملك مصر صلاح الدين يوسف الخطبة منه الى مسجده [٢] الذى أنشأه بالإسكندرية سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) [٣]، عملا بخطته فى مكافحة الفاطميين .

(*) انظر الصورة رقم ٣١ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) تاريخ مصر لابن ميسر، ص ٢٦ و ٢٧ . (٢) ابن ميسر، ص ٢٦ و ٢٧ (٣) السلوك، ج ١ ص ٧٦

وقد كان هذا الجامع مركزا ثقافيا عرف بالجامع الجيوشى، وبجامع العطارين . قام بالتدريس فيه أجلة العلمـاء؛ منهم الولى الصالح أبو العباس المرسى، فقـد تولى التدريس فيه عقب الإذن له من شيخه أبى الحسن الشاذلى[1] .

وممن تولى التدريس فيه قاضى قضاة الاسكندرية أحمد بن أبى المعالى محمد ناصر الدين أبو العباس ابن المنير[2] المتوفى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) . والعلامة إبراهيم بن محمد بن عبد الواحد[3] بن وثيق ، وقد تلقى عليه به المكين الأسمر[4] شيخ القراء بالاسكندرية . وممن تولى التدريس فيـه العلامة أبو محمد[5] الصعيدى شيخ القراء بالاسكندرية .

وكذلك تولى التدريس فيـه العلامة محمد بن سليمان بن أحمـد الصنهاجى المراكشى ، واتخـذه مسكنا له الى أن توفى سـنة ٧١٧ هـ (١٣١٧ م) ودفن فيه . وهو الذى عليه[6] قبة المسجد الحالية .

وفى سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) أمر بتجديده على ما هو عليه الآن المغفور له الخديو عباس باشا حلمى الثـانى . ولهـذا المسجد منارة حجرية رشـيقة ، وبنيت وجهاته بالحجـر ، وحليت أبوابه بالمقرنصات والكتابات .

ويشتمل داخله على خمسة أروقة، وقد نقش المحراب بالبوية تقليدا للرخام، يجاوره منبر بسيط، وفى الطرف البحرى الشرقى قبـة أقيم على وجهها حجاب من خشب الخرط ، وفى مؤخره دكة المبلغ تشغل الجدار الغربى، وتعرف فى الاسكندرية بالصندرة .

---

(١) درة الأسرار ، ص ١٨٢ (٢) بغية الوعاة ص ١٦٨ (٣) طبقات القـراء ، ج ١ ص ٢٥

(٤) ابن وثيق توفى سـنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) . والمكين الأسمر هو عبـد الله بن منصور الإسكندرى المتوفى بها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) وقبره بجوار مسجد ياقوت العرشى . (٥) طبقات القراء، ج ١ ص ٤٠٠ — ٤٠١

(٦) ترجمه ابن حجر العسقلانى فى الدرر الكامنة وقال عنـه : نزيل الاسكندرية وذكر وفاته دون محل دفنه . وقد ذكر حضرة الأستاذ بشير الشندى فى أهرام يوم ١٠ أغسطس سـنة ١٩٤٥ أنه أقام بهذا المسجد الى أن مات ودفن فيه . وقد سألت حضرته عن المصدر الذى اعتمد عليه فأجابنى أنه اعتمد على ورقات من مخطوط مجهول .

الجامع الأقمر

شارع المعز لدين الله (النحاسين)[*]

منشئ هذا الجامع هو الخليفة الآمر بأحكام الله أبو على المنصور بن المستعلى بالله، وكان مولده يوم الثلاثاء ١٣ محرم سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) وبويع بالخلافة يوم وفاة أبيه، وهو طفل عمره خمس سنين وأشهر وأيام[١]. وذلك فى يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) بتدبير من الوزير الخطير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى، الذى كان مشرفا على شؤون الدولة وخليفتها غير المتوج.

وقد ولى الوزارة بعد وفاة الأفضل فى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) أبو عبد الله محمد بن مختار بن فاتك البطائحى، ولقب بالمأمون. وكان وزيرا حازما. ظل قائما بشؤون الدولة الى أن قبض عليه الآمر فى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) واعتقله وتفرغ بعده للحكم، ولم يبق أمامه منافس الى أن توفى فى ١٤ ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م).

وكان الخليفة الآمر بأحكام الله كريما اقترن عهده بالرخاء، وأنشئت فى أيامه دار وكالة[٢] بالقاهرة، وخصصت للوافدين من العراقيين والشاميين وغيرهما من التجار، وأمر بعمل دار الضرب[٣] سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) لصك النقود.

ومما أخذ عليه أنه كان متقاعدا عن الجهاد، متهاونا فى الذود عن بلاده حتى استولت الفرنج على غالب السواحل[٤].

وعدّ من حسناته تعميره مدينتى تنيس ودمياط، وإنشاؤه قصر القرافة، كما أمر بتجديد[٥] المشاهد السبعة التى بين القرافة والجبل. وإنشاؤه قصر الهودج بالروضة، وعمله محرابا خشبيا للجامع الأزهر ما زال موجودا بدار الآثار العربية. وأجمل منشآته وأحسنها هذا الجامع الذى لم يبق له سواه.

والجامع الأقمر من مفاخر العمارة الفاطمية. وقد أشرف على إنشائه وزيره أبو عبد الله محمد ابن فاتك، ودوّن اسمه مع اسم الآمر فى النصوص التاريخية التى كتبت على وجهة المسجد.

(*) انظر الصور من رقم ٣٢ — ٣٤ بمجموعة الصور الفوتوغرافية.

(١) المقريزى، ج ٢ ص ٢٩٠، النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٧٠

(٢) المقريزى، ج ١ ص ٤٥١

(٣) ابن ميسر، ص ٦٢

(٤) النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٧٨

(٥) ابن دقماق، ج ٤ ص ١٢١، ابن ميسر ص ٦٢

وهو من المساجد المعلقة ، فقد كانت تحته حوانيت . وألحق به حوضا لشرب الدواب . ووجهته الغربية مبنية بالحجر، وهى أجمل وجهة حافلة بالنقوش والكتابات الكوفية من آيات قرآنية ونصوص تاريخية ، كما اشتملت على مقرنصات وعقود مخوصة تتوسطها دوائر مكتوب بها (محمد) مكرر وعلى . وأجملها الدائرة الكبيرة فوق الباب وقد كتب بها : "بسم الله الرحمن الرحيم إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" . ويتوسط العقد الأيسر للباب دائرة كتب حولها بالكوفى (محمد) مكررة وعلى .

كما يوجد بها حنايا وشبابيك صغيرة، تكتنفها عمد صغيرة حلزونية وبعضها حلزونى من أعلاه لعلها أقدم نموذج بمصر، يتوسطها قنديل، ومكتوب أعلاها : "لا إله إلا الله وحده لاشريك له" .

وعلى يسار الباب منارة لم يبق منها سوى بدن دورتها المستدير حتى الدورة الأولى . أما علوها فقد هدم سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) ، وبقاياها تشعر أنها كانت منارة ممتازة بالنقوش الغريبة بحزامها وبطاقات المقرنص . وهى من إنشاء الأمير يلبغا السالمى سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م) . وتنتهى الوجهة بناصية بها مقرنص من حطتين كتب على جانبيه محمد وعلى وفى طاقاته : إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ومما يؤسف له أن هذه الوجهة النادرة ، اعتدى الزمن عليها ففقد نصفها الأيمن، وحل محله منزل نزعت ملكيته إدارة حفظ الآثار العربية . ولعل هدمه يساعد على وجود تفاصيل تمكن من إعادة بناء بقية هذه الوجهة التى لا شك أنها كانت مثل الجانب الأيسر .

وتوجد فكرة سائدة فى أن هذه الوجهة هى أول وجهة حجرية فى مساجد مصر، ولمن ذهب هذا المذهب عذره، لأنها هى أقدم وجهة حجرية باقية فى مصر ، ولأن الشائع فى المنشآت الفاطمية البناء بالطوب .

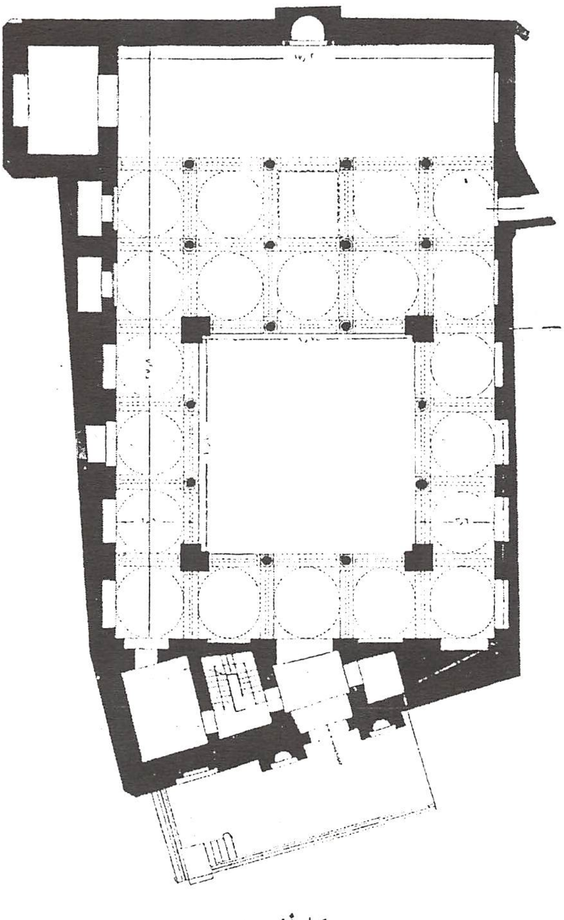
ولكن التاريخ حدثنا عن استعمال الحجر فى الأبنية الفاطمية بجانب الطوب ، فالقصور الفاطمية التى ضاعت ، يصفها ناصر خسرو[1]، وقد زارها سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٨ م) بأن جدرانها من الحجارة المحكمة الانطباق بعضها على بعض، حتى ليخيل للانسان أنها منحوتة فى صخرة واحدة . وقد عثرت فى أنقاض قصر بشتاك المنشأ على رقعة من أرض القصر الكبير ، على قطعة من الحجر المنقوش عليها صورة سيدة على رأسها غزال، فلعلها مخلفة من أحد أبواب القصر الفاطمى، هى وقطعة حجر أخرى منقوشة .

(١) رحلة ناصر خسرو، ص ٤٩

وكذلك نرى باب الجامع الحاكمى ومنارتيه بنيت بالحجر . ويحدثنا المقريزى عن جامع ولى العهد أمير المؤمنين ، أحد الأقارب فى الأيام الحاكمية بقوله : « وكان المسجد بالحجر » . كما يذكر أن جامع راشدة الذى بناه الحاكم سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٣ م) كان مبنيا بالحجر[١] .

وقد دون على وجهة الجامع تاريخ إنشائه فى موضعين : أولهما بخط كوفى كبير فى الوجهتين الغربية والبحرية بما نصه :

"بسم[٢] الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله ... فتى مولانا وسيدنا الإمام الآمر بأحكام الله ابن الإمام المستعلى) بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليهما وعلى آبائهما الطاهرين وأبنائهما الأكرمين تقربا إلى الله الملك الجواد ... آمنين ، وأقام ... اللهم انصر جيوش الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين على كافة المشركين ... السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو عبدالله محمد الأمرى عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ... لإقامة البرهان" .



مسقط أفقى

والثانى بخط كوفى صغير يمتد مع الوجهة فوق عتب الباب ونصه :

"بسم الله الرحمن الرحيم أمر ... فتى مولانا وسيدنا الإمام الآمر بأحكام الله ابن) الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين السيد الأجل المأمون

(١) المقريزى ، ج ٢ ص ٢٨٢ (٢) الكلمات المحصورة بين قوسين غير موجودة الآن وقد راجعت هذين النصين على Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe vol. VIII. p. 146-148.

أمير الجيوش (سيف الإسلام) ناصر الإمام (كافل قضاة) المسلمين وهادى دعات المؤمنين أبي عبد الله محمد الآمرى عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته (فى سنة) تسعة عشرة وخمسمائة والحمد لله وحسبنا الله ونعم الوكيل".

والمسجد صغير الحجم، يؤدى إليه باب بارز قليـلا عن الوجهـة، له صحن مكشوف يحيط به أربعة إيوانات، أكبرها إيوان المحـراب المشتمل على ثلاثة أروقة بهـا عمد رخامية تحمل عقودا فارسية مغطاة بقبوات صغيرة.

أما الرواق أمام المحراب فهو أوسعها. ويبـدو لى أنه كانت توجد مقصورة خشبية على وجه هذا الرواق لأن أثر قوائمها باق فى قواعد العمد.

وتغطية السقف بقبوات صغيرة فى العصر الفاطمى سبقه اليها بدر الجمالى فى بابى النصر والفتوح، ووجدت فى مشهد إخوة يوسف. كما رأيناها بعـد حول الصحن أمام قبة قلاوون. ثم فى خانقاه فـرج بن برقوق بالصحراء، ثم شاعت فى المساجد العثمانية، وفى كثـير من مساجد البلاد التى تكثر فيها الأمطار مثل رشيد ومطوبس وأدفينا.

ويقوم المحراب فى صـدر المسجد، وهو مكسو العقد برخام ملون دقيق تعـلوه لوحة تذكارية للعمارة التى أجراها بالمسجد الأمير يلبغا السالمى ونصها:

" بسم الله الرحمن الرحيم فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض ... الآية أمر بعمل هذا المنبر والمنارة وغيره بعد اندراسه فى أيام مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق حرس الله نعمته العبـد الفقير إلى الله تعالى أبو المعالى عبد الله يلبغا السالمى الحنفى الصوفى. لطف الله به فى الدارين وجعله ... فى شهر رمضان المعظم سنة تسع وتسعين وسبعمائة. وكان بنى هذا الجامع فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ابن المستعلى بالله فى سنة تسع عشرة وخمسمائة من الهجرة النبوية".

وكتب على باب المنبر أيضا: " وقالوا الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا أمر بعمل هـذا المنبر فى أيام مولانا السـلطان الملك الظاهر برقوق نصره الله غرس نعمته العبد الفقير الى الله تعالى عبد الله يلبغا السالمى الحنفى الصوفى الظاهرى لطف الله به فى الدارين آمين. فى شهر رمضان المعظم سنة تسع وتسعين وسبعمائة".

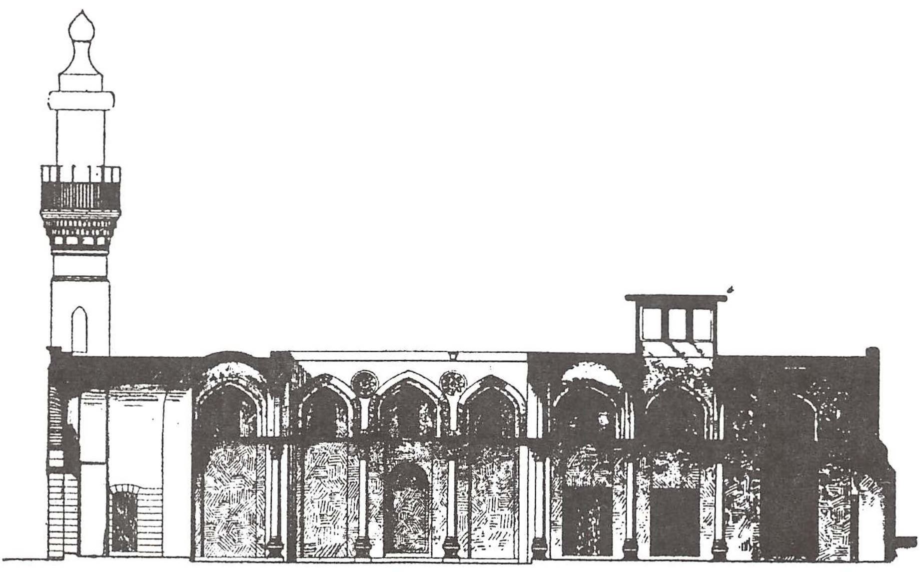
وقد تكررت الإشارة الى عمـل المنبر فى النصين المذكورين، وأحدهمـا على منبر فى منتهى البساطة، لمـا فحصته فى سنة ١٩٣٦ م، وكشفت أخشابا كانت مثبتة على قناطر مقدمه، ظهرت

تحتها نقوش فاطمية قديمة، مكتوب بوسطها بالخط الكوفى: "الملك لله" كما تبين أن بظهر جلسة الخطيب زخارف باقية من منبره الفاطمى .

وبفحص جوانب المنبر من الداخل ، تبين وجود حشوات بها صور حيوانات تبلغ نحو ٢٥ قطعة فاطمية، لاشك أنها نقلت من مكان آخر واستعملت على ظهرها، لأنها فى مسجد .

إذن فنحن أمام بقايا من منبر الآمر ثبتت عليها لوحة يلبغا . والله يعلم أين ذهب باقى منبر الآمر ومنبر يلبغا إن كان عمله .

وقد كان منبر الآمر قيما كما تنبئ بقاياه، لأن صناعة النجارة فى المسجد دقيقة، وتتمثل فى معبرة[1] المدخل التى امتازت بالبساطة والجمال . كما تمثل فى حشوات الدواليب ومعابرها .



قطاع رأسى

وكانت العقود حول الصحن محاطة بكتابات كوفية بها آيات من القرآن يقرأ منها الان : "بسم الله الرحمن الرحيم الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء" .

وقد عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاحه فى سنتى ١٣٢٠ — ١٣٤٧ هـ (١٩٠٢ — ١٩٢٨ م) .

(١) معبرة الباب أو الشباك هى سقف مدخله الذى يعلو مصراعيه .

الجامع الأقمر

المعروف بالفاكهانى (*)

هذا الجامع على رأس حارة خوش قدم بشارع المعز لدين الله (العقادين) ، أنشأه الخليفة الظافر بنصر الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن الآمر بأحكام الله سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) ووقف حوانيته على سدنته ومن يقرأ فيه (١) ، وقرر به دروسا وفقهاء ومعلمين للقرآن . وفى زلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) سقطت مئذنة الجامع (٢) . وفى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) (٣) جدد الجامع .

وفى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) عرف بجامع الفاكهيين ، وألحقت به ميضأة أمر بعملها العالم الجليل محمد بن أحمد بن محمد الجلال المحلى المتوفى سنة ٨٦٤ هـ (١٤٥٩ م) (٤) . وولى إمامته العالم الجليل على بن أحمد بن على الكومى ، المتوفى سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) (٥) .

وفى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) عنى بعمارته وزخرفته الأمير يشبك من مهدى (٦) ، وأزال الأبنية التى كانت تحجبه .

وفى سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٦ م) جدده الأمير أحمد كتخدا (٧) مستحفظان الخربوطلى فهدمه وأعاد بناءه (٨) . وكما كان المسجد القديم معلقا ، فإن بناءه أعيد معلقا أيضا ، وجعل فى أسفله حوانيت ، ولم يحتفظ من المسجد الفاطمى إلا بمصاريع البابين الغربى والبحرى ، وهى مصاريع فاطمية حليت حشواتها بنقوش من الأورعة ، تمثل زهرية تفرعت منها فروع نباتية .

وكانت هذه المصاريع بحالة سيئة ، إذ كانت مغشاة بطبقة سميكة من بوية الزيت ، فضاعت تحتها معالم الرسم القديم تقريبا ، كما أن بعض الأجزاء من نجارتها كانت تالفة جدا والبعض مشوه .

وفى سنة ١٩١٩ أصلحت لجنة الآثار العربية هذه المصاريع وأزالت الدهان فعاد لها رونقها القديم .

(*) انظر الصور من رقم ٣٥ — ٣٦ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) المقريزى ، ج ٢ ص ٢٩٣ (٢) السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٤٤ (٣) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١١٨ طبع كالفرنيا . (٤) الضوء اللامع ، ج ٧ ص ٤١ (٥) الضوء اللامع ، ج ٥ ص ١٧٦

(٦) الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٢٧٤ وسماه الفكاهين . (٧) كتخدا : وظيفته قيم أو وكيل وتحرف الى (كيخية) . (٨) الجبرتى ، ج ١ ص ١٦٨

كذلك تخلف من المسجد الفاطمى مداميـك حجرية فى أعلى البـاب الغربى كتب عليها بالخط الكوفى : "لا إله إلا الله محمد رسول الله" . تشعر أن الحجر استعمل فى بنائه .

ومما يذكر عن الأمير أحمد كتخدا الخربوطلى الذى سلفت الإشارة اليه ، أنه من أمراء مصر فى العصر العثمانى ، وقد توفى يوم الخميس ١٢ رجب سـنة ١١٤٩ هـ (١٧٣٦ م)، ودفن فى قبـة سودون القصروى بالباطنية .

وكان المشرف على تجـديده عثمان شلبى شيخ طائفة العقادين ، فتمام بتجديده وألحق به سبيلا له أرضية رخامية دقيقة يعلوه كتّاب بنهاية الوجهة الغربية، كما أنشأ وكالة بجواره وقد بلغت النفقات مائة كيس (١) .

ويصعد إلى المسجد الحالى من كلا بابيـه الغربى والبحرى ببضع درجات تؤدى إلى الداخل، حيث أربعة إيوانات يتوسطها صحن مغطى بسقف منقوش فى وسطه منور مثمن .

وأكبر هذه الإيوانات الشرقى ، وهى جميعا تسودها البساطة فلا نقوش ولا وزرات رخامية إلا المحراب، فانه من الرخام الدقيق، وطاقيته وعقـده وتواشيحه (٢) من القاشانى ، تتوسطه تربيعـة كتب عليها : "ما شاء الله" سنة ١١٤١هـ . كما يحيط بالشباك المستدير أعلاه كسوة من القاشانى .

وتقوم المنارة على يسار الباب ، وهى منارة أسطوانية تنتهى بمسلة شأن باقى المنارات العثمانية .

وكان فى المسجد مكتبة كبيرة حافلة بمجموعة من المخطوطات فى شتى العلوم والمصاحف المذهبة، أدركت بقيتها وزارة الأوقاف ونقلتها إلى الخزانة الزكية وقت أن كانت تابعة لهـا . ثم أرسلت إلى مكتبة الأزهر .

وقد دوّن تاريخ التجديد فى لوحات تذكارية يقرأ على إحداها وهى بأعلى الباب البحرى ما نصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم جدّد هذا المكان المبارك وقصد الثواب من الملك التواب الفقير إلى الله تعالى الحاج أحمد كتخدا مستحفظان سابقا فى شهر رمضان سنة ١١٤٨ هـ " .

(١) الكيس يساوى خمسة جنيهات .

(٢) طاقية المحراب هى حنيته العليا والتواشيح — جانبا العقد المحيطة به من أعلى .

المشهد الحسيني

بالقاهرة (*)

الامام الحسين — سيد شباب أهل الجنة، الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى ، أبو عبد الله، ريحانة النبي صلى الله عليه وسلم وشبيهه . ولد لخمس ليال خلون من شهر شعبان سنة أربع[1] من الهجرة، وأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى أذنه، وسماه حسينا ، فهو وأخوه الحسن سيدا شباب أهل الجنة . أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، سيدة نساء العالمين إلا مريم عليهما السلام . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « الحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا » . وعن أبي يعلى بن مرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسين منى وأنا من حسين أحبَّ الله من أحبَّ حسيناً حسين سبط من الأسباط » . وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال : طرقت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فى بعض الحاجة ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو مشتمل على شيء لا أدرى ما هو ، فلما فرغت من حاجتى قلت : ما هذا الذى أنت مشتمل عليه ؟ فكشفه ؛ فإذا الحسن والحسين على وركيه ! . فقال: « هذان ابناى وابنا ابنتى اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما[2] » .

وروى بالإسناد عن بريدة رضى الله عنه أنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطبنا، إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال : «صدق الله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ . نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » .

وروى بالإسناد الى عمر بن أبى سلمة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم[3] قال : نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ فى بيت أم سلمة . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة وحسنا وحسينا فجللهم بكساء وعلىّ خلف ظهره . ثم قال : « هؤلاء أهل بيتى، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » . قالت أم سلمة : وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال : أنت على مكانك، أنت الى خير .

(*) انظر الصور من رقم ٣٧ — ٤٣ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) تهذيب الأسماء للنووى ص ٢٠٤ ، ٢١١ ، وأسد الغابة ج ٢ ص ١٨ ، والطبرى ج ٣ ص ٣٩

(٢) مصابيح السنة ، ج ٢ ص ٢٠٣ ، وأسد الغابة ج ٢ ص ١١

(٣) أسد الغابة ، ج ٢ ص ١٢

كان رضى الله عنه شجاعا مقداما منذ طفولته . فمن المأثور عنه أنه جاء رجل الى الحسن رضى الله عنه فوجده معتكفا فى خلوة فاعتذر إليه ، فذهب الى الحسين فاستعان به فقضى حاجته وقال : لقضاء حاجة فى الله عز وجل أحب الى من اعتكاف شهر .

وكان رضى الله عنه كثير الصوم والصلاة والصدقة والحج وأفعال الخير جميعا ، وقد حج خمسا وعشرين حجة مليا ماشيا .

ومن كلامه رضى الله عنه : اعلموا أن حوائج الناس[1] إليكم من نعم الله عليكم ، فلا تملوا النعم فتعود نقما . واعلموا أن المعروف يكسب حمدا و يعقب أجرا ، فلو رأيتم المعروف رجلا لرأيتموه رجلا جميلا يسر الناظرين ، ولو رأيتم اللؤم رجلا لرأيتموه رجلا قبيح المنظر تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار . وكان يقول من جاد ساد ومن بخل ذل ، ومن تعجل لأخيه خيرا وجده إذا قدم على ربه غدا .

مقتله — إننى فى هذا المقام أروى ما قاله العلامة محمد بن على بن طباطبا المعروف بالطقطقى[2] :

" هذه قضية لا أحب بسط القول فيها، استعظاما لها واستفظاعا ، فانها قضية لم يجر فى الإسلام أعظم فحشا منها . ولعمرى إن قتل أمير المؤمنين عليه السلام، هو الطامة الكبرى . ولكن هذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسبي أو التمثيل ما تقشعر له الجلود . وأكتفيت أيضا عن بسط القول فيها بشهرتها فانها شر الطامات . فلعن الله كل من باشرها وأمر بها ورضى بشىء منها، ولا تقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، وجعله من الأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا " .

وسأوجز حادث مقتله فيما يلى : ألقت الدولة الإسلامية قيادها للأمويين ، فتمهدت الخلافة لمعاوية ، وتوطدت قواعد ملكه ، وذانت له الدنيا ، وقبض على ناصية الحكم . ولما توفى فى شهر رجب سنة ٦٠ هـ (٦٨٠ م) قام من بعده ابنه يزيد ، فأرسل الى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان أمير المدينة يأمره بأخذ البيعة له من الإمام الحسين بن على . فلما استدعاه قال له : مثلى لا يبايع سرا . ولكن إذا اجتمع الناس حضرت وكنت واحدا منهم ، فأذن له بالانصراف . ثم خرج مع أصحابه الى مكة المكرمة وذلك لليلتين بقيتا من رجب فأقام بها من شعبان الى ذى القعدة .

(١) طبقات الشعرانى ، ج ١ ص ٣٠ (٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ١٠٤

وكان للحسين أشياع وأتباع ، وكان له أكثر من سبب فى الدعوة لنفسه بعد مقتل أبيه وبعد تنازل الحسن لمعاوية بن أبى سفيان .

ولما بلغ أهل الكوفة وفاة معاوية وخروج الحسين الى مكة، كتبوا إليه يسألونه القدوم عليهم ليسلموا الأمر إليه . وقالوا له فى أحد كتبهم : إنا حبسنا أنفسنا على بيعتك، ونحن نموت دونك . فصدقهم وسار إليهم ومعه أهل بيته، حتى بلغ كربلاء فخذلوه كما خذلوا أخاه وأباه من قبل .

لقى الشهادة فى طلب حقه فى موقعة الطَّف بجانب مدينة كربلاء . وكان ذلك فى المحرم سنة ٦١ هـ[١] (٦٨٠ م) بعد أن تألبت عليه جيوش عبد الله بن زياد والى الكوفة ، وضيقت عليه ومنعوا الماء عنه . فتقدم ليشرب فرمى بسهم فوقع فى فمه، فحال بينه وبين شرب الماء . ثم احتزوا رأسه ، وقتلوا معه من أصحابه وعشيرته اثنين وسبعين رجلا[٢] ، حزوا رءوسهم ووطئوا أجسامهم بخيولهم . ثم بعثت رءوس القتلى والنساء والأطفال الى عبد الله بن زياد . فجعل ابن زياد يقرع فم الحسين بقضيب فى يده . فقال له زيد بن أرقم : ارفع هذا القضيب، فوالذى لا إله غيره، لقد رأيت شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين ثم بكى ! .

وقد جمعوا أشلاء القتلى، ودفنوا جسد الحسين رضى الله عنه ومن معه فى اليوم الثانى بكربلاء، ويعرف قبره الى اليوم بمشهد الحسين .

وقد عنى ابن زياد بتجهيز على بن الحسين ومن كان معه من الحرم، ووجه بهم الى يزيد بن معاوية مع زحر بن قيس وآخرين ، فساروا حتى قدموا الشام، ودخلوا على يزيد بن معاوية بمدينة دمشق، ومعهم رأس الحسين . ولما وضع الرأس بين يديه دمعت عيناه. وقال : ويحكم ! قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ! رحم الله أبا عبد الله ! ثم أمر بالسيدات فأدخلن دار نسائه، وأمر بتجهيزهم والعناية بهم أحسن عناية . وأرسل معهم حرسا من ثلاثين فارسا، حتى وصلوا إلى المدينة، وبعث معهم بالرأس الشريف إلى عامله بالمدينة عمرو بن سعيد فكفنها ، وأمر بدفنها بالبقيع عند قبر أمه وأخيه[٣] .

وأكد هذه الرواية العلامة عمر بن أبى المعالى أسعد بن عمار فى كتابه عن تحقيق مقر رأس الحسين .

---

(١) تاريخ بغداد ، ج ١ ص ١٤٢ ، والفخرى ص ١٠٥ (٢) أبو الفداء ، ج ١ ص ١٩١ ، والأخبار الطوال ص ٢٥٦ — ٢٥٨ ، والطبرى ج ٦ ص ٢٦٤ (٣) مرآة الجنان، ج ١ ص ١٣٦

وهنا تضاربت الأقوال : فمن قائل بأمر تجهيز الرأس الى المدينة ودفنه بها . وقيل : إنه أعيد الى الجسد بعد أربعين يوما ودفن معه بكربلاء . ومن قائل إنه دفن عند باب الفراديس بدمشق . وهناك رواية أخرى أن الرأس وضع بخزانة السلاح بدمشق وبقى بها حتى ولى سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) فحمل الرأس فى ثوب وعطره، ثم صلى عليه ودفنه فى مقابر المسلمين . وقيل : إن القبر نبش بعد ذلك وأخذ منه الرأس . والله أعلم ما صنع به . ويروى أن الرأس نقل فى وقت ما إلى عسقلان . وبقى بها غير مشتهر الى أن زارها بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، فأرشد الى مكانه فأخرجه وأنشأ عليه مشهدا كبيرا . وزعم بعضهم أن أبا مسلم الخراسانى : لما استولى على دمشق نقل الرأس منها الى مرو ، فدفن بها فى دار الإمارة ثم بنى عليه رباطا[(١)] .

وبجانب هذه الروايات المتضاربة وجدت فى الأقطار الإسلامية مشاهد متعددة باسم الإمام الحسين أذكر منها :

مشهد مرو — على فرسخين من مرو يوجد رباط ، قالوا : إن فيه رأس الحسين بن على رضى الله عنه[(٢)] .

مشهد حلب — وفى حلب مشهد الحسين ؛ وهو فى وسط جبل جوشن ، بنى فى أيام الملك الصالح ابن الملك العادل نور الدين[(٣)] .

مشهد دمشق — المشهد الحسينى بدمشق بصحن المسجد الأموى ؛ وكتب عنه كثير من المؤرخين ، وعاينه خليل الظاهرى[(٤)] لما دخل دمشق سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٧ م) . وكتب عنه ابن فضل الله العمرى ما نصه «وله بدمشق مشهد معروف داخل باب الفراديس وفى خارجه مكان الرأس على ما ذكروا[(٥)] . وقد جاء فى أخبار الدولة العباسية أنهم حملوا أعظم الحسين ورأسه الى المدينة النبوية حتى دفنوه بقبر أخيه الحسن» .

مشهد عسقلان — ذكره أيضا ابن فضل الله بقوله : «كان رأسه بها، فلما أخذها الفرنج نقل المسلمون الرأس الى القاهرة، ودفن بها فى المشهد المعروف بها على زعم من قال ذلك. والأغلب أنه لم يتجاوز دمشق . والمدى بعيد بين مقتل الحسين ومبنى مشهد عسقلان»[(٦)] .

(١) نهاية الأرب للنويرى ، ج ١٨ مجلد ٢ خط . (٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ٣٣٣
(٣) تاريخ حلب لابن الشحنة ، ص ٨٧ (٤) كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص ٤٥
(٥) مسالك الأبصار ، ج ١ ص ٢٢٠ ، رسائل تاريخية ص ٣٧ (٦) مسالك الأبصار ، ج ١ ص ٢٢٠

هذا جزء من تضارب أقوال المؤرخين . وفى الوقت نفسه توجد لهم أقوال تناقض بعض هذه الروايات . فنرى المسعودى ينقض عن غير قصد رواية دفن الرأس بالبقيع . إذ يقول بمناسبة دفن الحسن بن على ببقيع الغرقد مع أمه — وهناك الى هذا الوقت رخامة مكتوب عليها[1] : "الحمد لله مبيد الأمم ومحيي الرمم هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين والحسن بن على بن أبى طالب وعلى بن الحسين بن على ومحمد بن على وجعفر بن محمد رضوان الله عليهم أجمعين " .

فلو كان الامام الحسين معهم لذكر اسمه بينهم .

وقد أورد هـذه الأقوال أيضـا ابن كثير المؤرخ ، وناقش رواية إحضـار الرأس الى مصر ولم يأخذ بها[2] .

وناقش هذه الأقوال عمر بن أبى المعالى أسـعد بن عمـار بن سعد بن عمـار رحمه الله فى كتابه «الفاصل بين الصدق المبين فى مقر رأس الحسين»[3] ووهنهـا وضعفها ورجح أنه بالمدينـة حتى كاد يبلغ به مبلغ القطع فقال ما معناه : أما قولهم : إنه كان فى خزائن بنى أميـة الى أن ظهرت الخلافة العباسـية ، و إن أبا مسـلم نقله إلى خراسان ، فهذا بعيد جدا . لأن أبا مسلم لمـا فُتح الشام كان بخراسان . والذى فتح دمشق هو عبد الله بن على بن عباس . فكيف يتصور أن ينقله ؟ أو يمكن من ينقـله الى مولاهم بخراسـان ؟ ولو أنه ظفر به فى خزائن بنى أميـة لأظهره للنـاس ، ليزدادوا لبنى أمية بغضا .

وأيضا فقد ولى العبد الصالح عمر بن عبد العزيز الخلافة ، و بعيد أنه كان يترك رأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خزائن السلاح ولم يواره .

وقولهم إنه كان بالمدينة عند أمه — قاله محمد بن سعد فى طبقاته ، وابن أبى الدنيا وأبو المؤيد الخوارزمى خطيب خوارزم .

وأما قولهم إنه كان بعسقلان ، فلا يوجد فى تاريخ من التـواريخ أنه نقل الى عسـقلان ، ولا الى مصر . ويقوى ذلك أن الشام ومصر لم تكن بها الشيعة علوية .

أوردت هـذه الأقوال على سبيل المثال لا الحصر . ولمـا كانت عسقلان هى قنطرة وصول الرأس الى القاهرة ، فإنى أورد أقوال من أخذ بها من المؤرخين .

---

(١) التنبيه والاشراف للمسعودى ص ٣٠١ ، وقد ألفه سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٨ ص ٢٠٤ (٣) نهاية الأرب للنويرى مجلد ٢ ج ١٨ ص ١٢٠ خط .

فمن أخذ بها ابن ميسر المؤرخ ، وخلط بين بدر الجمالى وابنه الأفضل شاهنشاه فى بناء مشهد عسقلان ، ولكنه قال : وكان حمل الرأس الى القاهرة ووصوله اليهـا يوم الأحد ٨ جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م)[1] .

أما القلقشندى فإنه يقرر نقل الرأس من عسقلان الى القاهرة سنة ٥٤٩ هـ[2] (١١٥٤ م) .

وأيضا ابراهيم بن وصيف شاه[3] ، وسبط بن الجوزى[4] — فقد ذكر الأول أن الرأس نقـل من عسقلان الى مصر سنة ٥٤٩ هـ . وذكر الثانى أنه نقل سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) .

واعترف بمشهد الرأس ابن المأمون المؤرخ[5] . فذكر فى حوادث سـنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) أن الآمر بأحكام الله أمر بإهـداء قنديل من ذهب وآخر من فضـة الى مشهد الحسين بعسقلان . وأهدى اليه الوزير المأمون قنديلا ذهبيا له سلسلة فضية .

وأخذ ابن إياس برواية مشهد عسقلان ونقل الرأس الى مصر سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، وزاد عليها أنه نقل الى ثلاث أماكن قبل أن يحضر الى القاهرة[6] .

أما المقريزى عميد مؤرخى مصر . فقد كان لبقا كيسا أمام هـذا التضارب ، وعبر تعبيرا جميلا يبعث على الارتياح إذ يقول :

«ولحفظة الآثار ، وأصحاب الحديث ونقلة الأخبار[7] ، ما إذا طولع وقف منه على المسطور ، وعلم منه ما هو غير المشهور ، وإنمـا هذه البركات مشاهدة مرئية ، وهى بصحة الدعوى ملية ، والعمل بالنيـــة » .

ثم ذكر رواية وجود الرأس بعسقلان نقلا عن ابن عبد الظاهر . وأن المشهد هناك بناه أمير الجيوش بدر الجمالى ، وأتمه ابنـه الأفضل شاهنشاه . وأنه لمـا خيف من سقوط عسقلان فى أيدى الفرنج نقل الرأس الى القاهرة .

(١) أخبار مصر لابن ميسر ، ص ٣٨ (٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٥١

(٣) جواهر البحور ، ص ٥١ خط وقد تفضل حضرة الأستاذ الكبير أمين بك مرسى قنديل وكيل دار الكتب ونبهنى الى أن ما بين أيدينـا من نسخ هذا الكتاب هو ملخص له لمؤلف مجهول وصل فيه الى عصر النورى .

(٤) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٣١ (٥) المقريزى ، ج ١ ص ٤٠٨ (٦) ابن إياس ، ج ١ ص ٦٧

(٧) المقريزى ، ج ١ ص ٤٢٧

ورواية وجود الرأس فى عسقلان معززة بنص تاريخى منقوش على المنبر الذى كان موجودا فى مشهد الرأس بعسقلان[1] . ولما خيف من سقوطها فى أيدى الفرنج نقل الرأس الشريف الى مصر، ونقل المنبر الى المشهد الخليلى بالقدس، وهو باق به الى الآن .

وهو منبر فخم ، جميع حشواته الخشبية مدقوقة بالأويمة الدقيقة وهو غاية فى الدقة والجمال . ومكتوب على قوائمه :

" الحمد لله وحده لا شريك له محمد رسول الله على ولى الله صلى الله عليهما وعلى ذريتهما الطهرة سبحان من أقام لموالينا الأئمة نسبهما مجدا ورفع راية وأظهر معجزا كل وقت وآية بين ... ربها فضلا عظيما وعناية . وكان من معجزه تعالى إظهاره رأس مولانا الامام الشهيد أبى عبد الله الحسين بن على بن أبى طالب صلى الله عليه وعلى جدّه وأبيه وأهل بيتهم بموضع بعسقلان كان الظالمون لعنهم الله ستروه فيه إعفاء لنوره الذى وعد تعالى آية لاظهاره لعنة الله على الظالمين وأماد الله تجاذبه به عن دور المخالفين وإظهاره الآن شرفا لأوليائه الميامين وانشراح صدور شيعته المؤمنين (به عن دور المخالفين وإظهاره الآن شرفا لأوليائه[2] الميامين وانشراح صدور شيعته المؤمنين) الذين علم صفاء ضمائرهم فى الولاء والدين وإنجاز الحجة على العالمين ورزق الله [على] فتى مولانا وسيدنا معدّ أبى تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلى الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الطاهرين السيد الأجل أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الامام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبا النجم بدر المستنصرى إظهاره فى أيامه فاستخرجه من مكانه وخصه باجلاله وتكريم مقامه وتقدّم بانشاء هذا المنبر برسم المشهد الشريف الذى أنشأه ودفن فيه هذا الرأس فى أشرف محلة قبلة الأمير وصلاة المتقبلين وشفيع المستشفعين والزائرين . وبناء من أسه الى علوه وابتاع له الأملاك وحبّس منافعها على عمارته وسدنته وجماله لليوم وما بعده الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وأنفق على جميع ذلك من فضل ما آتاه الله من حلّ ماله وخالص ما ملكه ابتغاء وجه الله وطلب ثوابه واتباع رضوانه وإعلان شرف هذا الامام ونشر أعلامه بقوله تعالى إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين وقال النبى صلى الله عليه وسلم خلفت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يفترقا حتى

(١) عسقلان مدينة بفلسطين اسمها فى التوراة عسقلون . استولى الفرنج عليها سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣م) . ومكثوا بها ٣٥ سنة ، واستخلصها منهم السلطان صلاح الدين ، ثم خربها فى سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) مخافة استيلائهم عليها مرة أخرى .

(٢) الجملة المحصورة بين قوسين مكررة أيضا على المنبر .

يردا على الحوض كهاتين ويجب على من يؤمن بالله واليوم الآخر تعظيمه وتشريفه والنظر فى مصالحه وعمارة ما يحتاجه فى أوانه وتطهيره . وكان إنشاء هذا المنبر فى سنة أربع وثمانين وأربع مائة[1] " .

ومكتوب على باب المنبر ما نصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معد أبى تميم الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليـه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه البررة الأكرمين صـلاة باقية الى يوم الدين مما أمر بعمل هـذا المنبر فتاه السيد الأجل أمـير الجيوش سيف الاسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنـين أبو النجم بدر المستنصرى عضـد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قـدرته وأعلى كلمتـه للمشهد الشريف بثغر عسقلان مسجد مولانا أمير المؤمنين أبى عبـد الله الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهما فى شهور سـنة أربع وثمانين وأربع مائة[2] " .

ولمـا زار الإمام الهروى الرحالة ثغر عسقلان سـنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) قال : وبعسـقلان مشهد الحسين عليه السلام كان رأسـه به . فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون الى مدينة القاهرة، وذلك سـنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م)» . وذكره القـزوينى أيضا ووصفه بأنه مشهد عظيم[3] . وتابعـه ابن الطولونى الحنفى المتوفى سـنة ٩٥٢ هـ (١٥٤٥ م) بقوله : « وبعسقلان مشهد الحسين كان به رأسه، فلما أخذها الفرنج نقله المسلمون الى القاهرة سنة ٥٤٩ هـ[4] » .

المشهد الحسينى بالقاهرة — كان نقل الرأس الشريف من عسقلان ووصوله الى القاهرة فى يوم ٨ جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) . ولمـا وصل الى مصر حمل فى سرداب الى قصر الزمرد . ثم دفن فى قبة المشهد الذى أنشئ خصيصا له سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م)[5] .

ولمـا ولى ملك مصر السلطان صلاح الدين سـنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) أنشأ مدارس للمذاهب الأربعة؛ منها مدرسة بجوار هذا المشهد، غلب عليها اسم المشهد[6]، وقرر بها مدرسين وعهد بالإشراف عليها الى الفقيه البهائى الدمشقى، فكان يجلس للتدريس عند المحراب الذى خلفه الضريح .

(١) Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe, vol. VII, pp. 261, 262.

(٢) Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe, vol. VII, pp. 259, 26 0.

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٤٧ و ١٤٨ (٤) رسائل تاريخية، ص ٤٢

(٥) المقريزى، ج ١ ص ٤٢٧ (٦) النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ٥٥

وهذا الوصف يجعلني أعتبر أن المسجد الحالى حل محل تلك المدرسة لوجود الضريح خلف جدار المحراب .

وقد عاين المشهد والمدرسة فى مبدأ الدولة الأيوبية الرحالة ابن جبير أثناء رحلته من بلاد الأندلس قاصدا الحج سنة ٥٧٨ ﻫ (١١٨٢ م) ، ووصفه وصفا مشوقا بقوله (١) :

« فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما . وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض . قد بني عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ، ولا يحيط الإدراك به ، مجلل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعا أبيض . ومنه ما هو دون ذلك ، قد وضع أكثرها فى أتوار (٢) فضة خالصة ، ومنها مذهبة . وعلقت عليه قناديل فضة ، وحف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهبا ، فى مصنع شبيه الروضة ، يقيد الأبصار حسنا وجمالا . فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع مما لا يتخيله المتخيلون . والمدخل الى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق والغرابة ، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة ، وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بنيان من كليهما المدخل اليها ، وهما أيضا على تلك الصفة بعينها ، والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع . ومن أعجب ما شاهدناه عند دخولنا الى هذا المسجد المبارك حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص . يصف الأشخاص كلها ، كأنها المرآة الهندية الحديثة الصقل . نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم . وبالجملة فما أظن فى الوجود كله مصنعا أحفل منه ، ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع منه ، قدس الله العضو الكريم الذى فيه بمنه وكرمه » .

وفى سنة ٦٣٣ ﻫ (١٢٣٥ م) بدأ أبو القاسم بن يحيي بن ناصر السكرى المعروف بالزرزور بإنشاء منارة على باب المشهد ، أتمها ابنه سنة ٦٣٤ ﻫ (١٢٣٦ م) ، وهى المنارة الحافلة بالزخارف الجصية فوق الباب المعروف بالباب الأخضر . والباقى منها قاعدتها المربعة وعليها لوحتان تذكاريتان نصهما :

" ... الشيخ الصالح المرحوم أبو القاسم بن يحيي المعروف بالزرزور ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه . وكان تمامها على يدى ولده محمد سنة ثلاثة وثلاثين وستة مائة عفا الله عنه " . وعلى الأخرى :

" بسم الله الرحمن الرحيم الذى أوصى بإنشاء هذه المأذنة المباركة على باب مشهد السيد الحسين تقربا الى الله ورفعا لمنار الاسلام الحاج الى بيت الله أبو القاسم ابن يحيي بن ناصر السكرى المعروف بالزرزور تقبل الله منه . وكان المباشر بعمارتها ولده لصلبه الأصغر الذى أنفق عليها من ماله بقية عمارتها خارجا عما أوصى به والده المذكور . وكان فراغها فى شهر شوال سنة أربع وثلاثين وستمائة " .

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٤ (٢) فى رحلة البلوى فى قواعد فضة .

وممن عنى بالمشهد وزاد فيه العلامة معين الدين بن شيخ الشيوخ ، وزير الصالح نجم الدين . فقد ألحق به إيوانا وبيوتا للفقهاء .

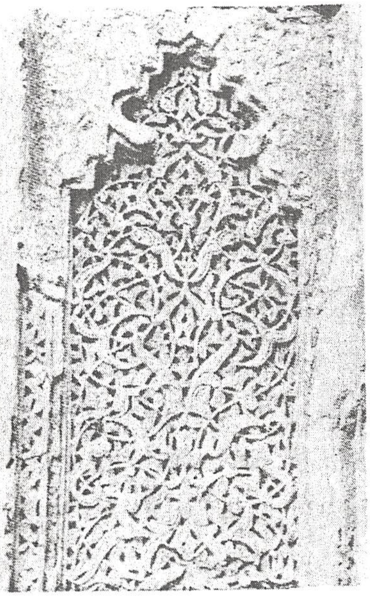
وفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) حصل حريق بالمشهد[١]، فلم يلبث أن أصلح . ولذلك لما زاره الرحالة ابن بطوطة ، الذى زار مصر حوالى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) وصفه بقوله[٢] :

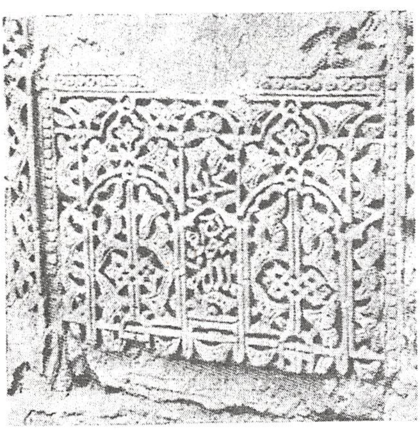
« ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن على عليهما السلام . وعليه رباط ضخم عجيب البناء على خشب أبوابه حلق الفضة وصفائحها وهو موفى الحق من الاجلال والتعظيم » .

وتابعه خالد البلوى الرحالة المغربى ، الذى زار مصر سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م)[٣] ، فوصفه بوصف خلاب ، اقتبسه من وصف ابن جبير .

وممن عنى بالمشهد وأصلحه وزخرفه والى مصر من قبل الدولة العثمانية السيد محمد باشا الشريف ، الذى ولى مصر[٤] فى سنة ١٠٠٤ — ١٠٠٦ هـ (١٥٩٥ — ١٥٩٧ م) .

كذلك عنى به الأمير حسن كتخذا عزبان الجلفى المتوفى سنة ١١٢٤ هـ (١٧١٢م) . فانه وسع المشهد وزاد فيه ، وصنع له تابوتا من آبنوس مطعم بالصدف والفضة . وجعل عليه سترا من حرير مزركش ، نقله إليه باحتفال كبير[٥] .





تفاصيل من زخرفة المنارة

(١) السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٢ ، المقريزى ج ١ ص ٤٢٨ (٢) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٣٠

(٣) تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ص ٢٢ ، ٢٣ . (٤) الروضة المأنوسة .

(٥) الجبرتى ، ج ١ ص ١٠٩

وفى سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٣ م) طلب من الشيخ عبد الله الشبراوى أن ينظم أبياتا من الشعر لتكتب على باب الإمام الحسين، وأخرى على المقصورة فانشأ برسم ما يكتب على الباب الأول من الخارج[1]:

يا كرام الأنام يا آل طه * ما على من يهيم فيكم ملام
بابكم كعبة الهدى وحماكم * منهل فيه للأنام ازدحام
باب فضل لما سما أرخوه * من دنا نحو بابكم لا يضام
رضى الله عنكم آل طه * وصلاة منى لكم وسلام

وفى سنة ١١٧٥ هـ (١٧٦١ م) جدده الأمير عبد الرحمن كتخدا، وأثبت تاريخ عمارته على عتب رخامى نصه:

"مسجد للحسين أصل المعالى * لا يضاهيه فى البقاع علاء
فيه فضل الرحمن للعبد نادى * زر وأرخ لك الهنا والرضاء"

وفى سنة ١٢٠٤ هـ (١٧٨٩ م) قام بعمارات وزيادات فيه السيد على أبو الأنوار، وأثبت تاريخ عمارته بالباب البحرى للقبة. وهو باب مكسو بالرخام المنقوش وله مصراعان مكسوان بالنحاس. وبتواشيح الباب دوائر كتب فيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله — الإمام على — الإمام الحسين — الإمام الحسن — ويعلوه عتبان كتب على أحدهما:

أنشا على أبو الأنوار سيدنا * بابا لسبط رسول الله ذى الرشد
وحسن إشراق نور الله أرخه * باب حماه عظيم الجاه والمدد

عناية الأسرة العلوية بالمشهد[2] — عزم على توسيع هذا المسجد عباس باشا الأول، فاشترى الأملاك اللازمة لذلك وهدمها وشرع فى البناء ثم توفى إلى رحمة الله تعالى.

وفى سنة ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) أمر المغفور له الخديو اسماعيل باشا بتجديده والزيادة فيه، فوضعت المشروعات اللازمة وفتح شارع السكة الجديدة وروعى فى التصميم الجديد ترك القبة على حالها فلم يتناولها التجديد. ونقل إليه منبرا جميلا كان فى جامع[3] أزبك من ططخ بالأزبكية. وكذلك أمر الخديو اسماعيل بشراء العمد الرخامية من استامبول على حسابه الخاص.

وقد تم بناء المسجد سنة ١٢٩٠هـ. ومنارته سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٣ — ١٨٧٨ م)، وأمر بعمل ستر مزركش له سنة ١٢٩٠ — ١٢٩٢هـ. وقد انتقد تصميمه المرحوم على باشا مبارك[4] وله كل الحق.

(١) ديوان الشبراوى، ص ٦٧ (٢) الخطط الجديدة، ج ٤ ص ٨٩ (٣) جامع أزبك — أنشاه الأمير أزبك من ططخ حوالى سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م) واليه تنسب الأزبكية. وكان موقعه بمدخل شارع الموسكى بميدان السكة فريدة. وبقى الى أن هدم سنة ١٢٨٦ (٤) الخطط الجديدة ج ٤ ص ٨٩

وفى سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) كسى المحراب بالقاشانى المغربى عبد الواحد التازى وكتب عليه آيات من القرآن ثم ما نصه: "اللهم كن برحمتك خير مجازى لمنشئه عبد الواحد التازى سنة ١٣٠٣ هـ".

وفى سنة ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) أمر المغفور له الخديو عباس حلمى الثانى بإعادة نقوش القبة، وفتح نوافذ جديدة بها مع المحافظة على كتاباتها ونصوصها التاريخية.

وقد أمر المغفور له الملك فؤاد الأول، بعمل ستر جديد له، أنجز عمله فى عصر الملك الصالح فاروق الأول. وقد بلغت نفقاته ٧٠٠٠ جنيه.

وفى عهد الملك الصالح فاروق الأول أصلحت أرضية القبة، وأخرج التابوت الخشبى النادر وتم إصلاحه.

ما تخلف من المشهد القديم — لم يبق من المشهد الفاطمى سوى أحد أبوابه وهو المعروف بالباب الأخضر، وهو باب مبنى بالحجر على يساره دائرة مفرغة بزخارف، وتعلوه بقايا شرفة جميلة.

وقد تخلف من المنارة الأيوبية التى أنشأها فوق هذا الباب أبو القاسم بن يحيى المعروف بالزرزور، القسم الأسفل منها، وهو المربع الحافل بالزخارف الجصية النادرة، وتاريخ إنشائها. وهى منارة حلى وجه قاعدتها المربعة بمستطيلات، شحنت بالزخارف الجصية يلحظ فيها التأثيرات الأندلسية.

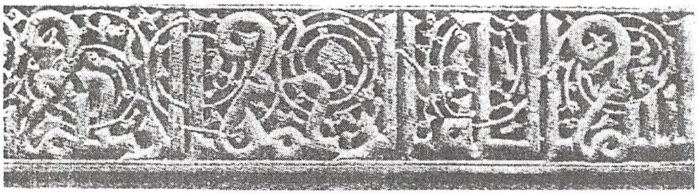
أما القبة، فالمرجح أن قسمها العلوى، هو ومثمن المنارة من أثر عمارة المرحوم عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٥ هـ (١٧٦١ م)، وأيضا مصاريعها المكسوة بصفائح الفضة.

أما مربعها الأسفل، فقد كسيت وجهته المطلة على المسجد بالرخام الدقيق المطعم بالصدف. وكذلك محيطها الداخلى، مؤزر بالرخام، والأجزاء الدقيقة منه المطعمة بالصدف ترجع الى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى). والأجزاء العلويه من دوائر وتواشيح ترجع الى العصر العثمانى، ولعلها عملت ضمن أعمال النقش والتذهيب التى أجريت بها سنة ١١٨٧ هـ (١٧٧٣ م).

تابوت المشهد الحسينى — وأهم ما بقى من المشهد القديم، التابوت الخشبى الذى كان محتجبا تحت المقصورة، وهو تابوت يزرى بالذهب والفضة، ظل هذا التابوت محتجبا عن الأنظار نحو ثمانية قرون، لم يسعد برؤياه سوى المرحوم[1] السيد محمود البيلاوى، وسماحة السيد محمد البيلاوى أطال الله حياته، لعلاقتهما الوثيقة بالمشهد، وكذلك عاينه السيد محمد عرفة وكيل مشيخة المسجد، ومعه المرحوم المعلم محمد سيور النجار. ولكن لم تكتحل به عين أحد من الأثريين.

(١) التاريخ الحسينى ص ٢٧

وعند ما كتبت فى جريدة الأهرام الغراء عن تاريخ المشهد الحسينى، بمناسبة أداء جلالة الملك فريضة الجمعة فيه يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٨، كتبت عن هذا التابوت ما نصه : والمعروف أن تحت أرضية هذه القبة، حجرة بها تابوت من خشب محلى بزخارف وكتابات .



بسملة من التابوت

وكانت فرصة سعيدة تلك التى أتاحها لى مولانا الملك الصالح " فاروق الأول " فقد أمر بأن يستبدل بالقاشانى الذى بأرضية المقصورة النحاسية رخام جميل، فكشفت أرضية القبة وأخليت، فانتهزت الفرصة يوم ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وهبطت الى أسفل المقصورة ومعى الأستاذ السيد محمد عرفة، فبهرتنى صناعة التابوت، كما أحزنتنى الحالة التى هو عليها، فقد دب التلف إلى أجزائه، فأخذت له فى مكانه صورا فوتوغرافية ، رفعتها مع تقريرى الى لجنة حفظ الآثار العربية ، ثم أخرجته بعد الاتفاق مع وزارة الأوقاف وأصلحته إدارة حفظ الآثار العربية وأعادته الى مجده الفنى . ثم أودعته دار الآثار العربية فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٥ .

والحجرة التى وجد بها التابوت ، هى أسفل أرضية القبة الحالية وتشغل جزءا منها طوله ٥,٢٦ ، مقسمة الى قسمين : القسم الخارجى ٢,٣٨، ويهبط اليه من فتحتين بأرضية القبة مقاس كل منهما ٠,٦٠ × ٠,٤٥ .

والقسم الداخلى به فتحة مشروعة فى الجدار الفاصل بينهما ، مقاسها ٢,٦٠ بها تركيبة حجرية لصق الجدار الشرقى، مغطاة بلوح رخامى، أحيطت بها ثلاثة أجناب التابوت الخشبى .

ومن فحص التابوت ، تبين أنه قاصر على الأجناب الثلاثة ولا رابع لها مما يعزز أنه عمل لهذا الوضع ومقاسه ١,٨٥ × ١,٣٢ × ١,٣٥ ، وهو مصنوع من خشب ساج هندى مكون من جنب ورأسين، ومقسم الى مستطيلات رأسية وأفقية ، يحيط بها ويفصلها بعضها عن بعض إطارات مكتوبة بالخطين الكوفى المزهر والبسيط، والنسخ الأيوبى . وهذه المستطيلات تحتوى على حشوات نجمية ومسدسة، محفور بها زخارف نباتية مورقة، تنوعت أشكالها فى جميع التابوت .

وقد أحيطت الحشوات المسدسة بقوائم وأفاريز كتب فيها بالخط الكوفى البسيط كلمات منها : "الملك لله" ، "وما توفيق إلا بالله" ، "ثقتى بالله" ، "نصر من الله وفتح قريب" ، "الملك لله" ، " العزة لله " ، " التوفيق بالله " ، " وما بكم من نعمة فمن الله " .

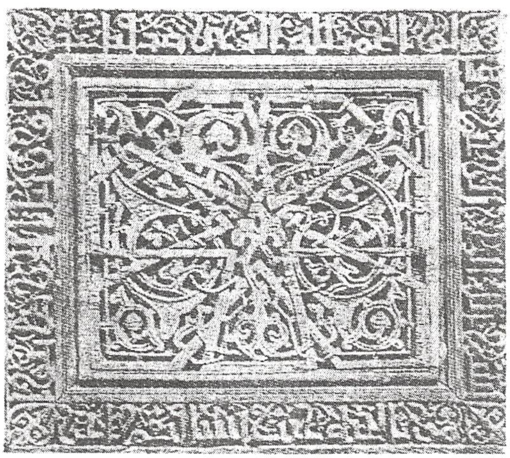
وقد روعى فى اختيار الآيات القرآنية ما يناسب تابوت جثمان طاهر من فرع الدوحة المحمدية، فيقرأ مما هو مكتوب على الوجه بالسطر العلوى بالخط الكوفى البسيط

" بسم الله الرحمن الرحيم رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا " .

ومكتوب بالسطر السفلى بالقوائم المحيطة بالمستطيلات المكتوبة والمنقوشة :

" بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم " الآية بالخط النسخ الأيوبى ، وقوله تعالى : " الله نور السموات والأرض " الآية .

ومكتوب بالخط الكوفى حول المصراع المربع الأوسط : " بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر " .



المصراع الاوسط

والقسم الأسفل من هذا الجنب مقسم الى ثلاثة مستطيلات، مكتوب حولها بالخطين الكوفى والنسخ الأيوبى . فمما هو مكتوب بالخط الكوفى المزهر "بسم الله الرحمن الرحيم إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون إلى قوله تعالى : هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة " .

ومما هو مكتوب على الجنب الأيمن للتابوت بالخط الكوفى الصغير البسيط بالسطر العلوى .

" بسم الله الرحمن الرحيم إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية إلى قوله تعالى : رضى الله عنهم و رضوا عنه ذلك " .

ومكتوب بالخط الكوفى الكبير المزهر : " بسم الله الرحمن الرحيم رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت " .

ومكتوب بالسطر أعلاه وأسفله و بالسطر أسفل الحشوات المسدسة والنجمية بالخط النسخ الأيوبى :

" بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا الى قوله تعالى : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا " .

ومكتوب بالخط الكوفى الكبير المزهر حول المستطيلين بالجزء الأسفل منه قوله تعالى : "إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب إلى قوله تعالى : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار " .

ومكتوب بالخط النسخ بالقوائم المحيطة به قوله تعالى : "كنتم خير أمة أخرجت للناس إلى قوله تعالى : والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس " .

ومما هو مكتوب بالجنب الأيسر للتابوت بالخط الكوفى الصغير البسيط : " بسم الله الرحمن الرحيم والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا إلى قوله تعالى : مستقرا ومقاما" .

ومكتوب بالخط الكوفى الكبير قوله تعالى : " لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا " .

ومكتوب بالسطر أعلاه وأسفله و بالسطر أسفل الحشوات المسدسة والنجمية و بالخط النسخ الأيوبى :

" بسم الله الرحمن الرحيم إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه إلى قوله تعالى : فإن الله غنى عن العالمين " .

ومكتوب بالخط الكوفى المزهر حول المستطيلين :

" بسم الله الرحمن الرحيم يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية الى قوله تعالى : أولئك هم خير البرية جزاؤهم " .

و إن أبرع وصف لهذا التابوت لا يفيه حقه ، فقد تنوعت أشكال الحشوات وزخارفها تنوعا دل على عبقرية الصانع ، كما تنوعت أشكال الخط الكوفى .

ومن وصف أبى جبير الرحالة ، نفهم أن التابوت كان تحت الأرض منذ إنشاء المشهد .

وقد فحصت هـذا التابوت ، وقرأت جميع كتاباته فاذا هي آيات من القرآن الكريم لا أثر معها لنصوص تاريخية. ولكن دقة الزخارف وطرازها، وقاعدة كتابة الخطين الكوفى والنسخى، واجتماع أحدهما بالآخر يضعانه ضمن مصنوعات الدولة الأيوبية .

وكذلك مقارنته بشبيهه تابوت الإمام الشافعى تدل على أنه معاصر له ، بل تجعلنى أرجح أنهما صنعا فى عصر واحد و بيد صانع واحد . وتاريخ عمل تابوت الشافعى سـنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م)، أى فى دولة ملك مصر صلاح الدين الأيوبى .

و بما أنه ثبت أن لصلاح الدين صلة وعناية بالمشهد الحسينى، إذ أنشأ مدرسة بجواره، فنرجح أنه أمر بصنع هذا التابوت، كما أمر بصنع تابوت الامام الشافعى ولم يكتب اسمه على كليهما .

واذا ثبت ذلك نكون قـد اهتدينا الى اسم صانعه أيضا، وهو النجار البارع الذى صنع تابوت الشافعى، واسمه عبيد النجار المعروف بابن معالى .

المخلفات النبوية — هـذه المخلفات مودعة فى حجرة أنشئت خصيصا لهـا عام ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) ، مجاورة للقبة من الجهة القبلية ، و يتوصل لهـا من بابين أحدهما فى جدارها الغربى والآخر فى جدارها البحرى، وقد كتب على جدرانها ما نصه : ... ...

" تشمل هذه الخزانة من الآثار النبوية الشريفة على قطعة من قميصه الشريف ، ومكحلة ومرودين، وقطعـة من القضيب(1) الشريف، وشعرتين من اللحية الشريفة، وبهـا أيضا مصحفان كريمان بالخط الكوفى : أحدهما بخط سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنـه ، والآخر بخط سـيدنا الإمام على كرم الله وجهه ... ... أمر بانشاء هذا المكان المبارك من فضل الله تعالى مولانا الخديوى المعظم عباس حلمى الثانى أدام الله أيامه وكان اتمامه فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ١٣١١ هجرية .

وللآثار النبوية بمصر أخبار تتسلسل فى التواريخ ، وتنتقل بالباحث من زمن الى زمن ، ومن مكان الى مكان، حتى تصل به الى هـذا المكان . وأول ما عرف عنها أنها كانت عند بنى إبراهيم بينبع، ثم اشتراها الوزير الصاحب تاج الدين محمـد بن حنا (بكسر الحاء) ونقلها الى مصر وبنى لها رباطا على نيل مصر وهو باق الى الآن ، ومعروف برباط الآثار جهة أثر النبي . وكانت مكونة من قطعة من الحربة الصغيرة ومرود وملقط .

ولمـا زار ابن بطوطة هذا الرباط وصف هذه الآثار ، وزاد عليها مصحف أمير المؤمنين على ابن أبى طالب .

(1) العصا الشريفة .

وقد بقيت هذه الاثار فى هذا الرباط حتى أتم السلطان الغورى بناء قبته بالغورية سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م)، فاستصدر فتوى بنقل الآثار التى كانت بالرباط، ونقل المصحف العثمانى الى مدرسته، ونقل اليها أيضا الربعة العظيمة المكتوبة بالذهب وهى التى كانت بخانقاه بكتمر .

وزاد ابن اياس أثرا آخر، فقد ذكر فى حوادث[1] سنة ٩٢٦ هـ (١٥١٩م)، حينما توقف النيل عن الوفاء، أنه أحضر من الآثار الشريفة القميص من القبة الغورية، ووضع فى فسقية المقياس وغسلوه فى الماء الذى بها، وتضرعوا الى الله تعالى بطلب الزيادة .

ثم رؤى نقلها من قبة الغورى، فنقلت منها سنة ١٢٧٥ هـ (١٨٥٨ م) الى المسجد[2] الزينبى، ثم الى القلعة . وقد أمر الخديو توفيق باشا بنقلها الى المشهد الحسينى، فأحضرها من ديوان الأوقاف عام ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) الى قصر عابدين وأمر أن تحفظ فى شقق من الديباج الأخضر، مطرزة بسلوك من فضة مذهبة . ثم احتفل بنقلها من القصر الى المسجد، يوم الخميس ٢٥ جمادى الثانية سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨ م) احتفالا فخما سار فيه العلماء والوزراء الى أن وصلوا بها الى المسجد .

وفى سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) تم بناء الحجرة التى أنشئت خصيصا لها فأودعت بها . وضم اليها شعرتان من اللحية النبوية الشريفة، وأخبرنى السيد محمد عرفه أنه ضمت اليها شعرة مهداة من السيدة خديجة هانم كريمة المغفور له أحمد طلعت باشا الكبير .

وبمناسبة الشعرات الشريفة، أقول : إنه كان يوجد بمصر وغيرها، شعرات نسبت الى النبى صلى الله عليه وسلم . استقصاها المرحوم أحمد تيمور باشا فى بحثه الشيق عن الآثار النبوية الذى نشر منه فصولا ممتعة فى مجلة الهداية الإسلامية سنة ١٣٤٨ هـ .

أما المصحف المنسوب الى سيدنا على، فلعله أحد اثنين : المصحف الذى كان موجودا فى جامع عمرو بن العاص حتى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م)[3] . وعنى به الآمر بأحكام الله، أو الذى كان فى رباط الآثار . ولم تثبت نسبته اليه لأسباب فنية وتاريخية . وكذلك المصحف الثانى المنسوب الى سيدنا عثمان، فقد عرفنا مصدره فقد كان بالمدرسة التى أنشأها القاضى الفاضل سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م)، بدرب ملوخيا (حارة قصر الشوك) بالقرب من المشهد الحسينى . وبقى الى أن استحوذ عليه السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى .

وهو مصحف كبير تجاوزت أوراقه الألف . ومكتوب على رق بالخط الكوفى البسيط الخالى من الإعجام والشكل . وبكل صفحة منه اثنا عشر سطرا . وقد حليت رءوس السور بأفريز

(١) ابن إياس، ج ٣ ص ٢٢٦ (٢) مجلة الهداية ج ١ مجلد ٢ ص ١٣، الوقائع المصرية العدد ٣٠ ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٣٠٥ (١٠ مارس سنة ١٨٨٨م) . (٣) المقريزى، ج ١ ص ٤٠٨

زخرفى ، يتكون من دوائر محاطة بنقوش . ومنها ما هو على شكل سلسلة . وهى زخارف بسيطة تدل على بداءتها . ويلاحظ أن آخره ، ابتداء من قوله تعالى : ﴿ وآمرأته حمالة الحطب ﴾ ؛ مكتوب بخط كوفى أحدث من خطه .

ومن قاعدة خطه ، وبساطة زخارفه ، أرجح أنه مكتوب فى نهاية القرن الثانى الهجرى أو أول القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . وأوله مهلهل وعلى حافاته احمرار يزعمون أنه دم عثمان ، وهو زعم غير صحيح .

ولهذا المصحف صندوق من الخشب المغلف بجلد ، مخرم بأشكال هندسية منكّة بالذهب . وله مفصلات مذهبة عليها اسم السلطان الغورى بما نصه : " برسم المصحف الشريف العثمانى السلطان — الملك الأشرف قانصوه الغورى " .

وعلى أحد وجهيه ما نصه : " جدّد هذا المصحف الشريف المعظم الذى من إذا حلف به صادقا نجا وكان له من كل ضيق مخرجا . ومن حلف به فاجرا كفف وهان وأصبح فى ذل ومقت وخذلان بخط من رتب سوره وآياته وأجزاءه ومن ختمه فى كل ركعة من صلاته و به أقتدى من سماه نبينا بالأمين ذى النورين زوج بنتيه ورفيقه فى الدارين من استحيت منه ملائكة الرحمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، أمر وتشرف بتجليده السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى كان الله له وتجديده على يديه بعد ثمان مائة وأربع وسبعون عاما مضت تقبل الله ذلك منّة عليه ببركته وحفظه ونصره وثبت قواعد دولته بمحمد وآله " .

ويلاحظ فى هذه الكتابة أن جملة (السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى كان ...) مكتوبة بخط مغاير لبقية الكتابة . مما يؤكد أن القائم بعمل هذا الصندوق غيره ولعله السلطان قايتباى وأن السلطان الغورى أصلحه وعمل المفصلات ثم غير فى الكتابة وكتب اسمه عليه .

أما الزعم بأنه مصحف عثمان فهو زعم منقوض لأسباب كثيرة . أهمها قاعدة الخط والزخرف فانها لا تتفق والقرن الأول وأيضا فان نسبة مصحف عثمان لا زمت كثيرا من المصاحف الموجودة فى قرطبة وفى بلاد المغرب . و فى الشام والحجاز تراجع أخبارها فى المراجع المذيلة بها هذه الصفحة[1] ، ولم يثبت أن عثمان رضى الله عنه كتب بخطه مصحفا .

ولذلك نستطيع الجزم مطمئنين بأن هذا المصحف غير مصحف عثمان رضى الله عنه .

(١) بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ص ٣٤ ، وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٢٣ ، وزبدة كشف الممالك ص ٤٥ ، ونفح الطيب ، ج ١ ص ٣٥٦ ، والرحلة الحجازية ص ٢٤٨ ، ومسالك الأبصار ، ج ١ ص ١٩٥ ، والمقريزى ، ج ٢ ص ٢٥٥

مشهد زيد بن زين العابدين

ميدان زين العابدين (*)

الإمام زيد بن على، المعروف بزين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب رضى الله عنه . كنيته أبو الحسن ، وهو الإمام الذى تنسب إليه الزيدية إحدى طوائف الشيعة . سكن المدينة ، وروى عن أبيه على بن الحسين الملقب زين العابدين ، وكان من أجل أهل البيت عليهم السلام ؛ علما وزهدا وورعا وشجاعة ودينا وكرما .

قال أبو إسحاق (1) السبيعى : رأيت زيد بن على فلم أر فى أهله مثله ولا أعلم منه ولا أفضل . وكان أفصحهم لسانا وأكثرهم زهدا و بيانا . وقال الشعبى : والله ما ولد النساء أفضل من زيد بن على ، ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد ولا أبين قولا ، لقد كان منقطع القرين، وكان دائما يحدث نفسه بالخلافة، ويرى أنه أهل لذلك . وما زال هذا المعنى يتردد فى نفسه، ويظهر على صفحات وجهه، وفلتات لسانه ، حتى كانت أيام هشام بن عبد الملك، فاتهمه بوديعة لخالد بن عبد الله القسرى أمير الكوفة، فأرسله إلى يوسف بن عمر أميرها فى ذلك العصر، فاستحلفه أن ما لخالد عنده مال، ثم خلى سبيله ،فخرج ليتوجه إلى المدينة،فتبعه أهل الكوفة وقالوا له : أين تذهب يرحمك الله ومعك مائة ألف سيف نضرب بها دونك وليس عندنا من بنى أمية إلا نفر قليل وغير ذلك من أنواع الإغراء،فقال لهم : إنى أخاف غدركم . فقالوا له : نعطيك من الايمان والعهود والمواثيق ما تثق به، فإنا نرجو أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان الذى تهلك فيه بنوأمية وما زالوا به حتى أعادوه إلى الكوفة، وأقبلت الشيعة عليه يبايعونه حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة، سوى أهل المداين والبصرة وواسط والموصل وأهل خراسان والرى وغيرها . ولما تم له هذا الحشد وخفقت الألوية على رأسه ، قال : الحمد لله الذى أكمل لى دينى . والله إنى كنت أستحيى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرد عليه الحوض غدا ولم آمر فى أمته بمعروف ولم أنه عن منكر (2) .

ثم إن يوسف بن عمر أمير الكوفة حشد جيوشه ، وخرج لمحاربته ، وجرى بينهم قتال فتفرق أصحاب زيد عنه وخذلوه، وبقى فى شرذمة قليلة فقاتل قتالا شديدا وأبلى بلاء حسنا الى أن سقط شهيدا على أثر سهم أصابه وذلك لليلتين خلتا من صفر سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) .

(*) انظر الصور من رقم ٤٤ — ٤٥ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(1) المقريزى، ج ٢ ص ٤٣٦ (2) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١٨ — ١١٩

أما الطبرى واليعقوبى فذكرا وفاته فى سنة ١٢١ هـ على قول الواقدى، وأما هشام بن محمد فزعم أنه قتل فى صفر سنة ١٢٢ هـ[١] .

وهنا تضاربت الأقوال ؛ فقيل إن أصحابه حفروا له فى ساقية، ودفنوه فيها وأجروا الماء على قبره خوفا من التمثيل به ، ثم أرشد عن قبره يوسف بن عمر أمير الكوفة أرشده عنه حجام حضر مواراته فأخرجه وصلبه، ثم أحرقه وذرى رماده فى الفرات[٢] .

وقيل إنه بعد وفاته حمل الى الكوفة ثم أحرق وذرى نصفه فى الفرات ونصفه فى الزرع . وقال يوسف بن عمر : والله يا أهل الكوفة لأدعنكم تأكلونه فى طعامكم وتشربونه فى مائكم[٣] .

وقيل إنه بعث برأسه الى هشام بن عبد الملك، فنصبه على باب دمشق، ثم أرسله الى المدينة، ثم سار به الى مصر[٤] . وأكد الكندى رواية قدوم الرأس الى مصر[٥]، فى سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) مع أبى الحكم بن أبى الأبيض العبسى . وقيل القيسى .

وشرح رواية دفن الرأس بمصر الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتابه الجوهر المكنون فى ذكر القبائل والبطون ، فقال : « إنه بعد قدوم رأسه الى مصر طيف بها ؛ ثم نصبت على المنبر بالجامع بمصر فى سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) فسرقت ودفنت فى هذا الموضع، الى أن ظهرت و بنى عليها مشهد فى الدولة الفاطمية » .

وعدّ ابن جبير هذا المشهد ضمن مشاهد أهل البيت[٦] حينما زار مصر .

مشهد زين العابدين — عرف قديما بمسجد محرس الخصى ويوجد نص تاريخى ركيك مكتوب فيه بالخط النسخ .

" بسم الله الرحمن الرحيم، هاذا مشهد إمام على زين العابدين ابن إمام حسين ابن إمام على ابن عمران ابن عبد المطلب صلوات الله عليهم أجمعين فى سنة ٥٤٩ " .

وهذا النص مثبت على مدخل المسجد القديم بالوجهة الغربية ، وهو باب مغطى بمقرنصات ذات دلايات شاع استعمالها فى أبواب القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وفتحة هذا الباب صغيرة ومركب عليها مصراع واحد من الجرانيت، محاطة بحلق من الجرانيت أيضا .

وهذا النوع من المصاريع غير مألوف فى مصر، ولعله الوحيد من نوعه فيها فهو يكثر فى بادية الشام، وأشار ابن الشحنة الى وجود مثله فى حلب على مشهد باسم المحسن بن الحسين[٧] بن على بن أبى طالب .

---

(١) الطبرى ، ج ٨ ص ٢٦٠ (٢) الفخرى، ص ١١٩ ، كنوز الذهب فى تاريخ حلب ص ٢٥ خط
(٣) تاريخ اليعقوبى، ج ٣ ص ٦٦ (٤) المقريزى، ج ٢ ص ٤٤٠ (٥) تاريخ مصر وولاتها للكندى ص ٨١ .
(٦) رحلة ابن جبير ص ١٥ . (٧) تاريخ حلب لابن الشحنة ص ٨٦ .

وفى كتاب العمارة فى سوريا الوسطى من القرن الثالث الى السادس الميلادى للماركى دى فوكيه ترجمة حضرة الأستاذ فؤاد مرابط نماذج[1] لهذه الأبواب .

ولا توجد تفاصيل فاطمية فى هذا المسجد سوى عقد فاطمى، من عقود القرن السادس الهجرى بالطرقة الداخلية على يمين الداخل للمصلى .

والمسجد الحالى عدا البقايا السابقة، يرجع الى آخر عمارة أجراها به عثمان أغا أغات[2] مستحفظان سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) فقد جدده و بيضه و زخرفه وأمر بعمل ستر احتفل بوضعه بعد العمارة .

ولم تتناول هذه العمارة القبة لأن قاعدتها مع حطتى مقرنص منها ترجع الى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . أما غطاؤها المضلع فانه يرجع الى إحدى العمارات المتأخرة .

وأعد عثمان أغا لنفسه وللسيدة حرمه مقبرة بالمسجد ما زالت موجودة، كتب عليها :

" المرحوم المغفور له عثمان أغا مستحفظان مصر سابق ، تابع المرحوم سليمان أغا توفى الى رحمة الله تعالى روجيحون فاتحة سنة ١٢٣٩ هـ " .

وعليها شاهد آخر هذا نصه : " هذا قبر المرحومة الست حفيظة زوجة المرحوم عثمان أغا أمير اللواء مستحفظان مصر سابقا توفيت الى رحمة الله تعالى سنة ١٢٤١ هـ " .

وأثبت تاريخ عمارته فى لوح رخامى فوق الباب الخارجى للقبة . وفى سنة ١٢٨٠ هـ أجرى به عمارة المرحوم محمد خفتانى باشا أثبتها فى لوحين : أحدهما على الباب الخارجى ، والآخر على الباب الداخلى ونصه :

"لمحمد خفتانى باشا الأوحدى * فضل به قد ساد كل مسود
فكفاه فخرا أن من خيراته * إتحاف زين العابدين بمعبد
مولى بعمران المساجد مولع * ليفوز بالإسعاد يوم الموعد
ولذاك ناداه القبول مؤرخا * بشراك قد أحكمت أبدع مسجد"

وتناولت عمارته عمل مقصورة حديدية تعتبر نموذجا راقيا لصناعة الحديد فى مصر منذ خمس وثمانين عاما مكتوب عليها : " أنشأ هذه المقصورة سعادة محمد قفطان باشا سنة ١٢٨٠ هـ " .

وعتب باب القبة مكسو بقاشانى أمر بعمله عبد الواحد التازى سنة ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦ م) .

وفى عصر الملك الصالح فاروق الأول جددت وجهة المسجد سنة ١٩٤٤ ، وجدد معها الباب القديم مع المحافظة على تفاصيله القديمة ونصوصه التاريخية .

(١) العمارة فى سوريا الوسطى ص ٩ (٢) الجبرتى، ج ٤ ص ١٢٠

جامع الصالح طلائع

بشارع الدرب الأحمر (*)

ميدان باب زويلة — هذا الميدان حافل بمجموعة أثرية عظيمة من الآثار الاسلامية ، تمثل فيها العصور المعارية المتعاقبة ، إذ يشرف عليه باب زويلة العظيم أحد أبواب القاهرة الفاطمية ، فقد أنشأه بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله عام ٤٨٤هـ (١٠٩١ م) . وفوقه منارتا الجامع المؤيدى المنشأتان سنة ٨٢٢ — ٨٢٣هـ (١٤١٩ — ١٤٢٠م) ، وأمامه زاوية فرج بن برقوق المنشأة سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) . وقبليها منازل وقصبة رضوان المنشأة سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) ، ثم درة هذا الميدان وفخر المساجد الفاطمية جامع الصالح طلائع بن رزيك .

المنشئ — أبو الغارات الملقب بالملك الصالح طلائع بن رُزِّيك . كان واليا لمنية بنى خصيب من أعمال صعيد مصر . ثم ولى الوزارة فى خلافة الفائز بنصر الله الخليفة الفاطمى فى ١٩ ربيع الأول (١) سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، ولقب بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين .

ولما مات الخليفة الفائز وتولى العاضد لدين الله مكانه ، استمر الصالح على وزارته ، وتزوج العاضد ابنته وذلك مما ساعد على امتداد نفوذه فى جميع شئون الدولة (٢) .

وفى عصره ازدهرت الآداب وقرب الفضلاء والشعراء ، واتخذهم جلساء له ، وأجزل لهم العطاء (٣) .

ويقرر ابن الأثير أن الصالح طلائع أرمنى الأصل . وتبعه العينى فى كتابه عقد الجمان ، وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة (٤) .

ويقول ابن خلكان : إنه كان جيد الشعر ، ووقف على ديوان شعره وهو فى جزأين . ومع أن ابن أبى شامة أورد كثيرا من شعره فى كتابه الروضتين ، إلا أنه ينقل عن العماد فى كتابه الخريدة قوله فى صدد بعض القصائد المنسوبة الى طلائع : « وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته وإحكام معانيه ، فيقال : إن المهذب بن الزبير كان ينظم له والجليس ابن الحباب كان يساعده » (٥) .

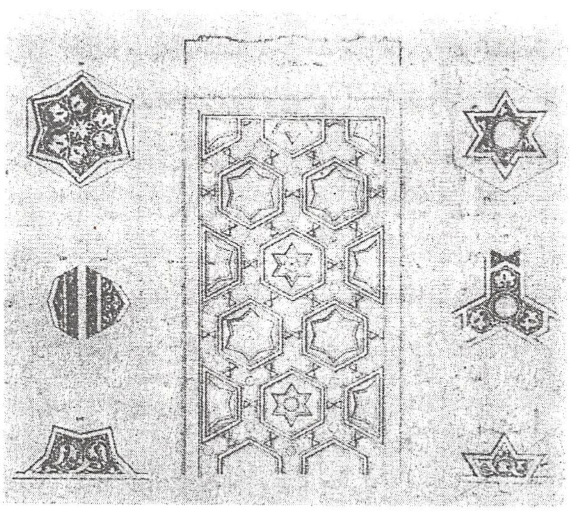
وفى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ، قتل بدهليز القصر الفاطمى ، ودفن بتربته التى أنشأها بجوار مسجده بالقرافة الكبرى .

(*) انظر الصور من رقم ٤٦ — ٥٠ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) ابن خلكان ، ج ١ ص ٣٢٧ . (٢) عقد الجمان مجلد ١٦ قسم ٢ (٣) الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ١ ص ١٢٥ ، مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٢ (٤) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٤٥ ، تاريخ الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ١١١ (٥) الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ١ ص ١٢٠ .

هذا باجماع المؤرخين ، عدا سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان ، وابن تغرى بردى[1] فى النجوم الزاهرة ، فانهما يقولان بوفاته فى رجب من السنة المذكورة . أما ابن أيبك فيقول إنه توفى سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م)[2] . وقبل سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) .

تاريخ إنشاء الجامع — هذا المسجد آخر مسجد أنشئ فى الدولة الفاطمية ، وقد تم إنشاؤه سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م)، وعين زين الدين الواعظ به ، فكان الصالح طلائع يحضر مجلسه . وأقيمت صلاة الجمعة فيه سنة بضع وخمسين وستمائة هجرية . وهو من المساجد الكبيرة ، إذ تبلغ مساحته ١٥٢٢ مترا ، وقد اشتمل على مميزات عمارية قل أن تتوفر فى مسجد فاطمى آخر . وعند بنائه كانت أرضيته مرتفعة عن مستوى الشارع بنحو ٣,٨٠ ؛ وله أربع وجهات مبنية بالحجر ، أسفل ثلاث منها حوانيت ، وأهمها الوجهة الغربية وبها الباب العمومى . وقد أقيم أمام هذا الباب رواق ، محمول على أربع عمد رخامية ، تحمل عقودا حليت حافاتها بالزخارف ، وينتهى من طرفيه بحجرتين . وحلى صدر هذا الرواق وجانباه بزخارف على هيئة مروحة مخوصة ، ونقشت بأفاريزه آيات من القرآن كتبت بالخط الكوفى المزخرف .



سقف الرواق الخارجى

ولهذا الرواق سقف من الخشب حلى بزخارف فاطمية عثر على بقاياها فى عمارة المسجد فأكمل على مثالها . ولعله السقف الفاطمى الوحيد ، إذا استثنينا بقايا السقف بالبيمارستان المنصورى الباقى من القصر الصغير الغربى .

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٤٥ ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٠٤ (٢) درر التيجان قسم ٤ ص ٣٥٨

وكان مركبا على هذا الباب مصراعان ، غشى وجههما بالنحاس المشتمل على زخارف جميلة ، وخلفهما حلى بزخارف محفورة بالخشب ، وقد أودع دار الآثار العربيــة ، و يعتبر أقدم باب نحاسى بمصر ، وقد عمل الباب الجديد على مثاله .

وفى أسفل هــذه الوجهة والوجهتين القبليــة والبحرية حوانيت ســقوفها معقودة وأرضيتها مرتفعة عن الطريق ، وفى الأكتاف الفاصلة بينهما عمد رخامية فى سمك البناء كأربطة لهـا ، وهى طريقة ألفنا رؤيتها فى أبواب القاهرة وأسوارها وأســوار صلاح الدين ، وفى قلعة الصالح نجم الدين بالروضة ، وفى جامع الظاهر بيبرس ، وفى قلعتى قايتباى بالاسكندرية ورشيد ، وقد حليت الوجهتان أيضا بأفاريز كتب عليها آيات قرآنيــة بالخط الكوفى المزخرف ، وحليت عقود الشبابيك بزخارف هندسية . و يتوسط كلا منها باب يوصل الى صحن المسجد .

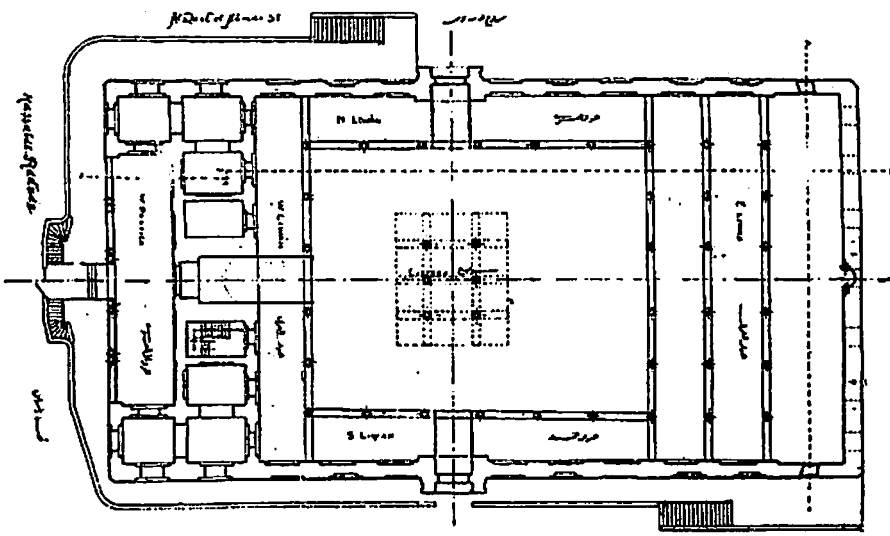
و يعلو الدكاكين إفريز حلى بترابيع مزخرفة ، تنوعت أشكالها تعتبر الثانية من نوعها ، إذ الأولى فى منارة الحاكم بأمر الله ، كما نرى نموذجا آخر لها فى برج الظفر ، ثم فى تربة إسماعيل بن ثعلب ، وأخيرا فى المدرسة الصالحية وكلها نماذج دقيقة تدل على تقدم النقش فى الحجر .

وقد كتب على نهاية الوجهة الغربية وأول الوجهة البحرية تاريخ إنشاء الجامع ونصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المسجد بالقاهرة المعزية المحروسة فى مولانا وسيدنا الإمام عيسى أبى القاسم الفائز بنصر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين السيد الأجل الملك الصالح ناصر الأئمة وكاشف الغمة أمير الجيوش سيف الاسلام غياث الأنام كافل قضاة المســلمين وهادى دعاة المؤمنــين أبو الغارات طلائع الفائزى عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمتــه ونصر ألويته وفتح له وعلى يديه مشارق الأرض ومغاربها فى شهور سنة خمس وخمســين وخمسمائة والحمد لله وصــلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى أمير المؤمنــين على بن أبى طالب أفضــل الوصيين وعلى على ولديه الـ ... الطاهرين أبى محمد الحسن وأبى عبد الله الحســين وعلى الأئمة من ذريتهــم أجمعين وســلم وشرف وكرم وعظم الى يوم الدين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهــم فعل الخيرات وإقام الصــلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين — رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ... " .

وكانت المنارة تعلو الباب الغربى شأن المساجد الفاطمية ، وقد هدمت فى وقت ما وحلت محلها منارة حديثة أزيلت سنة ١٩٢٦ لحدوث خلل بها .

والمسجد من الداخل يتكوّن من أربعة إيوانات يتوسطها صحن كبير، مساحته ٤٥٤,٥٤ متر، به صهريج كان يملأ وقت الفيضان من الخليج. وأهم هذه الإيوانات: الإيوان الشرقى الكبير المكوّن من ثلاثة أروقة ذات عقود محمولة على عمد رخامية. حليت حافات العقود من الداخل والخارج، بكتابة آيات من القرآن بالخط الكوفى المزهر، وفتحت بخواصر العقود دوائر جصية مزخرفة من وجهيها فرغ وسطها بأشكال هندسية. ويعلو كل عقد شباك صغير مفرغ بزخارف نباتية مختلفة.



مســقط أفــقى

والكتابة حول العقود سبقه فيها الجامع الأزهر والجامع الأقمر. وقد حليت الطبالى الخشبية فوق العمد بزخارف مورقة، كما حليت الأوتار بنقوش نباتية سبقه بها جامع الحاكم، وأخرى مكتوب بها آيات قرآنية، وهى تعطى فكرة صحيحة عما كانت عليه النجارة فى هذا المسجد من رقى.

وفى جدار المحراب شبابيك من الجص حديثة، يحيط بها إفريز جصى مكتوب فيه بالخط الكوفى آيات من القرآن. وفى دار الآثار العربية شباك جصى منقول من المسجد، مكتوب فيه بالخط الكوفى المفرغ قوله تعالى: " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم " وهو نموذج لشبابيك الجامع القديمة. أما الشباك بالنهاية القبلية لهذا الجدار المشتمل على كتابات كوفية ونسخية فهو من أثر عمارة الأمير بكتمر الجوكندار[1].

(١) جوكاندار: هو الذى يحمل الجوكان (الصولجان) مع السلطان فى لعب الكرة.

وتسود المحراب البساطة ، يكتنفه الآن عمودان من الرخام الأحمر ، وقد كسى غطاؤه بكسوة من الخشب منقوشة. وهذه الكسوة و إن كان شكل عقدها فاطميا، إلا أنها متأخرة عن بناء الجامع، لأنها قطعت إفريز الشباك المكتوب أعلاها، فلعلها من عمارة الأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) وهو الأرجح .

وهذا المحراب يحتمل أنه كان من الجص مثل بقية المحاريب الفاطمية ، كما يحتمل أنه كان من الرخام، لأنه ثبت أن الفاطميين استعملوه فى محاريبهم. وبه الى الآن قطعة صغيرة من رخام دقيق .

المنبر — وعلى يمين المحراب منبر نفيس ، دقت حشواته وقوائمه ووجها بابه وجانبا سلمه وجلسة الخطيب بالأوية الدقيقة البالغة حد الإتقان ، وقد أمر بعمله الأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) ، ومكتوب عليه فوق جلسة الخطيب : " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون أمر بانشاء هذا المنبر المبارك الجناب العالى الأميرى الكبيرى سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير جندار (1)، وذلك بتاريخ سنة تسع وتسعين وستمئة" .

كما أنه مكتوب على باب المنبر : " أمر بعمارة هذا المنبر المبارك من ماله ابتغاء اوجه الله الكريم المقر العالى الأميرى الكبيرى السيفى سيف الدين مقدم الجيوش بكتمر الجوكندار المنصورى السيفى أمير جندار الناصرى وذلك بتاريخ شهر جمادى الآخر سنة تسع وتسعين وستمئة رحم الله من كان السبب" . وقد جدد سنة ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) .

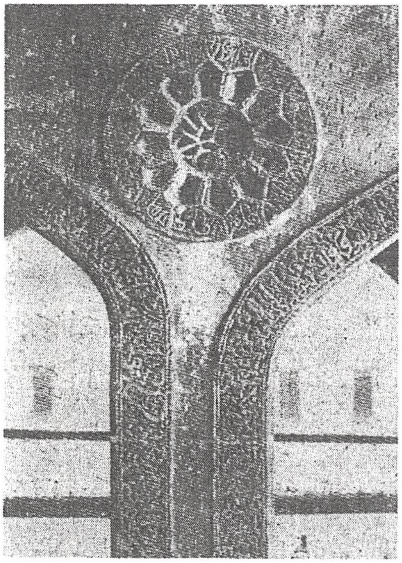
ولا شك أن منبره الأصلى كان من الطرف النادرة، كما تشعر بذلك بقايا نجارة المسجد ، وكما يؤيد ذلك منبره الكامل فى مسجده بقوص .

وكان مركبا على وجه هذا الإيوان مقصورة من الخشب الخرط محلاة بزخارف تفصله عن صحن المسجد ، وباقى الإيوانات الثلاثة يتكون كل منها من رواق واحد .

وكانت جدران تلك الأروقة، محاطة بهيئة عقود جصية، نقش عليها آيات من القرآن بالخط الكوفى، كما تدل بقاياها الموجودة بالجنب البحرى بالجامع . وقد دارت مناقشات بين المرحوم محمود باشا أحمد المدير السابق للآثار العربية ومسيو بوتى الذى كان خبيرا فنيا بها حول صحة إعادة بناء الإيوان الغربى، إذ يرى مسيو بوتى أن بناءه يؤثر على تناسق أبعاد الصحن، ويؤثر على حسن وضع البابين الجانبين ، وهو متلف لهيئة التركيب الإجمالى المكون من محورين عموديين . كما أنه يحتمل حداثة الأساس المكتشف لهذا الرواق عن بقية أسس الجامع .

(1) جاندار : حارس الملك .

ورد عليه المرحوم محمود باشا : بأنه بنى هذا الرواق على أثرعثوره على اساسه كاملا ، وعلى قاعدتين من قواعد أعمدة هـذا الإيوان فى موضعين متقابلين لنظيريهما من قواعد أعمـدة وجهة الإيوان الشرقى . كما أنه لحسن الحظ وجد بإحدى الصـور الفوتوغرافية التى أخذت للجامع قبل تجـديد الوجهة البحرية الرجل البحرية للعقد البحرى من هذا الإيوان متكئة على الوجهة المذكورة ، وبها كتابة كوفية أصلية ، كالتى تحيط بالعقود الأخرى التى لا يشك فى قدمها . وهـذه الرجل بكتابتهـا لاتكفى لإثبات وجود إيوان غربى فحسب ، بل وتدل على أنه من إنشاء الصالح طلائع نفسه .



الكتابة حول العقود ودوائر خواصرها

ثم قال : ولو فرض وصحت حداثة عهد بناء أساس الإيوان الغربى ، فانه بعد مضى هـذه المدة الطويلة على بنائه ، يكون قد اكتسب حق البقاء والقرار ، أسوة بغيره من الأجزاء التى أضيفت الى بعض الأماكن الأثرية بعد إنشائها .

وعن الاعتراض الخـاص بتماثل الصحن ، الذى ينحصر فى أنه إذا جدّد الإيوان الغربى بحيث يصير للجامع أربعة إيوانات ، فان تماثل الصحن بالنسبة للبابين البحرى والقبلى يختل ، أى أن جزأه الكائن غربى هذين البابين ، يصير أصغر من جزئه الكائن شرقيها ، بخلاف ما اذا لم يجدّد الإيوان ، فان قسمى الصحن يكونان متساويين . وهى ملاحظة وجيهة من ناحية قواعد هندسة البناء فقط ، لكنها قليلة الوجاهة من الناحية الأثرية ، فان تماثل الصحن قد ضحى بأكمله فى مسجد الماردانى وفى غيره .

عمارة الأمير بكتمر الجوكندار — وفى سـنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) أصاب مصر زلزال كبير تصدّع منه كثير من المساجد ، فقام بعمارة هذا المسجد الأمير بكتمر الجوكندار . غير أن الكتابة الموجودة على المنبر ، أثبتت علاقة هذا الأمير وعنايته بالمسجد قبل الزلزال أيضا بنحو أربع سنوات .

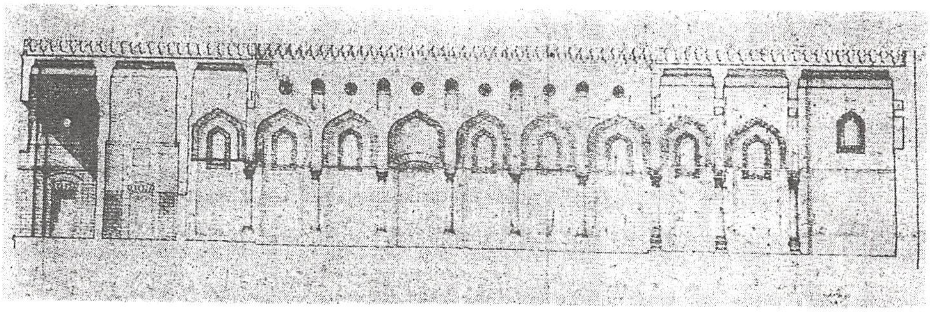
وفى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) أجرى به عمارة عبد الوهاب العينى أحد التجار[(١)] .

عمـارة الأمير يشبك من مهدى — وفى سـنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م) ، كانت الأرض قد ارتفعت عن منسوب باب زويلة وعن هذا الجامع[(٢)] ، فقام الأمير يشبك من مهدى دوادار الملك

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١١٨ طبع كلفرنيا .
(٢) الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٢٧٤ ، ابن إياس ج ٢ ص ١٧٧ ، والنزهة السنية ص ١٣٥

الأشرف قايتباى، بالكشف عن عتبة باب زويلة وعن سلم هـذا الجامع ، فانكشفت الدرجات التى كانت مردومة وعدتها عشر، كما ظهرت العمد ، وأزال ما كان بوجهته من أبنيـة وأجرى به إصلاحات .

عمارة لجنة حفظ الآثار العربية — أدركت لجنة حفظ الآثار العربية هـذا المسجد بحالة سيئة جدا ، فالدكاكين أسفله احتجبت تحت الأرض ، وأقيمت المنازل والدكاكين بداخله ولصق وجهاته فأخفتها، كما تهدمت الإيوانات حول الصحن ، ولم يبق منها سوى الإيوان الكبير، فوضعت برنامجا كاملا لتخليته منـذ سنة ١٩١١، وفى سنة ١٩١٥ م تسنى لها السير فى نزع الملكية، وأعيدت الأرض الى مستواها، وظهرت الدكاكين، وعمل أمامها خندق، ثم نزعت ملكية المنازل وهدمت ، فانكشفت الوجهتان وفكت و أعيـد بناؤهما ، وكمل الناقص منهما ، مع المحافظة على الأجزاء القديمة جهد المستطاع .



قطاع طــولى

وقـد ساعدت التخلية والوصول بالمسجد الى مستواه الأصلى، على كشف سلم الجامع القـديم بوسط الوجهـة الغربية ، وانكشفت تفاصيل جديدة من نظام بناء الوجهات ساعدت على إعادة بنـاء الرواق الخارجى أمام الوجهة الغربية بعمده ، كما أمكن بنـاء ثلاث وجهات مع المحافظة على تفاصيلها القديمة على قدر الامكان .

والى الآن توجد بين الأنقاض الأثرية المخلفـة من الجامع ، بقايا محاريب صغيرة ، يرى مسيو بتريكولو الباشمهندس الأسبق للاثار العربية أنها كانت تكتنف الباب الكبير .

وفى هـذا العام تم إصلاح بقيـة الوجهة البحرية وما ظهر من بقايا ملحقة بهـا فى النهاية الشرقية ، وامتد الخندق لنهايتها .

المسجد ورأس الحسين — روى المقريزى نقلا عن ابن عبد الظاهر أن الصالح طلائع بنى هـذا الجـامع ليدفن فيه الرأس الشريف . فلمـا فرغ منه ، لم يمكنه الخليفة من ذلك . وقال لا يكون إلا داخل القصور الزاهرة ، وبنى المشهد الموجود الآن[1] .

وتبعه فى هذه الرواية القلقشندى . وقال إن الخليفة الفائز تغلب عليه وأمر ببناء المشهد الحالى[2] .

ومنذ سنوات ، ظهرت بقايا أبنية متصلة بالنهاية الشرقية للوجهة البحرية للجامع ، كانت محتجبة خلف منزل ودكان . وقد نزعت ملكية المنزل وهدم سنة ١٩٤٥ ، فاتضح أن هـذه البقايا متصلة بأبنية الوجهة البحرية وهى من نوعها ، كما ظهر بها باب كبير اجتمعت فيه تفاصيل أبواب المسجد من مزررات ونقش وكتابة كوفية حول عقده .

وبالسور الذى يربط هذا الباب بالوجهة باب فى مستوى أبواب الدكاكين ، يؤدى الى ما خلف الجدار الشرقى ، كان له نظير فى النهاية القبلية الشرقية . كما ظهر أسفل مدخل الباب الجديد بخوة كبيرة لعلها دكان أو مخزن ، لمـا عتب مزرر مثل أبواب الدكاكين ، وفى ارتفاعها يتصل بوجهتها جدار حجرى يمتد قليلا الى الجهة البحرية ، لعل سلم هذا الباب كان يقوم عليه .

ومكتوب أعلى الجدار المذكور ابتداء من الناصية الشرقيـة للمسجد فى إفريز أصغر من مثيـله فى الوجهة البحرية بالخط الكوفى ما نصه : " بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه الى قوله تعالى يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك فتى مولانا وسيدنا عبد الله أبو محمد ... " .

وقد انقطعت الكتابة عند آخر فتحة الباب وفقدت .

ويقـرأ حول عتب الباب قوله تعـالى : " بسم الله الرحمن الرحيم ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين " .

وهذه الكتابة مع كتابة الوجهة البحرية المتصلة بهذه البقايا واشتمالها على اسم الحسن والحسين ، وقوله تعالى : ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ تحدو بى الى الأخذ برواية المؤرخين .

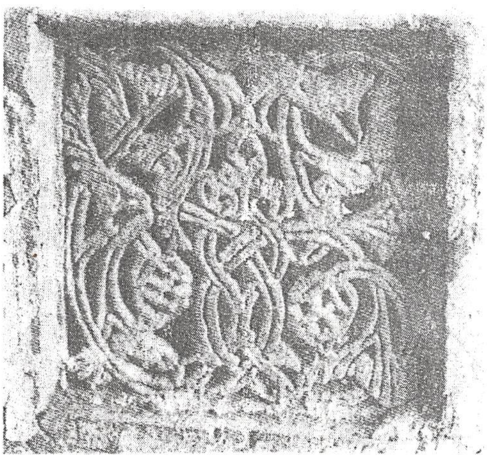
ولمـا كان تصميم المساجد الفاطمية لا تشتمل على مدافن ، فمن المعقول أنه بدأ بإنشاء المشهد بجوار المسجد ، وتكون تلك البقايا باقية منـه خصوصا أن الاية الشريفة المكتوبة على بابه : ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾ جرت العادة بأن تكتب على مداخل المدافن .

(١) المقريزى ، ج ٢ ص ٢٩٣ — (٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٥١

ولعل ما كتبه ابن دقماق فى هذا الصدد يفيد إلى حدّ ما . فقد كتب عن الصالح طلائع : وهو الذى بنى جامع الصالح بظاهر باب زويلة، وبنى مشهد الحسين[1] عليه السلام فى سنة ٥٥٣ هـ . فهذه الفقرة يجوز إطلاقها على هذا المشهد .

بقيت مسألة الصلة التى تجمع المشهد بالمسجد ، وقد ضاعت معالمها بسبب عمل الخندق الشرقى وتجديد أكثر الجدار الشرقى ، الذى كان يوصل إلى المشهد .

ومن الاطلاع على المسقط الأفقى الذى عمله پريس دافين[2] حوالى سنة ١٨٥٠ م للجامع، يتبين وجود بابين فى طرفى جدار المحراب من المرجح أنهما كانا يوصلان إلى المشهد المذكور .



أحد الشبابيك فوق العقود

(١) الجوهر الثمين مجلدا ص ٤٨

(٢) الفن العربى مجلد ٢ لوحات .

قبة ومسجد الامام الشافعى

شارع الإمام الشافعى (*)

الإمام الشافعى ــ محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب الشافعى القرشى رضى الله عنه ، ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) وحمل من غزة إلى مكة وهو ابن سنتين فنشأ بها وقرأ القرآن الكريم . وكان آية فى الفهم والحفظ ، واجتمع له من الفضائل ما لم يجتمع لغيره . ومذهبه ثالث المذاهب الأربعة فى القدم (١) . أخذ عن الإمام مالك ، ثم استقل بمذهب خاص ، ودخل إلى العراق بعد مالك ، ولقى أصحاب الإمام أبى حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق ، وخالف مالكا رحمه الله فى كثير من مذهبه .

ويذكر أصحاب الطبقات أن ظهور مذهبه كان أولا بمصر ، وكثر أصحابه بها ، ثم ظهر بالعراق وغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان والشام واليمن وغيرها . وكان أكثر المصريين أحنافا ومالكية ، فلما قدم إليها الإمام الشافعى انتشر بها مذهبه .

كان رضى الله عنه كثير المناقب جم المفاخر (٢) ، عالما بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضى الله عنهم وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء .

قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : ماعرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى . وقد أجمع علماء الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو والقراءات على ثقته وأمانته وعدله وزهده وعلو قدره . وقال الزعفرانى : « كان أصحاب الحديث رقودا حتى جاء الشافعى فأيقظهم فتيقظوا » .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : « قلت لأبى : أى رجل كان الشافعى ؟ فانى سمعتك تكثر من الدعاء له . فقال : يا بنى ، كان الشافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن ، فهل لهذين من خلف أو عنهما من عوض ! » وقال يونس بن عبد الأعلى : «لو جمعت أمة لوسعهم عقل الشافعى» (٣) .

قدم مصر سنة ١٩٩ هـ . وقيل ٢٠١ هـ (٨١٦ م) . ونزل بها ضيفا على أبى عبد الله بن الحكم الفقيه المالكى المصرى . وأخذ عنه مجموعة من العلماء ، ولم يزل بها الى أن توفى يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) . ودفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم بالقرافة الصغرى .

(*) انظر الصور من رقم ٥١ — ٥٦ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة ، ص ٢٨ (٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ١ ص ٦٢٧

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ١٧٧

وقد ظلت هـذه المقبرة موضع تكريم الزائرين يقصدونها بالزيارة والتبرك بهـذا الإمام العظيم . غير أنها بقيت ساحة حتى عنى بها صلاح الدين[1]، كما عنى بنشر مذهبه . ففى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) بنى تربة الشافعى رضى الله عنه، وهى أول عمارة على قبره حدثنا عنها المؤرخون[2] .

وفى سنة ٥٧٢[3] هـ (١١٧٦ م) شرع صلاح الدين فى بناء المدرسة الصلاحية بجوار قبر الشافعى، برسم الفقهاء أصحاب الشافعى . وكان الفراغ منها فى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) وعرفت بتاج المدارس؛ فقد كانت معقلا لنشر مذهب الشافعى .

وقد زارها الرحالة ابن جبير عقب الفراغ من بنائها و وصفها بقوله :

« مشهد الإمام الشافعى رضى الله عنـه ، وهو من المشاهـد العظيمة احتفالا واتساعا . وبنى بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ويخيل لمن يتطوف فيها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها حمـام ؛ الى غير ذلك من مرافقها . والبناء فيها حتى الساعة والنفقة عليها لا تحصى . تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهـد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى . وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ، ويقول زد احتفالا وتأنقا وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله، فسبحان الذى جعله صلاح دينه كاسمه[4] » .

وقد تعاقب على التـدريس فيها أئمة علماء المذهب حتى نهاية القرن التاسع الهجرى[5] (الخامس عشر الميلادى) .

وقد كانت موضـع رعاية ملوك مصر وأمرائها . فقـد جدّدها السلطان قايتباى[6]، كما جدّدها صاحب الخيرات الأمير عبد الرحمن كتخدا[7] سنة ١١٧٦ هـ (١٧٦٢ م) ، وأنشأ سبيلا على يسار باب القبة باقية وجهته حتى الآن هى والكسوة الرخامية للباب الخارجى للقبة بمصراعيه المغشيين بالفضة، ونقش على أعتاب باب المسجد الذى كان جدّده محل المدرسة الصلاحية ما نصه :

"مسجد الشـافعى بحـر عـلوم * أشرقت شمسـه بنـور محمـد"

وعلى عتب آخر :

"أكرم به من مسجد مصـباحه * كنز الهدى المولى الهمام الشافعى"

وعلى يسار باب القبة قطعة مستديرة من الرخام الأسود اللامع محاطة باطار رخامى مزخرف تعتبر أنظف قطعة من نوعها .

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ١٧٧ (٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ج ٤ ص ٢٣٩
(٣) منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماه ص ٢٧٣ ، مفرج الكروب ج ١ ص ١٩٦
(٤) رحلة ابن جبير، ص ١٧ و ١٨ (٥) حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٨٦ طبع الوطن .
(٦) التبر المسبوك، ص ٤٤ (٧) الجبرتى، ج ٢ ص ٦

وتخلف من المدرسة الصلاحية النص التاريخى المكتوب بالنسخ الأيوبى المتضمن انشاءها ، وهو مودع دار الآثار العربية ونصه : "بنيت هذه المدرسة باستدعاء الشيخ الفقيه الإمام اا ... الزاهد نجم الدين ركن الإسـلام قدوة الأنام مفتى الفـرق أبو البركات بن الموفق الخبوشانى أدام الله توفيقه لفقهاء أصحاب الشافعى رضوان الله عليه الموصوفين بالأصولية الموحدة الأشعرية على الحشوية وغيرهم من المبتدعة وذلك فى شهر رمضان سنة خمس وسبعين وخمس مائة". كما بقى منها مصراعان مغشيان بالنحاس مودعان دار الآثار العربية .

ثم أمر المغفور له الخديو توفيق باشا بتجديد المسجد ؛ فتم تجديده فى سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) على ما هو عليه الآن . وهو مسجد جميل ، وجهاته مبنية بالحجر، وحليت أعتاب الشبابيك بكتابات كوفية . وله منارة رشيقة عملت على مثال المنارات المملوكية . ومنبره مطعم بالسن والآبنوس . كان الفراغ من عمله سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م) .

تابوت الشـافعى — وقد بقى من عمارة صلاح الدين الأولى لقبر الشافعى تابوت فاخر من الخشب مستطيل ، غطاؤه هرمى ، حافل بالنقوش والكتابات الكوفية والنسخية، وجميـع وجوه هذا التابوت مكونة من أطباق عربية كبيرة ، منقوشة بزخارف نباتية دقيقة ، من غصون مفرعة، وأوراق مفرقة، فى مجاميع متماثلة، تتخللها أشكال نجمية ومسدسة .



توقيـــع النـــجار

ومن أهم الكتابات به النص المشتمل على تاريخ صناعة التابوت واسم الصانع وهو : "عمـل هـذا الضريح المبارك للامام الفقيه أبى عبد الله محمـد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيـد بن عبد يزيد بن الهاشم بن المطلب بن عبد مناف رحمه الله . صنعت عبيد النجار المعروف بابن معالى ، عمله فى شهور سنة أربع وسبعين وخمس مائة ، رحمه الله ورحم من ترحم عليه ودعا له بالرحمة ولجميع من عمل معه من النجارين والنقاشين ولجميع المؤمنين". وحول هذا التابوت مقصورة خشبية منقوشة، عملتها لجنة الآثار العربية لحماية هذا التابوت سنة ١٣٢٩ هـ .

وابن معالى هذا من أسرة نبغت فى صناعة النجارة ، رأيت اسم أحد أفرادها على منبر نورالدين الشهيد فى المسجد الأقصى بهذا النص : "صنعة سلمان ابن معالى" .

وعلى رأس هذا التابوت كتابة تاريخية بالخط الكوفى نصها : "بسم الله الرحمن الرحيم وأن ليس للانسان إلا ما سعا وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى هـذا قبر الفقيه الامام أبى عبد الله

محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن الهاشم بن المطلب ابن عبد مناف . ولد رضى الله عنه سنة خمسين ومائة وعاش الى سنة أربع ومائتين ومات يوم الجمعة آخر يوم من رجب من السنة المذكورة ودفن من يومه بعد العصر ".

وأمام القبر عمود من رخام مكتوب عليه بالخط النسخ ١٦ سطرا نصها : " بسم الله الرحمن الرحيم وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى هذا قبر السيد الامام أبى عبدالله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ابن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف جدّ النبي صلى الله عليه وسلم ولد رضى الله عنه سنة خمسين ومائة وعاش الى سنة أربع ومائتين ومات يوم الجمعة آخر يوم من رجب من السنة المذكورة ودفن من يومه بعد العصر رضى الله عنه وأرضاه آمين " .

وهذا الشاهد استعمل للمرة الثانية لغرض واحد ؛ فقد وجدت على وجهه الآخر كتابة لم تنشر قبل اليوم مكتوبة بالخط الكوفى ونصها : " بسم الله الرحمن الرحيم وأن ليس للانسان إلا ما سعا وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى هذا قبر الفقيه أبى عبد الله محمد بن إدريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب ولد رضى الله عنه سنة خمسين ومائة وعاش الى سنة أربع ومائتين ومات يوم الجمعة فى آخر يوم من رجب من السنة المذكورة ودفن من يومه بعد العصر رضى الله عنه ".

ولاشك أن هذا النص أقدم نص تاريخى باق فى المشهد؛ فهو مكتوب فى العصر الفاطمى، خصوصا أنه خال من لقب الإمام. ووجدت فى تاريخ دمشق لابن عساكر [١] أول لوحة تاريخيه كانت على قبره ونصها:

" هذا قبر محمد بن إدريس الشافعى وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور وأن صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمر وهو من المسلمين عليه يحيي وعليه مات وعليه يبعث حيا إن شاء الله وتوفى أبو عبد الله ليوم بقى من رجب سنة أربع ومائتين " .

وقد دفن فى قبة الشافعى أيضا من أسرة صلاح الدين زوجته الملكة شمسة، وابنه العزيز عثمان؛ ولكن قبريهما غير محددين . ولعلهما فى المقبرة المحاطة بالمقصورة المطعمة بالصدف والزرنشان وكانت هذه المقصورة حول قبر الشافعى . وعليها اسم صانعها بما نصه : " عمل عمر " .

القبــة — فى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) أنشأ هـذه القبة السـلطان الملك الكامل محمـد ابن العادل لمـا دفنت أمه هنـاك . وهى قبـة كبيرة من أجل القبـاب وأجملها بمصر . فكما تفنن

(١) تاريخ دمشق ج ١٨

المهندس فى زخرفتها ونقوشها، بذل قصارى جهده فى تخفيف كتلة البناء الضخمة التى سيحملها مربع القبة. وحليت من الخارج بزخارف وكتابات وشرفات مسننة منقوشة.

وهذه القبة خشبية ومكسوة بالرصاص، ولعلها أقدم قبة خشبية. وقد عملت على مثالها قبة جامع الظاهر بيبرس البندقدارى، ومن القباب الخشبية أيضا قبة المدرسة الناصرية بالنحاسين، فقبة السلطان حسن قبل هدمهما.

وقد كسيت جدرانها من الداخل بالرخام. وفى جدارها الشرقى ثلاثة محاريب، طواقيها خشبية منقوشة. ثم محراب رابع أحدث لتصويب القبلة.

ويحيط بالمربع إفريز خشبى منقوش بزخارف بارزة، كما يحيط بها إفريز آخر أسفل رجل المقرنص مكتوب به بالخط الكوفى آيات من سورة يس، وباقى القبة منقوش. ومكتوب بالخط الكوفى الأندلسى بدائرها العلوى آية الكرسى.

وقد دون تاريخ إنشائها فى سطرين فوق العتب الخشبى للشباك الغربى للقبة، بما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك الكامل محمد بن مولانا السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك فى يوم الأحد لسبع خلون من جمادى الأولى من سنة ثمان وستمائة ... الله ...".

ولم يكن الكامل فى هذا الوقت سلطانا لمصر، بل كان والده الملك العادل هو السلطان. وهذا يساعد على الأخذ برواية من قال من المؤرخين: «إن أم الكامل هى التى عمرت قبة الشافعى على ما هى عليه، وأجرت الماء من بركة الحبش الى القبة المذكورة»[1].

وبالقبة تابوت آخر فوق قبر أم الملك الكامل لا يقل فى أهميته عن تابوت الشافعى، حليت جوانبه الأربعة بحشوات دقت بالأويمة ذات الفروع النباتية، تتوسطها حشوات نجمية اثناعشرية، آية فى الدقة والجمال. ومكتوب بقوائم الرأس القبلية بالخط النسخى المزخرف ما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر السيدة الشهيدة المرحومة الفقيرة الى رحمة ربها والدة الفقير الى رحمة ربه محمد ولد مولانا السلطان الملك العادل العامل العابد المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين قامع الخوارج والمتمردين قاهر الكفرة والمشركين أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين اللهم أقم بهما منار الحق وأعله واجعل[2] أيامهما عامت البركات على الإسلام وأهله وأدم إعزاز الدين بماضى عزمهما ونصله وأذق عدوهما نار انتقامك

(١) الجوهر الثمين مجلد ٢ ص ٩١ (٢) فى الأصل واجعل.

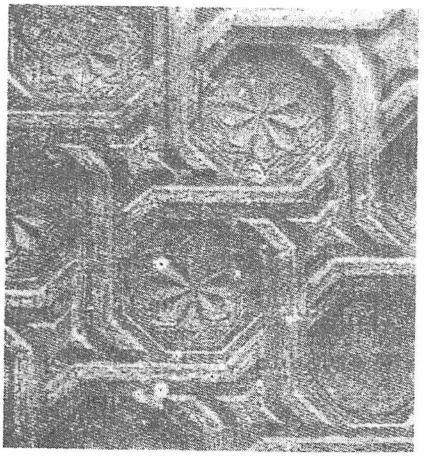
وأصله برحمتك يا أرحم الراحمين وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين . توفيت الى رحمة ربها ورضوانه قبل الفجر من الليلة التى صبحها يوم الأحد الخامس والعشرين من صفر سنة ثمان وستمائة قدّس الله روحها ونور ضريحها وأسكنها الجنة مع المتقين " .

ويلاصق مقصورة الشافعى مقصورة خشبية بسيطة حول قبر يقال إنه لأولاد ابن عبد الحكم .

وفى سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠م) أمر السلطان(١) قايتباى باصلاح القبة ، وعهد بعمارتها الى الخواجا شمس الدين بن الزمن . وقد ذكرت هذه العمارة فى كتابة تاريخية بوزرة القبة نصها : " أمر بتجديد هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره . وكان الفراغ من ذلك فى شهر جمادى الآخر سنة خمس وثمانين وثمانمائة من الهجرة الشريفة النبوية " .

وإذا كان ابن إياس لم يبين الأعمال التى أجراها قايتباى ؛ فقد أوضحها السخاوى فى ترجمة ابن الزمن بين الأعمال المعمارية التى أشرف عليها فقال : « ... وعمر قبة الإمام الشافعى وجدد رخامها وزخرفتها(٢) » .

وكذلك جددها الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وكتب على الوزرة ما نصه : " أمر بتجديد هذه القبة المباركة السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى عز نصره " .



سقف الشباك

وفى سنة ١١٨٦ هـ (١٧٧٢ م) أجرى بها على بك الكبير عمارة كبيرة . فقد كشف ما عليها من الرصاص القديم من أيام الملك الكامل وقد تشعث ، فجدد ما تحته من خشب القبة البالى بغيره من الخشب النقى الحديث . ثم كساه بالرصاص ، وجدد نقوش القبة من داخل بالذهب واللازورد(٣).

وقد دون تاريخ هذه العمارة على مربع القبة بما نصه : " أمر بتجديد هذه القبة المباركة على التخصيص وتشييد أفنان وضعها بفنون النقش والترصيص عزيز مصر وحاكمها من ثبت أحكامه فى أقاليمها ومعالمها المتوكل على الله مولانا القائم فى الرعية بما يحبه ويرضاه على الاسم والقدر والجاه الحاكم بأمر الله أيد الله بالنصر لواءه وخلد عزه وبقاءه وخذل

(١) ابن إياس ج ٢ ص ١٩٨ و ٢٠١ (٢) الضوء اللامع ، ج ٨ ص ٢٦١ (٣) الجبرتى ، ج ١ ص ٣٨٢

أضداده وأعداءه وبلغه قصده ورجاه إنه الملك اللطيف ببركة صاحب هذا المقام الشريف وذلك فى افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف من الهجرة أدام الله عزه ونصره" .

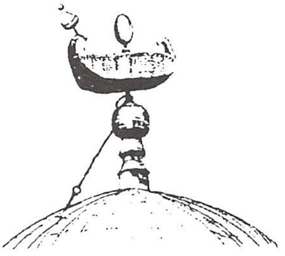
وقد حافظ أثناء عملية النقش على الكتابة الكوفية الأندلسية بقطب القبة، ويسترعى النظر معبرة الباب الغربى (شباك) المتخذة من قصع غير مقعرة وهو باكورة لهذا النوع من السقوف . ويلاحظ فى مصراعى هذا الشباك أن الوجه مكون من حشوات مسدسة، والظهر من حشوات مربعة ومستطيلة، منقوشة ومكتوبة بالكوفى، وعلى باب القبة مصراعان آخران من الخشب المجمع، دقت حشواتهما بالأويمة الجميلة على مثال دقة تابوت أم الكامل، لها صنوان مثلهما نقلا الى مسجد الإمام الليث .

ومنقوش على هذين المصراعين فى أربع حشوات تاريخ الفراغ من القبة " وذلك لسبع خلون من جمادى الأولى من سنة ثمان وستمائة" . وهذه الابيات :

الشافعى إمام الناس كلهم * فى العلم والحلم والعلياء والباس
له الإمامة فى الدنيا مسلمة * كما الخلافة فى أولاد عباس
أصحابه خير أصحاب ومذهبه * خير المذاهب عند الله والناس

ومن مآثر المغفور له محمد على باشا أنه فى سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٤ م) أنشأ مجراة توصل الماء إلى ميضأة مسجد الشافعى، و إلى مدفن الأسرة الذى أنشأه خلف الشافعى .

العشارى فوق القبة — اشتهرت قبة الشافعى بالعشارى[1] فوقها، وهو مركب صغير مثبت فى هلال القبة، تتدلى منه سلسلة حديدية، يقال : إنها أعدت ليتسلقها من يريد الوصول إلى هذا المركب لوضع الماء والحبوب للطيور، على ما يزعمون وهو ما يصعب تصديقه . وهذا المركب موضوع فى هلال القبة منذ إنشائها، لأن الإمام البوصيرى صاحب البردة المتوفى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) عاينها وقال فيها :



المركب فوق القبة

بقبة قبر الشافعى سفينة * رست فى بناء محكم فوق جلمود
ومذ غاض طوفان العلوم بقبره اسـ * ـتوى الفلك من ذاك الضريح على الجودى

(١) العشارى : مركب صغير خاص بالنيل والخلجان، منه ما هو خاص بالملك ومنه ما هو خاص بكبار الدولة، وهو ذو ألوان لطيفة .

وتبعه شعراء القرنين الثامن والتاسع الهجرى (الرابع عشر والخامس عشر الميلادى) فى وصفها؛ فقد أنشد فيها الأديب الكاتب ضياء الدين أبو الفتح موسى بن ملهم[1] :

مررت على قبة الشافعى * فعاين طرفى عليها المشارى
فقلت لصحبى لا تعجبوا * فان المراكب فوق البحار

وقال علاء الدين أبو على عثمان بن إبراهيم النابلسى :

لقد أصبح الشافعى الاما * م فينا له مذهب مذهب
ولو لم يكن بحر علم لما * غدا وعلى قبره مركب

ومن هذه الأشعار نستنتج أن هذا المركب قد يكون رمزا لعلم الامام الشافعى، لأنه بحر العلوم. وأول من أشار إلى أن هذا المركب أعدّ لوضع الحبوب به هو بهاء الدين العاملى، وقد زاره سنة ٩٩٢ هـ (١٥٨٤ م)[2]، وتبعه الرحالة عبد الغنى النابلسى فى رحلته «الحقيقة والمجاز» فقد زار مصر سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٢ م) وقال :

ورأينا على قبة الإمام الشافعى من جهة الخارج سفينة من خشب مربوطة بالهلال يوضع فيها الحب للطيور ثم أنشد[3] :

يا قبة للامام الشافعى زهت * بها القرافة فى مصر لهيبته
لو لم يكن تحتها بحر العلوم لما * سفينة الحب كانت فوق قبته

وتبعهما فى رواية إعداد هذا المركب للحبوب المرحوم على باشا مبارك[4]؛ فقد وصف المركب بأنه يسع قدر نصف إردب من الحبوب لأكل الطيور .

منشأ العشاريات على القباب والمنارات — لم تكن العشاريات مقصورة على قبة الشافعى، فقد كانت موجودة بهلال منارة الجامع الطولونى، وبقيت بها إلى أن سقطت سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣م)[5].

وقد قرر كوربت بك عند ما كتب عن الجامع الطولونى ومنارته والعشارى الذى كان عليها أنه رأى بالأقاليم، وفى مدينة رشيد عدة مراكب فوق مناراتها[6]. وقد زرت كثيرا من هذه البلاد فلم أجد مراكب على مناراتها . وإنما لاحظت فى الأضرحة الموجودة على النيل مراكب صغيرة من الخشب أو الورق تعلق فوق المقاصير .

وقد رأيت بهلال القبة القبلية فى خانقاه فرج بن برقوق بالصحراء مركبا صغيرا باقيا حتى الان لا سبيل للوصول اليه . مما يعزز أن هذه المراكب ما هى إلا نوع من الأهلة، لا لوضع الحبوب للطيور .

(١) المقريزى، ج ٢ ص ٤٦٢ (٢) الكشكول ص ١٦ (٣) الحقيقة والمجاز، ص ٦٤
(٤) الخطط الجديدة، ج ٥ ص ٢٥ (٥) الجبرتى، ج ١ ص ٢٥ (٦) الجامع الطولونى، ص ٨٣

مدرسة وقبة قلاوون

بشارع المعز لدين الله (النحاسين)[*]

المنصور قلاوون — هو السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى[1] الصالحى أحد مماليك الأتراك البحرية . اشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقى العادلى بألف دينار . ثم امتلكه الصالح نجم الدين سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) بجعله من جملة البحرية ، وترقى فى الوظائف إلى أن عين أتابك العساكر[2] .

وفى سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) عين ملكا على مصر ولقب بالملك المنصور ، فكان عصره عصر رخاء ورفاهية ، انتعشت فيه الفنون وازدهرت العمارة ، وقد ألغى كثيرا من المكوس ، وحارب التتار وهزمهم فى حمص ، كما هزم الصليبيين فى مواقع كثيرة واستخلص منهم بلادا إسلامية . وغزى النوبة .

انتقل إلى رحمة الله تعالى ليلة السبت ٦ من ذى القعدة سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) بعد أن حكم إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر[3] ، ودفن فى تربته التى أنشأها فى شارع بين القصرين .

أقيمت هذه المجموعة على رقعة من أرض القصر الفاطمى الصغير الغربى . وكان على جزء منها قاعة كبيرة لست الملك أخت الحاكم بأمر الله ، ثم آلت ملكيتها إلى الأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية .

ولقد غلب اسم البيمارستان[4] على هذه المجموعة ؛ لأنه السبب فى إنشائها . ذلك أن المنصور قلاوون وقت أن كان أميرا سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) أصابه وهو بدمشق مرض ، فعولج بأدوية أخذت له من بيمارستان نور الدين الشهيد . وبعد إبلاله من مرضه زار البيمارستان . فأعجب به ونذر إن آتاه الله ملك مصر أن يبنى بها بيمارستانا .

فلما ولى الملك شرع بالوفاء بنذره ، ووقع اختياره على الدار القطبية وغيرها لإنشاء بيمارستان ومدرسة وتربة ، وعهد إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى بالتنفيذ . فقد كان خبيرا بالعمارة .

(*) انظر الصور من رقم ٥٧ — ٦٤ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الألفى لأنه اشترى بألف دينار . (٢) أتابك أكبر الأمراء المقدمين .

(٣) المنهل الصافى ، وفوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٣ ، وابن إياس ج ١ ص ١١٩ ، والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٦

(٤) بيمارستان — كلمة فارسية مركبة من « بيمار » أى مريض ، ومن ستان أى محل . ويقال له بالتركية « خسته خانه » . ويؤثر عن عبد الملك بن مروان أنه أول من اتخذ البيمارستانات .

كان الأمير سنجر الشجاعى متعسفا غشوما ؛ فقد حشد إلى العمارة ثلثمائة أسير، كما حشد جميع الصناع ، وأمرهم جميعا بالعمل فى هذه العمارة ومنعهم من العمل فى غيرها. ثم عمد الى قلعة الصالح نجم الدين بالروضة ونقل منها ما احتاج إليه من عمد جرانيتية و رخام وغيرها .

وكان البدء فى هذه العمارة فى شهر ربيع الاخر سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٣ م) . والفراغ منها فى جمادى الأولى سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٤ م) . أى أن القبة والمدرسة والبيمارستان استغرق بناؤها ١٤ شهرا. ولم يكن هذا تقدير المؤرخين فحسب، بل نقش ذلك على عتب الباب الرئيسى بما نصه : " أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة والمدرسة المباركة والبيمارستان المبارك مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى وكان ابتداء عمارة ذلك فى ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة والفراغ منه فى جمادى الأول سنة أربع وثمانين وستمائة " .

كما نقش على بقية المجموعة تاريخ البدء والفراغ من أجزائها . وهى مستندات قوية ، ولكن عظم مساحة هذه المجموعة وكثرة زخارفها ودقتها تجعلنى أتشكك — كما تشكك غيرى (١) — فى تصديق ذلك . وكل ما أستطيع الأخذ به أن هذه التواريخ كتبت عند الفراغ من كتلة البناء أو الوجهات لا الزخرف. وقد قوى هذا الشك عندى وعززه اختلاف المؤرخين فى تاريخ دفنه بقبته . فقد ذكر كثير منهم أنه دفن بها غداة وفاته . وقال اثنان بخلاف ذلك : أولهما مفضّل بن أبى الفضائل الذى يقرر أنه فى ١٠ محرم سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) نقل السلطان الشهيد المنصور من القلعة ودخلوا به من باب البرقية وصلوا عليه بجامع الأزهر، وحمل الى تربته ودفن بالقبة (٢) . وثانيهما ابن الفرات فى حوادث سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) إذ يقرر أن المنصور قلاوون حينما اعتزم السفر الى عكا ونزل بخيمه فى منزلة مسجد التبر (٣)، وكان عليلا اشتد مرضه فبقى هناك الى أن توفى يوم ٦ من ذى القعدة، وحمل الى قلعة الجبل ليلا واستمر بها الى آخر يوم الخميس غرة المحرم سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) (٤) . وفى يوم ٢ محرم نقلت جثته من القلعة الى تربته التى أنشأها بالمدرسة المنصورية داخل القاهرة . وعزز هاتين الروايتين ابن شاكر الكتبى ثم المقريزى (٥)، فقد ذكر أن الأشرف خليلا أمر بنقل أبيه من القلعة الى القبة المنصورية فى ٢ محرم سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) .

(١) سبقنى الى هذا التشكك النويرى حيث يقول : فاذا شاهد الرائى هذه العمارة العظيمة وسمع أنها عمرت فى هذه المدة القريبة ربما أنكر ذلك ، ص ٩٩٨ ملاحق الجزء الأول من السلوك نقلا عن نهاية الأرب . (٢) تاريخ سلاطين المماليك ج ٢ ص ٥٣٧ (٣) مسجد التبر : موجود فى الشمال الغربى لمحطة حمامات القبة بالقرب منها . (٤) تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ٩٧ (٥) المقريزى ، ج ٢ ص ٣٨١ ، فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٤

ومن هـذه الروايات يفهم أن هـذه المجموعة تمت بنـاء ورخاما وزخرفا فى أول سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وتكون قد استغرقت سبع سنين وثمـانية أشهر ، وهى المدة المعقولة لبناء هذه المجموعة الشامخة الحافلة بمختلف فنون العمارة الدقيقة .

فان صحت هـذه الروايات فهل يكون التأخر فى العمارة مقصورا على القبة ؛ لأنهـا أحفل قسم بالزخرف والرخام الدقيق؟ فقد ورد أنه فى سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) جلس قاضى القضاة برهان الدين السنجارى للحكم فى المدرسـة المنصورية بين القصرين[1] . وأنه فى شهر رمضان سـنة ٦٨٤ هـ عين مهذب الدين المعروف بابن أبى حليقة لتدريس الطب[2] بالبيمارستان ، فيجوز أنهما قاما بوظائفهما فى جزء من البناء قبـل الفراغ منه ، كما حدث فى الجامع المؤيدى وغيره . وكثـيرا ما رأينا مدارس ومساجد احتفل بافتتاحها وعين مدرسوها قبل أن يتم بناؤها .

وصف القبة والمدرسة — تقع هـذه المجموعة فى شارع المعز لدين الله بين القصرين . والواقف أمام هذه البناية الضخمة يرى قسمين : الأول وهو القبلى وجهة المدرسة ، والثانى وهو البحرى وجهة التربة، تعلوها قبة كبيرة . وفيما بين هذين القسمين الباب الذى يسلك منه الى المدرسة والقبة والبيمارستان .

والناظر الى هـذه المجموعة يرى منظرا من أروع المناظر للعمارة الاسـلامية بالقاهرة ؛ فقد اشتملت الوجهة على عقود محمولة على عمد رخامية ، وبداخل تلك العقود شـبابيك مفرغة بأشكال هندسية ، بهـا افريز مكتوب به اسم المنشئ وألقابه ، وتاريخ الإنشاء . وتنتهى من أعلاها بشرفة مسننة حلى وجهها بزخارف . وهى وجهة ذات طراز غير مألوف فى عمارات مصر . وهذا بلا شك من ظواهر التأثيرات السورية عليها .

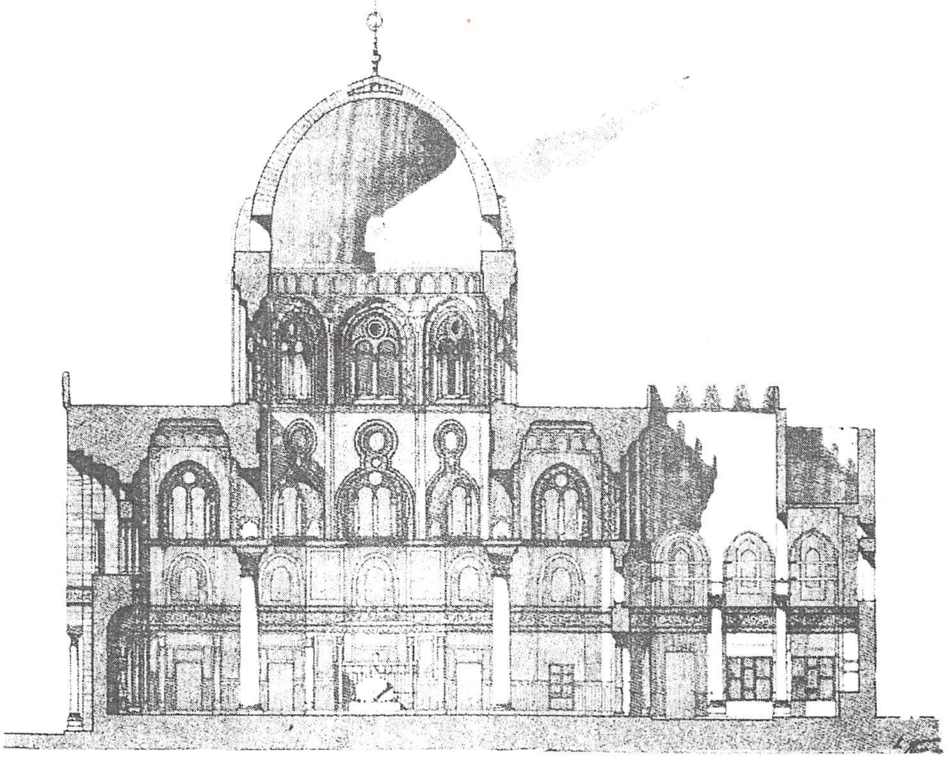
وعلى الطرف البحرى المنارة المكونة من ثلاثة أدوار : الأسـفل والأوسط مربعان ، فتحت بهما شبابيك تنوعت عقودها . والثالث مستدير به نقوش دقيقة، وكتابات فى الجص متوج بكرنيش مصرى الطراز . أما خوذتها فليست منهـا، ولعلها كانت مضلعة مخوصـة مثل منارات الجـاولى وبيبرس الجاشنكير، وهو الطرز الشائع فى منارات هذه الفترة .

وهذه المنارة أنشأها ابنـه الناصر محمد بن قلاوون فى سـنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) بمعرفة الأمير سيف الدين كهرداش المنصورى[3] على أثر سقوطها فى زلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) . ونقش تاريخ

(١) السلوك، ج ١ قسم ٣ ص ٧٣٤ (٢) السلوك، ج ١ قسم ٣ ص ٧٢٩
(٣) الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٦٩

التجديد فى أربعة أسطر تحيط بمربع الدورة الأولى أسفل المقرنص بما نصه : " بسم الله الرحمن الرحيم اللهم جدّد الرحمة والرضوان على روح الملك المنصور رحمه الله أمر بتجديد هذه المأذنة فى أيام ولده مولانا السلطان الملك الناصر أبو الفتح محمد وذلك عند ظهور الآيات المنزلة وسقوط أعاليها عند حدوث الزلزلة فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام " .

كما أثبت ذلك أيضا فى لوحة ثانية على وجه قاعدتها فى الناحية البحرية .



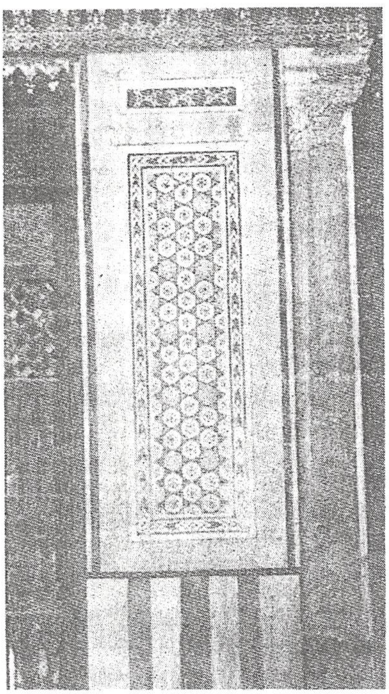
قطاع طولى للقبة المنصورية

ويتوسط هذه الوجهة الباب الذى يسلك منه الى المدرسة والقبة والبيمارستان ، وهو مكسو بالرخام الملون ، وعلى مصراعيه كسوة نحاسية مفرغة برسوم هندسية جميلة ، وسماعتاه على شكل رأس حيوان .

وهذا الباب يؤدّى الى دهليز له سقف خشبى جميل ، فتحت على جانبيه أبواب وشبابيك متقابلة للتربة والمدرسة ، ينتهى الى باب يؤدّى الى البيمارستان حلى عقده بنقوش .

وللتربة بابان مفتوحان على هـذا الدهليز ، يدخل إليها مباشرة من أولها ، ومن الثانى الى القاعة أمامها . وقد أدخل الأمير عبد الرحمن كتخدا فى عمارته التى أجراها سنة ١١٧٤هـ (١٧٦٠م) تغييرات على هذا الباب وعلى باب المدرسة المقابل له وهما البابان الرئيسيان ، كما هدم القبة الكبيرة [١] .

وتصميم هذه القبة غريب بالنسبة للقباب غيرها بمصر ، لكنه مقتبس الى حدّ ما من تصميم قبة الصخرة بالقدس الشريف ، فالقاعدة مربعة ، أقيم وسطها أربعة عمد ضخمة من الجرانيت متقابلة مذهبة تيجانها ، وأربعة أكتاف من البناء ، فى نواصى كل منها أربعـة عمد رخامية ، كسيت أجنابها الخارجية بالرخام الدقيق المطعم بالصدف ، يجمعها من أعلى إفريز رخامى دقيق ، فوقه إفريز منقوش مذهب ، ثم إفريز آخر به آيات من القرآن وتاريخ تجـديدها بحروف مذهبة على أرضـية زرقاء . وباقى الأكتاف مكسوة بالخشب المنقوش .



وزرة القبـــة

وهذه الأكتاف مع العمد تحمل عقودا ، حلى باطنها بزخارف جصية ، كما حليت حافتها الخارجية بهذه النقوش ، وتنتهى من أعلى بمنطقة فوقها شباك مستدير هو وإطاره من الجص المنقوش . وفتح بأضلاع المثمن شبابيك قندلية [٢] من الجص والزجاج الملون ، أحيطت بزخارف جصـية موزقة ، ثم مقرنص خشبي فالقبة .

وهذه القبة أعادت بناءها لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) على مثال قبة الأشرف خليل بن قلاوون المعاصرة لها .

وقـد غطى ماحول المثمن بأسقف خشبية مذهبة ، بعضها قصع نقش بها اسم المنصور قلاوون ، والآخر من برطوم ومربوعات ملونة مذهبة .

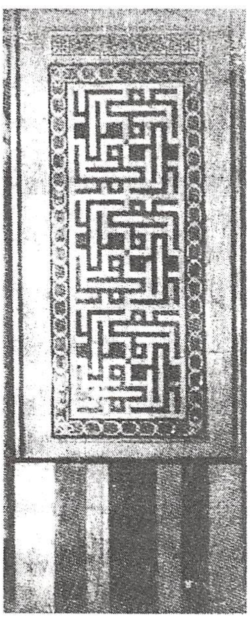
أما جدران القبـة وفتحات الشبابيك والدواليب المحيطة بها فهى مؤزرة بالرخام المطعم بالصدف من أدق أعمال الرخام بالآثار الاسلامـية بمصر ، نقش بعضها على هيئة رسوم هندسـية ، والبعض الآخر كتب به بالكوفى المربع محمد مكررة اثنا عشر مرة ، يعلوها إفريز رخامى دقيق الصنع للغاية .

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٦ ، الخطط الجديدة ج ٥ ص ١١٠

(٢) الشبابيك القندلية هى شبابيك كل شباكين منها متجاوران يفصلهما عمود و يعلوهما شباك مستدير .

أما المحراب فهو أكبر وأفخم محراب فى آثار مصر يكتنف كلا من جانبيه ثلاثة عمد رخامية، وبتجويفته أربع طبقات من تجاويف محارية مذهبة محمولة على عمد رشيقة ، وباقيه من الرخام والصدف الدقيق .

ومن أرضية القبة إلى قمتها لا ترى إلا لونا زاهيا، وتذهيبا براقا ، وزجاجا ملونا بالشبابيك، وعقودا محلاة بزخارف جصية مورّقة . وبوسط المثمن قبر عليه بقايا تابوت من الخشب المنقوش والمكتوب بالخطين الكوفى والنسخى . وهذه البقايا منحصرة فى الرأسين القبلية والبحرية للتابوت وتشتمل على حشوات مثمنة ومسدسة محفورة بالأويمة الدقيقة ومكتوب عليه "... الدنيا والدين قلاوون الصالحى سلطان الاسلام والمسلمين قدس الله روحه ونور ضريحه انتقل الى رحمة الله تعالى...". وقد دفن بهذا القبر المنصور قلاوون، وابنه الناصر محمد، وابنه عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون. وفى سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م) أقام أحد نظاره شاهدين رخاميين على أحدهما عمامة عثمانية بها ريشة مذهبة وعلى الآخر أبيات من الشعر .



محمد مكررا بوزرة القبة

وقد أحيط هذا المثمن بمقصورة خشبية حليت بنقوش وكتابات أمر بعملها الناصر محمد بن قلاوون، وكتب اسمه عليها . وحليت الوجهة الغربية للتربة بشبابيك وبزخارف جصية وكتابات كوفية . وأمامها صحن مكشوف تحيط به أروقة معقودة بقبوات .

وكان ملحقا بها مكتبة ومتحف لحفظ ملابس من دفن بها . وهو ثالث متحف نسمع باقامته لحفظ مخلفات العظماء؛ إذ الأول متحف عقبة بن عامر فى مسجده، والثانى هو الذى أقامته شجر الدر ملكة مصر بقبة زوجها الصالح نجم الدين تجاه هذه القبة .

أجتزئ من وصف هذه القبة العظيمة بهذا القدر : لأنى مهما أطنبت فى وصفها فلا أوفيها حقها . ومن العجب أن العمل فيها استغرق خمسة أشهر، من شوال سنة ٦٨٣ هـ الى صفر سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٤ — ١٤٨٥ م) كما هو منقوش على باب القبة بما نصه : "أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة مولانا وسيدنا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاون الصالحى قسيم أمير المؤمنين أدام الله أيامه وحرس إنعامه ونشر

فى الخافقين ألويته وأعلامه وكان ابتداء عمارتها فى شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة والفراغ منها فى صفر سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة المحمدية النبوية ".

وهذه المدة تضاعف تشككى وتشكك كل من يزور القبة ويرى عظمتها ودقة صناعتها، سواء فى الرخام أو الخشب أو الجص . وفى ذلك يقول ابن الفرات المؤرخ بمناسبة الفراغ من البناء: " وإذا شاهد الرائى هذه العمارة العظيمة واتساع فضائها وعلو أسوارها ومكنة بنيانها، ثم سمع أنها عمرت فى هذه المدة القريبة ربما أنكر ذلك(١) ".

وكان التوفيق خليف بلجنة حفظ الآثار العربية فى ترميم هذه القبة، إذ وجه اليها عنايته المهندس العظيم هرتس باشا، واستمر العمل فى إصلاحها من سنة ١٩٠٣ إلى سنة ١٩١١، إذ جدد زخارفها وسقوفها وشبابيكها ونجارتها وأقام قبتها، وكان موفقا كل التوفيق فى هذا الإصلاح .

المدرســة — وأمام باب القبة باب المدرسة المنصورية ، ويتوصل اليها الآن من بابين متقابلين لبابى القبة . وقد كانت تخربت فعنيت إدارة حفظ الآثار العربية باصلاح الإيوان الشرقى، بها وانتهت الأعمال فيه فى سنى ١٩١٦ - ١٩١٩ م .

ونلمس فى هذا الإيوان نظاما خاصا لم يسبق له مثيل بمصر . فقد أقيم على فتحته عمودان يحملان عقدين كبيرين، يكتنف كلا منهما فتحتان معقودتان مستطيلتان، يعلو ذلك شباك مستدير، يكتنفه كتفان بكل منهما ثلاثة شبابيك بعضها فوق بعض . ولا شك أن هذه العقود والشبابيك كانت محلاة بزخارف جصية كما تنبئ بقاياها .

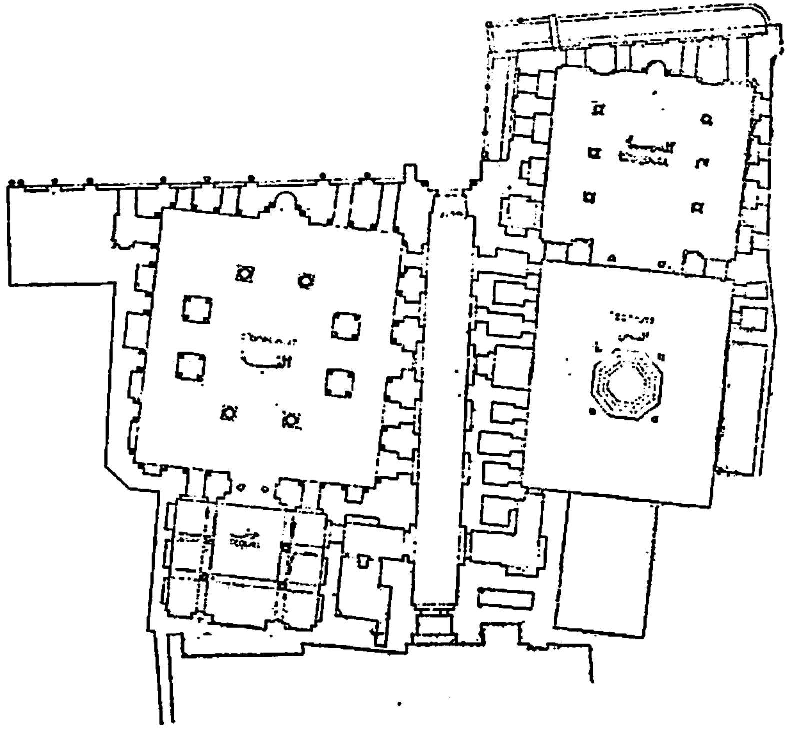
وينقسم الإيوان إلى ثلاثة أروقة، أوسطها أكبرها ، وسقفه محمول على عمد رخامية ، تعلوها عقود حليت هى والشبابيك المستديرة أعلاها بزخارف جصية ؛ كما أنه توجد كوابيل متقابلة بوجه أرجل العقود أعلى الأعمدة موجودة على استواء مبدأ الطارات المنتهية بها الوجهتان القبلية والبحرية من الإيوان .

والقسم الأوسط من الإيوان وإن غطى فى عمارته الأخيرة بسقف مستو إلا أن العقد الدائر بالشبابيك الثلاثة الحافلة بالزخارف فوق المحراب يدل على أن هذا السقف كان مغطى بقبو معقود . ومن رأى أستاذى المغفور له محمود باشا أحمد أن الكوابيل الموجودة كانت تحمل عقودا فى باطن هذا القبو . كما أن سقوف جانبى هذا الرواق كانت من عقود مصلبة ، وهذا من تأثيرات العمائر المسيحية فى فلسطين .

(١) ابن الفرات ، ج ٨ ص ٩

والمحراب أقل فخامة من محراب القبة، إلا أن طاقيته وتواشيحه من الفسيفساء المذهبة، يجاوره منبر بسيط، ليس بالمنبر الأصلى بل عمله الأمير أزبك من ططخ سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٤ م) أثناء عمارته للمدرسة وعمله قبة أعلى الفسقية التى كانت بالصحن (١) .

أما الإيوان الغربى فقد تخرب وضاعت معالمه وأجريت به إصلاحات لصيانته . والمرجح أن الجانب القبلى للصحن كانت به حجرات مثل الجانب البحرى المقابل له يتوسط كلا منهما إيوان صغير.



مسقط أفقى للقبة والمدرسة

وقد استغرق بناء هذه المدرسة على سعتها أربعة أشهر؛ كما دون على أعتاب شبابيك المدرسة وأعلى المحراب بما نصه : " أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة السعيدة مولانا وسيدنا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاون الصالحى قسيم أمير المؤمنين أدام الله أيامه وحرس إنعامه ونشر فى الخافقين ألويته وأعلامه. وكان ابتداء عمارتها فى صفر سنة أربع وثمانين وستمائة، والفراغ منها فى جمادى الأول من السنة المذكورة للهجرة المحمدية " .

(١) ابن إياس، ج ٢ ص ٢٨٢

م٩ تاريخ المساجد الأثرية (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

وبعد الفراغ من المدرسة والقبة عين بهما المدرسون للمذاهب الأربعة ولمختلف العلوم، كما خصص مدرسون لتعليم الأطفال بكتّاب السبيل؛ فهى والحالة هذه جامعة للطب ولمختلف العلوم .

وقد ألحق بوجهة هذه المدرسة[1] سبيل وكتاب أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون على روح والده سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) بمباشرة الأمير آقوش نائب الكرك . ووضعه هذا وإن جاء مشوّها للوجهة إلا أنه تخلص به من حوض كان معدًا لشرب الدواب . ويعلو هذا السبيل قبة صغيرة كسيت رقبتها بالقاشانى المكتوب وفتحت بها شبابيك خشبية مفرّغة بنقوش وكلاهما يعتبر الأول من نوعه .

البيمارستان — كان الدافع الأول لإنشاء هذه المجموعة هو البيمارستان، ولذلك كان البدء به فى أول ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) . ويقول المقريزى : إن علم الدين الشجاعى أبقى قاعة ست الملك على حالها وعملها بيمارستانا . ثم وصف الحالة التى رأى عليها البيمارستان فقال : وهى ذات إيوانات أربعة، بكل إيوان شاذروان ويدور قاعتها فسقية يصير الماء إليها من الشاذروان (سلسبيل) .

والحقيقة أن البقايا الباقية من البيمارستان وتحصر فى بقايا إيوانين كبيرين ترجع إلى عصر المنصور قلاوون . وقد عثرت إدارة حفظ الآثار العربية فى القسم البحرى للبيمارستان على أجزاء من سقوف خشبية، بها رسوم طيور وحيوانات، وبها كتابات كوفية نقلت إلى دار الآثار العربية . وباق منها قسم آخر، أرجح أنه منقول من القصر الصغير وباق منه .

ومن وصف المؤرّخين وحجة الوقف عرفنا أنه كان بيمارستانا كاملا ومدرسة للطب له صيدلية كاملة خصص لمعالجة جميع الأمراض؛ إذ كانت به أقسام للرمد وللجراحة وللأمراض الباطنية والعقلية وأمراض النساء . وجميع هذه الأقسام داخلية وخارجية . كما أنه كانت تصرف الأدوية والأغذية لمن يعالجون فى منازلهم[2] .

وقد ظل البيمارستان يؤدّى وظيفته إلى سنة ١٨٥٦م . حيث دب إليه الانحلال، فلم يبق به سوى المجانين الذين نقلوا منه إلى ورشة الجوخ فى بولاق، ثم نقلوا إلى العباسية سنة ١٨٨٠م[3] . ثم تحوّل البيمارستان لمعالجة جميع الأمراض، ثم اقتصر على معالجة أمراض العيون .

(١) المقريزى، ج ٢ ص ٤٠٧

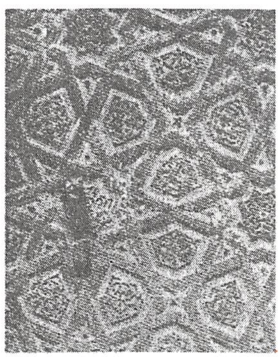
(٢) ملحق الجزء الأوّل للسلوك نقلا عن نهاية الأرب ص ٩٩٩ قسم ٣ ج ١

(٣) تاريخ البيمارستانات فى الإسلام ص ١١٠

وفى سنة ١٩١٥ أقامت وزارة الأوقاف بقسم من البيمارستان مستشفى لمعالجة أمراض العيون هو الباقى إلى الآن .

ولم يبق من البيمارستان القديم سوى قسم من الإيوان الشرقى به فسقية رخامية كانت تنساب إليها المياه على سلسبيل صغير، تندفع منه إلى مجراة من الرخام الدقيق . كما يوجد به شبابيك أحيطت أفاريزها بكتابات كوفية . وكذلك توجد بقايا من الإيوان الغربى ، وبه سلسبيل حليت حافته بحيوانات تنحدر عليها المياه إلى فسقية فمجراة من الرخام تتلاقى مع المجراة المقابلة لها . ومثل هذا موجود فى قصر الحمراء بالأندلس .

ومما يؤثر عن المنصور قلاوون أنه لما زار البيمارستان عقب فراغه تناول قدحا من شراب البيمارستان وشرب وقال : « قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى وجعلته وقفا على الملك والمملوك والذكور والإناث والكبير والصغير والحر والعبد والجندى والأمير » .



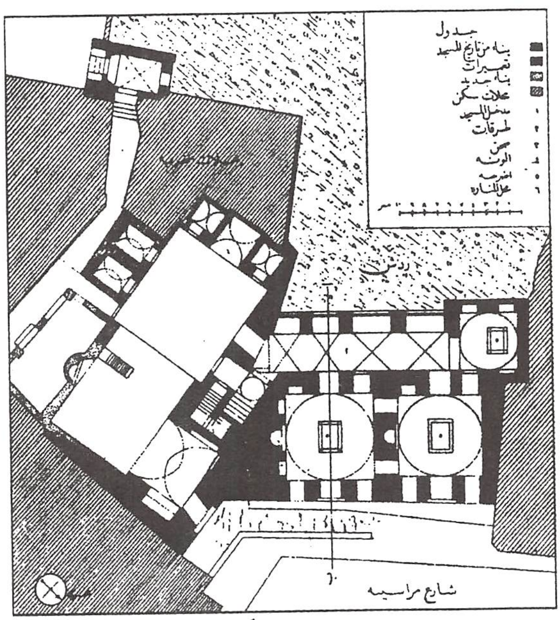
سماعة الباب رأس حيوان

الخانقاه الجاولية

بشارع مراسينه (*)

هـذه الخانقاه فى شارع مراسينه، الآخذ من ميدان السيدة زينب إلى القلعة، وهى مبنية على ربوة عالية وقد اقترن اسم هذه الخانقاه بشخصيتين كبيرتين :

أولاهما من عرفت به وهو الأمير الكبير سنجر الجاولى الشافعى . فقـد ولد سـنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) بآمد ثم امتلكه الأمير جاولى فنسب إليه، ثم انتقل إلى أسرة المنصور قلاوون . وترقى إلى أن صار مقدّما بالشام، ثم واليا لغزة، وصادفته محن انتهت فى سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٨ م) بتعيينه أميرا مقدّما بمصر . ثم واليا لحماه بعد موت الناصر، فواليا لغزة . فأقام بها أربعة أشهر، ثم عاد إلى مصر وبقى بها إلى أن توفى فى ٩ رمضان سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٦ م) . وقد قارب مائة سنة .



مسجد سنجر الجاولى بقلعة الكبش بالقاهرة
رسم أفقى

وكان من المشتغلين بالعلم متخصصا فى الحديث وفى فقـه الإمام الشافعى . روى مسند الشافعى وحدّث به غير مرة . ورتب مسـنده وشرحه فى مجـلدات بمعاونة غيره . وله منشآت خيرية بمصر

(*) انظر الصور من رقم ٦٥ — ٦٨ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

والشام : منها جامع بالخليل ، وآخر بغزة ومدرسة بها و بيمارستان[1] . وقد وصفت منشآته بالإتقان والجمال . ولما ترجمه العلامة عبد الوهاب السبكى لم يذكر من منشآته هذه الخانقاه[2] .

والشخصية الثانية الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة . فقد كان مملوكا للمنصور قلاوون، وتنقل فى عدّة وظائف عند أولاده إلى أن عين نائبا للسلطنة فى دولة الناصر محمد بن قلاوون . وقد كان قليل الظلم كبير العقل شجاعا مهيبا، تمكن من شؤون الدولة إحدى عشرة سنة، ورشح للسلطنة فى غيبة الملك الناصر محمد بن قلاوون وفاز بها بيبرس الجاشنكير .

وقد أثرى ثراءا كبيرا بولغ فيه، ولكنه كان شرا عليه فلم ينفعه، فمات جوعا حينما قبض عليه الناصر محمد بن قلاوون وسجنه إلى أن توفى فى ربيع الآخر سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) .

وبعد موته عهد الملك الناصر محمد الى الأمير علم الدين سنجر الجاولى — وكان صديقا لسلار — بأن يتولى خزانته وجنازته ؛ فدفنه بتربته التى أنشأها بجانب مدرسته بقلعة الكبش[3] .

ويذكر المؤرخ ابراهيم بن مغلطاى وفاة سلار سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) . ويقول : « ونقل الى تربته التى على الكبش فدفن فيها[4] » .

ولعل هذه الجملة تلقى ضوءا على الغموض الذى يحيط بهذه الخانقاه ولمن تنسب ؛ ألى سلار قارون زمانه أم إلى سنجر الجاولى؟ وقد كان فى سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) أميرا فقيرا .

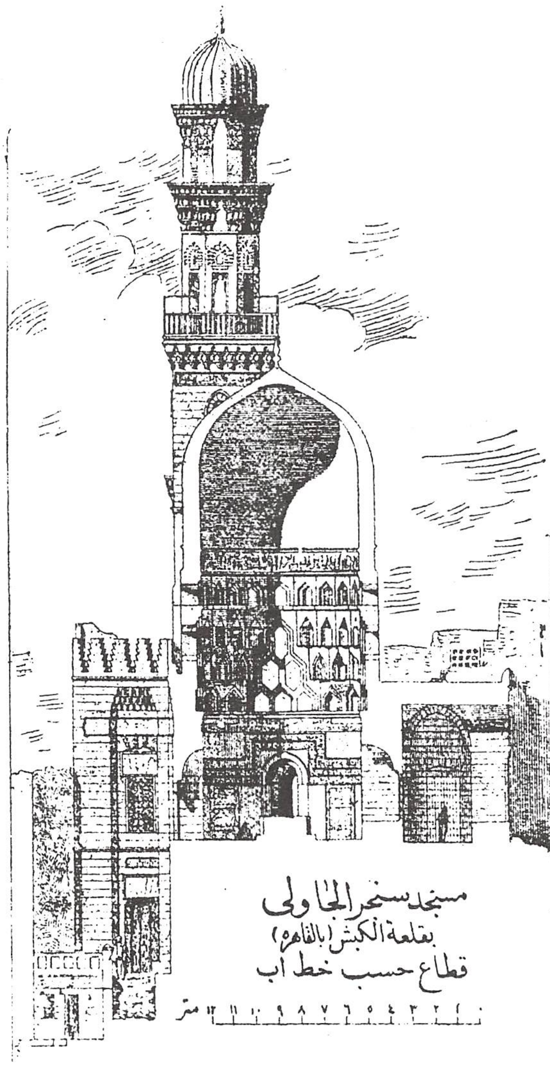
ولا بأس من الإشارة الى أن النصوص التاريخية المدوّنة عليها لم تنسبها الى أحدهما . ولكنى أرجح أن منشئها هو الأمير سلار ؛ ولذلك يقرأ على مشكاة له : " مما عمل برسم تربة العبد الفقير الى الله تعالى سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة عفا الله عنه " .

وهذا الأثر نعته المقريزى بأنه مدرسة ثم عاد وسماه خانقاه[5] . ولكن تصميمه شاذ عن تصميم المساجد والمدارس؛ فلا هو تصميم مسجد ولا هو تصميم مدرسة . كما أن النصوص التاريخية التى فيه لم تحدّد ذلك . وعندى أنه أقرب الى تصميم الخوانق لتفاصيله العمارية . وهى مبنية على الصخر مباشرة . وبابها العمومى على ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف من مستوى الشارع ، وهو يؤدى الى دركاة سقفها معقود بها باب عقده مثلث يؤدّى الى سلم مكوّن من ٢٣ درجة يوصل الى الخانقاه .

ومسقطها الأفقى غير منتظم ، ويبلغ مسطحها ٧٨٠ مترا مربعا . والوجهة البحرية لها فريدة فى بابها، فقد اشتملت على قبتين : إحداهما أكبر من الأخرى، ويجاورهما منارة ثم الباب العمومى .

(١) شذرات الذهب ج ٦ ص ١٤٢ — ١٤٣، المقريزى ج ٢ ص ٣٩٨ (٢) طبقات الشافعية ج ٦ ص ١٠٦
(٣) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٩ (٤) تاريخ المماليك ص ١٥٣ (٥) المقريزى ، ج ٢ ص ٤٢١

وبوجهة كل من القبتين ثلاثة شبابيك ، أكبرها أوسطها ، حليت أعتابها بنقوش ؛ كما غطيت بمقرنصات مختلفة ما بين حلبية وبلدية . ثم شرفة مسننة .



والقبتان مبنيتان بالطوب ، حليت أضلاع قاعدتهما بأفاريز من الجص المنقوش ، وبخاريات صغيرة منقوشة ، ثم رقبة بها شبابيك من الجص والزجاج الملون ، يعلوها إفريز به كتابات جصية ، تتخللها زخارف مورقة يعلوها إفريز آخر صغير به كتابات كوفية .

ووجود الكتابات الكوفيــة فى هاتين القبتين من مميزات قباب نهـاية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وأول الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) فقد رأيناها فى قبة الخانقاه البندقدارية سـنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م)، وفى قبة زين الدين يوسف سـنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) . ويجاور القبــة الكبيرة المنارة المبنية قاعدتها المربعة بالحجر حتى الدورة الأولى ، أما دورتاها العلويتان فقــد بنيتا بالطوب . ويلاحظ فى القاعدة المربعة تنوع عقود الشبابيك . كما يسترعى النظر فيها بابهـا المعقود ذو المكسلتين ، وهو الأول من نوعه ، يليــه باب منارة مسجد بشتاك بشارع درب الجماميز .

وبدن الدورة الثانيــة مثمن، وقد حلى بعقود محارية . وبدن الدورة الثالثة مثمن أيضا، وينتهى بترس فوقه خوذة مضلعة . وهذا القسم الأخير من مميزات المنارات الأيوبية ، لازم كثيرا من المنارات المملوكية حتى منتصف القرن الثـامن الهجرى (الرابع عشر الميـلادى) إذ نراه فى منارات مساجد أبى الغضنفر (١) ، والصالح نجم الدين ، وزاوية الهنــود ، والجامع الطولونى ، وقمتى منارتى الحاكم ، وبيبرس الجاشنكير، وقوصون، ومنجك اليوسفى، وتنكزبغا . وفى الثلاث الأخيرة تطوّرت من طوب الى حجـر . ثم رأينا هذا النوع يظهر فى منارات الوجه البحرى فى القرنين التاسـع والعاشر الهجرى (الخامس عشر والسادس عشر الميلادى) وخاصة فى المحلة الكبرى وسمنود .

ويجاور المنارة باب المسجد المغطى بمقرنص من ثلاث حطات . ومكتوب عليه : " بسم الله الرحمن الرحيم إنمـا يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصـلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة (٢) " .

وهـذا الباب يؤدّى الى طرقة مربعـة فسلم فطرقة مربعـة بها باب المصلى والمدفن وبها منور حجرى مستدير به أربع زوايا . والمصلى مكوّن من قسمين : بحرى وبه محراب وسقف حديثان، وبه أيضا إيوان غربى معقود يشرف على المدخل . والقسم القبلى على حالته الأولى، به فى الجنب الشرقى ثلاث خلوات للصوفية ، يعلو باب آثنتين منها شباكان من الجحر المفرّغ بأشكال زخرفية . والجنب القبلى منه به إيوان معقود، ويكتنفه خلوتان يعلوهما شباكان صغيران مفرّغان . ويعلو هذا الجنب شبابيك صغيرة خشبية ، محلاة بزخارف محفورة ، ويحيط بها إفريز جصى مكتوب تتخلله زخارف. ونظام هـذا الإيوان يؤكد أن هذا الأثر أنشئ ليكون خانقاه ومدفنا .

(١) منارة أبى الغضنفر بشارع الدرّاسة ، وذهب كثير من الأثريين الى أنها منارة فاطمية والحقيقة أنها وقبتها أيوبية .

(٢) وقع خطأ مطبعى فى كتاب الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٤٢١ ، ٣٩٨ طبع بولاق فوردت سنة ٧٢٣ هـ .

وباب المدفن يؤدى الى طرقة طولها خمسة عشر مترا وعرضها ثلاثة أمتار ، معقودة بثلاث مصلبات . ويفتح على هذه الطرقة بابا القبتين وشبابيكهما المحلاة أعتابها بزخارف جميلة . فالباب الأول يوصل الى القبة الكبيرة ، وقد دفن فيها الأمير سلار . ومكتوب على عتبها : "بسم الله الرحمن الرحيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام هذه تربة العبد الفقير الى الله تعالى سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة الملكى الناصرى المنصورى المستغفر من ذنبه الراجى عفو ربه رحم الله من دعا له بالرحمة ولجميع المسلمين عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة " .

وهى قبة أكبر من زميلتها وأحفل منها زخرفا؛ إذ يتوسطها تابوت به بقية من حشواته المدقوقة أويمة ، وبصدرها محراب حليت طاقيته برخام دقيق أيضا . وهى ميزة لم تتوفر فى كل المحاريب ، رأيناها فى قبة قلاوون ، ثم فى مساجد المارداني وقطلوبغا الذهبي وقجماس الاسحاقى والأشرف برسباى بالخانقاه ، ثم زاوية فرج بن برقوق . أما ما عدا ذلك فأشرطة رخامية ملونة . وأسفل الطاقية وعلى جانبي المحراب إفريز رخامى دقيق يعلوه إفريز آخر محفور بنقوش دقيقة . وهذا المحراب والمحاريب المعاصرة له متأثرة صناعة الرخام فيها بمثيلتها فى قبة قلاوون .

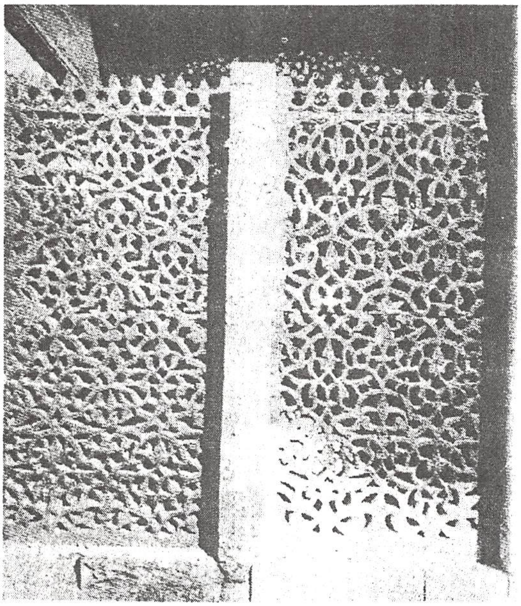
ويحيط بالمحراب وجداره إفريز خشبي مكتوب به آية الكرسى ؛ كما يحيط بمربع القبة أسفل المقرنص إفريز رخامى به آيات من القرآن . والمقرنص من ثلاث حطات ، وقد حليت رقبة القبة بإفريز جصى مكتوب .

والباب الثانى يؤدى الى القبة الثانية . وقد دفن بها الأمير سنجر . ومكتوب على بابها : " بسم الله الرحمن الرحيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام هذه تربة العبد الفقير الى الله تعالى المستغفر من ذنبه الراجى عفو ربه سنجر الجاولى أستاذ الدار العالية الملكى الناصرى المنصورى رحم الله من دعا له بالرحمة فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة " .

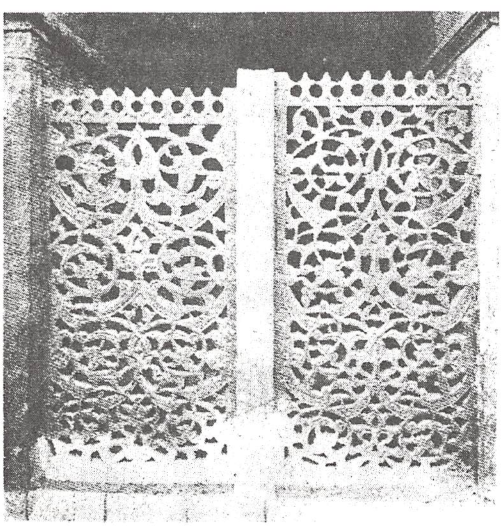
وهى أصغر من سابقتها وأقل منها زخرفا؛ غير أنها تتفق معها فى كثير من تفاصيلها . ويتوسطها تابوت رخامى ، ومحرابها حجرى حليت طاقيته بمقرنصات .

وفى النهاية الغربية لهذه الطرقة توجد قبة صغيرة من الحجر خالية من النقوش ومقرنصها من حطتين . وهى تعتبر أقدم قبة حجرية باقية فى الآثار . تليها قبة سنجر المظفر سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٢م) . والثانية قبة بالمعنى الصحيح .

وقد عرفت هذه القبة بقبة عبد الله الزاكر . ولعل المدفون فيها أيضا الأمير بشتاك المنقول إليها من الاسكندرية سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) .



نماذج للشبابيك الحجرية بخانقاه الجاولى



والجدار القبلى للطرقة أمام القبتين به ثلاث فتحات ، كل فتحة منها غطيت بشريحتين من الحجر ، فرغتا بأنواع مختلفة من النقوش المورقة حليت من الداخل والخارج ، وقد بلغت حد الاتقان ، ولا مثال لها فى أثر آخر .

وأمام هذه الشبابيك صحن مكشوف به بقايا قبور ، بجداره الشرقى محراب يتصل به سطر مكتوب فيه بالجص المحلى بالزخارف آيات من القرآن الكريم ، تتخللها زخارف ودوائر على هيئة عش النحل . وخلف هذا الجدار فى الجزء المعترف فى المسقط الأفقى ، بمحلات متخربة خلوات للصوفية ، ما زال موجودا على أبوابها شبابيك حجرية مفرغة مثل الموجود منها أعلى الخلوات بالصحن ، تعلوها خلوات أخرى تتصل بالخلوات العلوية المشرفة على المصلى . ويوجد بهذا الجزء مزولة من عمل عبد الرحمن الطولونى سنة ١٠٦٤ هـ (١٦٥٣ م) .

وفى النهاية الشرقية القبلية لهذه البقايا يوجد باب محلى بالمقرنصات ، يوصل الى قلعة الكبش كى ينتفع به صوفية الخانقاه . وليدخل منه سنجر الجاولى ؛ إذ كانت داره مجاورة للخانقاه من هذه الناحية .

أعمال الاصلاح — وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بالخانقاه منذ سنة ١٨٩٢ فقامت بتخليتها من الجهة الغربية . كما قامت بإجراء إصلاحات بها من الداخل والخارج فى سنى ١٨٩٩ ، ١٩٠٩ ، ١٩٢٨ فقومت مبانيها وأصلحت رخامها وشبابيكها الجرية والجصية والخشبية وزخارفها الجصية .

بخارية

خانقاه بيبرس الجاشنكير

بشارع الجمالية (*)

أنشئت هذه الخانقاه على رقعة من أرض دار الوزارة الكبرى الفاطمية التى أنشأها الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى، والتى كانت تمتد على وجه التقريب من وكالة ذى الفقار حتى حارة الروم الجوانية .

منشئ الخانقاه — السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصورى الجاشنكير. اشتراه الملك المنصور قلاوون صغيرا وألحقه بخدمته، وظل يتنقل فى الوظائف الى أن عينه جاشنكيرا (١) .

ولما قتل الأشرف خليل بن المنصور قلاوون كان ممن ساعد فى القبض على المعتدين عليه . وقتل الأمير بيدرا وغيره . ولما ولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر للمرة الثانية تلألأ نجم بيبرس، ورقى الى وظيفة أستادار (٢)، وحج سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) . فقضى على كثير من الخرافات الشائعة هناك .

وفى سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) خرج الناصر محمد الى الكرك ، وكتب الى أمراء مصر بتنازله عن الملك ، فاستقر رأيهم على تولية بيبرس الجاشنكير ، ولقب بالملك المظفر ، وذلك فى يوم السبت ٢٣ شوال سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٩ م) .

وكان موصوفا بالعقل والميل الى الخير ومحاربة الموبقات . جدد جامع الحاكم سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) وفى عهده أبطلت الخمارات، ومواطن الريب ، وأريقت الخمور . وعمل جسرا من قليوب الى مدينة دمياط ، وهو مسيرة يومين .

ولمحبة الشعب للناصر محمد بن قلاوون لم يتعاونوا مع بيبرس، وكاتبوا الناصر . وتغلب عليه الأمراء والمماليك مما اضطره لترك المملكة فى شهر رمضان سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م) حينما علم بقدوم الناصر محمد من الشام .

وفى أول شوال سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م) قدم الملك الناصر محمد الى قلعة الجبل ، واستولى على ملك مصر للمرة الثالثة . ثم قبض على بيبرس الجاشنكير فى شرقى غزة ، وأحضر الى القلعة

(*) انظر الصور من رقم ٦٩ - ٧٤ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) جاشنى كير : هى وظيفة الأمين على تذوق الأطعمة والمشروبات قبل تقديمها الى السلطان . للتحقق من سلامتها . وفى الدولة العثمانية رئيس السفرجية .

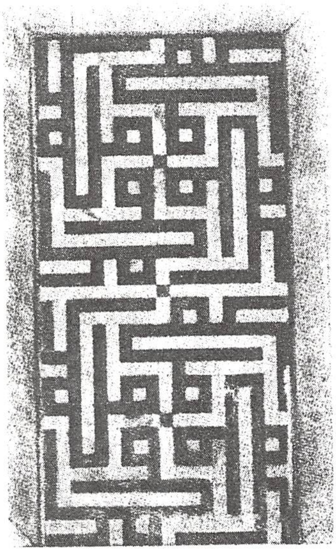
(٢) أستادار : وظيفته الإشراف على الشؤون الخاصة بالملك بمثابة ناظر الخاصة .

فى ١٣ ذى القعدة سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠م) وقتل ليلة الجمعة ١٥ ذى القعدة سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠م) . ثم دفن بتربة الفارس أقطاى ، ثم نقل الى تربته المجاورة لزاوية الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر بالقرافة الصغرى ، ثم نقل مرة ثالثة الى قبة هذه الخانقاه.[1]

الخانقاه — بدأ فى إنشائها الأمير بيبرس الجاشنكير فى سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) قبل أن يلى السلطنة ، وأنشأ بجانبها رباطا كبيرا يتوصل اليه من داخلها ، وألحق بها قبة كبيرة ، يقول المقريزى : إنه ركب على أحد شبابيكها الشباك الكبير الذى كان بدار الخلافة فى بغداد ويجلس الخلفاء فيه . كذلك أخذ من دار الوزارة أنقاضا . كما اشترى كثيرا من الدور المشهورة وأخذ أنقاضها وأدخلها فى عمارة الخانقاه ، وأدخل فى عمارتها كثيرا من الرخام الذى كان مودعا أحد سراديب الفاطميين.[2] واستمرت الأعمال جارية بها الى أن كملت فى شهر رمضان سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م) . وقرر بها أربعمائة صوفى ، وبالرباط مائة من الجند ، وبعض الأفراد الذين أخنى عليهم الدهر . ووقف عدة ضياع بمصر والشام لعمارتها والصرف عليها .

وعقب الفراغ منها وافتتاحها قبض عليه الناصر محمد بن قلاوون وقتله وأمر بغلقها وأخذ ما كان موقوفا عليها . وظلت عشرين سنة معطلة الى أن صدر الأمر بفتحها ثانيا فى أول سنة ٧٢٦ هـ (١٣٣٦ م) . وأعاد اليها ما كان موقوفا عليها .

وصف الخانقاه — قبل الدخول فى وصفها نلق نظرة على الوجهة الغربية وهى العمومية ، فنرى وجهة كبيرة مبنية بالحجر ، ينتهى طرفها القبلى بباب عظيم كسى بالرخام ، وكتب عليه آيات من القرآن بالرخام الأبيض الملبس فى الرخام الأسود ، وبه مقرنصات . ويكتنفه من جانبيه صفف مجوفة مكسوة بالرخام ، مخلق بها عمد وتيجان رشيقة . ويغطى هذا المدخل عقد مجيدى كبير بداخله مقرنص . وفى هذا الباب نرى تطورا جديدا وابتكارات فى المداخل العامة نهج على منوالها بعد ذلك .



محمد مكررا بوزرة القبة

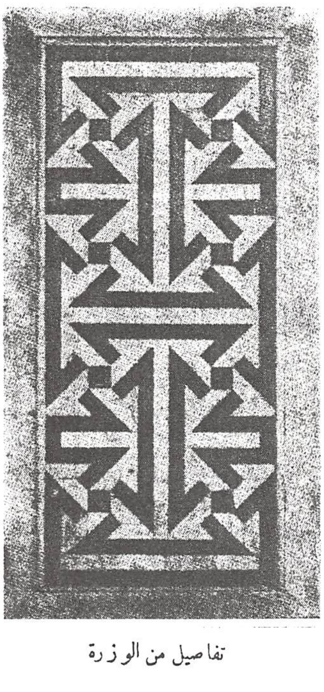
---

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٧٦ ، المقريزى ج ٢ ص ٤١٨ ، تاريخ المماليك ص ١٥١ و ١٥٢

(٢) عثر فى هذه الخانقاه على لوح رخامى كان مقلوبا على وجهه وقد نقشت عليه صور أسماك وطيور وكتابة كوفية تهشمت .

وقد غطيت الشبابيك بالوجهة بمقرنصات متنوعة، وبها كتابة نصها : "بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ... الى قوله تعالى : بغير حساب أمر بإنشاء هذه الخانقاه السعيدة وقفا مؤبدا على جماعة الصوفية من فيض فضل الله تعالى وجزيل إحسانه راجيا بذلك عفوه وغفرانه العبد الفقير الى الله تعالى (   ) ركن الدين بيبرس المنصورى عبيد الله والفقير اليه الراجى رحمته يوم القدوم عليه ضاعف الله ثوابه وزكى أعماله ويسر له أسباب ما نشط اليه من المعروف آماله بمنه وكرمه وإفضاله وصلى الله على سيدنا محمد".

ويلاحظ فى هذه الكتابة أن القسم الواقع بين كلمتى «تعالى» و«ركن الدين» وطوله نحو متر محيت كتابته. وأرجح أن الكلمات التى محيت هى "السلطان الملك المظفر".



تفاصيل من الوزرة

والمعروف أن الآمر بمحوها هو الملك الناصر محمد. فكان وفاء منه ألا يعترف له بصفة الملك فيمحوها من البناء، بينما ترك اسمه على الخانقاه لتظل منسوبة الى منشئها.

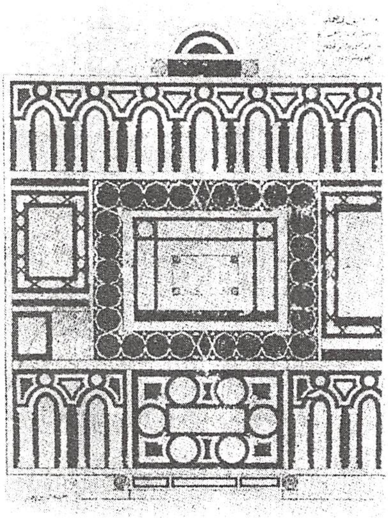
ويتوسط هذه الوجهة شباك كبير من النحاس. وهنا نتساءل : هل هذا الشباك هو الذى حدثنا عنه المقريزى بأنه نقل من دار الخلافة فى بغداد ثم دار الوزارة بمصر، ثم هذه الخانقاه؟ الجواب على ذلك أن شباك دار الخلافة كان من الحديد وهذا من النحاس وتبدو عليه الجدة كما تبدو على الشبابيك المجاورة له مع تطابقها جميعا فى الصناعة. فأين ذهب شباك دار الخلافة؟ — العلم عند الله — وكل ما وصل الينا أن الشيخ محمد الابراشى ناظر الخانقاه أزال ثلاثة شبابيك كانت بوجهتها وحولها الى دكاكين.

ويعلو المدخل منارة قاعدتها مربعة ضخمة حليت بالمقرنصات. وبدن دورتها الثانية مستدير. وقد كسيت قمتها المضلعة بالقيشانى الأزرق. وهى أول تكسية عثرت عليها برءوس المنارات، ولم تكن معروفة من قبل، تليها منارتا مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة.

وعلى الباب مصراعان من النحاس الدقيق، بهما تكفيت بسيط بالفضة ومكتوب عليهما اسم المنشئ. وقد حلى ظهراهما بزخارف جميلة، مدقوقة أو بمة.

نجتاز الباب العظيم الى دركاة مربعة على يسارها باب القبة . وهى من القباب الكبيرة ، فرشت أرضيتها بالرخام الأسود والأبيض على هيئة محاريب[1] ، وبوسطها قبر المنشئ ، وجدرانها مؤزرة بالرخام الدقيق بارتفاع ٣,٦٠ كتب بها بالخط الكوفى المربع : " محمد " مكررة ، كما يوجد بها تقاسيم هندسية ملونة . وبها مجموعة من الشبابيك الجصية الدقيقة ذات الزجاج الملون . ولها محراب شاهق كسى بالرخام الدقيـق ، بأسفله وأعلاه طاقات مخوصة محمولة على عمد صغيرة وخلفه ممر أحدثته لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٠٩ للتهوية ، يتوصل إليه من مدخلين على يمين ويسار المحراب على هيئة دواليب .

وأقيم على وجه العقـد الغربى لقاعدة القبة سياج من الخشب الخـرط ، مكتوب عليه " بسم الله الرحمن الرحيم إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون . الى قوله تعـالى فارتقب إنهم مرتقبون وافق الفراغ من هـذه القبة والخانقاه فى شهر رمضان المعظم سنة تسع وسبعمائة " .



أرضـية القبـة

يجاور باب القبة باب آخر، يوصل إلى طرقة مستطيلة فرشت بالرخام الملون توصل الى صحن الخانقـاه ، وتصميمها إيوانان كبيران معقودان شرقى وغربى . أما الجانبان البحرى والقبلى فقد أنشئ بهما خلوات للصوفية بعضها فوق بعض ، حليت أعتابهـا بمقرنصات وعقـود متنـوعة ، وانفردت بنوع غريب من العقود يكتنف فتحتى الايوانين الشرقى والغربى . يتوسط كلا منهـما إيوان صـغير معقود ، غطيت فتحتـه بباب معتب ، يعلوه شـباك مغطى بمقرنصات لطيفة كى ينسجم مع باقى الوجهة .

والإيوان الشرقى أكبرها ، وقد قسم إلى ثلاثة أقسام ، يتوسطه محراب من الحجر تسوده البساطة وهو عار من الزخرف . ولعل هـذا راجع الى وفاة المنشئ قبل أن يتمها أو لأنها خانقاه أعدت للمتصـوفين .

(١) الأرضيات المحاريب والأبسطة المحاريب شاعت فى هـذا العصر . فقـد كانت أرضيات المدرسة الطيبرسية وأبسطتها على شكل محاريب . والفاطميون أسبق فى ذلك فقد استعملوا الحصر المحاريب المبطنة .

وعلى ذكر الخانقاه[1] أذكر أن الخانقاه أو الخانكاه — كلمة فارسية معناها ديار الصوفية والرباط هو المكان المخصص للا فعال الصالحة والعبادة و إقامة المنقطعين من الأهل، ويجوز للفقهاء الإقامة فى الربط وتناول مرتباتها ، ولا يجوز للتصوف الإقامة فى المدارس وأخذ جرايتها لأن المعنى الذى يطلق على المتصوف موجود فى الفقيه ولا عكس .

أعمال الإصلاح — عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بهذه الخانقاه منذ سنة ١٨٩٢، فوجدتها فى حالة تخرب . مبانيها مهدمة و رخامها مفكك ومفقود وسقف الطرقة أمام القبة آيل الى السقوط وشبابيكها محولة الى دكاكين ، فقامت بإجراء إصلاحات متعاقبة فيها ، فقومت مبانيها من الداخل والخارج . وأصلحت رخامها بالأرضيات والوزرات ، وأصلحت سقف الطرقة أمام القبة . كما عنيت بإصلاح الباب النحاسى النادر والشبابيك الجصية بالقبة . وأزالت الدكاكين التى كانت تحجب وجهة القبة وأعادت الشبابيك الى أصلها وركبت عليها مصبعات نحاسية . كما أصلحت المنارة وكان لهذه الأعمال أثر كبير فى صيانة هذه الخانقاه و إقامة الشعائر الدينية فيها .

(١) كنوز الذهب فى تاريخ حلب لموفق الدين أبى ذر الشهير بسبط ابن العجمى الحلبى ص ١٣٦ خط

مسجد ألماس الحاجب

بشارع الحلمية (*)

يقع هذا المسجد عند أول الحلمية من جهة شارع محمد على، وقد أنشاه الأمير سيف الدين ألماس ابن عبد الله الناصرى حاجب الحجاب فى الديار المصرية .

الأمير ألماس — ألماس (بضم الألف وسكون اللام وفتح الميم) معناه باللغة التركية «خالد»، كان مملوكا للناصر محمد بن قلاوون، وظل يتدرج فى وظائف الدولة حتى صار من أكبر الأمراء . ولما عين الأمير أرغون نائبا لحلب وبقى منصبه فى مصر شاغرا عظمت مكانة ألماس وصار فى منزلة النائب، إلا أنه لم يأخذ لقب نائب . والأمراء فى خدمته وصار يجلس فى باب القلة من قلعة الجبل فى منزلة النائب، والحجاب وقوف بين يديه .

وفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) خرج الناصر محمد الى الحج وتركه (١) فى القلعة هو وبعض الأمراء .

وفى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) غضب عليه الناصر بسبب سوء تصرفه فى غيبته وعدم إخلاصه، وصادر أمواله فوجدها شيئا كثيرا، وصادر ما عنده من التحف وكانت كثيرة كذلك . وقبض عليه فى ٢٠ ذى الحجة سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) . وظل مقبوضا عليه الى أن خنق فى سجنه فى ١٢ صفر سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٣ م) ودفن فى هذا المسجد (٢) .

وصف الجامع — بدئ العمل فى هذا الجامع فى شهور سنة ٧٢٩ هـ (١٣٢٩ م) . وانتهى فى سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) . وله وجهتان : إحداهما بحرية تسودها البساطة وبها الباب البحرى، والأخرى غربية وهى الرئيسية، وتشتمل على المنارة والقبة، ويتوسطها المدخل الرئيسى تكتنفه نافذتان حليت أعتابهما ومزرراتهما برخام ملون، يعلو كلا منهما شباك من الخشب المفرغ بزخارف جميلة .

والوجهة محلاة من أعلاها بافريز مكتوب به أدعية، منها : "اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيننا وبين الصدق والإخلاص والخشوع والهيبة والنور واليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والبيان والفهم فى القرآن وأدخلنا مدخل صدق وأخرجنا مخرج صدق واجعل لنا من لدنك سلطانا نصيرا ..." .

وهذا النوع من الكتابة غريب فى وجهة رئيسية لمسجد ؛ لأننا ألفنا أن نقرأ فى مثل هذا الوضع آيات من القرآن، أو تاريخ إنشاء الجامع .

(*) انظر الصور من رقم ٧٥ — ٨٠ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣٠١، المقريزى ج ٢ ص ٣٠٧، الدرر الكامنة ج ١ ص ٤١٠ .

(٢) تاريخ المماليك ص ١٨٧

ويجز الباب العمومى مستطيل الشكل يكتنفه عمودان رخاميان، وقد غطى بمقرنصات حجرية ذات دلايات . وهـذا النوع من الأبواب من مميزات العمارة فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) حيث نراه قد شاع بعد ذلك فى قصرى بشتاك وقوصون ومسجد بشتاك .

وتوجد الى جانب هذا المدخل نافذة كانت مصاريعها مكسوة بالنحاس المزخرف كما يبدو عليها، تعلوها نافذتان أخريان حليت نواصيهما بعمد رخاميـة صغيرة وغطيت بشبابيك خشبية مفـرغة بأشكال نباتية جميلة وغطيت بمقرنصات ويقابلها مثلها .

ومصراعا الباب من الخشب المحلى بزخارف نحاسية مفرغة، تكوّن أطباقا اثنىعشرية، يتوسطها ترس يحيط به إفريز نحاسى ينتهى من أعلى وأسـفل بجزامين، كتب بالعـلوى منهما قوله تعـالى : " إنمـا يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة " . وبالرأس الأسفل تاريخ ترميمه سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١١ م) ومما يلاحظ أن حشوات النحاس فى هذا الباب مثبتة على الخشب مباشرة. وهـذا قليل ، إذ أن المألوف تكسية الخشب بألواح نحاسية توضع فوقها تلك الحشوات . وثمت ملاحظة أخرى وهى خلو الحشوات من الأنانات[(١)] التى تحيط بالحشوات . ويعلو الباب شبا كان من الخشب المفرّغ ، يعلوهما سطر مكتوب فيـه : " أمر بإنشاء هـذا المسجد المبارك الفقير الى الله ألمـاس أمير حاجب فى شهور سنة تسع وعشرين وسبع مائة وكماله سنة ثلاثين من الهجرة النبوية ".

وهـذا النوع من الشبابيك الخشبية حل هنا محل الشبابيك الجصية ، و يعتبر الأنموذج الثانى ؛ لأن أوّل ما ظهر منه فى قبة السبيل الذى أنشاه الملك الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين، ثم فى هذا المسجد . ورأيناه بعـد ذلك فى مسجد بيدمر البدرى ، فوجهة مسجد برقوق بالنحاسين . وأخيرا فى مسجد اينال الأتابكى، وهو أقلها من الناحية الفنية .

ومن الباب العمومى يتوصل إلى صحن المسجد، وهو محاط بأربعة إيوانات ذات أعمدة رخامية وعقود ، وأكبرها إيوان المحراب . وقـد حليت حافة العقـود حول الصحن بزخارف جصـية ؛ كما فتحت بخواصرها شبابيك صغيرة، حليت أطرافها الخارجية بزخارف جصية، تنوّعت عن زخارف العقود فيها، كما يوجد بالجدار الشرقى بقايا زخارف جصية .

ومن النادر أن نرى فى دولة المـماليك البحرية حافة عقود مزخرفة، بينما لم تستعمل زخرفة العقود إلا فى الجامع الطولونى، وتطوّرت إلى كتابات فى مساجد الأزهر والأقمر والصالح طلائع، ثم رأيناها فى مدرسة قلاوون .

(١) الأنانات : أشرطة تحيط بالحشوات وقد سبقه فى ذلك باب الإمام الشافعى بدار الآثار العربية .

وكذلك يستدعى النظر زخرفة باطن العقد الكبير أمام المحراب ، وهذا النوع أيضا لم نجده إلا فى الجامع الطولونى ومدرسة قلاوون . وأخيرا فى بعض مدارس عصرى قايتباى والغورى .

والمحراب مكسوّ برخام، ولكنه أقل دقة من محراب القبة، تعلوه زخارف جصية وبخاريات، ويجاوره منبر خشبي ليس بالمنبر القديم، بل يرجع الى العصر التركى .

وبؤخر هذا الإيوان دكة المبلغ من الرخام، وهى محمولة على ثمانية عمد رخامية — والدكك الرخامية شاعت فى هذا العصر — ولعل هذه أول ظهورها ، وقد رأيناها بعد ذلك فى مساجد آق سنقر والسلطان حسن والماردانى وبرقوق والمؤيد وعبد الغنى الفخرى .

ويحيط بجدار المحراب إفريز رخامى مكتوب فيه آيات من سورتى الفتح وتبارك. وقد بقى فى هذا الإيوان بقايا وزرة رخامية بسيطة أرجح أنها باقية من ترميم أجرى بالمسجد فى وقت ما؛ لأنه باق به بقايا أخرى من الرخام المزخرف والمكتوب بالكوفى المربع والمطعم بالألوان والمفرّغ مثبتة فى الإيوان البحرى، لاشك أنها باقية من وزرات المسجد القديمة. ولا عجب، فان ابن تغرى بردى المؤرّخ يقول عن المنشئ إنه عنى جدا برخام هذا المسجد وبالقاعة التى أنشأها بالقرب منه. كما أن بقايا السقوف القديمة الباقية بالإيوان الشرقى كانت مدقوقة بالأويمة وملونة، وفى الجنب البحرى مقصورة خشبية على وجه مزيرة، وفى النهاية البحرية للايوان الغربى توجد القبة، وهى وإن كانت بسيطة من الخارج إلا أن داخلها يشتمل على دوائر جصية مزخرفة، وقد ركب على بابها مصراعان من الخشب حليا بأشرطة وجامات نحاسية غريبة وغير شائعة .

ويتوسط القبة قبر المنشئ ، عليه تركيبة من الرخام، أجمل ما فيها باباتها[1] . وبها محراب، تدل بقايا الرخام الموجودة به والعمد المزخرفة المكتنفة له على مقدار دقة صناعة الرخام بهذا المسجد .

وقد بقى من مصاريع الشبابيك القديمة مصراعان دقت حشواتهما المسدّسة بالأويمة وطعمت بالسنّ . أما منارة المسجد فحديثة بالنسبة اليه، ويدل طرازها وتأخر صناعتها على أنها ليست بالمنارة الأصلية، بل ترجع الى العصر التركى .

وقد قامت إدارة حفظ الآثار العربية بعدّة إصلاحات فى هذا المسجد انتهت سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١١ م) تناولت تقويم الأعمدة والعقود ، وإصلاح الباب النحاسى والنوافذ الخشبية وأعمال الرخام .

(١) باباتها : رؤسها المستديرة .

جامع قوصون

بشارع محمد علي (*)

الأمير الكبير سيف الدين قُوصُون الساقى الناصرى ، قدم مصر ضمن من وفد إليها من بلاد بركد[1] مع خوند ابنة القان أزبك زوج الناصر محمد بن قلاوون فى ٢٣ ربيع الآخر سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م). وما إن رآه الناصر حتى أمر بشرائه ؛ فاشترى بثمانية آلاف درهم . ونال حظوة عنده، ورقاه فى جملة وظائف : من أمير عشرة الى إمرة طبلخاناه، ثم أمير مائة، فمقدّم ألف . وأحضر افراد أسرته الى مصر، وعظم مركزه عند السلطان فتزوج أخته وزوجه ابنته فى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) . واحتفل بزواجه احتفالا كبيرا تبارى الأمراء فى تقديم الهدايا فيه حتى بولغ فى تقدير قيمتها[2] .

وكان يقيم فى قصره الفخم الذى أنشاه خلف مسجد السلطان حسن الموجودة بقاياه حتى الان، ويعيش فيه عيشة بذخ وترف زائد ؛ فقد كانت الآنية من الذهب والفضة . هذا عدا الجواهر وكميات الذهب الكثيرة، حتى إن سروج خيله كانت من الذهب والفضة . وكان أميرا جليلا كريما .

وقد وجد فى مخازن قصره كميات كبيرة من الأبسطة صناعة مصر بلغت ١٨٠ زوجا، منها ما طوله من أربعين إلى ثلاثين ذراعا، و ٣٢ أخرى عمل الشريف بمصر منها أربعة من الحرير .

وفى دولة الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون تقلد نيابة السلطنة بمصر، ثم انتهى أمره بالقبض عليه و إرساله إلى الإسكندرية ؛ فسجن بها إلى أن توفى فى آخر شوال سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤٢ م) . وكان خيّرا كريما جزيل العطاء، رحمه الله وعفا عنه . وله بمصر منشآت عمارية هامة ؛ منها بقايا خانقاه بالقرافة الصغرى ، ووكالة بشارع باب النصر، و بقايا القصر الذى كان يسكنه .

موقع الجامع وتاريخ انشائه — كان موقع هذا الجامع قبل إنشائه دارا للأمير أقوش نميله ، ثم عرفت بدار الأمير جمال الدين قتّال السباع الموصلى . فأخذها الأمير قوصون وهدمها وأنشأ مكانها هذا الجامع .

وفى ٢١ رمضان سنة ٧٣٠ هـ[3] (١٣٣٠ م) تم بناء الجامع ، وافتتحه الملك الناصر محمد بن قلاوون . وكان الخطيب يومئذ قاضى القضاة جلال الدين القزوينى .

(*) انظر الصور من رقم ٨١ – ٨٤ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) بركد من قرى بخارى ، معجم البلدان ج ٢ ص ١٤٩ (٢) المنهل الصافى ، والمقريزى ج ٢ ص ٧٢ و ٣٠٧ ، والدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٥٧ . (٣) المقريزى ، ج ٢ ص ٣٠٧ ، تاريخ المماليك ص ٢٢٦

ويبدو لى أن محنته كان لها تأثير كبير على منشآته فقد وصلت إلينا مشوهة بسبب الاعتداء عليها، ولم نجد أحدا من المؤرخين عنى بذكرها تفصيلا، ولم نسمع أن دروسا ألقيت بها مثل بقية المساجد.

وقد زاد تخرب هـذا المسجد عقب فتح شارع محمد على سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) فانه أخذ منه قطعة من ضمنها الساقية والمنارة .

تجديد المسجد الحالى — وعقب فتح شارع محمـد على وضع المغفور له على باشا مبـارك تصميما لتجديده شرعت وزارة الأوقاف فى تنفيـذه ، ولم تتم عمارته إلا فى عصر المغفور له الخديو عباس حلمى الثانى سـنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) وهو مبنى بالحجـر من الداخل والخارج . ويتكون من أربعـة إيوانات ، يتوسطها صحن مغطى بقبة من الخشب منقوشـة . كما يعلو المحراب قبـة . أما المحـراب فهو مزخرف بالبـوية الملونة ، يجاوره منبر من الخشب المجمع بأشكال هندسـية . وفى الإيوان الغـربى دكة المبلـغ وهى من الرخام . غير أن تصميمه وتفاصيله المعارية لا تمت من الناحية الفنية بأية صلة إلى الجامع القديم .

الأجزاء القديمة بالمسجد — لم يبق من المسجد القديم إلا الباب البحرى، وهو مع ضخامته تسوده البساطة ، تجاوره بقايا الزخارف والشبابيك الجصية التى تلاصق المسجد الجديد من بحريه ، ولعلها جزء من الإيوان الشرقى للجامع القديم . وتدل هـذه الزخارف على أن الزخارف الجصية كانت شائعة فى المسجد القديم كما أن الإفريز الزخرفى الذى كان يحيط بجدران الجامع أسفل الشبابيك لا نظير له . وقد تنوعت أشكال الشبابيك كما تنوعت زخارفها، وعقودها المدببة مرتكزة على عمد رشيقة ، وبشواشيحها زخارف مورّقة ، كما أحيط بعضها بكتابات . كذلك بقى أحد أبواب المسجد . وهـذا الباب بشارع السروجية يتوصل منه الى حارة خلف المسجد الجديد، توصل إلى شارع محمد على ، تعرف بعطفة المحكمة . وهو من الأبواب الفخمة، مبنى بالحجر وأعتابه مكسوّة بالرخام الملون، وينتهى أعلاه بمقرنصات ذات دلايات ظريفة، ومكتوب على جانبيه ما نصه : " أمر بانشاء هـذا الجامع المبارك بكرم الله تعالى العبد الفقير إلى الله تعالى قوصون الساقى الملكى الناصرى فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر أعز الله أنصاره وذلك فى سنة ثلاثين وسبع مائة " .

وعلى الكتف الأيسر للبـاب مزولة مكتوب عليها بالخـط الكوفى " عمـل أحمد الحـريرى عام خمس وثمانين وسبع مائة " .

وكان مركبا على هـذا الباب مصراعان مغشيان بالنحاس أودعا دار الآثار العـربية ، كما كان يعلوه إحدى منارتى الجامع .

ونشر مسيو ڤان برشم كتابة تاريخية أخرى نصها :

"بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله...الآية — أمر بإنشاء هذا الجامع العبد الفقير الى الله تعالى السيفى قوصون الملكى الناصرى فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن قلاوون وذلك فى شهور سنة ثلاثين وسبعمائة من الهجرة" .

هذه هى المخلفات القديمة من جامع قوصون، وهى لا تلقى ضوءا جديدا عليـه، بل تزيد أمره تعقيدا ؛ فإن المسافة بين هذا الباب وبين البقايا الزخرفية بمجرى الجامع الجديد كبيرة جدا . ولا شك أن الجامع كان كبيرا كما وصفه ابن حجر العسقلانى وعلى ذلك يكون هذا الباب موصلا إلى ملحقات حول المسجد، مما يرجح أن الأمير قوصون لم ينشئ الجامع فى هذه المنطقة فقط بل أنشأ حوله منشآت أخرى داخلة فى حدوده لم يتعرض لذكرها أحد . واشتماله على منارتين يعزز أنه كان مسجدا كبيرا . فقد ألفنا أن نرى المساجد ذات المنارتين كبيرة جدا مثـل مساجد الحاكم والسلطان حسن وبرقوق بالصحراء والمؤيد .

معمارى المنارتين — وقد عرفنا جنسية المعمارى الذى قام ببنائهما، وهو فارسى[1] قدم من تبريز، فبنى المئذنتين على مثال المئذنة التى عملها خواجا على شاه وزير السلطان أبى سـعيد فى جامعه بمدينة توريز من بلاد فارس .

وإذا كان المعمارى فارسيا فهل نستطيع أن نتخيل طراز المنارتين من شكل منارة خانقاه قوصون المنشأة سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦م) والباقية إلى الآن بالقرافة الصغرى؟ يجوز ذلك، كما يجوز أن يكون هـو الذى قام ببنائها أيضا . كذلك يحتمل أن يكون طرازهما على مثال منارتى مسـجد الناصر محمد ابن قـلاوون بالقلعة المنشأ سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) . وقد غشيت قمتهما بالقاشانى . ونظن الى حد كبير أن بنّاءهما كان فارسيا أيضا ، بل لعله البناء التبريزى .

وقد حدثنا الجبرتى عن سقوط إحدى المنارتين بمـا نصـه : « وفى آخر شعبان سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠١ م[2]) سقطت منارة جامع قوصـون، سقط نصفها الأعلى فهـدم جانبا من بوائك الجامع، ونصفها الأسفل مال على الأماكن المقابلة له بعطفة الدرب النافذ لدرب الأغوات . وأظن سقوطها من فعل الفرنسيين بالبارود » .

كذلك أخبرنا المرحوم على باشا مبارك بضياع بقايا المنارة عند فتح شارع محمد على سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م[3]) وأن به قبة قديمة .

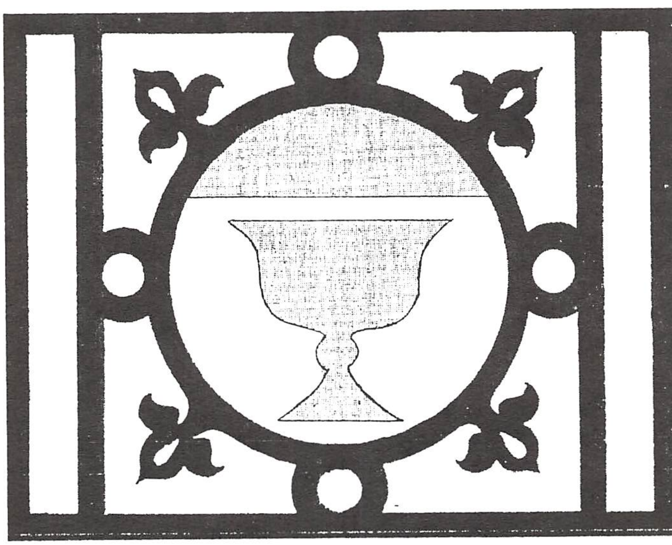
(١) المقريزى، ج ٢ ص ٣٠٧ (٢) الجبرتى، ج ٣ ص ١٤٣ و ١٤٤ (٣) الخطط الجديدة ج ٥ ص ٨٨

وقد أدرك الجامع قبل نهاية تخربه المهندس القدير بريس دافين، الذى ظهر كتابه سنة ١٨٧٧م وعاين الجامع ووصفه بأن تخطيطه كان مربعا، وأن به أعمدة تحمل عقودا مدببة. ولم يعاين به سوى إيوان المحراب، وأشار إلى شبابيكه الجصية ورسمها. وقال: إنه كان يعلو المحراب قبة لها تصميم جميل.

وكذلك وصف مقصورة من الخشب منقوشة بنقوش جميـلة، وكرسيين للقرآن، وتنورا من النحاس يبلغ طوله حوالى ثلاثة أمتار[1]. ثم وصف المنبر وحشواته الدقيقة، ونعته بأنه تحفة فنيـة، تفوق نقوشـه نقوش منـبر جامع طـلائع بن رزيك بقـوص. ونشر له فى كتابه الفن العـربى أربع لوحات تناولت تفاصيله الدقيقة.

ومن نص تاريخى نقله ڤان برشم عرف أن المنبر انتهى سـنة ٧٢٩ هـ (١٣٢٩ م). أما التنور (ثريا) فانه مصنوع من النحاس الأصفر المخرم ذو إثنى عشر ضلعا مكتون من أربع طبقات مزينة بأشكال نجمية كثيرة الأضلاع وأشكال هندسية. ويقول صانعه بدر بن أبى يعلا إنه أتمـه فى مدة أربعة عشر يوما.

أما الصينية أسفل التنور فمنقوش عليها جامات باسم السلطان حسن، وهو مودع بدار الآثار العربية ومعروض ضمن مقتنياتها.



رنك قوصون على وكالته بشارع باب النصر

ولما أدى فيه فريضة الجمعة يوم ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣٥٧ حضرة صاحب الجـلالة الملك الصالح فاروق الأول أم المصلين، وهو حادث له أهميته فى تاريخ مصر.

(١) كراسة محاضر وتقارير لجنة الآثار سنة ١٩١٠ ص ١٤٩

جامع بشتاك

بشارع درب الجماميز[*]

الأمير بشتاك الناصرى من أمراء الناصر محمد بن قلاوون . اشتراه الناصر بستة[1] آلاف درهم . وعهد إلى الأمير قوصون بتربيته، فكانت له حظوة عند الناصر . وتقلب فى جملة وظائف من أمير شكار[2]، الى كاتب سر . وكان موضع احترام الناصر محمد بن قلاوون، وكثيرا ما كان يغمره بهداياه .

وبعد وفاة الناصر محمد قبض عليه واعتقل بالاسكندرية . ثم قتل فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤١م) . وفى سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) نقلت جثته من الإسكندرية ودفن بتربة سنجر الجاولى، وله منشآت عمارية هامة ؛ منها قصره العظيم بشارع بين القصرين، والحمام بسوق السلاح، ثم خانقاه فمسجده هذا .

تاريخ إنشاء المسجد — اختار الأمير بشتاك الحافة الغربيـة لبركة الفيل ، والشاطئ الشرقى للخليج المصرى ؛ فأنشأ على شاطئ الخليج خانقاه احتفل بافتتاحها فى أول شهر ذى الحجة[3] سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) .

وفى شهر رمضان سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٦م) أنشأ المسجد تجاهها، فوقع الفراغ منه فى شهر رجب سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) وقيل فى ذى الحجة[4] سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) . وأنشـأ بينه وبين الخانقاه ساباطا يصل أحدهما بالآخر . ولمـا تم بناء المسجد واحتفل بافتتاحه خطب فيه العلامة تاج الدين عبد الرحيم ابن قاضى القضاة جلال الدين القزوينى . ويذكر ابراهيم بن مغلطاى[5] المؤرخ أن الجمعة أقيمت فيـه فى ٢١ شعبان سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) .

وقد ظلت هذه المنشآت عامرة بذكر الله تعالى الى أن تخربت الخانقاه ولم يبق لهـا أثر . أما المسجد فإنه باق الى الآن ، وإن كان أكثره قد جدّد .

ومن بواعث الأسف أننا لم نعثر على وصف لتلك المنشآت ، وإن كان الأمير بشتاك قد عوّدنا أن نرى الفخامة والضخامة تسود منشآته . وهاهو قصره العظيم الباقى حتى الآن بشارع بين القصرين تجاه المدرسة الكاملية ، فخر المنشآت المدنية فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

(*) أنظر الصور من رقم ٨٥ — ٨٦ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٧٧ . (٢) أمير شكار (أمير الصيد) ويشرف على شئون الصيد ولوازمه .

(٣) المقريزى ج ٢ ص ٤١٩ (٤) السلوك ، ج ٢ قسم ٢ ص ٤٢٣ (٥) تاريخ المماليك ص ٢٢٦

وقد رأينا المقريزى المؤرخ الجليل يعبرعن إعجابه بهذا المسجد بإيجاز حيث يقول : « وهو من أبهج الجوامع وأحسنها رخاما وأنزهها » .

أما كونه من أبهج الجوامع وأنزهها فيكفيه موقعه، وأنه يشرف على بركة الفيل إحدى متنزهات مصر التى فتنت الشعراء والكتّاب . فقد وصفها ابن سعيد الأديب الأندلسي فقال :

انظر الى بركة الفيل التى اكتنفت * بهـا المناظر كالأهـــداب للبصر
كأنمـا هى والأبصـار ترمقـــها * كواكب قـد أداروها على القمر

وأما أنه أحسن الجوامع رخاما فهـذا طبيعى؛ لأن صـناعة الرخام فى الآثار المعاصرة لهـذا الجامع بلغت أوج مجـدها فى الدقة والجمال والتطعيم بالصدف . كما أن البقايا القليلة التى عثرت عليها إدارة حفظ الآثار العربية بوزرة قاعة قصره العظيم دلت على مقدار دقة صناعة الرخام بها .

ثم إن صناعة الرخام فى باب حمامه بشارع سوق السلاح لا نظير ولا ثانى لهـا فى باب آخر . والبقايا القـديمة التى لا تزال ترى فى المسجد بعـد تجديده ، وتنحصر فى البـاب العمومى الداخل والمنارة ، تدل دلالة واضحة على أنه كان مسجدا كبيرا نخما حافلا بشتى الصناعات .

أعمال التجديد — فى سـنة ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) أمرت المغفـور لهـا والدة المرحوم مصطفى فاضل باشا أخى المغفور له إسماعيل باشا بتجديد هذا الجامع، بمناسبة إنشاء دارهما المجاورة له وعهدت الى نيـازى بك بهـذا العمل الخيرى ؛ فأعاد بنـاءه من الداخل ، وحافظ على الباب العمومى القديم والمنارة على يساره، وأنشأ له بابا ووجهة جديدة .

وصف المسجد — تقع الوجهة العمومية الغربية — وبها الباب الجديد — على شارع درب الجماميز وتسودها البساطة . ويعلو البـاب لوح رخامى به تاريخ التجديد والثناء على المجـدّدة بأبيات من الشعر نقتطف منها :

لقـد أسست ذات العفاف بناءه * على دائم التقوى فتم لهـا الخـير
بهمت من أضحى له السعـد خادما * نيازى هو البيك الذى زانه الفخر
وجاءت بشارات القبول وأرّخت * بإتمـام بيت الله دام لهـا الأجر

واجتياز هذا الباب يؤدّى الى رحبة ، يقابل الداخل اليها الباب القديم، وهو باب عظيم مبنى بالحجر يكتنفه عمودان من الرخام، وبجانبيه صفتان غطيتا بمقرنصات . يغطى ذلك سقف من الحجر به مقرنصات متدلية، تتوسطه سرة بها تضاليع محارية يعلوه سطر مكتوب فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر... الآية " .

وداخل المسجد جديد، وهو مكوّن من ستة أروقة يتوسطها منور . والمحراب من الرخام كتب أعلاه : " هو العلي الأعلى . فنادته الملائكة وهو قائم يصـلى فى المحراب " . وقـد فرش المسجد بالسجاد ذى المحاريب .

وفى الجدار القبلى مدفن يضم رفات المرحوم أحمد رشدى بك المتوفى سنة ١٢٩٦هـ (١٨٧٩ م). وهو نجل المغفور له مصطفى باشا فاضل . و لمـا نقل أخيرا جثمان المغفور له مصطفى باشا فاضل المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٦ م) الى هـذه المقبرة أضيف الى الكتابة التى على الباب السطر الأعلى منهـا فأصبح نصها : " ضريح المغفور له الأمير مصطفى باشا فاضل وضريح الأمير المرحوم أحـمـد رشـدى بك نجل الأمير المغفور له مصطفى فاضل باشا نجـل الأمير الشهير المبرور ابراهيم باشا نجل ساكن الجنان عزيز مصر الحاج محمـد على باشا فى عشرين ذى القعدة سنة ١٢٩٦ هـ الى أرواحهم الفاتحـــة " .

وهذا التاريخ هو تاريخ وفاة أحمـد رشدى بك كما هو منقوش على قبره الذى تعلوه قبة منقوشة محمولة على عمد . أما مصطفى باشا فاضل فكانت وفاته فى الآستانة عام ١٢٩٢ هـ (١٨٧٦ م) — ثم نقل جثمانه الى هذه المقبرة . وكان من غواة جمع الكتب ، وكانت له مكتبة حافلة بنوادر المخطوطات التى لانظير لها . اشتراها بعد وفاته المغفور له الخديو اسماعيل باشا بمبلغ ١٣,٠٠٠ ليره[(١)] عثمانية ، دفعها من ماله الخاص وأهداها الى دار الكتب المصرية . وهى مميزة بين فهارسها بحرف « م » بعد رقم كل كتاب .

وفى مؤخر المسـجد باب يوصل الى سلم حلزونى قـديم ، يؤدّى الى السطح فالمنارة ؛ وهى من المنارات العظيمة المبنية بالحجر والحافلة بالنقوش والكتابات ، وامتازت بكثير من التفاصيل العمارية التى لا توجد فى غيرها . وأولى تلك المميزات بابها ذو المكسلتين . نعم سبقتها فى هـذا منارة مسجد الجاولى ، ولكن الباب من غير مقرنصات ولم يكتب عليه نص تاريخى مثل هذه . ومكتوب فوق البـاب : " بسم الله الرحمن الرحيم هـذا ما مهده لنفســه المقر الأشرف بشتاك المـالكى الناصرى والابتدا فى مستهل شهر رمضان المعظم ســنة ست وثلاثين وسبعمائة وفرغ آخر شهر رجب الفــرد سنة سبع وثلاثين وسبعمائة " .

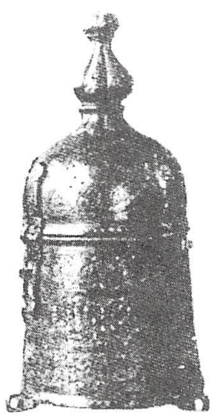
---

(١) يعادل بالتقريب مبلغ تسعة آلاف جنيه مصرى فى ذاك الوقت .

وثانى مميزاتها تلك التجاويف الرأسية فى بدن الدورة الثانية، فهى مقصورة عليها . وقد تنوعت النقوش المفترغة بشقق الدرابزين وشملت قوائمها . أما الدورة الثالثـة فهى حادثة ودخيـلة عليها . ولعلها عملت سنة ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) .

ومن مآثر السيدة والدة فاضـل باشا إنشاؤها على جزء من أرض الخانقـاه سبيلا وكتابا فى سنة ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م) كسيت وجهته بالرخام المحلى بالنقوش والكتابات . وهو تجاه الخارج من باب المسجد .

وبأعمال هذه السيدة الجليلة أضيفت صفحة ناصعة من صفحات سيدات البيت العلوى الكريم الى أثر المرأة فى العمارة الاسلامية .



مسجد الطنبغا الماردانى

بشارع التبانة (*)

كان الخارج من باب زويلة فى عهد الدولة الفاطمية حين يأخذ الطريق على يساره (الدرب الأحمر) الآن يجد فضاء كبيرا لا بناء فيه .

وفى سنة ٥٥٥ ﻫ (١١٦٠ م) أنشأ الصالح طلائع بن رزيك مسجده تجاه الخارج من هذا الباب . وبعد إنشائه له أقيمت فى هذا الفضاء مقابر لأهل القاهرة . فلما زالت الدولة الفاطمية وأنشأ صلاح الدين الأيوبى القلعة على رأس الشرف المطل على القطائع ، كان يسلك الى القلعة من هذا الطريق .

وفى نهاية القرن السابع الهجرى (السادس عشر الميلادى) أنشئت فى هذا الشارع المساجد والأبنية، وقسم الى أخطاط عرفت بسوق البسطيين: نخط الدرب الأحمر، نخط جامع الماردانى، نخط سوق الغنم، نخط التبانة ، نخط باب الوزير حتى القلعة .

وأكثر هذه الأخطاط باقٍ الى الآن وأكثرها بأسمائه القديمة . وهى حافلة بشتى المنشآت العمارية فى مختلف العصور، مابين مسجد ومدرسة وخانقاه وسبيل وكتّاب ودور وقصور . وقد أبقى الدهر على أكثر هذه المنشآت . ومن أجلها جامع الماردانى .

المنشئ — الطُنُبغَا بن عبد الله الماردانى الساقى (١) الأمير علاء الدين (٢)، أحد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون . كان الناصر كثير العناية به فعينه ساقيا ثم أمير طبلخاناه (٣) فى مدة يسيرة ، ثم عينه أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية وزوّجه ابنته . وبعد وفاة الناصر محمد تولى ولده المنصور أبو بكر فقبض عليه فى صفر سنة ٧٤٢ ﻫ (١٣٤١ م) . ولما خلع المنصور وتولى أخوه الملك الأشرف كُجُك بن محمد بن قلاوون سنة ٧٤٢ ﻫ (١٣٤١ م) أفرج عنه .

(*) انظر الصور من رقم ٨٧ — ٩١ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

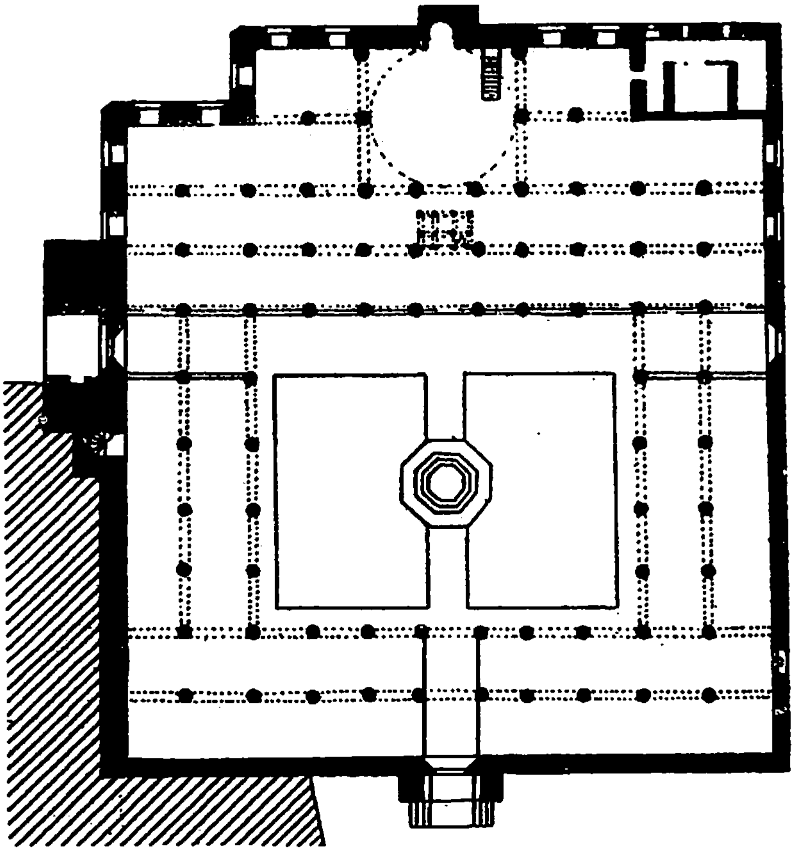
(١) الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٠٩ — المنهل الصافى — أبو الفداء ج ٤ ص ١٣٩

(٢) الساقى : وظيفته إعداد مائدة السلطان . ثم تقديم المشروب عقب رفع المائدة .

(٣) الطبلخاناه : بها الآلات الموسيقية للفرقة التى تعزف على باب القصر الملكى .

وحين استقر الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون، فى المملكة عين الطنبغا نائبا على حماه، فتوجه إليها فى شهر ربيع الأول سنة ٧٤٣ هـ (أغسطس سنة ١٣٤٢ م) .

وفى شهر رجب عين نائبا لحلب، فاستمر بها إلى أن توفى فى صفر سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) .



مسقط أفقى

تاريخ إنشاء الجامع — شرع الأمير الطنبغا الماردانى سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) فى بناء هذا الجامع، ويقال : إنه كان سخيا فى نزع الملكية للأماكن اللازمة له . وقيل : إنه أخذ عمده مما كان فى جامع راشدة الفاطمى[1] واستمر العمل جاريا فيه بهمة كبيرة حتى كمل، واحتفل بافتتاحه بأول خطبة أقيمت فى يوم الجمعة ٢٤ رمضان سنة ٧٤٠ هـ (مارس سنة ١٣٤٠ م) هذا ما ذكره المقريزى وقد جاء مطابقا لما كتب على جدران المسجد ومدخله والوجهة القبلية له .

(١) المقريزى، ج ٢ ص ٣٠٨ ثم نراه فى ج ٢ ص ٢٨٣ ينقض هذه الرواية و يقرر أن جامع راشدة كان عامرا الى مابعد سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) .

ويظهر أن مدة السنة لم تقنع ابن بهادر المؤرخ[1] فذكر أنه أنشئ — وطبعا يقصد أنه بدئ فيه — سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٥ م) ، وهو ما أقره عليه . وهـذا ما قرره أيضا المقريزى فقـد ذكر فى حوادث سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤م) الشروع فى نزع ملكية الدور اللازمة له بمعرفة النشو فاغتصبها بنصف قيمتها[2].

وصف الجامع — وضع تصميمه على مثال المساجد الجامعة أربعة إيوانات ذات أروقة يتوسطها صحن مكشوف . أكبرها إيوان القبلة . فهـو يحتوى على ثلاثة أبواب : غربى وقبلى وبحرى . والأخير أحفلها زخرفا ؛ فقد كسى بالرخام الملون الملبس فى الحجر ومكتوب عليه ما نصه : " بسم الله الرحمن الرحيم إنمـا يعمر مساجد الله من آمن بالله واليـوم الآخر . وكان الفراغ من هـذا الجامع المبارك فى شهر رمضان المعظم سنة أربعين وسبعمائة " .

وفى هذا الباب ظاهرة معمارية هامة ، وهى بروزه عن سمت الوجهة ونماذجها معدودة . وعلى يسار هذا الباب منارة مكونة من ثلاث دورات . وإن انقطاع الكتابة من الجدران الحاملة لهذه المنارة وانفصالها عن باقى كتابة المدخل مع وجـود تكملة لهـا بهذه الوجهة مما يحملنى على اليقين بأن عمارة جديدة أجريت بالمدخل فى وقت غير معلوم . وتعدته إلى المنـارة فجددت أيضا . كما يحتمل أن تكون قد عملت تقوية جديدة لأساس المنارة وقاعدتها فقط فحجبت ماخلفها من كتابات . والرأى الأول أرجح . ويفصل الإيوان الكبير عن الصحن سياج من الخشب الخرط المحفور من وجهيه بزخارف جميلة . وقد كتب على وجهيه من أعلا آيات من سورتى الفتح والنجم .

ويتوصل الى داخل الإيوان الكبير من أبواب شرعت فى هذا السياج . ولعله أقدم سياج باق فى الآثار العربية بمصر ، أو هو الثـانى إذا عددنا سياج مسجد آل ملك الجوكندار . ويليهما سياج قايتباى بالجامع الأزهر .

والإيوان الشرقى غنى بمختلف الصناعات ؛ فقد أقيمت عقوده على عمـد من الرخام والجرانيت الأحمـر ، ويعلو هـذه العقود سقوف حفرت بها زخارف ، لونت وذهبت بألوان زاهية جميلة . كذلك كسيت الجدران الى ارتفاع نحو ثلاثة أمتار بوزرة مكونة من أشرطة من الرخام ، ومن أجزاء دقيقة جدا من الرخام والصدف ، بعضها يمثل أشكالا هندسية ، والبعض الآخر كتابات بالخط الكوفى المربع بالرخام الأخضر ، يقـرأ فيهـا : " لا إله إلا الله محمد رسـول الله " واسم " محمد " مكررا . ويتوسط بعضها دوائر كتب حولهـا : " بسم الله الرحمن الرحيم يا أيهـا الذين آمنـوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون " . وتنتهى بإفريز رخامى على شكل شرفات .

(١) فتوح النصر ، ص ٢٦٨ (٢) السلوك ، ج ٢ قسم ٢ ص ٣٨٥

أما المحراب فمعدود من المحاريب الدقيقة بالقاهرة ، إذ أنه كسى بالرخام الدقيق والصدف المكون لأشكال هندسية غاية فى الدقة . وغطاؤه المعبر عنه بالطاقية من النماذج القليلة المعدودة فهو ملبس بالرخام الأسود والأحمر والفيروزى ويجاوره منبر حشواته مدقوقة بالأويمة ومطعمة بالسن ، وبه حشوات من السن المحفور بنقوش دقيقة . ومن الظريف فى هذا المنبر أن نحوا من أربعين حشوة من حشواته سرقت قبل تشكيل لجنة حفظ الآثار العربية بعشر سنوات ، ونقلت إلى أوروبا ، ثم أعيدت إلى مصر حوالى سنة ١٩٠١ لتباع فيها ؛ فاشترتها اللجنة بمبلغ ثمانين جنيها ، وأعادتها إلى منبرها الأصلى ، وأتمت إصلاحه سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢م) .

وفوق المحراب قبة كبيرة حملت على ثمانية أعمدة من الجرانيت الأحمر لها تيجان مصرية . ولهذه القبة مقرنصات من الخشب المحلى بزخارف مذهبة ، ويحيط بمربعها إفريزخشبى مكتوب مذهب ، وبأجنابها شبابيك جصية بها زجاج ملون . ويوجد فوق المحراب ، وبين مقرنصات القبة وشبابيكها زخارف جصية تمثل أشجارا وبخاريات آية فى الدقة والجمال بها أثر تلوين .

وبهذا الإيوان دكة المبلغ من الرخام ، وهى محمولة على اثنى عشر عمودا من الرخام . وقد اشتمل هذا الإيوان على كتابات تاريخية . منها لوحان فى الجدار البحرى حفرت كتاباتهما فى الحجر ولبست بالرخام الأخضر تضمنتا إسم المنشئ وتاريخ الفراغ من إنشائه ، وهو شهر رمضان سنة ٧٤٠ هـ

والكتابة الثالثة على يمين المنبر ونصها : " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى الراجى عفو ربه ألطنبغا الساقى الملكى الناصرى وذلك فى شهور سنة أربعين وسبعمئة وصلى الله على سيدنا محمد وآله " .

ويحيط بجدران هذا الإيوان شبابيك من النحاس ، حلوقها مزخرفة مموهة بالذهب ، يعلوها شبابيك جميلة من الجص والزجاج ، تتخللها بخاريات جصية كانت مذهبة .

أما باقى الإيوانات فكل منها يشتمل على رواقين ، وهى عبارة عن عمد تحمل عقودا فتحت فى خواصرها عقود . وهى خالية من الشبابيك وعارية من الزخرف ، ولا يوجد بها سوى بخاريات جصية . ويتوج وجهات هذه الإيوانات شرفة مسننة محلاة بزخارف ، غالب أعلاها بقطع مفرغة من الخزف ، تعتبر الأنموذج الوحيد بين الآثار . وعلى أبعاد مختلفة أقيم فوق إحدى الشرفات خوذة مخوصة انتهت بالحلية الخزفية . وهى مقتبسة من مثيلتها فى مسجد الناصر بالقلعة . وسبقتهما نماذج مبسطة فى الجامع الطولونى وفى الجامع الأزهر .

كذلك حليت وجهات العقود بزخارف مابين مستديرة ونجمية وعقود محارية محاكاة لمثيلاتها في الجامع الطولوني والأزهر .

ويتوسط الوجهة الغربية الباب الغربي . وهو من الأبواب العظيمة ، حلى بمقرنصات تغاير مقرنصات الباب البحرى . وقد كتب عليه تاريخ البدء في العمارة بما نصه : " بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا أنشأ هذا الجامع المبارك من فضل الله وكرمه العبد الفقير إلى الله تعالى ألطنبغا الملكى الناصرى وذلك في شهور سنة تسع وثلاثين وسبع مائة للهجرة النبوية عليه السلام " .

أما الباب القبلى فهو أبسطها . وقد حليت ظهور الأبواب الثلاثة من الداخل بالرخام وبزخارف حجرية مورقة كانت ملونة ، كما يعلو كل باب منها شباك من القاشانى الملون بالأخضر والأبيض والأسود ، والمفرغ بزخارف مورقة . ولا نظير لهذه الشبابيك في مسجد آخر . ويتوسط الصحن حوض من الرخام للوضوء ، تعلوه قبة من الخشب نقلت اليه من مسجد السلطان حسن سنة ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) .

ومع أن مصاريع الأبواب خالية من كسوتها النحاسية فقد كانت مكسوة بالنحاس على شكل نجوم بوسطها صرة مخرمة ، نقلت بقاياها إلى دار الآثار العربية .

المهندس — عرفنا أن مهندس هذا الجامع مهندس قدير ، وهو ابن السيوفى كبير مهندسى دولة الناصر محمد بن قلاوون . كما أنه هو مهندس المدرسة الأقبغاوية (١) بالأزهر . ومجهوده في كليهما يدل على براعته واقتداره . وليس ببعيد أن يكون هو الذى أشرف على الكثير من العمارات المنشأة في دولة الناصر محمد بن قلاوون .

أعمال الإصلاح — في سنة ١٨٨٤ م عاينت لجنة حفظ الآثار العربية لأول مرة هذا الجامع وكان متخربا ؛ بجدرانه مائلة ومهدمة ، ومنارته ناقصة ، وأكثر رخامه مفقود ؛ فقررت اتخاذ الاجراءات اللازمة لصلب المبانى المهددة بالسقوط . ثم تتابعت عنايتها به ؛ بجددت ما وهى من جدرانه ، وأبدلت ما تداعى من أساطينه وأصلحت وزراته ومحرابه . كما أصلحت المنبر والشبابيك والأبواب ، وأنشأت القبة فوق المحراب ، وأصلحت مقرنصاتها القديمة وأعادت إليها نقوشها كأصلها ، كما أعادت بناء الدورة العليا من المنارة ، وأصلحت السياج الخشبي والسقف . واستمرت هذه الأعمال في المدة من سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) إلى سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) . وبهذه الاصلاحات أعيد إلى هذا الجامع العظيم جماله وبهجته .

(١) المقريزى ، ج ٢ ص ٣٨٤

جامع آق سنقر (ابراهيم أغا)

بشارع باب الوزير (*)

الأمير آق سنقر الناصرى أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، عينه فى مدة وظائف من أمير مائة إلى مقدم ألف وأمير شكار (١) . وزوجه إحدى بناته . ثم عين واليا لغزة بعد وفاة الناصر . ثم عين أميراخور (٢) فى دولة الصالح اسماعيل بن الناصر محمد . ثم ولى نيابة طرابلس .

ومما يؤثر عنه أنه كان عفيفا عن أموال الرعية ، وكان حسن الخط . وفى دولة الكامل شعبان تلا لأنجمه ، وعمل على انتقال الملك إلى المظفر حاجى ابن الناصر محمد بن قلاوون ، حتى صار نافذ الكلمة . ولعب دورا كبيرا فى سياسة الدولة إلى أن قبض عليه فى ربيع الآخر سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) وقتل رحمه الله ، ودفن فى هذا المسجد (٣) .

تاريخ إنشاء المسجد — شرع الأمير آق سنقر الناصرى فى ١٦ رمضان سنة ٧٤٧ هـ (يناير ١٣٤٧ م) فى بناء هذا الجامع ، وأنشأ بجواره مكتبا وسبيلا ، ومكانا ليدفن فيه ونقل إليه ابنه . وقد عنى بعمارته عناية كبيرة ، حتى إنه كان يشرف على العمارة بنفسه ويشجع العمال . وعين له المدرسين ، وافتتحه للصلاة فى يوم الجمعة ٣ ربيع الأول سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ووقف عليه ضيعة من قرى حلب للصرف عليه وتعميره .

وهنا نلاحظ أن الفترة بين البدء فى الإنشاء وإقامة الصلاة فيه دون ستة أشهر، وذلك مما يحملنى أؤكد أنه أقام الصلاة فيه قبل الفراغ من بنائه . وهذا كثير الوقوع . ويعزز هذا الرأى ما هو مكتوب على الباب القبلى للجامع ونصه : " بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر أمر بإنشاء هذا الجامع العبد الفقير إلى الله تعالى آقسنقر الناصرى تغمده الله برحمته وكان ابتداء عمارته سادس عشر رمضان المعظم سنة سبع وأربعين وسبعمائة وكان الصلاة فيه يوم الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وتوفى إلى رحمة الله تعالى تاسع عشر ربيع الاخر سنة ثمان وأربعين وسبعمائة " .

(*) أنظر الصور من رقم ٩٢ — ٩٧ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) أمير شكار : وظيفته الإشراف على الطيور والكلاب المخصصة للصيد .

(٢) أميراخور كبير : هو المشرف على الاصطبلات الخاصة والبريد والهجن .

(٣) الدرر الكامنة لابن حجر، ج ١ ص ٣٩٤ والمنهل الصافى لابن تغرى بردى .

ويؤخذ من هـذا النص أنه كتب بعد وفاته ، لأنه تضمن تاريخ الوفاة ولم يتعرض لتـاريخ الفراغ منه ، ولا للتعريف بمن قام بتكملته .

وفى سـنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) أنشأ فى صحنـه الأمير طوغان الدوادار فسقية ، أقام فوقهـا سقفا محمولا على عمد لم يبق لهـا أثر اليوم . وربمـا حلت محلها الحديقة الموجودة فى وسط الجامع أو المظلة بجوارها .

وصف الجامع — وضع تصميمه على مثـال المساجد الجامعة ، أربعة إيوانات يتوسطها صحن مكشوف ، أكبرها إيوان القبلة المشتمل على رواقين . أما الإيوانات الثلاثة فكل منها رواق واحد . ويتوصل إلى داخله من ثلاثة أبواب فى وجهاته الغربية والبحرية والقبلية . والأخيرين غير متعامدين إذ البحرى منهما منحرف إلى الجهة الغربية .

وتعدّ الوجهة الغربيـة أهم وجهاته ، بهـا الباب العمومى المحمول عقده على كوابيل ظريفة . وعتب الباب ملبس بمزررات رخامية خضراء . وعلى يساره قبة علاء الدين كجك ، المحلاة شبابيكها بمزررات رخامية ملونة ما بين خضراء وبيضاء ، يعلوها شباك مستدير ، لبّس ما حوله بالرخام الملون المزخرف ، يغطيها مقرنص واحد . وبها لوح رخامى نصه : "بسم الله الرحمن الرحيم كل نفس ذائقة الموت هاذه القبة المباركة عمرت لدفن العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان السعيد الشهيد الملك الأشرف علاى الدين كجك وكانت وفاته فى شهر جمادى الأول من سنة ست وأربعين وسبعمائة" .

وعلى يمين الباب شباكان ، حليت أعتابهما بمزررات رخامية خضراء ، يغطيها مقرنص واحد . وتنتهى الوجهة بمنارة رشيقة مكوّنة من ثلاث دورات . بدن الدورة الأولى منها مستدير ، والثانية قنوات مستطيلة ، والثالثة مسدّسة ، فوقها خوذة خشبية مغلفة بالرصاص ، قصد بها هرتس باشا عند تجديدها التخفيف . نترك الوجهة ونجتاز الباب العمومى ، فنجد على اليسار قبـة أنشئت قبل الجامع ليـدفن فيها السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجـك ابن السلطان الملك النـاصر محمـد بن قلاوون المتوفى فى شهر جمادى الأولى سنة ٧٤٦ هـ (١٣٤٥ م) وهى قبة ظريفة ، بهـا إيوان وبها دوائر وبخاريات جصية . ويحيط بها إفريز جصى مكتوب به آية الكرسى واسم من دفن بها وألقابه . ومقرنصها من حطة واحدة ، وهو من شواذ العمارة فى ذلك العصر .

وعلى يمين الداخـل بمؤخر الإيوان القبـلى حجرة أنشأها إبراهيم أغا مستحفظان سـنة ١٠٦٣ هـ (١٦٥٢ م) جدرانها مؤزرة بالرخام ، وبهـا محراب رخامى . ثم كسيت بالقاشانى حتى السقف ، يتوسطها قبر من الرخام أنشأه فى حياته سنة ١٠٦٤هـ (١٦٥٤ م) ومكتوب عليه : "أنشأ هذا المكان

المبارك الراجى عفو ربه ستر الله عيوبه وغفر ذنوبه هو الغفور الرحيم إبراهيم أغا مستحفظان حالا بتاريخ شهر شعبان المبارك فى سنة ١٠٦٤ هـ" .

ومثبت فوق شباك المدفن من الخارج لوحة رخامية بتاريخ عمارته للمسجد نصها : "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله عمر وجدد هذا الجامع الشريف المبارك إبراهيم أغا مستحفظان حالا بتاريخ سنة إحدى وستين وألف من الهجرة النبوية".

وتوجد لوحة أخرى على الوجهة البحرية للدفن نصها : "أنشأ هذا المدفن المبارك من فضل الله تعالى فى زمن عبد الرحمن باشا حاكم مصر المحروسة إبراهيم أغا مستحفظان حالا بتاريخ سنة ١٠٦٢".

ويجاوره هذه التربة الباب القبلى للجامع، يلاصقه مربع بسيط من البناء بداخله قبر تسوده البساطة . ويقرأ فى لوحة مثبتة عليه : "هذا قبر المرحوم آق سنقر الناصرى المعروف بجامع النور وكان ابتداه سادس عشر رمضان سنة ٧٤٧ هـ والفراغ فى سنة ٧٤٨ هـ" .

ومن المؤكد أن هذه المقبرة حديثة، لأنه معلوم أن آق سنقر أعد لنفسه مقبرة بجوار الجامع ، حلت محلها الآن الأبنية التى تحجب باقى الوجهة القبلية على ما أرجح . والتربة فى وضعها الحالى هى وتربة إبراهيم أغا يشغلان جزءا كبيرا من الإيوان القبلى، ولم يسبق إقامة قباب أو قبور فى مثل هذا الوضع فى المساجد فهى من عمل إبراهيم أغا الذى بخل على المنشئ الأصلى بمقبرة تناسب عمله الخيرى العظيم .

والإيوان الشرقى أكبر الإيوانات ، وهو يشتمل على رواقين كانت عقودهما محمولة على أكتاف حجرية مثمنة وسقوفها معقودة. وما زال الرواق أمام المحراب محتفظا بأصله لم يتغير، بخلاف الرواق الثانى المشرف على الصحن ، فان عقوده استبدل بها سقف من الخشب وبقى طرفاه على أصلهما ، وأبدلت بدعائمه عمد رخامية وأكتاف حجرية مربعة، وكذلك الرواقان القبلى والبحرى . أما الرواق الغربى فانه محتفظ بكثير من تفاصيله القديمة .

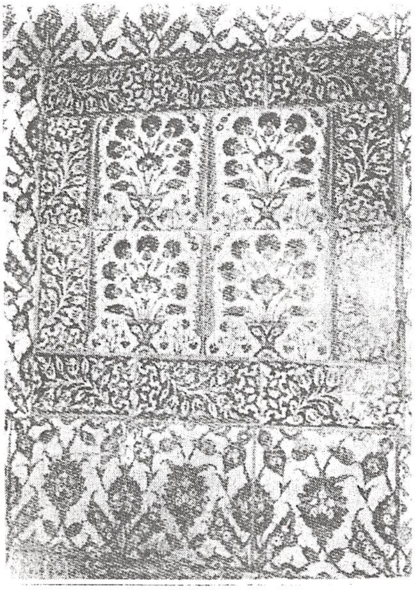
وهذا التغيير أحدثه إبراهيم أغا مستحفظان فى عمارته الكبيرة التى أجراها بالجامع سنة ١٠٦١ — ١٠٦٢هـ (١٦٥١ — ١٦٥٢م) ، كما هو منقوش فى غير موضع بالجامع . ولم يقتصر على هذه العمارة؛ بل كسى الجدار الشرقى حتى السقف بالقاشانى الملون الجميل . وهى أكبر مجموعة منه وجدت فى أثر واحد بمصر . ويزيد فى أهمية هذه المجموعة أنها عملت خصيصا لهذا الجامع برسوم موضوعة، ولذلك نجد أطرها كاملة ونقوشها متماثلة؛ فبعضها يمثل محرابا يعلوه قنديل وكتب فيه : "يا الله يا محمد"

يكتنفه عودا سرو ، و بداخله زهرية تفرعت منها فروع نباتية تحمل زهورا . والبعض الآخر يمثل زهريات مختلفة و زخارف و زهورا ملونة .

ولذلك عرف الجامع ، وخاصة عند الزائرين الأجانب ، بالجامع الأزرق ، نسبة الى مجموعة القاشانى العظيمة الموجودة فيه .

ومما يسترعى النظر فى هذا الإيوان المنبر الرخامى الملون ، ودرابزينه الحافل بالزخارف البارزة المورقة وعناقيد العنب . وهو أقدم منبر رخامى باقٍ فى مساجد مصر ، يليه منبر مدرسة السلطان حسن .

وأقدم ما عرف من المنابر الرخامية منبر مسجد الخطيرى المنشأ سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧م) و بقاياه محفوظة بدار الآثار العربية . و يجاور المنبر محراب كبير كسى بأشرطة دقيقة من الرخام والصدف . وطاقاته الصغيرة مزخرفة ومحمولة على عمد . وغطاؤه المعبر عنه بالطاقية من الرخام المحلى بزخارف نباتية ملونة بارزة ، ولعلها الأولى من نوعها . وقد ثبت على يسار هذا المحراب لوح من الرخام مكتوب فيه : "رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المحراب المبارك فى ليلة السبت تاسع شهر ذى القعدة الحرام سنة ثمان وستين وثمان مائة وهو قائم يصلى عمر هذا الجامع الشريف إبراهيم أغا مستحفظان حالا فى تاريخ سنة ١٠٦٢ هـ" .



تفاصيل من القاشانى

و يعلو المحراب قبة كبيرة مقرنصها من طاقة واحدة . وغريب أن نرى مقرنصات قباب هذا المسجد وقبتى مسجد أم السلطان شعبان وقبتى تنكزبغا وكلها فى عصر واحد ومن طاقة واحدة . وهى ميزة امتازت بها القباب الفاطمية فى نشأتها . و بمؤخر هذا الإيوان دكة المبلغ وهى من الرخام .

أعمال الإصلاح — فى سنة ١٣٠٧ هـ أجريت بالجامع عمارة تناولت المنارة وذلك فى عصر المغفور له توفيق باشا . ثم توالت عناية لجنة حفظ الآثار العربية بهذا الجامع ، فأصلحت العقود والقاشانى ، وأصلحت المنبر ، وكشفت الواجهات من الأبنية التى كانت تحجبها حتى ظهر المسجد بهذا المظهر الجميل .

(١) لهذا الأمير منشآت عمارية كثيرة فى شارع باب الوزير ما بين حوض لشرب الدواب الى دور وأسبلة ، كما أن منزله كان هناك .

جامع الأمير شيخو الناصرى

شارع شيخون بالصليبة (*)

الأمير شيخو — شيخو العمرى الناصرى ، أحضره الى مصر الخواجا عمر ؛ فاشتراه الملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد علا نجمه فى دولة الملك المظفر حاجى (١) ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون . وحظى عنده فشفع فى كثير من الأمراء وسعى فى الإفراج عنهم . وفى دولة الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون عظم شأنه وصار زمام المملكة بيده . يتصرف فى شؤون الدولة كيفما شاء الى شهر شوّال سنة ٧٥١ ﻫ (ديسمبر سنة ١٣٥٠ م) . حيث عين نائبا لطرابلس . ولما وصل إلى دمشق فى طريقه اليها صدرت الأوامر بإقامته بها ، ولم يلبث أن قبض عليه وأحضر الى الإسكندرية وسجن بها .

ولما ولى الملك الصالح صالح بن الملك الناصر محمد بن قلاوون أفرج عنه فى رجب سنة ٧٥٢ ﻫ (١٣٥١ م) . وأنعم عليه بتقدمة ألف . وأبلى فى مكافحة العرب الثائرين بالصعيد بلاء حسنا . ولما عاد الملك الناصر حسن الى الملك للمرّة الثانية سنة ٧٥٥ ﻫ كافأه فأنعم عليه بوظيفة أمير كبير ؛ فتكاملت عظمته واشتدّ نفوذه وكثرت ثروته ؛ الى أن كان يوم الخميس ثامن شهر شعبان سنة ٧٥٨ ﻫ (١٣٥٧ م) وثب عليه مملوك وهو جالس فى دار العدل بالقلعة وضربه بالسيف فى يده وفى وجهه ، فحمل الى بيته فأقام به عليلا نحو ثلاثة أشهر عاده فيها السلطان غير مرة . وقبض على المعتدى وقتل .

وفى ليلة الجمعة ٢٦ (٢) ذى القعدة سنة ٧٥٨ ﻫ (نوفمبر سنة ١٣٥٧ م) . توفى متأثرا بجراحه ودفن بالخانقاه الشيخونية . وكان أميرا جليلا خيّرا دينا . وله منشآت خيرية باق منها السبيل الجميل النادر المثال المحفور فى الصخر بالحطابة ، والخانقاه العظيمة ، والجامع الذى أمامها بالصليبة . ومنهما تتكوّن مجموعة أثرية عظيمة أكسبت هذا الشارع روعة وعظمة .

تاريخ إنشاء الجامع — هذا الجامع أوّل منشآت الأمير شيخو فى هذه المنطقة . وتاريخ البدء فيه غير معلوم ، ولم يذكره أحد من المؤرّخين ، ولا يوجد به نص تاريخى يفيد تاريخ البدء فيه . بينما وجد تاريخ الفراغ من بنائه فى شهر رمضان سنة ٧٥٠ ﻫ (١٣٤٩ م) .

وإنى أرجح أن البدء فى العمارة كان عام ٧٤٨ ﻫ (١٣٤٧ م) فى آخر دولة الملك المظفر حاجى . ويعزز هذا الرأى عندى وجود اسم الملك المظفر على شباك من النحاس المكفت بالذهب والفضة .

(*) انظر الصور من رقم ٩٨ — ١٠١ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) المقريزى ج ٢ ص ٣١٤ ، شذرات الذهب ج ٦ ص ١٨٤ (٢) فى المنهل الصافى ١٦

اكتشفتُه بالجامع سنة ١٩٣١ ، وأودع دار الآثار العربية . وهو شباك من رماح ومخرزات ، حلّى وجه الرمح بزخارف وتطعيم بالفضة ، وحلى وجه المخرزة بنقوش مكفتة بالذهب . وكتب بوسطها : "الملك المظفر" .



مشكاة من زجاج بالمينا باسم شيخو الناصرى

وصف الجامع — يرى القادم من ميدان صلاح الدين قاصدا الجامع الطولونى بنايتين متقابلتين ، تماثلت وجهاتهما : إحداهما على اليسار ، وهى الخانقاه التى أمر بإنشائها الأمير شيخو سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) ونقل إليها صوفية الجامع وزادهم وأعدّ بها مساكن لهم ، كما أعدّها لتكون دار حديث ومدرسة للمذاهب الأربعة وعلم القراءات . ولما مات دفن بها .

وأمام الخانقاه الجامع من إنشاء الأمير شيخو أيضا ، وهو جامع جميل يبلغ مسطحه ٩٩٠/٣٩ مترا له وجهة عالية ، حليت بالشبابيك الجصية المتنوعة ، والمقرنصات المختلفة ، والآيات القرآنية . وفى طرفها الباب العمومى ، حلى بمزررات رخامية ملونة وشباك من الخشب المغطى بالنحاس ، فوقه مقرنص ظريف ، يعلو ذلك مقرنص الباب ذو الدلايات ، ومكتوب فى طاقيته لفظ الجلالة . وتواشيح الباب محلاة بزخارف نباتية موزقة . وتعلوه منارة كبيرة من ثلاث دورات ، متماثلة مع منارة الخانقاه فى الطرز والارتفاع ، وتسترعى النظر برشاقتها والنقوش الموجودة فى بدن دورتها الأولى ، ووجود شرفة واحدة بها ، والزخارف والكتابات بخوذتها ، والكرانيش المصرية الطرز الغريبة فى نوعها . بجوارها قبة صغيرة حلى سطحها بقنوات رأسية .

والكرانيش المصرية نراها لثالث مرة فى الآثار الإسلامية بمصر ؛ فأول ما رأيناها فى منارة قلاوون ، ثم فى منارة منجك اليوسفى ، فهاتين المنارتين . وقد هدم طرفا الوجهة القبلية الرئيسية للجامع ، وكانت مماثلة لوجهة الخانقاه فى الطول ، كما كانت مماثلة لها فى كثير من التفاصيل والارتفاع .

والباب العمومى يؤدى الى دركاة على يمينها باب القبة ، وقد ثبتت فى جنبات الدركاة ثلاث قطع من رخام أسود له بريق كالمرآة . ألفنا رؤيته فى مداخل بعض المساجد ، رأيته فى قبة الإمام الشافعى ، وفى المدرسة القاصدية ، فمدرسة السلطان حسن ، فقبة سيدى عقبة ، كما عاين ابن جبير الرحالة قطعة منه فى مدخل المشهد الحسينى ، ووصفها بأنها كالمرآة الهندية الحديثة الصقل[1] . ولعل هذا هو الغرض المقصود منها .

ويتوصل من هذه الدركاة الى صحن المسجد المفروش بالرخام الملون ؛ ويحيط به أربعة إيوانات ، بكل من الشرقى والغربى منها رواقان . أما القبلى والبحرى فكل منهما رواق واحد صغير ، قصد بهما إيجاد التماثل فقط .

ويغطى النوافذ العليا للمسجد شبابيك جصية ، بها زجاج ملون من أبدع النماذج ، جددت حديثا طبقا لبقاياها ، وسقوف المسجد محلاة بنقوش وكتابات .

والمنبر من الحجر وقد دقت قوائمه وجوانبه بزخارف جميلة ، كما حليت عمده وتيجانها بزخارف كانت ملونة . ودكة المبلغ بمؤخر هذا الإيوان ، وهى من الحجر أيضا ، محمولة على عمد منقوشة ، ولها سلم حجرى حلزونى ، ومكتوب بها آيات من سورة الفتح ، ثم ما نصه : " أنشأ هذه الدكة المباركة

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٤

الحج محمد بن شعبان بن سعيد النقلى غفر الله لهم وللمسلمين وكان الفراغ من ذلك فى شهر صفر سنة أحد وستين وتسعمائة " .

وهى أول دكة حجرية، إذ المألوف أن تكون رخامية أو خشبية. والمرجح أنه هو الآمر بعمل هذا المنبر أيضا، الذى يعتبر ثانى منبر حجرى؛ إذ الأول الذى أنشأه السلطان قايتباى لخانقاه فرج بن برقوق سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) . والمحراب مكسوّ أعلاه بالرخام وأسفله بالقاشانى المغربى .

وبهذا الإيوان كرسى المصحف . وهو كرسى جميل، نجارة الخرط فيه دقيقة . وقفه هو ومصحفه الأمير الشهابى أحمد ولد المقر السيفى بركماس الظاهرى فى شهر جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثمانمائة من الهجرة .

وللإمام عبد الرحمن السيوطى العالم الكبير والمؤرخ الجليل المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) صلة وثيقة بهذا المسجد، فقد ولى إحدى[1] وظائفه وهو صغير . وألقى فيه أول درس بحضور أساتذته[2] .

وكان يعلو المحراب قبة احترقت مع سقف هذا الإيوان سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) بسبب اختفاء[3] السلطان طومانباى بالجامع وقت حروبه مع السلطان سليم .

وفى شهر رمضان سنة ٩٢٥ هـ (١٥١٩ م) جدد هذا السقف . ويشق الايوان الغربى الى الباب الثانى للمسجد ممر، وهو باب بسيط، يسترعى النظر فيه بروزه عن سمت الوجهة .

ويرى مسيو باتريكولو الباشمهندس الأسبق للآثار العربية أن الوجهة الغربية المشرفة على حارة الميضة مبنية على أسلوب يخالف أبنية الأمير شيخو، لأن مداميكها مرتفعة ومن قطع كبيرة من الحجر .

وبالمسجد حوض رخامى (سبيل) محلى بزخارف وكتابات أمر بعمله الأمير ابراهيم الرزنامجى سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ م)

وقد وقف على الجامع مجموعة من الكتب الأمير الصالح[4] أحمد جاويش أرناؤد باش اختيار . المتوفى سنة ١٢٠١ هـ (١٧٨٦ م) .

أعمال الإصلاح — عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بالجامع منذ أمد بعيد، وكانت أهم الأعمال التى أجريت به فى سنى ١٩٣١ — ١٩٣٣ حيث تم إصلاح المنبر وكرسى المصحف والمحراب والشبابيك الجصية، وتقويم عمد وجدران الايوان الغربى، وإصلاح الأرضيات الرخامية .

وبهذه الاصلاحات عاد للجامع رونقه .

---

(١) شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٢ (٢) عن الدرس الدينى الذى ألقاه فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر بين يدى صاحبى الجلالة الملكين العظيمين فاروق الأول وعبد العزيز آل سعود .
(٣) ابن إياس، ج ٣ ص ١٠٤ (٤) الجبرتى، ج ٢ ص ١٥٠

مدرسة صرغتمش

بشارع الخضيرى (*)

الأمير صرغتمش — سيف الدين صرغتمش الناصرى من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، اشتراه سنة بضع وثلاثين وسبعمائة بثمن كبير وعينه جمدارا (1) . وفى دولة الملك المظفر حاجى بن محمد ابن قلاوون بدأ نجمه يتلألأ، وظل يترقى حتى عين أميرا للطبلخاناه .

وفى سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) رقى الى رأس نوبة كبير (2)، وأعطى سلطة كبيرة (3) . ثم زاد نفوذه فى دولة الصالح صالح، وانفرد بتدبير شؤون الدولة بعد الأمير شيخو .

ولما عاد السلطان حسن إلى ملك مصر ورأى تدخله وعظم نفوذه وتصرفه فى شؤون الدولة، قبض عليه فى ٢٠ رمضان سنة ٧٥٩ هـ (١٣٥٨ م) وحبسه بالإسكندرية ، وبها مات فى شهر ذى الحجة سنة ٧٥٩ هـ (١٣٥٨ م) ثم نقلت جثته إلى قبة هذه المدرسة (4) .

وكان أميرا حازما، اشتغل بالعلم، وتفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة وتعصب له . وكان يقرب علماء فارس ويجلهم إجلالا زائدا .

تاريخ المدرسة ووصفها — أنشئت هذه المدرسة لصق الزيادة الغربية للجامع الطولونى . وبسببها سد بابان من أبواب هذه الزيادة .

وكان الفراغ من إنشاء المدرسة فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) . وهى من المدارس الجليلة التى أعدت لتدريس فقه السادة الحنفية .

ويصفها المقريزى بأنها جاءت من أبدع المبانى وأجلها وأحسنها . واحتفل صرغتمش بافتتاحها بحضور الأمراء وقضاة القضاة الأربعة والعلماء، وعين أستاذ الفقه بها قوام الدين أمير كاتب الاتقانى، ورتب بها درسا للحديث النبوى، ورصد عليها أوقافا منها منية حافا بالقرب من قناطر أبو منجا (5) .

وكانت هذه المدرسة معقلا لعلماء الحنفية وخاصة الفرس منهم فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى (الرابع عشر والخامس عشر الميلادى) . وتولى التدريس فيها علماء أجلاء أذكر منهم :

(*) انظر الصور من رقم ١٠٢ — ١٠٥ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(1) جام دار مركب من كلمتين : جام، أى مرآة، ودار أى حامل ؛ فهو الذى يحمل المرآة أمام الملك ويتولى خدمته حينما يلبس .

(2) رأس نوبة . لقب لمن يتولى رياسة المماليك .

(3) المقريزى، ج ٢ ص ٤٠٤ والدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٦

(4) السلوك، ج ٣ ص ٣٦ مجلد ١

(5) ابن دقماق، ج ٥ ص ٤٧

محمد بن قطلوشاه أرشد الدين المتوفى ســنة ٧٧٥ هـ (١٣٧٣ م) . ومحمد بن أحمد التلمسانى المتوفى سـنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م)، ومولانا زاده أحمد بن أبى يزيد المتوفى سـنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م)، وجلال الدين التيزيتى المتوفى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م)، وعبد الرحمن التفهنى المتوفى سـنة ٨٣٥ هـ (١٤٣٢ م) . ولمـا توفى العلامة قوام الدين الاتقانى دفن بالايوان الغربى بها .

وقـد انفردت هـذه المدرسة بمميزات معارية قيمة . وكان لاهتمام المنشئ بالفرس و إكرامهم أثر كبير فى التأثيرات الفارسية الملموسة فى عمارتها ممـا يذهب بالظن الى أن مهندسها كان فارسيا .

وللمدرسة وجهتان : إحداهما قبلية، و بها شبابيك المدرسة، وأسفلها دكاكين أمامها سلم بعرض ٤٫٦٠ متر يصعد منه إلى الرحبة أمام الباب الغربى لجامع الطولونى على ارتفاع عشرة أمتار .

و يرى مسيو باتريكولو الباشمهندس الأسبق للآثار العربية[1] أن هـذه المدرسة بنيت على أساس أبنيـة تسبقها فى القدم، سدّت فتحاتها لتكون منها قاعدة قوية للأبنيـة التى أقيمت عليها على رسم مغاير لها فى الشكل . وهذا يبدو جليا و بخاصة فى هذه الوجهة .

والوجهة الثانية غربية وهى العمومية . و بطرفها القبلى القبة، وهى بارزة عن بقيـة الوجهة . وقد فتح بقاعدتها شبابيك عليها مصبعات النحاس، تعلوها أخرى مغطاة بشراِع من الجص مفرغة برسوم هندسية متنوعة، وتنتهى من أعلى بشرفة مسنّنة . و بطرفها القبلى المنارة، و بجوارها الباب العمومى، وقد حلى عتبه بنقوش نباتية مورّقة ومكتوب على جانبيه : " أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة المقرّ الأشرف العالى[2] المولوى العالمى العادلى الفاضلى السيفى صرغتمش رأس نو بة الملكى الناصرى [صر بى العلـ]ـماء مقوّى الضعفاء بانى المدارس والمساجد فى ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وسبعمائة " .

وقد غطى الباب بمقرنصات جميلة، ونقشت تواشيحه برسوم نباتية مورّقة، وهذا الباب يؤدّى الى دركاة بهـا على اليسار باب الميضأة، وعلى اليمين باب يؤدّى الى حجرة كبيرة تطل على الوجهة، ثم باب يصعد إليه ببعض درجات يوصل إلى داخل المدرسة .

وتصميمها من الداخل كبقية المدارس : أربعة إيوانات حول صحن مكشوف تتوسطه فسقية حولها ثمانية عمد رخامية، ليست هى بالفسقية القديمة . ولعل الباقى منها عمدها .

(١) Compte Rendu du Comité de Conservation des Monuments de l'Art Arabe (1915—1919) p. 103—104.

(٢) فان برشم ج ٢ ص ٢٤٠

ويكتنف الإيوان الشرقى أربعــة أبواب : آثنــان منها لخلوات ، والآخران يوصــلان إلى المدارس . كما يكتنف كلا من الإيوانين القبلى والغربى أربع خلوات . ويكتنف الإيوان البحرى أربعة أبواب .

وعقود هذه الأبواب فارسية الطراز ومكسوّة بالرخام الأبيض والأسود . وهذه الكسوة طارئة عليها ؛ لأنه تبين أن فتحاتها كانت معتّبة وأوسع ممــا هى عليه الآن .

ويسترعى النظر فى الإيوان الشرقى آشتمــاله على مميزات نماذجها قليــلة : أولاها القبــة فوق المحراب ؛ فهى أوّل قبــة باقية فوق محراب مدرســة ، وقد هدمت القبة فى وقت ما ، وأعادت بناءها إدارة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٤٠ طبقًا لصورة فوتوغرافية قديمة لها . ولها مقرنصات خشبية . وهذا الإيوان ينقسم الى ثلاثة أقسام، أكبرها أوسطها وتعلوه القبة .

وثانيها وجود فتحتين فى كل من جانبيه اقتبستا من مدرسة قلاوون وخانقاه بيبرس كما اقتبسهما بعد ذلك مهندس مسجد ألجــاى اليوسفى .

وعلى جانبى المحراب بقايا وزرة مكوّنة من ألواح رخامية منها آثنان تتوسطهما بخارية بها رنكه[(١)]، ومحاطة بزخارف مورّقة ومكتوب برءوسهما : "ممــا عمل برسم المقر العــالى السيفى الملكى الناصرى صرغتمش أسبغ الله ظلاله " كما يوجد لوح آخر اشتمل على بخارية بوسطها قنديل . وبها زخارف مورّقة وعناقيــد عنب بأوراقها . وتوجد دائرة رخامية زخارفها بارزة مورّقة مذهبة حولها أربعة تواشيح من الرخام الملوّن .

ونقل الى دار الآثار العربية تسعة ألواح من وزرة هــذه المدرسة ودائرة مثل التى بها الآن . ومنقوش على بعض هذه الألواح نقوش عربية على هيئة أوراق مفرّغة، وعلى البعض الآخر أوراق مصمتة . كما يوجد على البعض عدا الزخارف النباتيــة صور تمثــل بعض الأوانى، ويدان قابضتان على غصنين، ومشكاة، وبعض الطيور .

ونقل الى مسجد قانى باى المحمدى القريب من المدرسة لوحان بهما نقوش وبخاريات .

وأثناء إصلاح الأرضية الرخامية بالصحن سنة ١٩٤٥ وجد لوح كبير به عناقيد عنب بأوراقها، تتخلله فروع زخرفية، وتتوسطه زهرية تتفرّع منها فروع نباتية بأوراقها . وبرأسيه صور حيوانات متقــابلة .

(١) الرنك هو شارة الأمير .

ووجود حيوانات وطيور فى وزرة مسجد ، ظاهرة غريبة لعلها الأولى فى مثل هذا الوضع ، لأنه وجدت رسوم حيوانات وطيور حول ساسبيلات الأسبلة الملحقة بالمساجد وفى سماعات بعض الأبواب النحاسية .

كما وجدت بهـذه الأرضية دوائر منقوشة وأخرى مكتوب عليها : " عز لمولانا السلطان الملك المظفر العالم " ولاشك فى أنها كانت بالوزرة .

وهذه المجموعة تعطى فكرة عن مقدار رقى صناعة الرخام فى هذه المدرسة مما دفع ٱبن الصائغ الشاعر الى أن يصفها بقوله :

ليهنـك يا صرغتمش ما بنيتـه * لأخراك فى دنياك من حسن بنيان
به يزدهى الترخيم كالزهر بهجة * فلله من زهر ولله من بانى [1]

والمحراب من أشرطة رخاميـة ماونة ، و بعضها به نقوش مورّقة ، وطاقيته منقوشة ومكتوب عليها آية الكرسى ، يجاوره منبر مجمع مكتوب عليـه : " أنشأ هذا المنبر من فضل الله تعـالى قيومجى أحمد كتخداى عزبان عمره الله سنة ١١١٨ هـ " .

ويحيط بجـدران الإيوانات والصحن إزار خشبى . وبسقف الإيوان القبـلى بقايا زخرف وكتابات تنبئ عما كانت عليه سقوف المدرسة من جمـال ، وكذلك حلّيت معابر الأبواب والدواليب بزخارف محفورة ورنك المنشئ .

وفى الركن القبلى للايوان الغربى باب القبة ، وهى على مثال القباب السمرقندية ، لها رقبة مستطيلة أحيطت بافريز منقوش ومكتوب . وهـذا النوع من القباب نادر بمصر وظهر لأول مرة فى هذه المدرسة ، إذ تتكوّن القبـة من غطاءين . فالقبة يبدأ تكويرها من الداخل ابتـداء من عقد شباك الرقبة ، بينما يبدأ تكويرها من الخارج على مسافة كبيرة من عتب الشباك المذكور . ولهذه القبة نظير آخر أرق منهـا وهو قبتا خانقـاه خوند سمرا بصحراء السـيوطى ، وقبة يونس الدوادار بالخطابة ، ويحيط برقبتها شبابيك جصية وجدرانها مؤزرة بالرخام . ويتوسط هذه القبة تركيبة رخامية تعتبر نموذجا راقيا جدا لهذا النوع من التراكيب ، تحتها قبر المنشئ وٱبنه الأمير إبراهيم المتوفى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) [2] .

وبهذه القبة إيوان غربى على جزء منه مقصورة من الخشب الخرط ، له سقف من مصابات صغيرة .

ويوجد بحرى الإيوان الغربى حجرة مستطيلة بها سقف حافل بالنقوش الملونة والمذهبة .

وقبل مغادرة المدرسة نلق نظرة على منارتها ، وهى منارة رشـيقة مبنية بالحجر ٱرتفاعها — عن

(١) حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٩٢ طبع الوطن . (٢) السلوك ، (النسخة الفوتوغرافية) ج ٣ مجلد ١ ص ٦٨

مستوى الطريق الى قمتها — أربعون مترا ، ومن سطح الجامع الى تلك القمة ٢٤/٦٠ مترا مكونة من ثلاث طبقات : أولاها السفلى التى تعلو سطح الجامع مثمنة ، ومثلها الطبقة الثانية ، أما الدورة الثالثة فتشتمل على عمد رخامية تحمل مقرنصات لطيفة فوقها خوذة منقوشة .

ويسترعى النظر فيها تلبيس الحجر الأحمر فى الأبيض على شكل دالات بدورتها الثانيــة وهو من مميزات منارات هذا العصر ، وثمت ميزة أخرى وهى اقتصارها على شرفة واحدة (بالكون) فى أحد أضلاع قاعدتهــا الأولى ، بينما المألوف وجود أربع منها ، وقد سبقتها فى ذلك منارة مسجد الناصر محمد بالقلعة ومنارتا خانقاه ومسجد شيخو .

وقد طرأ عليها خلل فقامت إدارة حفظ الآثار العربية بفكها وأعادت بناءها فى ســنة ١٩٣٤ ، ثم أنشأت دارا صغيرة بجوارها لتجميل المنطقة .

وفى عهد الملك الصالح فاروق الأول أعيد بناء القبة أعلى المحراب وأصلحت الأرضية الرخامية بالصحن .

وما زالت المدرسة فى حاجة الى إصلاحات أخرى فى الأجزاء الملحقة بها .



دائرة رخامية من الوزرة

مدرسة السلطان حسن

بميدان صلاح الدين[*]

السلطان حسن — السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ولد فى سنة ٧٣٥ ﻫ (١٣٣٤ م) . وسمى أولا قمارى[1] ، ولما ولى ملك مصر اختار اسم حسن فعرف به . ولى الملك فى ١٤ رمضان سنة ٧٤٨ ﻫ (ديسمبر سنة ١٣٤٧م) . وعمره ثلاث عشرة سنة . ولصغره ناب عنه فى إدارة شؤون الدولة الأمير بيبغا روس نائب السلطنة ، وأنعم على الأمير منجك اليوسفى وعُيّن فى الوزارة والأستادارية[2] .

وفى سنة ٧٥١ ﻫ (١٣٥٠ م) . أثبت القضاة أنه بلغ سنّ الرشد . وقبض على الأميرين منجك و بيبغاروس ، مما دعا الأمراء الى التآمر عليه و إقصائه عن الملك فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٧٥٢ ﻫ (١٣٥١ م) . واعتقاله فى الدور السلطانية وتعيين أخيه الملك الصالح صالح .

وفى الثانى من شهر شوّال سنة ٧٥٥ ﻫ (أكتوبر سنة ١٣٥٤م) . أعيد الناصر حسن الى ملك مصر فاستبدّ بالمملكة وصفت له الدنيا ولم يشاركه أحد فى الحكم ، فبالغ فى أسباب الطمع الى سنة ٧٦٢ ﻫ (١٣٦٠ م) . حيث تزايد سلطانه وكثرت مماليكه . وأهدى إليه بعض ملوك اليمن خيمة غريبة الشكل تتكوّن من قاعة وحمام محلاة بالنقوش .

ومن أجل تغير الجو فى مصر خرج مع حاشيته الى ضواحى الجيزة فأقام بها ثلاثة أشهر . وفى هذه الفترة آشتدّت الفتنة بينه وبين الأمير يلبغا الخاصكى ، وحاول السلطان حسن الفتك به فلم يوفق ، فهاجمه يلبغا فى القلعة فهرب السلطان حسن ، ثم قبض عليه وعلى من معه جهة المطرية ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٦٢ ﻫ (١٣٦١ م) . وهنا يقول أغلب المؤرخين : كان هذا آخر العهد به ، وقيل : إنه خنق وألقى به فى البحر ولم يعرف له قبر .

ويقول المقريزى : إنه دفن فى مصطبة كان يركب عليها[3] من داره بقلعة الكبش . كما قيل : إنه دفن بكيمان مصر وأخفى قبره . وتبعه فى الأخذ برواية دفنه فى مصطبة داره آبن أبى الفلاح[4] المؤرخ .

كان رحمه الله ملكا حازما شجاعا متزها عن كثير من نقائص المماليك . وكان ينفر منهم و يقرّب غيرهم من أبناء الأسر و يعيّنهم فى حاشيته .

(*) انظر الصور من رقم ١٠٦ — ١١٤ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٣٨ (٢) المقريزى ، ج ٢ ص ٢١٧

(٣) السلوك ، ج ٣ قسم ١ ص ٣٦ — ٣٧ النسخة الفوتوغرافية . (٤) شذرات الذهب ، ج ٦ ص ١٩٦ — ١٩٧

مدرسة السلطان حسن — إن حق لمصر الفرعونية أن تفخر بأهرامها فإن لمصر الإسلامية أن تتيه عجبا بمدرسة السلطان حسن التي لا يعادلها بناء آخر في الشرق بأجمعه ؛ فقد جُمعت شتى الفنون فيها .

ويعرف موقعها قديما بسوق الخيل، وكان به قصر من أجل القصور، أمر بإنشائه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) لسكنى الأمير يلبغا اليحياوى . وقد بقى هذا القصر حتى هدمه الملك الناصر حسن وبنى محله هذه المدرسة . ففى سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) بدأ هذا السلطان فى بنائها وعنى بها عناية شديدة واستمرت العمارة جارية فيها مدة حياته ، وكان يصرف عليها بسخاء عظيم .

ونسب الطواشى مقبل الشامى الى السلطان حسن أنه قال : « لولا أن يقال إن ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه » . وليس بمستبعد أن يقول هذا ؛ فالبناء شامخ يدل على العظمة والجبروت وعلى المقدرة الفنية ، كما ينم عن كثرة النفقات . وقد ابتكر مهندسه فى هذا البناء الضخم زخارف دقيقة وكتابات ونقوشا ونحاسا مكفتا آية فى الحسن والبهاء .

ويصفه المقريزى المؤرخ بقوله : « فلا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكى هذا الجامع وقبته التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها »[1] .

وقد أجمع على هذا الرأى جميع المؤرخين والرحالة الذين زاروها، فيقول عنها ابن تغرى بردى « إن هذه المدرسة ومئذنتها وقبتها من عجائب الدنيا، وهى أحسن بناء بنى فى الاسلام»[2] .

ويقول عنها غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى المتوفى سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) ما ملخصه : « ليس لها نظير فى الدنيا؛ فقد حكى أن الملك الناصر حسن لما أمر بعمارتها طلب مهندسين من أقطار الأرض وأمرهم بعمارة مدرسته — ولم يعمر أعلى منها — فعمرت وعُمّر بها أربع منارات وقيل : ثلاث فى ارتفاع المدرسة أيضا؛ ثم هُدم بعض المنارات واستمرت[3] الآن على اثنتين، وهى عجيبة من عجائب الدنيا » .

ووصفها السلطان[4] سليم وقد زارها سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) بقوله : هذا جصار عظيم .

ويقول الورثيلانى الرحالة المغربى — وقد زار مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى، (الثامن عشر الميلادى)[5] — : « إنه مسجد لا ثانى له فى مصر ولا فى غيرها من البلاد فى فخامة البناء ونباهته ،

(١) المقريزى، ج ٢ ص ٣١٦ (٢) منتخبات من حوادث الدهور، الفصل الثانى ص ٢١٩
(٣) زبدة كشف الممالك لغرس الدين، ص ٣١ (٤) أخبار الأول ص ١٢١ (٥) الرحلة الورثيلانية، ص ٢٦٥

وارتفاعه و إحكامه، واتساع حناياه وسعة أبوابه كأنه جبال منحوتة، تصفق الرياح فى أيام الشتاء بأبوابه كما تفعل فى شواهق الجبال . وفى أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة يقال إنها من إيوان كسرى؛ وفيها نقوش عجيبة[1] » .

و يصفه عبد الغنى النابلسى[2] — وقد زاره سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) فيقول — : « إن هـذا الجامع من أعظم الجوامع على شكل القاعة العظيمة ، ونظرنا الى إيوانه القبلى الذى فيه المنبر والمحراب فإذا هو إيوان كبير عظيم » .

وقد أحصى هرتس باشا أقوال الرحالة والمؤرخين الأجانب فى هذا المسجد فنقتطف منها ما يأتى :

بيترو دى لافاليه سـنة ١٦١٦ م : « وتجاه القلعة جامع لم أر أجمل منـه منظرا، ولا أبدع منه شكلا[3] . وأحسن ما راقنى منه قبته وشكلها الغريب التى لم أشاهد مثلها، فانك بينما تراها ضيقة من الأسفل تتسع فى عينك كلما تعلو ثم تأخذ فى الضيق على هيئة بيضة الدجاج » .

مسيو تيفنو — وقد جاء مصر سنة ١٦٥٧ م ووصفه فى رحلته ببلاد الشرق ص ٢٦٦ :

« هذا الجامع متقن البناء عظيم الارتفاع وكله مبنى بحجر الآله » .

كتاب وصف مصر للحملة الفرنسية : « إنه جامع جميل بل من أجمل مبانى القاهرة بل الدولة المصرية بأسرها » . وقد بالغ واضع هـذا الفصل فى ضخامة قبته وارتفاع منارتيه ، وذكر الكتابات المنقوشة على جدرانه فقال : « إنها ملونة بألوان شتى . وأشار الى المصابيح الجميلة المعلقة فى عقود إيوانه وفى قبة التربة ... » .

وقد عنى حضرة الأستاذ الجليل مسيو جاستون ڤييت مدير دار الآثار العربية بجمع طائفة كثيرة من تلك الآراء فى بحثـه الذى نشره[4] تحت عنوان جامع السلطان حسن، وأبدأ بفقرات من وصفه له : « وقـد يكون فى وصف الجـامع وصفا مسهبا ما يدعو الى السآمة والملل بالرغم من أن الجزئيـات تشترك فى إبراز الكليات . ولكن هـذا الأثر بحاجة الى قلم بليغ وأسلوب شاعرى حتى يمكن إبراز دقائقه وجزئياته حتى لا يكون ما يراه القارئ قاصرا على هـذه الجزئيات فحسب ، و إن كانت بعض هـذه الجزئيات غاية فى الطرافة والابتكار وكأنها بيوت شعر من قصـيدة عصماء . والفنان فى هـذا الجامع لم يوجه همـه الى الزخرفة كعامل جوهرى فى العمارة بل اقتصد فيهـا وسيطر عليها وأخضعها للكل فأدت أغراضها . وقد يكون هـذا الجامع هو الوحيد بين جوامع القاهرة الذى

---

(١) الرحلة الورثيلانية ص ٢٦٥ (٢) الحقيقة والمجاز ص ١٠٣ (٣) تاريخ جامع السلطان حسن ص ١٥ — ١٦

(٤) نشره فى (La Revue du Caire) وعربه الأستاذ محمد وهبى ، ونشر فى المقتطف .

يجمع بين قوة البناء وعظمته ورقة الزخرفة وجمالها . وأثره قوى فى نفوسنا إذ له خصائصه التى لا يشترك معه فيها غيره . إن جامع السلطان حسن هو العمل العظيم فى الإسلام الذى روعى فى تشييده متانة البناء ، فهو كالمعابد القديمة يتحدى الزمن وينطبق عليه ما تخيله شاعر عربى من أن الزمن هو الذى يقاوم قوة هذه المبانى الضخمة . ولا ريب فى أن هذا البناء العالى الشهرة والعظيم القيمة رمز لمجد الإسلام وقوته وعظمته مقررة معترف بها » .

وقال أيبرس « إن كل ما نراه فى الجامع مركب فى مكانه تركيبا هادئا منسجما ، فإذا أمعنت النظر فى زخارف إيوان القبلة وقاعة القبر جزءا جزءا أحسست إحساس الرضا .. فهناك ثروة فنية وأشكال رشيقة بارعة » .

وكتب چومار فى كتاب وصف مصر : « إنه من أجمل مبانى القاهرة والإسلام ، ويستحق أن يكون فى الرتبة الأولى من مراتب العمارة العربية بفضل قبته العاليه ، وارتفاع مئذنتيه وعظم اتساعه وفخامة وكثرة زخارفه التى تكسو الأرضية والحيطان فى أوضاع بسيطة خاصة بهذه العمارة ، كما أن حشوات الخشب والبرونز التى تكسو الأبواب الخشبية والنحاسية محفورة حفرا فنيا » .

وكتب عنه المصور لينوار : « ان جامع السلطان حسن المملوكى يشرف على القاهرة كلها ، وأسلوب بنائه من أرقى الأساليب المعمارية ، ومساحته عظيمة ، ولذا يعد أجمل جامع فى الشرق كله بلا نزاع » .

وقال آرثر رونيه : « إن العبقرية هى التى أتاحت لصاحبها السيطرة على الأشكال التقليدية أو الهندسية فبث فيها روحا من عنده ، فلكل زخرفة فى جامع السلطان حسن طابع خاص تمتاز به عن سواها من زخارف الأبنية الأخرى » .

تصميم المدرسة — وقد وضع تصميمها على طريقة التعامد (Cruciforme) التى تشتمل على أربعة إيوانات يتوسطها صحن مكشوف . وكان المقرر فى مشروع بنائها أربع منارات فرغ من بناء ثلاث : منها اثنتان تكتنفان القبة بالوجهة الشرقية ، والثالثة كانت على الكتف الأيمن للباب العمومى ، وقد سقطت يوم السبت ٦ ربيع الآخر سنة ٧٦٢ هـ [(١)] (١٣٦١ م) فأبطل السلطان حسن بناء المنارة الرابعة التى كان مقررا لها الكتف الأيسر للباب المذكور ، واكتفى بالمنارتين .

وفى شهر جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) قتل السلطان حسن ، وكانت المدرسة كاملة عدا بعض أعمال تكميلية أتمها من بعده الطواشى بشير الجمدار .

---

(١) المقريزى ج ٢ ص ٣١٦

أعمال بشير الجمدار — قد قام الطواشى بشير بأعمال تكميلية كثيرة بهـذه المدرسة دون أن يتمها أيضا . منها أعمال الرخام بالوزرات والأرضيات ، ولذلك نراها بسيطة و يدخل فيها الكسوة الرخامية لأبواب المدارس بالصحن ، ولذلك يقرأ على كل منها ما نصه :

” بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الشهيد المرحوم الملك الناصر حسن ابن مولانا السلطان الشهيد المرحوم الملك الناصر محمـد بن قلاون وذلك فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة“ . (مع ذكر المذهب المخصصة له المدرسة : المذهب الشافعى أو المذهب الحنفى الخ) ويسترعى النظر فيها مزرراتها وتطعيم القاشانى والتفيس المكتوب فيه لفظ الجلالة .

كما أتم قبة الفسقية بالصحن سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) ، وهى قبة خشبية أقيمت على ثمانية عمد رخامية وكتب بدائرها آية الكرسى وتاريخ الفراغ منها سنة ست وستين وسبعمائة .

وعمل المصراعان النحاس للباب الكبير الموجود الآن فى جامع المؤيد، إذ يقرأ عليهما ما نصه : ”أمر بانشاء هذا الباب المبارك العبد الفقير الى الله تعالى مولانا السلطان الشهيد أبو المعالى حسن ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الناصر محمد بن قلاوون وذلك فى سنة أربع وستين وسبعمائة “ .

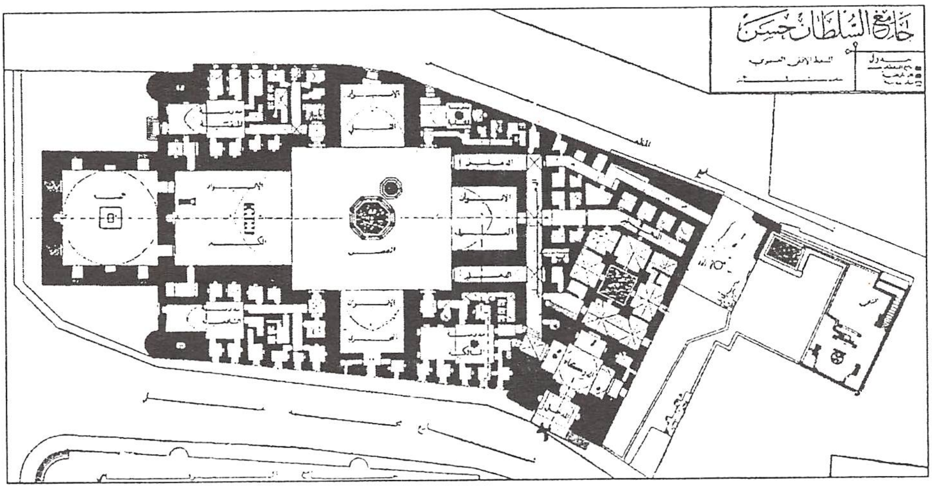
كما أتم بناء القبة الكبيرة وكتب بافريزها آية الكرسى ، ثم : ” وكان الفراغ من هـذه القبة المباركة فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة “ . والمرجح أنه لم يتم بناء القبة ، كما كان مقررا لها ، ببناء عظيم يتناسب مع الجدران الضخمة التى أعدت لحملها ، بل أقامها من الخشب وغطاها بألواح من الرصاص . وعلى ذلك تكون هذه رابع قبة خشبية كبيرة فى مصر، إذ الأولى قبة الإمام الشافعى، ثم قبة مسجد الظاهر بيبرس البندقدارى، فقبة الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين .

هذه هى أعمال بشير الجمدار — أما الزخارف و بقية أعمال الرخام بالوجهات فقـد تركها دون أن يتمها كما تركها السلطان حسن .

غير أن وفاة السلطان حسن قبـل إجراء باقى الأعمال التكميلية ليس معناه أن المدرسـة لم تفتتح فى حياته ، فقـد احتفل السلطان حسن بافتتاحها وصلى بها الجمعـة[1] وأنعم على البنائين والمهندسين، وأقيمت بها الدروس فى حياته أيضا . كما حرر لها وقفية مؤرخة فى شهر رجب سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩م)، ورصد عليها وعلى غيرها عقارات وأراضى تغـل للصرف عليها ، وعين بها الموظفين والقراء ، وفرشها وعلق بها الثريات والمشكاوات الجميلة ، وعين لها إماما .

(١) ابن إياس، ج ١ ص ٢٠٤

وصف المدرسة — إن المطلع على رسم هذه المدرسة يرى فى وضعها بعض آزورار ، بل يصعب عليه تحديد شكلها . وغاية ماينتهى إليه الوصف أنه شكل كثير الأضلاع . وتبلغ مساحتها ٧٩٠٦ مترمربع ، إذ امتداد أكبر طول ١٥٠ متر ، وأطول عرض ٦٨,٠ متر ، ولها أربع وجهات : شرقية وبها القبة ومنارتان أقدمهما القبلية ، ويبلغ ارتفاعها عن صحن الجامع ٨١,٦٠ ، وبحرية وقد سقطت سنة ١٠٧٠ هـ (١٦٥٩ م) وجددت فى عمارة إبراهيم باشا سنة ١٠٨٢ هـ .

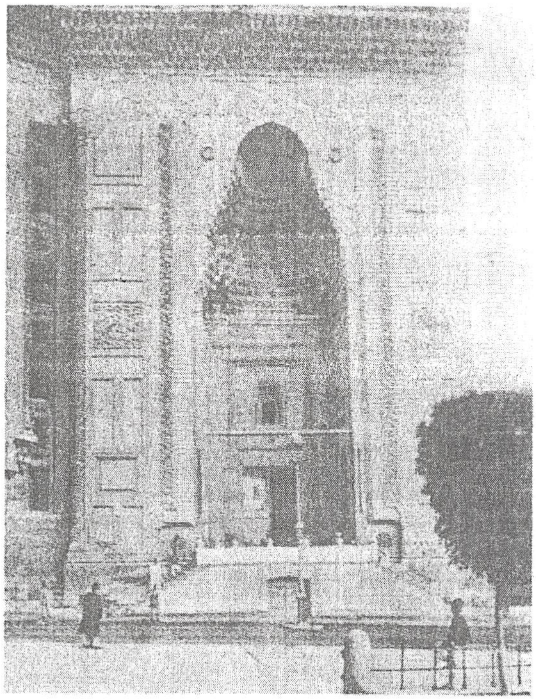


مسـقط أفـقى (عن هرتس باشا)

وقد حليت أعتاب شبابيك القبة بمقرنصات وعقود غريبة ، كما طعّمت بأشرطة من القاشانى . وحليت نواصيها بعمد من الحجر ظريفة بها كتابات كوفية . ويتجلى منظرها من ميدان صلاح الدين ومن أعلى القلعة .

وأخرى قبلية بها شبابيك مدرستى الحنابلة والحنفية ، وغربية وتحتها دورة المياه ، وأمامها الساقية التى كانت توصل المياه إلى المدارس وإلى المسجد بواسطة مجراة على كوابيل بالوجهة القبلية . وبحرية ويبلغ ارتفاعها عند الباب ٣٧,٧٠ وهى الوجهة العمومية ، وبطرفها الغربى الباب العمومى ، وهذا الباب طرفة أثرية ، فقد حلى من جانبيه بالزخارف المتنوعة الممتدة إلى أعلى . وأكثرها لم يتم إلى الآن . كما أن أجزاء كثيرة فى الباب والوجهات كان مزمعا تلبيسها بالرخام ولم يتم . ويكتنف هذا المدخل حنيتان برأسيهما مقرنصات لبستا بالرخام الأخضر بأشكال هندسية وكتب أعلاهما بالخط الكوفى المزهر قوله تعالى : " إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله " ، يعلوهما تربيعتان كتب على احداهما بالكوفى المربع " لا إله إلا الله محمد رسول الله " وبالأخرى : " أبو بكر . عمر . عثمان . على "

وقد كان لهذا الباب مصراعان من الخشب مغشيان بالنحاس من أنفس الأبواب النحاسية، نقلهما السلطان المؤيد شيخ إلى مسجده بالسكرية سنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) . ويغطى هذا الباب مجموعة كبيرة من المقرنصات رأينا هرتس باشا يأخذ على مهندسها بعض الهفوات فى وضعها . ويحلى نهاية الوجهات مقرنصات بارتفاع ستة مداميك ، و برزت بمقدار ١,٤٠ أضيفت إليها شرفة مورقة فى وقت ما قامت إدارة حفظ الآثار العربية بإزالتها من الوجهة البحرية .



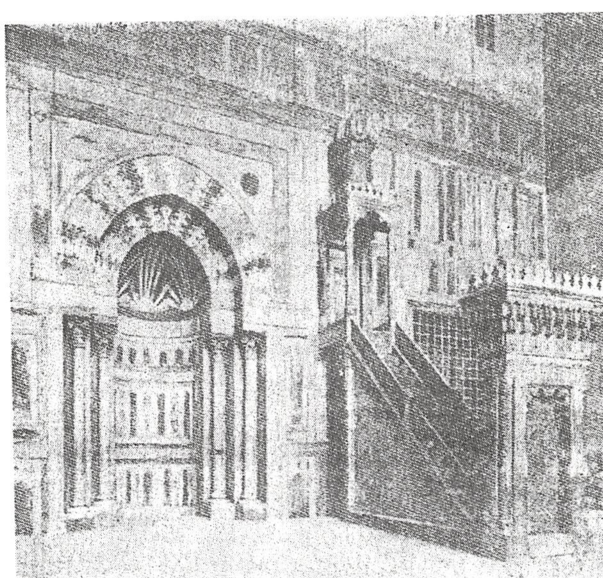
الباب العام

ويقرر هرتس باشا(١) أن زخارف هذا الباب الكثيرة لا نظير لها فى الديار المصرية ، وأن أمثالها كثيرة الوجود فى آثار آل سلجوق التى تمتاز الأبواب فيها عن باقى البناء بكثرة زخارفها .

وهذا الباب يؤدى إلى مدخل مربع الشكل مكوّن من ثلاثة إيوانات مغطاة بمقرنصات يتوسطها قبة ملبّسة بالحجر الأحمر ، وبصدر هذا المدخل مسطبة حلى صدرها بالرخام الملون الملبس فى الرخام الأبيض ، وشباك من الجص ودوائر ومستطيلات زخرفية دقت فى الحجر لا تقل دقة عن الأويمة فى الخشب أو الجص ، ومن هذا المدخل يتوصل إلى سلم ذى خمس درجات يؤدى إلى دهليز معقود

(١) تاريخ جامع السلطان حسن ص ٢٣

ينثني دفعة واحدة إلى اليسار وينتهى إلى صحن كبير مفروش بالرخام الملون مساحته ٣٤,٦٠ مترفى ٣٢,٠٠ متر، يتوسطه فسقية تعلوها قبة محمولة على ثمانية أعمدة مكتوب بدائرها آية الكرسى وتاريخ الفراغ منها ، وبها تاريخ عمارة أجريت بها سنة ١٠٨٨ هـ (١٦٧٧ م) ، وحول الصحن أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة، وهو إيوان كبير لا نظير له فى سعته وارتفاعه ، إذ تبلغ فتحته ١٩,٢٠، يحيط به إفريز نادر من الجص مكتوب عليه بالخط الكوفى المزهر مانصه : "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم . إنا فتحنا لك فتحا مبينا — إلى قوله تعالى : فوزا عظيما"، ويتخلل الكتابة زخارف دقيقة ، ويتوسطه دكّة من الرخام يلفت النظر فيها تلبيس عمد الرخام الملون فى نواصيها ، وبصدره المحراب المغشى بالرخام الملون والمحلى بزخارف مورّقة تتخللها عناقيد العنب . ويجاور المحراب منبر من الرخام له باب من النحاس المفرّغ ، ويكتنف المحراب بابان يوصلان إلى القبة خلف المحراب أحدهما قبلى مغشى بالنحاس المكفت بالذهب وعليه آسم السلطان حسن ، والآخر فقدت كسوته . وعلى جانبى المحراب لوحتان مكتوب عليهما : " جدّد هذا المكان المبارك حسن أغا خزينندار — الوزير إبراهيم باشا بيد الفقير محمد سنة ١٠٨٢ " .



المحـراب والمنـبر

والقبة مربعة طول كل ضلع من أضلاعها ٢١,٠٠ مترا، وارتفاعها إلى ذروتها ٤٨,٠٠ مترا، وبها محراب من الرخام محلى بزخارف دقيقة ، ووزرة مرتفعة نحو ثمانية أمتار ، يعلوها إفريز خشبى به كتابة بارزة نصها : " بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم " — الآية — "وكان

الفراغ من هذه القبة المباركة فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة وصلى الله على محمد " . يعلو ذلك شبابيك ودوائر جصية ومقرنصات خشبية محلاة بزخارف ملونة ومذهبة . وغطاء القبة الحالى ليس هو القديم ، فقد كانت القبة خشبية مكسوة بالرصاص .

وقد زار مصر السائح بيترودى لافاليه[1] وكتب رحلته سنة ١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م) . ومن وصفه للقبة يعتبر طرازها كطراز القباب السمرقندية ؛ كذلك ذكر بريس دفين أن القبة سقطت سنة ١٠٧١ هـ (١٦٦١ م) ، وكانت أعظم ارتفاعا ، و باطنها حافل بالنقوش . وقد جددها إبراهيم باشا سنة ١٠٨٢ هـ (١٦٧١ م) ، وهى محاطة من الخارج بدعامات أسطوانية الشكل ، ويتوسط القبة تركيبة من الرخام كتب عليها أنها أنشئت سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) برسم تربة السلطان السعيد الشهيد الملك الناصر حسن وذريته . ولكن السلطان حسنا لم يدفن فيها كما شرحناه فى ترجمته ودفن[2] فيها ابنه الشهاب أحمد المتوفى فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م) . وقد أودع بهذه القبة كرسى المصحف المكون من حشوات سن وآبنوس وخشب دقت بالأويمة الدقيقة .

و وضع القبة خارجا عن سمت جدار المحراب وخارجا عن المسجد يعتبر وضعا شاذا سبقه فيه المشهد الحسينى ، ونسج على منواله فيما بعد فى مساجد أمير حسين والمحمودية وألتى برمق بمصر وبعض مساجد الوجه البحرى . ويتدلى من عقود الإيوانات مجموعة من السلاسل النحاسية كانت معدة لحمل مشكاوات زجاجية مشغولة بالمينا وعليها اسم السلطان حسن ، وقد حفظ ماتبقى منها وعددها ٢٤ مصباحا مع ثريتين من النحاس بدار الآثار العربية إحداهما باسم الأمير قوصون .

و بمناسبة الثريات النحاسية (التنانير) الخاصة بالمسجد أذكر أن الملك المؤيد شيخ . كان نقل إحداهما إلى مسجده مع الباب النحاسى .

ويحيط بالصحن أربع مدارس للمذاهب الأربعة تعتبر من تصميمها مساجد صغيرة محدقة بالجامع الكبير ، أكبرها المدرسة الحنفية ؛ إذ تبلغ مساحتها ٨٩٨ مترا ، و يتكون كل منها من إيوان وصحن تتوسطه فسقية ، ثم طبقات بعضها فوق بعض تشرف على صحن المدرسة وعلى الوجهات .

و باق فى اثنتين منهما طراز جصى مكتوب بالخط الكوفى على مثال الإيوان الشرقى ، أحدهما فى مدرسة المالكية ومكتوب فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ، اللهم أكثر الخير وأتبع العطا نسألك وأنت خير مسئول دوام دولة من أسس هذا الخير وأصله مولانا السلطان الأعظم الما ... ... والمساكين ... ... يته ... ... فى عقبه ... ... " .

(١) تاريخ جامع السلطان حسن ص ١٥ (٢) نزهة النفوس والأبدان ج ١ ص ٧١

نظام المدارس : وقد قرر السلطان حسن[1] لهذه المدارس مدرسين ومراقبين وعين لهم مرتبات نثبتها فيما يلى :

قرر لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخا ومائة طالب ، من كل فرقة خمسة وعشرون متقدمون وثلاثة معيدون، وعين مدرسا لتفسير القرآن ، وعين معه ثلاثين طالبا عهد الى بعضهم أن يقوموا بعمل الملاحظة، وعين مدرسا للحديث النبوى ، ومقرئا لقراءة الحديث، وثلاثين طالبا يحضرون يوميا عهد إلى بعضهم أن يقوموا بوظيفة النقيب والبعض الآخر يقوم بوظيفة داع للسلطان عقب الدروس.ثم عين بالإيوان القبلى بالجامع شيخا عالما مفتيا ، ورتب معه مقرئا مجيدا للقراءة على أن يحضر أربعة أيام من كل أسبوع ، منها يوم الجمعة ؛ فيقرأ المقرئ ماتيسر من القرآن وماتيسر من الحديث الشريف ،وعين مدرسا حافظا لكتاب الله عالما بالقراءات السبع ليجلس كل يوم مابين صلاة الصبح والزوال بالإيوان القبلى ، وقارئا آخر يجلس معه ليلقن القرآن لمن يحضر عنده ، ثم عين اثنين لمراقبة الحضور والغياب ،أحدهما بالليل والآخر بالنهار. وأعد مكتبة عين لها أمينا ، وألحق بالمدرسة مكتبين بمدرسيهما لتعليم الأيتام القرآن والخط ، وقرر لهم الكسوة والطعام؛ فكان إذا أتم اليتيم القرآن حفظا يعطى خمسين درهما ويمنح مؤدبه خمسين درهما مكافأة له .

وعين طبيبين مسلمين أحدهما باطنى والآخر للعيون، يحضر كل منهما كل يوم بالمسجد ليداوى من يحتاج الى علاج من الموظفين والطلبة ، ورتب طبيبا ثالثا جراحا . وقد أرصد فى وقفيته مرتبات الأساتذة والطلبة والموظفين . وقيمة ما يصرف لهم من المأكل كل ليلة جمعة وما يصرف لهم فى الأعياد .

المدرسة كقلعة — لوقوع هذه المدرسة أمام قلعة الجبل آتخذها المماليك حصنا لهم يدافعون به عن أنفسهم أمامها ؛ فحينما تقع فتنة بينهم يصعد الأمراء وغيرهم الى أعلى مدرسة السلطان حسن ويضربون القلعة . ففى سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩م) نصبت مكحلة[2] أعلى المدرسة رمى بها على باب السلسلة فهرب المماليك . ولما تكررت هذه الحوادث أمر السلطان الظاهر برقوق فى ٨ صفر سنة ٧٩٣هـ(١٣٩١م) بهدم السلم الموصل الى سطح المدرسة وسد ما وراء الباب النحاسى الكبير[3]، ثم فتح شباك من شبابيك المدرسة يوصل الى داخلها .

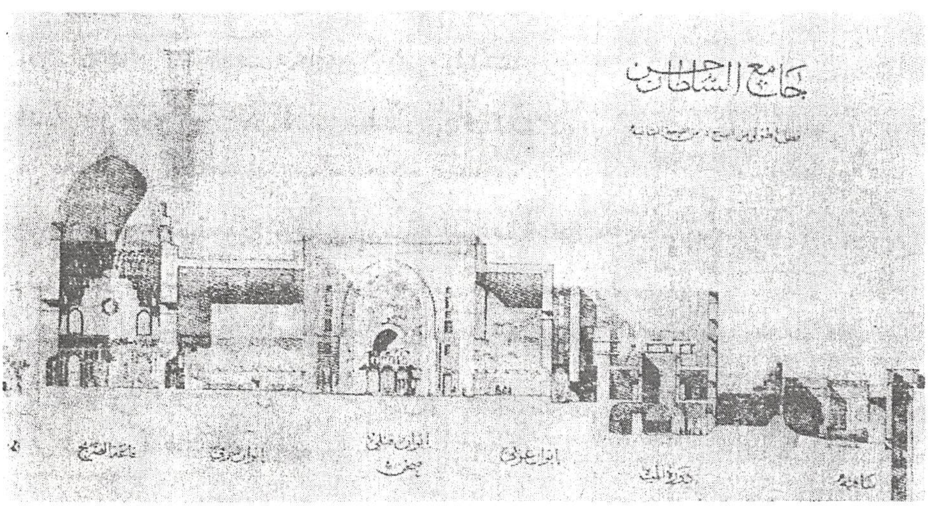
وفى شهر رمضان سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢م) صرح بالأذان فى المنارتين وأعيد بناء الدرج والبسطة وركب باب بدل الذى أخذه المؤيد شيخ .

(١) الخطط الجديدة ج ٤ ص ٨٤ — ٨٥ (٢) ابن اياس ج ١ ص ٢٧٨ والمكحلة (مدفع) .
(٣) المقريزى، ج ٢ ص ٣١٦

ولما عاد الأمراء الى مهاجمة القلعة من منارة المدرسة أمر السلطان أبو سعيد جقمق بهدم[1] السلالم الموصلة الى المنارات ، وذلك فى سنة ٨٤٢ هـ (١٤٣٨م) .

وفى ٢٩ ذى الحجة سنة ٨٥٨ هـ (١٤٥٤ م) عهد السلطان أبو النصر إينال الى المهندسين بفحص المنارة القبلية للمدرسة خوفا من حدوث خلل بها . وبفحصها تبين لهم سلامتها ، ولكن تبين أن رصاص القبة به ثغرات من كثرة[2] إصابتها بالمكاحل فى أيام الحروب ، وآعوجاج هلالها فرفع وبقيت القبة بدونه .

وفى سنة ٩٠٢ هـ (١٤٩٧م) كانت موقعة اقبردى ؛ فحاصر القلعة وضربها من أعلى المدرسة بمكحلة أصاب أول حجر منها باب السلسلة ، فقوبل الاعتداء بمثله وصوبت المكحلة المعروفة[3] بالمجنونة الى من فى مدرسة السلطان حسن فأصاب المدفع شباك المدرسة فقتل ثلاثة من المماليك . ونهبت بسط المدرسة وقناديلها ورخامها .



وفى سنة ٩٠٣ هـ (١٤٩٧ م) جدّد الأمير طومانباى الدوادار الثانى جدران المدرسة وأصلح ما تلف منها ، وأقيمت الخطبة بها بعد أن كانت معطلة نحو عشرة أشهر[4] .

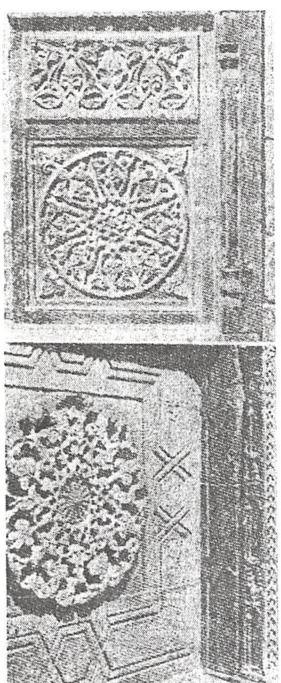
وفى سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠م) هدم الأشرف جان بلاط جزءا بسيطا خلف محراب القبة بصعوبة ثم أوقف الهدم[5] .

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ قسم ١ ص ٤٩ طبع كالفرنيا . (٢) منتخبات من حوادث الدهور قسم ٢ ص ٢١٩ طبع كالفرنيا . (٣) ابن إياس ج ٢ ص ٣٢٦ (٤) ابن إياس ج ٢ ص ٣٤١ (٥) ابن إياس ج ٢ ص ٣٨١

ولما ولى ملك مصر الملك العادل طومانباى أمر بترميم جميع ما فسد من جدران مدرسة السلطان حسن[1] فى مدة محاصرة القلعة .

ولما زار مصر الرحالة المغربى الورثيلانى[2] سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥م) وجد جدارا كبيرا مهدوما من المسجد وكان العمل جاريا فى رفع أنقاضه . وبعودته من الحج بعد سنة ونصف سنة وجدهم قد فرغوا من ترميمه . ولعل هذه العمارة لإصلاح ما هدمه جان بلاط ، أو من أثر المعركة التى قتل فيها أحد عشر أميرا فى بيت محمد بك الدفتردار[3] سنة ١١٤٩ هـ (١٧٣٦م) وتسبب عنها سد الباب الكبير مرة ثانية لمدة ٥١ سنة ، الى سنة ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥م) حيث أصلح المسجد سليم أغا[4] وفتح بابه وأزال الدكاكين التى أحدثت بأسفله ، وبنى له سلالم ومصطبة جديدة .

ومن هذه الحوادث نرى كيف كافحت هذه المدرسة وصمدت أمام تلك التقلبات وبقيت محتفظة بكيانها أكثر من القلعة .



زخارف حجرية وبها الدعامة الصغرى

ملحقات الجامع — وقد اتخذت خلف الدركاة والإيوان الغربى أبنية فرعية ، الدور الأرضى منها يشتمل على دورة مياه فسيحة مساحتها ٤١٢ متر وتركت الجهة الوسطى من هذا المكان مكشوفة لتجديد الهواء ودخول الضوء .

وتنخفض أرضية هذه الجهة عن أرضية الجامع بستة أمتار ونصف متر . ويتوصل اليها من باب فى غاية الجمال ، وفى وسطها ميضأة من الرخام الأبيض ، وعلى امتداد جدران هذا المكان مرافق ومنافع متنوعة ، ومن ملحقات الجامع أيضا الساقية ، وهى فى الزاوية القبلية الغربية .

المهندس — أخذ المرحوم هرتس باشا على مهندس السلطان حسن اتخاذه مقرنصات مقلوبة لتحلية قواعد الأعمدة . ومنها استنتج أن المهندس أجنبى عن هذه البلاد ، وعلق على ذلك بقوله : «ولكن أنى لنا العلم ببلده وهو لم يترك لنا اسمه ولا أثره ، ولذلك جعلنا جميعا متشوقين لمعرفته» .

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٣٨٨ (٢) نزهة الأنظار ص ٢٦٥ — ٢٦٦ (٣) الجبرتى ج ١ ص ٩٦

(٤) الجبرتى ج ٢ ص ١٠٧

واستطرد فقال : " ولم يذكر أحد من المؤرخين — حتى ولا المقريزى الذى يكثر الكلام على الآثار — اسم هـذا المهندس ، كما أننـا لم نعثر على شيء يتضمنه فى الكتابات الكثيرة المنقوشة على جدران الجامع ؛ ولذلك تضطرنا الحال إلى معاودة البحث فى عمله عن أثر يدلنا عليـه ، أو إشارة تهدينا إليـه بالتأمل فى كيفية تصميم دقائق البناء وكيفية توقيعها . وللوصول إلى هـذه الغاية جعلنا الدعامة الصغرى (١) المركبة على أحد وجوه كتف الباب محل نظرنا فدلتنا على أن المهندس — لعـدم استطاعته تدوين اسمه فى عمله — اكتفى بنسبة الفخر إلى وطنه فأشار إليـه إشارة لبيب فى ركن صغير . وهى إشارة تخفى على العامة ، ولكنها كافية لأن يهتدى بها من كان بسر الأحجار عالما .

و بيان ذلك أن هذه الدعامة ترى عليها ستة سطوح بعضها فوق بعض متعاقبة بين صغير وكبير، وكلها محلاة برسوم بارزة . أما الكبار فرسومها متشابهة أو تكاد تكون كذلك ؛ فان فى جميعها أقواسا متينية مرتكزة على زوج من العمد الصغيرة ، وهذه الأقواس — و إن لم يكن فيها ما يستوقف النظر خلاف كون الرسومات الزهرية النباتيـة التى فى السطح البـاطن جلية البيان — فإن العمد تسترعى النظر بأبدانها المهنـدمة الدالة على أنهـا من طراز قديم عن الطراز العربى . أما الرسومات المنقوشـة فى السطوح الصغيرة فأغرب من ذلك ؛ إذ قد مثل فى الأسفل منها بيت صغير ذو طبقتين سطحه على شكل جملون و بجانبه بناءان أعلا منه ، ومن الباطن بناء آخر له باب وعدة نوافذ ، وفى السطح الذى يليه كنيسة ، وطبقة أرضية عالية لهـا باب ينتهى عاليه بشكل جملون ، وعليها طبقـة أخرى أقل منها فى الأهمية ومتخذة قاعدة لقبة يزيد حجمها عن نصف كرة ، وهى ترتكز على قاعدة مخروطة .

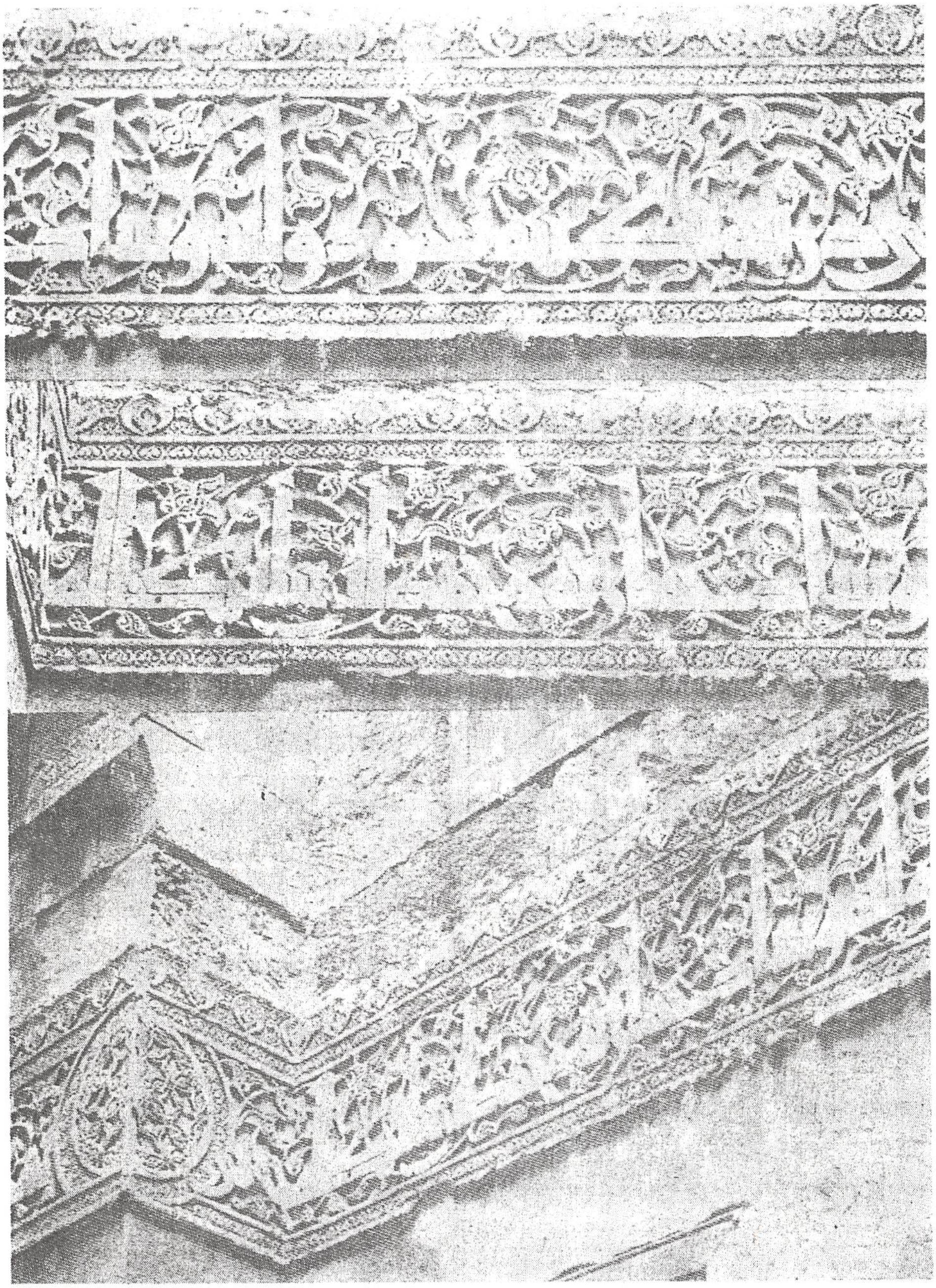
واستخلص من هذا الوصف مستنتجا أن المهندس وضع هذه الدقائق فى الرسم ليكشف بها عن جنسيته ، ورجح أن المهندس بيزنطى تلق أصول الطرز الإسلامى فى أحد البلاد السلجوقية ، مما مكنه من تصميم بناء فائق فى بابه مثل جامع السلطان حسن . وهو رأى يؤيده ما كان من الروابط والعلاقات المستمرة بين بيزنطة وملوك بنى سلجوق " .

و إن الغموض الذى أحاط بالفنان الذى أبدع هـذه المدرسة أحاط غيره من بقيـة المنشآت المعمارية فى مصر . ولكن عبقرية هذا الفنان كانت حافزة دائما لمعرفته ؛ لأنه شاد بناء عظيما لم يسبق ولم يلحق .

وفى هذا الصدد كتب الأستاذ الجليل مسيو جاستون ڤييت عند بحثه لهذه المدرسة : أن جامع السلطان حسن عمل عظيم خالد ، ولكن شخصية الفنان العبقرى الذى ابتدعه يكتنفها الظلام .

---

(١) تاريخ جامع السلطان حسن ص ٢٣



اسم المهندس : و يقرأ فى السطر العلوى . ذرّيته كِتْبة تحمو دولته وشاد، وفى السطر الأوسط : وشاد عمارته محمد ابن بيليك الم...
وفى السطر الأخير : دولته وشاد عمارته محمد ابن بيليك المحسنى

وفى يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٤ — أثناء اشتغالى بمراجعة كتابات الجامع لنشرها مع أستاذى الجليل مسيو فييت ضمن مجموعة الكتابات التاريخية[1] الجارى نشرها — عثرت فى المدرسة الحنفية على اسم المهندس مكتوبا فى طرازها الجصى بما نصه : " بسم الله الرحمن الرحيم إن المتقين فى جنات وعيون أدخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم — إلى قوله تعالى : وماهم منها بمخرجين . اللهم ياداثم لا يفنا يا من نعمه لا تحصا أدم العز والتمكين والنصر والفتح المبين ببقاء من أيدت به الإسلام والمسلمين وأحييت ... ... حسن ابن مولانا السلطان الـ ... ... عنه على ما وليته وخلده فى ذريته كثبة تحمو دولته . وشاد عمارته محمد ابن بيليك المحسنى "

وكثبة تحمو (أى أن هذه الأدعية مكتوبة لحماية دولته) ، وقد كتب تحمو بدلا من تحمى — ومثل هذا الخطأ وقع فى نفس الكتابة ؛ فقد كتب : " ياداثم لا يفنا يا من نعمه لا تحصا " بالألف بدل الياء .

والمعروف أن السلطان حسنا ، حينما شرع فى عمارة مدرسته ، أشرف عليها مهندسين[2] ومشدين (ملاحظى عمارة) ، فاذا وجدنا اسم ابن بيليك بجانب اسم السلطان حسن فلا شك أنه لأكبر مهندس فيهم ، خصوصا إذا عرفنا أنه من البيوتات الكبيرة الذين اصطفاهم السلطان حسن وقربهم منه ، وكان من أمراء الألوف .

ومن تتبع تراجم أسرة ابن بيليك — وقد نشأت هذه الأسرة فى عصر المنصور قلاوون ، وتقلب أفراد أسرتها فى وظائف الدولة فى عهد هذه الأسرة ، وكثير منهم تسمى بمحمد — وجدنا المؤرخين يخلطون فيهم . وآخرهم محمد بن بيليك الذين خلطوا ترجمته بترجمة أبيه . وكل ما عرفناه عنه أنه كان من أمراء الألوف ومن أولاد الناس ، وأنه وقف بجانب السلطان حسن فى محنته مع يلبغا . ولم نقف على بقية ترجمته ولا سنة وفاته .

ولا ضير علينا فى عدم العثور على نعته بالمهندس فى الفقرات الصغيرة التى بين أيدينا من ترجمته ؛ لأن كثيرا من المهندسين لم يكونوا محترفين للهندسة ، بل اشتغل بها ملوك وأمراء وعلماء ، كما اشتغلوا بغيرها من الفنون والصناعات . والشواهد كثيرة . فقد ثبت أن الناصر محمد بن قلاوون هندس[3] بنفسه

(١) لم يكن اسم هذا المهندس معروفا قبل اليوم ، بل لم يكن هذا النص معروفا لجمهرة الأثريين ومن اشتغل فى المدرسة من المهندسين وغالبهم موجود أمد الله فى حياتهم ، ولم ينشر قبل نشرى له فى جريدة الأهرام بأى وسيلة من وسائل النشر .

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٥ فصل ١ ص ١٥٠ ، طبع كاليفورنيا . (٣) الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ٤٣٧

قصر الأمير يلبغا اليحياوى وقد كان قصرا عظيما، وأن الملك الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون كان مغرما بالصناعات وأجاد صناعة الزجاج وغيرها[1]، وأن الأمير قطلو بك بن قرا سنقر أحد أمراء الطبلخاناه كان مهنـدسا للرى[2]. فقد عمّر قناة بالقدس واستقدمه الناصر محمـد بن قلاوون الى مصر ليعهد إليه بمشروع عمل قناة للـاء من بركة الحبش .

وأن العلامة أحمد بن على بن إبراهيم الغسانى الأسوانى المصرى كان عالما كاتبا شاعرا مؤرخا مهندسا[3]، وأن الأمير سنجر بن عبد الله الشجاعى المنصورى وزير الديار المصرية كان خبيرا بالسياسة والعمارة[4]. وهو الذى نفّذ منشآت المنصور قلاوون .

هذا عدا الكثير من الملوك والوزراء والأمراء الذين اشتغلوا بكثير من العلوم ونبغوا فيها .

ولدينا مسألة طريفة تعـزز أن ابن بيليك هو المهندس . ذلك أن كلمـة بيليك التركية معناها بالعربية سعد .

وقـد كتب المؤرخون أن السلطان حسنا لمـا صلى صلاة الجمعة فى المسجد لافتتاحه أنعم على البنائين والمهندسين[5]، كما كافأ الفعـلة لكل واحد عشرة دنانير؛ فأنشـد الشاعر ابن نباتة المصرى مقطوعة فى المعنى ضمنها اسم المهندس فقال :

مليـــك التقى هنيت بالجامع الذى * وجدت الى مبناه ســعدا موافقا

وشعراء هذا العصر من دأبهم تضمين الأسماء فى شعرهم ؛ فنجد أن هذا الشاعر قد هنأ الملك الكامل شعبان بملك مصر بأبيات منها :

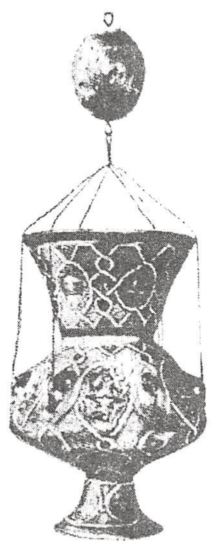
طلعة ســلطاننا تبـدت * بكامل الســعد فى الطلوع
فأعجب لهـا كيف منه أبدت * هلال شـعبان فى ربيــع[6]

وإذا لم يكن محمد بن بيليك هذا مهندسا فلما استطاع بناء هذه المدرسة وما أذن له بوضع اسمه بجانب اسم السلطان ، ولا لهج الشعراء باسمه مع اسم السلطان .

(١) الدرر الكامنة، ج ٢ ص ٢٠٤
(٢) الدرر الكامنة، ج ٣ ص ٢٥٤
(٣) معجم الأدباء، ج ١ ص ٤١٦
(٤) المنهـل الصافى .
(٥) ابن إياس ج ١ ص ٢٠٤، ديوان ابن نباتة ص٣٥٣
(٦) سكردان السلطان ص، ٣٤

وقد قيّض الله لهذه المدرسة لجنة حفظ الآثار العربية فبذلت فى إصلاحها مجهودا جبارا فأكملت بناء منارتيها وأصلحت جدرانها ورخامها ونجارتها وأرضيتها حتى أعادت إليها رونقها، بعد أن صرفت عليها ٤٠ ألف جنيه .

وانتهت هذه الأعمال فى منتصف سنة ١٩١٥ تحت إشراف المهندس الكبير هرتس باشا كبير مهندسيها ، وصاحب الفضل فى تعمير الكثير من الآثار الإسلامية بمصر .



مشكاة وكرتها من زجاج بالمينا

مدرسة أم السلطان شعبان

بشارع باب الوزير (*)

يقترن اسم هذه المدرسة باسم شخصيتين عظيمتين . الأولى السيدة الجليلة خوند بركة أم السلطان شعبان وقد كانت من السيدات الخيّرات اشتهرت بميلها الى أعمال البر . ويضرب المثل ببذخها حينما خرجت الى الحج سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٩ م) فقد استصحبت حاشية كثيرة ومائة من المماليك السلطانية ومعهم الموسيقات ، كما اشتملت راحلتها على قطار من الجمال محمل محائر قد زرعت فيها البقول والخضروات حتى سميت تلك (١) السنة بسنة أم السلطان .

توفيت فى أوائل الكهولة فى ذى القعدة سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م) ودفنت فى هذه المدرسة .

أما الشخصية الثانية فهو الملك الأشرف أبو المفاخر شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون . ولد سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) وولى ملك مصر فى يوم الثلاثاء ١٥ شعبان سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) وزمام الدولة فى يد الأتابك يلبغا العمرى والأمير طيبغا الطويل . ولم يلبث الأشرف شعبان كثيرا حتى تخلص منهم ومن غيرهم من الأمراء الذين يزاحمونه السلطة ، وصفا له الوقت وعنى بالمماليك وأغدق عليهم هباته وقرب من بلاطه من يثق به من الأمراء .

ومن المأثور عنه أنه هو الذى أمر فى سنة ٧٧٣ هـ (١٣٧١ م) بأن يميّز (٢) الأشراف بمصر والشام عمائمهم بعلامة خضراء تعظيما لقدرهم ليقابلوا بالتعظيم ويمتازوا عن غيرهم . وفى عصره راجت سوق العلم والعلماء ، وافتتحت سبس .

وفى سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٧ م) اعتزم الحج وأمر بإعداد راحلة حوت أنواع البذخ والترف ، فاقت راحلة والدته ومعه الجمال محملة بالأقمشة والهدايا والخضر المزروعة ، غير أنه لم يوفق الى إتمام رحلته بسبب تآمر الأمراء عليه وقتله فى ليلة الثلاثاء خامس ذى القعدة سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٧ م) ودفن فى قبة هذه المدرسة بإجماع (٣) المؤرخين ، عدا ابن إياس فانه يقول بدفنه فى قبة أمام المدرسة (٤) .

حقيقة توجد بقايا قبة تلاصق منارة تكية الهنود تجاه المدرسة ، ولكنى أميل الى الأخذ بإجماع المؤرخين خصوصا وأن ابن تغرى بردى يقرر دفنه فى قبة المدرسة ويقول : «وقيل فى موته غير ذلك والصحيح

(*) أنظر الصور من رقم ١١٥ ـ ١١٩ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٧٤ ، درر الفرائد المنظمة ، ج ٢ ص ٤٠٨ والمقريزى ج ٢ ص ٤٠٠

(٢) المنهل الصافى ، ابن إياس ج ١ ص ٢٢٧ (٣) السلوك ج ٣ قسم ٢ ص ٩٨ والنجوم الزاهرة ج ٥ قسم ١ ص ٢٣٢ طبع كاليفورنيا والمنهل الصافى . (٤) ابن إياس ج ١ ص ٢٢٤

ماذكرناه » ثم وصفه بأنه كان ملكا جليلا شجاعا مهابا كريمـا ، لم يل الملك فى الدولة التركية أحلم منه ولا أحسن منه خلقا وخلقا . ومن مآثره العمارية مدرسته التى أنشأها بالصوة[1]، فقد شرع فى إنشائها فى شهر صفر سـنة ٧٧٧ ﻫ (١٣٧٥ م) وانتهت عمارتها فى شهر شوال سـنة[2] ٧٧٨ ﻫ (١٣٧٧ م) وكانت غنية بشتى الصناعات كفتت أبوابها وشبابيكها بالذهب . وكان بها مكتبة اشتملت على مجموعة من المصاحف المكتوبة بخط ياقوت وابن البواب وغيرهما من مشاهير الخطاطين، و بعض هـذه المصاحف محفوظ بدار الكتب المصرية . وفى سنة ٨١٠ ﻫ (١٤٠٧ م) اعتدى عليها جمال الدين الأسـتادار وأخذ شـبابيكها وأبوابها ونقلها الى مدرسته التى أنشأها بالجمـالية ، وفى سـنة ٨١٤ ﻫ (١٤١١ م) هدمت .

ومع أن النصوص التاريخية المنقوشة فى أنحاء المدرسة تجمع على أن الأشرف شعبان قد أنشأها لوالدته ، فان صغر سنه وقت إنشائها يجعلنى آخذ برواية المؤرخين[3] من أن والدته هى المنشئة لها وكتبت اسمه عليها فى حين أن من ترجمه منهم ذكر مدرسـته بالصوة ولم يذكر هذه المدرسـة ، كما أنها كتبت أيضا اسمه على القيسارية التى أنشأتها بالدرب الأصفر بالجمالية .

تاريخ المدرسة ووصفها ـــ كان الفراغ من إنشاء هذه المدرسة فى سنة ٧٧٠ﻫ (١٣٦٨م) وأعدت لتكون مدرسة للشافعية والحنفية وقيل للمذاهب الأربعة . وقد حفلت بشتى الصناعات . وهى وإن كان الزمن اعتدى عليها فأفقدها الكثير من تفاصيلها العمارية من خشب ونحـاس ورخام إلا أن ما بقى منها يشعر أنها كانت مدرسة غنية بمختلف الفنون ، فقد كانت السـقوف ماونة مذهبة والأرضيات مفروشة بالرخام ؛ كما أن التذهيب كان يشـمل الكثير من زخارفها الحجرية والرخامية ولا عجب فهى منشأة لسيدة ، وهى ظاهرة ألفناها فى المنشآت التى أمرت بتشييدها السيدات .

ووجهة المدرسة جمعت حوضا لشرب الدواب منفصل عن الوجهة يعلوه كتاب . فالمدخل العام فسبيل ثم ملحقات للمدرسة فالمنارة ، وقد كانت مكونة من ثلاث دورات فقدت دورتهـا الثالثة مع الخوذة وقد كانت قائمة على أكتاف حجرية مخلق بها عمد . ويكتنف الوجهة الشرقية قبتان .

والباب العام من أحفل الأبواب زخرفا وأندرها تصميما ، فقد انفرد بطرزه وعقوده ومقرنصاته المذهبة وزخارفه المورقة بتواشيحه، والكتابة الكوفية المحيطة به وقد اشتملت على آية الكرسى .

---

(١) هذه المدرسة كانت على شرف عال بالمحجر ووصفها ابن تغرى بردى بأنها كانت من محاسن الدنيا ضاهى بهـا مدرسة عمه السلطان حسن وقد أنشأ مكانها الملك المؤيد شيخ بيمارستانا حوّل الى مسجد لا زالت بقاياه موجودة حتى الآن .

(٢) المنهل الصافى . (٣) المقريزى ج ٢ ص ٤٠٠ ، والسلوك ج ٣ ص ٧٧ والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٢٢ والدرر الكامنة ج ١ ص ٤٧٤ ، وابن اياس ج ١ ص ٢٢٧

وهذا النوع من الأبواب متأثر بالعمائر السلجوقية التى تعنى بزخرف المداخل — ومكتوب على جانبي هذا الباب :

"بسم الله الرحمن الرحيم الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة — الآية — أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة لوالدته مولانا السلطان الملك الأشرف شعبان بن المرحوم حسين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيي العدل فى العالمين مظهر الحق بالبراهين حامى حوزة الدين عز نصره".

ويعلوه سطر آخر تحت رجل المقرنص يحيط بالعقود الجانبية و بالعقد أعلى المدخل مكتوب فيه :

"بسم الله الرحمن الرحيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة لوالدته مولانا السلطان المالك الملك الأشرف شعبان بن المرحوم حسين سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيي العدل فى العالمين مظهر الحق بالبراهين حامى حوزة الدين سيد الملوك والسلاطين قسيم أمير المؤمنين قاهر الخوارج والمتمردين كنز الغزاة والمجاهدين منصف المظلومين من الظالمين ذخر الأرامل والمحتاجين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والحصون الإسماعيلية والثغور السكندرية والقلاع الساحلية والأقطار الحجازية والأعمال الفراتية ناصر الملة المحمدية أعز الله أنصاره وذلك فى شهور سنة سبعين وسبعمائة للهجرة النبوية وصلى الله على سيدنا محمد وآله" .

ويقوم على يسار الباب سبيل أقيم على وجهه حجاب من الخشب المجمع بأشكال هندسية يعتبر النموذج الأول من نوعه رأيناه بعد ذلك فى أشعة الأبواب حول الصحن فى مدرسة إينال اليوسفى بالخيمية ثم فى شبابيك المدرسة الظاهرية ثم فى أحجبة مثل هذا بخانقاه فرج بن برقوق بالصحراء — ومكتوب على هذا الحجاب : "أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك لوالدته مولانا السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين عز نصره فى شهور سنة سبعين وسبعمائة" .

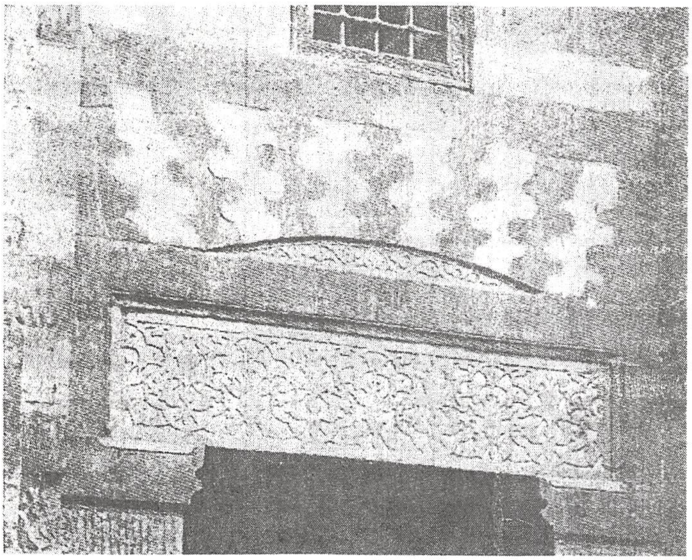
والمدخل العام يؤدى الى طرقة مربعة بصدرها صفة على يمينها باب يؤدى الى الكتاب ، وعلى يسارها باب يوصل الى طرقة مستطيلة بصدرها باب مغطى بمقرنصات ومكتوب عليه :

"أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة لوالدته سيدنا ومولانا ومالك رقنا السلطان المالك الملك الأشرف شعبان بن حسين أعز الله أنصاره بمحمد وآله وسلم" وهذا الباب يؤدى الى ملحقات للمسجد غير منتظمة فهى سراديب ومناور تنتهى الى إيوان يطل على الوجهة ، أمامه صحن مكشوف بصدره باب به مصراعان حشواتهما من السن والآبنوس المدقوق أويمة دقيقة يوصل الى طرقة أمام قبة أم السلطان .

نعود الى الطرقة الأولى فنجد بها لوحة رخامية مثمنة مكتوب عليها : "الحمد لله أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الملك الأشرف أعز الله أنصاره لوالدته تقبل الله منهما فمن أبطل

شيئا منها أو من أوقافها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمه يوم القيامة فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم" .

وهى طرقة طويلة معقودة تشق جدارين أصمين بالنهاية اليمنى منها باب يوصل للجزء العلوى . وبصدرها باب يؤدى الى صحن المدرسة .



عتب منقوش يعلوه نفيس فوقه مزرر

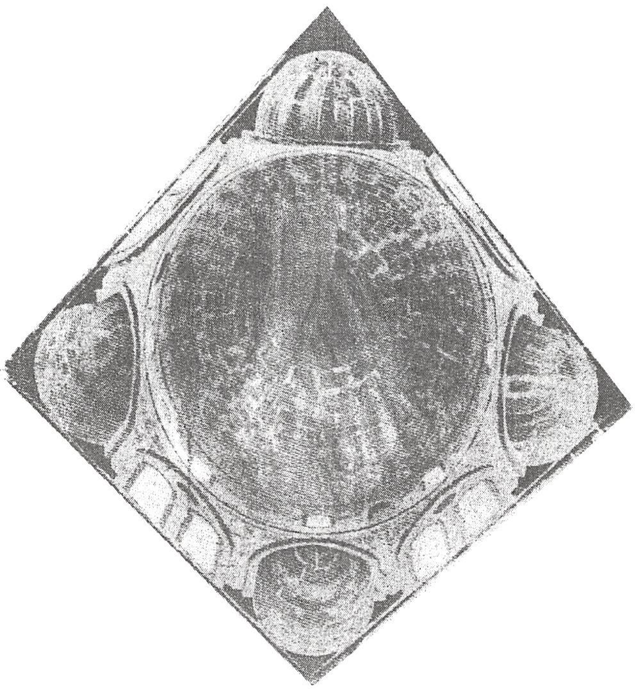
وللمدرسة أربعة إيوانات متعامدة يتوسطها صحن مكشوف . وقد حليت أعتاب الأبواب بزخارف غريبة مذهبة . كما غطيت هذه الأبواب بمقرنصات لطيفة ومكتوب على جوانبها : "أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة لوالدته مولانا وسيدنا السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين عز نصره" .

ويسترعى النظر فى الإيوان القبلى سقفه المحلى بنقوش زرقاء ومذهبة ، وهو مثال لسقوف الإيوانات التى كانت على غاية من الأهمية .

أما الإيوان الشرقى فقد احتفظ بكسوة الرخام بالمحراب والشباكين بجانبيه . وهو كبقية المحاريب ، غير أن ما يلفت النظر فيه تلك الزخارف التى دقت فى تواشيح الشبابيك وكذلك عمد المحراب المثمنة فقد نقش بعض أضلاعها بزخارف مورقة ، ويقوم الى جانب المحراب منبر خشبى بسيط أمر بعمله الأمير على أحد أمراء الجراكسة ، وصناعته ترجع الى القرن الثانى عشر الهجرى ، ويكتنف هذا

الإيوان قبتان ، القبلية منهما خصصت لدفن السلطان شـعبان ودفن فيها[1] أيضا ابنه الملك المنصور حاجى المتوفى سـنة ٨١٤ هـ (١٤١١ م) وهى قبة صـغيرة بنيت بالحجر وخارجها مضـلع . أما من الداخل فان مقرنصها من طاقة واحدة ولا محراب لهـا . والقبة البحرية أعدّت لدفن خوند بركه ، وقد دفنت معها ابنتها خوند زهرة ويتوسطها قبر مكتوب عليه :

"هذا ضريح ريحانة الجنة الست المرحومة الدرّة المكنونة ست الستات زين الخواتين الست زهرة ابنة المقام المرحوم الأمجـد سيدى حسين ولد المقام الشهيد المرحوم الملك الناصر كريمة سيدنا ومولانا المقام الشريف المـالك الملك الأشرف ناصر الدنيا والدين شعبان بن حسين توفت فى يوم الاثنين ثامن عشرين جماد الآخر سنة أحد وسبعين وسبعمائة" .



مقرنص القبة من طاقة واحدة

ونلحظ فى هذا النص أنه عبر عن الشقيقة بكريمة وهذا له نظير فى مدرسة تترالحجازية ابنة الناصر محمد بن قلاوون فقد ورد فيه " كريمة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون وهى شقيقته " . وهو تعبير صحيح يغاير الشائع بيننا الان .

وهى قبة شاهقة الارتفاع مبنية بالحجر ومضلعة من الخارج ويتوسط شباكيها محراب رفيع يكتنفه عمودان مثمنان حليا بنقوش . ويلحظ فى تيجان هذه العمد أثر التذهيب .

(١) ابن إياس ج ١ ص ٢٩٠

أما مقرنص هذه القبة والقبة الأخرى فهو من طاقة واحدة . والمقرنص من طاقة واحدة ، غريب فى قباب دولة المماليك لأنه من مميزات القبة الفاطمية فى نشأتها ، ولكن ظهوره فى دولة المماليك اقتصر على بعض قباب النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى .

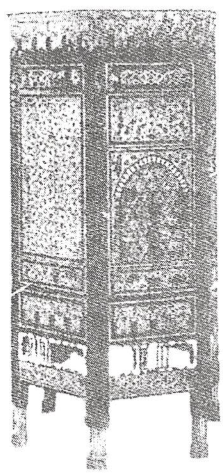
ولكل من القبتين شباك يشرف على الإيوان الشرقى لها مصاريع خشبية حشواتها من السن المدقوق بالأويمة الدقيقة ومحاطة بإفريز منقوش بالسن ، وهى مصاريع دقيقة وغنية جدا .

ووجود قبتين يكتنفان الإيوان الشرقى من النماذج المعدودة فى المدارس القائمة ، فقد كان الإيوان الشرقى فى كل من الأثر المعروف بالمنوفى وخانقاه أم آنوك وخانقاه خوند سمرا تكتنفه قبتان ، هدمت إحداهما وبقيت الأخرى .

والمساجد أسبق من المدارس فى ذلك ، فقد كان الإيوان الشرقى لجامع الحاكم بأمر الله ينتهى بقبتين ومثله الجامع الأزهر ، كما انتهى الإيوان الشرقى لخانقاه فرج بن برقوق بالصحراء بقبتين ، ومثله مسجد المؤيد ولم تكمل القبة الثانية .

وقد نقل من المسجد إلى دار الآثار العربية كرسى من خشب ، ذى ستة أضلاع ، محلاة بزخارف دقيقة من السن والآبنوس ، كما نقلت اليها مشكاوات من زجاج بالمينا .

المهندس — لا نعرف جنسية المهندس وربما كان أجنبيا عن مصر . ونلمس عدم توفيقه فى تصميم المدرسة وملحقاتها كما يلحظ فى القسم الواقع بين المدخل وصحن المدرسة وفيما بين المدخل والقبة البحرية الذى دل على ارتباكه ، ولكنه بجانب هذا كان موفقا كل التوفيق فى تصميم المدخل العام وفى أعمال الزخرفة التى دلت على عبقريته وتفوقه .



كرسى مطعم بالآبنوس والسن

مدرسة ألجاى اليوسفى

شارع سوق السلاح (*)

ألجاى اليوسفى — الأمير ألجاىَ بن عبد الله اليوسفى سيف الدين، كان من أجلة الأمراء . وقد تقلب فى مناصب عدّة الى أن عينه الملك الأشرف شعبان أمير مائة ومقدّم ألف، ثم ترقى الى وظيفة أتابك العساكر، وناظر البيمارستان المنصورى بدلا من الأمير منكلى بغا الشمسى فى سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٢ م) ، وتزوج بخوند بركة أم الأشرف شعبان ، وألقى إليه السلطان مقاليد الدولة يتصرف فيها كيفما شاء، وظل كذلك الى أن توفى فى المحرّم من سنة ٧٧٥ هـ (١٣٧٣ م) ، ودفن فى قبة مدرسته (١) .

وكان محل هذه المدرسة مقابر فأزالها وأنشأها مدرسة للشافعية والحنفية وألحق بها مكتبة .

وممن تولى التدريس فيها العلامة جلال الدين البنانى الحنفى، وكان يسكن فى مسكن ألحق بها فى الجنب البحرى من المدرسة .

تاريخ إنشاء المدرسة — حدّثنا المقريزى بأن هذه المدرسة شيدت سنة ٧٦٨هـ(١٣٦٦م) ، فى حين أن الكتابة المنقوشة على بابها تفيد أن الفراغ منها كان فى شهر رجب سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م)، وقد عرفت بالسايس (٢) لأن الأمير علاء الدين على بن أحمد الطيبرسى الشهير بابن السايس ولى نظارتها بعد وفاة منشئها فعرفت به .

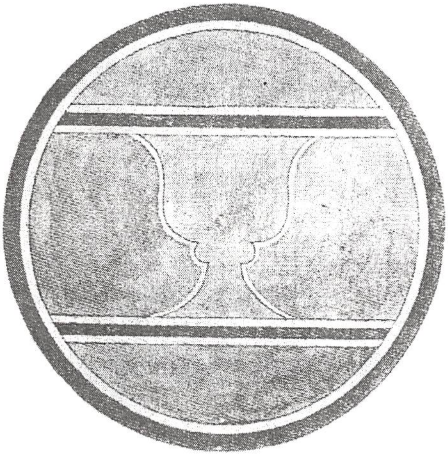
والوجهة الغربية هى الرئيسية وتجمع القبة والمنارة والمدخل ثم سبيلا وكتابا ؛ إذ ينتهى طرفها القبلى بقبة شاهقة مضلعة تضليعا حلزونيا نعتبره الأوّل من نوعه، له نموذج ثان فى قبة أيتمش البجاسى مع تنوع بسيط فى مبدإ التضليع . ثم شبابيك الإيوان الغربى ؛ ويسترعى النظر فيها أن ثلاثة منها يجمعها حجر واحد ينتهى بمقرنصات متعدّدة الحطات ، كما أن كلا من وجهة القبة والمسجد قد حلى بعقود محارية . وهذا النوع من العقود قد ألفنا مشاهدته فى الاثار الفاطمية والأيوبية ، ويندر استعماله فى الوجهات الحجرية المملوكية ، وقد سبق الى استعماله مهندس مسجد المهمندار المنشأ سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) ، كما يوجد فى صفة مدخل مدرسة السلطان حسن .

(*) انظر الصور من رقم ١٢٠ — ١٢٤ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) المقريزى ج ٢ ص ٣٩٩ (٢) تعليق أستاذنا المرحوم محمد بك رمزى بهامش ص ٢٠٥ ج ٨ النجوم الزاهرة .

وتنتهى الوجهة بشرفة مورقة تشعر بأنها أخذت مكانها بجانب الشرفة المسننة منذ النصف الثانى للقرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

وتقوم المنارة على يمين الباب ، وهى منارة مبنية بالحجر وحليت بزخارف ومقرنصات . ويسترعى النظر فيها عدا رشاقتها تلبيس الحجر فى بدن دورتها المستدير بشكل شرفات ، وظاهرة اتخاذ تلبيس الحجر الأصفر فى الأبيض أو الأحمر فى الأبيض فى المنارات ، ألفنا رؤيتها فى هذا العصر ، بل تعتبر من مميزاتها . وتقوم دورتها الثالثة على عمد رخامية رشيقة تحمل خوذة ، وفى هذه الدورة نرى ابتكارا جديدا لعله الأول من نوعه ؛ فقد استبدلت بشقق الدرابزين حول قاعدة الخوذة شرفات صغيرة ، وقامت رأس الخوذة على ترس تحتـه حطة مقرنص ؛ نعم وجدت الشرفة فى منارة مسجد بشتاك ولكنها حديثة ، وكذلك رأينا الدورة الثالثة لمنارة آسنبغا البوبكرى ، طابقة لهذه ، وكلتاهما من المنارات الرشيقة ، وهما متعاصرتان .



رنـــك المنشئ

والبـاب الرئيسى قد كسى بالرخام وعليـه رنك المنشئ ، ومكتوب على جانبيه : " بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله — الى المهتدين . صـدق الله العظيم وصـدق رسوله الكريم . أمر بإنشاء هـذا الجامع والمدرسـة المباركة المقر الأشرف العالى المولوى الأميرى السيفى ألجاى أتابك العساكر المنصورة الملكى الأشرفى عز الله نصره بتاريخ شهر رجب سنة أربع وسبعين وسبعمائة " .

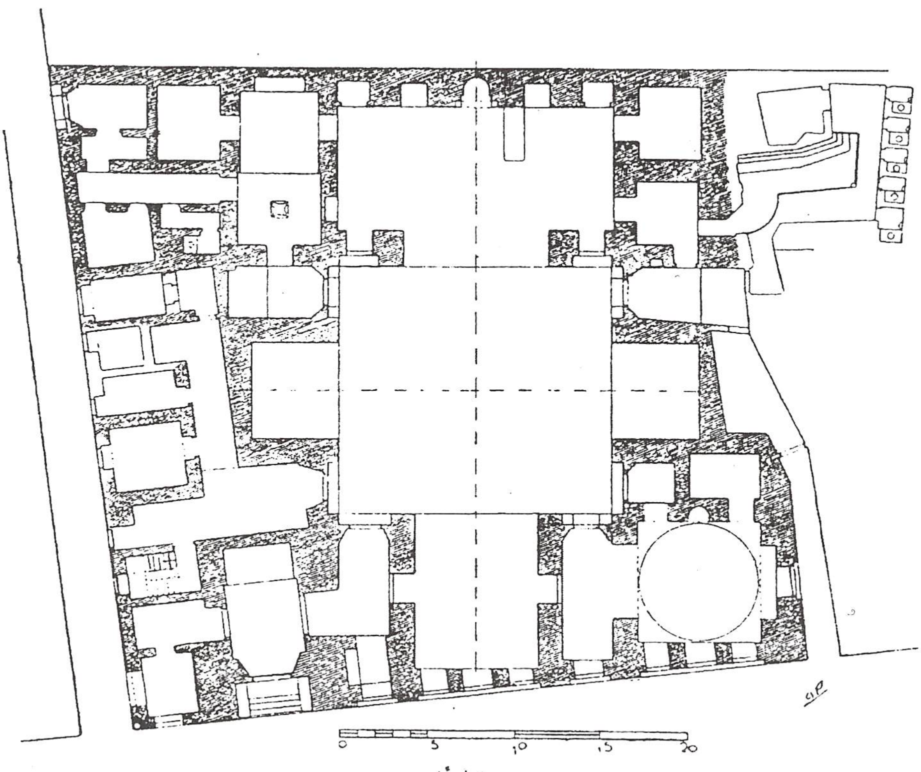
ويعلو الباب لوح رخامى مكتوب فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع والمدرسة المبـاركة المقر الأشرف ألجـاى أتابك العساكر المنصورة الملكى الأشرفى غفر الله له ولجميع المسلمين بتاريخ شهر رجب سنة أربع وسبعين وسبعمائة " .

وهذان النصان تضمنا أن هـذا البناء أعد ليكون جامعا ومدرسة ، وهـذا مؤيد لنظرية أن هذه المنشئات روعى فى تسميتها الأغراض التى خصصت لها لا لطرز بنائها .

وعلى يسار الباب سبيل ناصيته قائمة على عمودين أحدهما فوق الآخر ، له سقف جميل من برطوم ومربوعات مطعم بالصـدف وتحته مقرنص ومكتوب عليـه لوحة تاريخية نصها : " جدده الأمير

محمد أغا سنة ست وأربعين وألف". وكان مصراعا الباب مغشيين بالنحاس، كما تدل على ذلك بقاياه، وهو يؤدى الى طرقة بها مصاطبة غاية فى الفخامة ودقة الصناعة، ومن الداخل تصميم مدرسة، أربعة إيوانات حول صحن مكشوف.

ومن أهم ما عنى به المهندس حرصه على المضاهاة؛ فليس هناك باب ولا شباك إلا ويقابله مثله؛ فكما يكتنف الإيوان الغربى بابان يكتنف الإيوان الشرقى شباكان يعلوهما شبابيك كى تنسجم أيضا مع فتحات الناصيتين بجوارهما، وقد غطيت الشبابيك العليا فى الزوايا الأربع للصحن بمقرنصات ذات دلايات أكسبتها منظرا رائعا.



مسقط أفقى

والمسجد وإن كان طرأ عليه تغيير أفقده سقف الإيوانين الشرقى والغربى فإن سقفى الإيوانين البحرى والقبلى ينبئان على ما كان عليه من جمال، كما أن الشباك الجصى الباقى بالإيوان الغربى ينبئ على ما كانت عليه بقية الشبابيك من دقة.

والمحراب حجرى بسيط حليت تواشيحه بزخارف مورقة، يجاوره منبر حشواته مدقوقة بالأويمة ومحاطة بأشرطة من السن، وهو طرفة قيمة، ومكتوب أعلى بابه: "بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت

أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال وكان الفراغ فى شهور سنة أربع وسبعين وسبعمائة" .

والقبة فى الركن القبلى الغربى، وقد دفن بها المنشئ ؛ وهى قبة حجرية شاهقة الارتفاع ، بابها يؤدى الى طرقة بسيطة غطيت بسقف به بقايا قصع غير مقعرة حافاتها مثمنة، ومكتوب على الباقى من الإزار : " ... ... تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ... أتابك العساكر المنصورة الأشرفى ختم الله بالصالحات أعماله". وفى هذه القبة تعددت الشبابيك من جصية وغيرها بقصد المضاهاة أيضا .

أعمال الإصلاح — أدركت لجنة حفظ الآثار العربية هذا المسجد فى حالة سيئة جدا؛ فقد كانت شبابيك القبة والمسجد بوجهته الغربيــة محولة الى دكاكين ، فنزعت ملكيتها وأصلحت الوجهة وأعادتها الى أصلها، وكذلك عنيت برفع الأنقاض و إزالة المبانى المحدثة بالمدرستين على يمين ويسار الإيوان البحرى، وأسفرت التخلية عن أن القسم الذى على يسار الإيوان البحرى كان مخصصا لسكنى الشيخ الذى يتولى التدريس بالمدرسة، وعن أن القسم الذى على يمين هذا الإيوان كان مخصصا لإقامة الطلبة، وكلاهما ما زال فى حاجة الى الإصلاح والتدعيم .

وفى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول عنى بإصلاح القبة والمنارة فقوّمت مبانيهما . وفى عهد الملك الصالح فاروق الأول عنى بإصلاح وجهة المسجد وتقوية مبانيه .



مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق

شارع المعز لدين الله[*] (بين القصرين[1])

الظاهر برقوق — الملك الظاهر برقوق بن أنس بن عبدالله الجركسى العثمانى كان اسمه الطون بغا ، فلما أحضره الخواجه عثمان تاجر الرقيق باعه الى الأمير يلبغا الكبير فسماه برقوقا لنتوء فى عينيه ، و بقى فى خدمته الى أن نفى الى الكرك ، ثم ألحق بخدمة منجك نائب الشام ، ثم حضر معه إلى مصر فاتصل بخدمة الأشرف شعبان ورقى الى إمرة أربعين . ومقدم ألف ثم أتابكا للعساكر فى دولة المنصور على .

ولما عين طشتمر العلائى مدبرا للملكة كان برقوق فى خدمته حتى سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) حينما ثار عليه المماليك ، فانتهى الأمر باستقرار بركة و برقوق فى تدبير المملكة بعد القبض على طشتمر . فلم تطل الأيام حتى اختلفا وتباينت أغراضهما وقامت بينهما حروب دامت أياما الى أن قبض على بركة وسجنه بالاسكندرية . وانفرد برقوق بتدبير المملكة الى أن حل شهر رمضان سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، فتم له الأمر واستقل بالملك ولقب بالملك الظاهر و بايعه الخليفة المتوكل محمد بن المعتضد ، واستمر فى الملك الى أن عزل عنه فى جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) بالملك المنصور حاجى . ثم عاد الى ملك مصر ثانية فى ١٤ صفر سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م) و بقى فيه الى أن توفى ليلة نصف[2] شوال سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) ، وقد أثنى عليه كثير من المؤرخين فوصفوه بالشجاعة وميله للفروسية و إجادته اللعب بالرمح وأنه أبطل كثيرا من المكوس . وقد اتسع ملكه حتى خطب باسمه فى ماردين والموصل وسنجار وغيرها . ودفن بالصحراء مع مجموعة من العلماء والصالحين منهم الشيخ علاء الدين السيرامى ، وأوصى ببناء تربة عليهم يلحق بها مسجد وخانقاه ، فنفذ وصيته ابنه الناصر فرج .

(*) أنظر الصور من رقم ١٢٥ — ١٣١ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) لشارع بين القصرين ذكريات تاريخية مجيدة لازمت حضارة القاهرة فى أزهى عصورها الاسلامية . فقد عرف بهذه التسمية لوقوعه بين القصرين الفاطميين : (الشرق الكبير) . وقد حل فى قسم من أرضه المدرسة والقبة الصالحية والمدرسة الظاهرية القديمة وسبيل محمد على وسوق السلاح القديم وقصر بشتاك ، (والقصر الصغير الغربى) . وكذلك حل فى قسم من أرضه مدرسة وقبة و بيمارستان قلاوون ومدرسة ابنه الناصر محمد والمدرسة الظاهرية (برقوق) ومدرسة الحديث الكاملية . ثم جددت هذه التسمية فى القرن الثامن الهجرى — (الرابع عشر الميلادى) بسبب إنشاء قصر الأمير بيسرى وقصر الأمير بشتاك تجاهه وقد ضاع الأول . وكان الشارع متسعا تعرض فيه الجند فى الدولة الفاطمية . ومنذ قيام الدولة الأيوبية خصص لبيع الحلوى والمأكولات والفواكه ، وكان من أهم أسواق القاهرة يزوره فى الليل أعيان مصر وسكانها للتمتع برؤيته مضاء — كذلك كان به مجتمعات لقراءة السير والأخبار و إنشاد الأشعار والتفنن فى أنواع الألعاب والملاهى ، حتى إن الوافدين على مصر كانوا يعجبون بعمران هذا الشارع و يهرعون إليه للتمتع بجماله و بما حواه .

(٢) نزهة النفوس والأبدان ج ١ ص ٣٠٨

وكان محبا للعمارة فأجرى إصلاحات فى الحرمين المكى والمدنى ، وجدد خزائن السلاح بالإسكندرية وسور دمنهور ، وعمر زاوية البرزخ بدمياط ، وقناة بالقدس ، وأصلح قناطر المياه بمصر ، وأنشأ قبة الشيخ رجب الشيرازى بالمحجر سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) ، ثم هذه المدرسة .

تاريخ إنشاء المدرسة — هذه المدرسة أولى المنشآت العمارية فى دولة المماليك الجراكسة وكان بموضعها قبل إنشائها فندق يعرف بخان الزكاة [١] كان مملوكا لورثة الناصر محمد بن قلاوون . ففى ١٢ رجب سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) ، اشتراه منهم وعهد الى الأمير جركس الخليلى الأميرآخور [٢] بالإشراف على العمارة ، فابتدأ فى الهدم يوم الأحد ٢٤ رجب من هذه السنة .

وفى يوم الخميس أوائل شوال سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) ، وضع الحجر الأساسى لإنشاء مدرسة وخانقاه عرفت «بالمدرسة والخانقاه البرقوقية» ، واستحضر لبنائها أحجارا ضخمة أعد لها العجول لسحبها على عَجَل خصص لنقلها من الجبل . ومن ذلك الحين أطلق المعماريون على الحجارة الكبيرة اسم « عجالى » . وفى ١٤ جمادى الأولى سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م) ، نقل رفات والده أنس وابن له من تربة الأمير يونس [٣] الدوادار الى قبة هذه المدرسة .

وفى يوم الخميس ١٢ رجب سنة ٧٨٨ هـ — (١٣٨٦م) فرشت المدرسة بالحصر العبدانى [٤] والأبسطة عمل الشريف ، واجتمع القضاة والعلماء والأمراء وأعدت الأطعمة وملئت الفسقية بالسكر وحضر الظاهر برقوق إلى المدرسة بمناسبة الفراغ من عمارتها . وبعد أن عاينها أنعم على الأمير جركس الخليلى وعلى معلم المعلمين شهاب الدين أحمد بن الطولونى (المهندس) ، كما أنعم على مماليك الأمير جركس الخليلى الذين عاونوه فى مباشرة العمارة وعدتهم خمسة عشر . ثم شرح العلامة علاء الدين على بن أحمد السيرامى قوله تعالى : ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ — ثم قرأ القارئ ما تيسر من القرآن ودُعى للسلطان وانتهت الحفلة .

وفى يوم الجمعة ١٠ رمضان سنة ٧٨٨ هـ — (١٣٨٦ م) أقيمت الجمعة فيها [٥] ، وحضر قاضى القضاة الحنفى وحكم بصحتها ، طبقا للتقاليد ثم عين بها المدرسين فقرر دروسا للمذاهب الأربعة وللتفسير والحديث والقراءات .

---

(١) الضوء اللامع ج ٣ ص ١١ ، والمنهل الصافى ، نزهة النفوس والأبدان ج ١ ص ٤٣

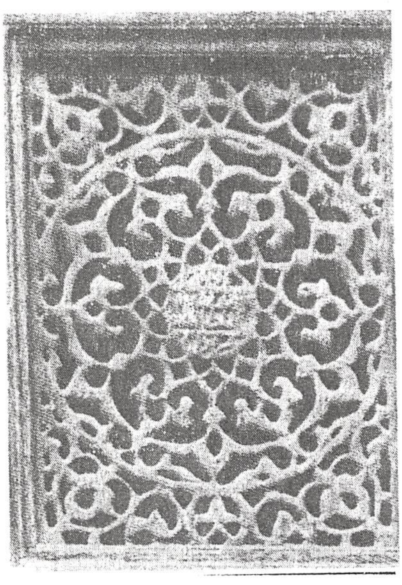
(٢) أميراخور كبير : وظيفة للأمير الذى يشرف على الاصطبلات السلطانية بما فيها الهجن والبريد .

(٣) هذه القبة بجوار خانقاه فرج بن برقوق بالصحراء من الجهة البحرية الغربية وتعرف بقبة أنس .

(٤) الحصر العبدانى يستنبت سمارها بمصر جهة الفرما وتصنع بالاسكندرية (الفضائل الباهرة) .

(٥) نزهة النفوس ج ١ ص ٦٧

وصف المدرسة — قبل الدخول فى وصفها نلق نظرة على وجهتها الرئيسية المشرفة على الشارع فنرى وجهة عالية مبنية بالحجر، يبتدئ طرفها القبلى بالباب العمومى المكسى بالرخام الملون، الملبس بطريقة فنية، نماذجها قليلة، اقتبست من مسجد أصلم السلحدار فى مثل هذا الوضع، وبها شباك مستدير مفرغ بالنحاس يعلوه المقرنص؛ تتخلله فروع زخرفية. وينتهى الطرف البحرى بمنارة عظيمة مكوّنة من ثلاث دورات امتازت بتلبيس الرخام فى بدن دورتها الثانية، وهو أقدم النماذج لتلبيس الرخام فى بدن المنارات بمصر. فقد سبقه تلبيس الحجر الملون فى المنارات السابقة لها. ويتوسط الوجهة شبابيك من النحاس، بأعتابها مزررات من الرخام، وخلقت فى أكتافها عمد من الحجر نقشت تيجانها، تعلوها شبابيك غطيت بمصاريع من الخشب المجمع بأشكال هندسية آية فى الإبداع، وغطاء الشبابيك بمصاريع خشبية بدل الجصية نماذجها معدودة، أقدمها فى سبيل الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين، ثم فى جامع ألماس فمدرسة بيدمر البدرى.

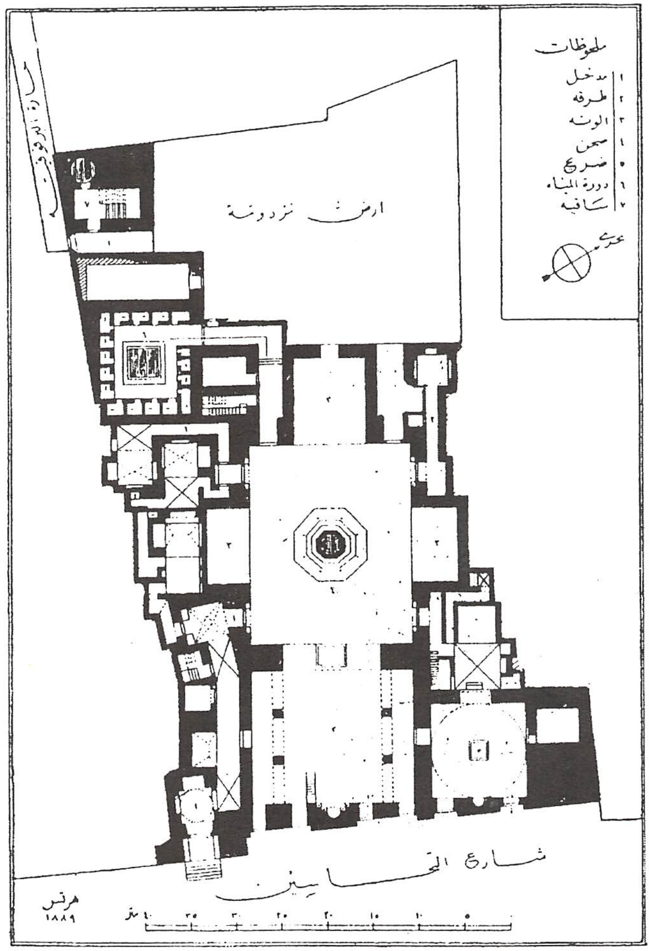


شباك نحاسى مصبوب

وتتوج الوجهة بطراز كتب فيه آسم المنشئ وألقابه وتاريخ الفراغ من العمارة بما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة والخانقاه مولاناه السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق سلطان الإسلام والمسلمين نصرة الغزاة والمجاهدين حامى حوزة الدين ذخر الأيتام والمساكين كنز الطالبين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية عز نصره وذلك فى مباشرة العبد الفقير الى الله تعالى المقر السيفى جركس الخليلى أميرآخور الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أدام الله أيامه بمحمد وآله يارب العالمين وكان الفراغ فى مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة"

نترك الوجهة لنجتاز الباب الرئيسى، وقد ركب عليه مصراعان مغشيان بالنحاس المفرغ بنقوش دقيقة ومكفت بالفضة، وقد كتب عليه آسم المنشئ وألقابه وتاريخ مستهل ربيع الأول سنة ٧٨٨هـ، وهما أقرب المصاريع شبها بمصراعى السلطان حسن بجامع المؤيد، وكلاهما من أنفس المصاريع

النحاسية. وهذا الباب يؤدّى الى طرقة مربعة غطيت بقبة صغيرة مثمنة الأضلاع ملبسة بالحجر الأحمر والأبيض، على يمينها باب يؤدّى الى طرقة مستطيلة فرشت أرضيتها بدوائر الرخام الملوّن تؤدّى الى صحن المدرسة، وقد أحيطت به الأبواب الأربعة التى غشيت مصاريعها بالنحاس وحليت أعتابها بالرخام الملبّس بالحجر. و يعلو كل باب شباك صغير من النحاس المفرغ بأشكال هندسية لعلها النموذج الثالث لشبابيك النحاس المصبوب؛ إذ الأول فى قبة الصالح نجم الدين والثانى فى المدرسة الطيبرسية بالأزهر.



مسقط أفقى

ويكتنف الإيوان الغربى بابان أحدهما يؤدّى الى الخانقاه وما زالت بقاياها موجودة وقد لبّست أعتابهما بمزررات رخامية. و بوسط الصحن فسقية عليها قبة أقيمت على ثمانية أعمدة جدّدتها لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٣١٤ هـ حلّت محل سابقتها القديمة الباقى منها فوارتها.

ومكتوب حول الصحن : "بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم الى قوله تعالى لا إكراه فى الدين الآية — آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه الى قوله تعالى وإليك المصير صدق الله العظيم وكان الفراغ فى مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة " .

أما تصميمها فهو كبقية المدارس : أربعة إيوانات أحدقت بصحن مكشوف، وأهمها إيوان القبلة فقد فرشت أرضه بالرخام. القسم الأمامى منه على هيئة محاريب مقتبسة من مثيلتها فى خانقاه بيبرس الجاشنكير، وكلاهما مقتبس من فكرة الحصر الفاطمية ذات المحاريب التى انتشرت فيما بعد فى السجاد. وجانبا الإيوان مؤزران بالرخام، وبصدره المحراب؛ وهو من أدق أعمال الرخام فى هذه المدرسة ؛ فقد لبس الرخام الأسود على شكل شرفات فى أرضية بيضاء بها فصوص صدفية وفيروزية وحمراء.

وعلى جانبى هذا الإيوان إيوانان صغيران كل منهما أقيم على عمودين ضخمين من الجرانيت ، ولكل منهما سقف مذهب ذو دلايات . أما سقف القسم الأوسط فهو مستو ويتوسطه سرة مخوصة، وقد حلى بنقوش مذهبة، وهو من أنفس السقوف . وقد حاكاه فيما بعد الأشرف برسباى فى سقف الإيوان الغربى بمدرسته بالأشرفية . والمنبر تسوده البساطة ، ومنشئه الملك الظاهر أبو سعيد جقمق ، واسمه منقوش عليه بما نصه : " أنشأ هذا المنبر المبارك السلطان المالك الملك الظاهر محمد أبو سعيد جقمق عز نصره " .

وبطرف هذا الإيوان دكة المبلغ من الرخام ؛ كما يوجد به كرسى المصحف طعمت جوانبه بحشوات من السن ملبسة فى الخشب، أما الايوانات الثلاثة فهى معقودة . وفى الطرف البحرى قبة يتوصل إليها من باب على الصحن يؤدى إلى المدرسة ثم إليها ، وأمامها طرقة مربعة يحدق بها أربعة أبواب حفرت مصاريعها بزخارف نباتية موزقة بشكل مبتكر ؛ فقد حفر بوسطه رسم بخارية يحيط بها أربع زوايا مثل كسوة الأبواب النحاسية ومكتوب عليه : "عز لمولانا السلطان الملك الظاهر برقوق" . وقد عممت هذه الطريقة فى الشبابيك العلوية للدارس المشرفة على الصحن .

وقد رأيت مثالا ثانيا لهذا النوع فى شبابيك الوجهة البحرية للمدرسة الجوهرية بالجامع الأزهر .

وعلى فتحة القبة حجاب من خشب الخرط مكتوب عليه : " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القبة المباركة من فضل الله تعالى مولانا السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق عز الله نصره وذلك بتاريخ مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة " .

وهى قبة غنية بزخارفها فى الوزرات الرخامية ، وفى المحراب والنقوش ؛ فقد ارتفعت الوزرة فى جدرانها الأربعة إلى عقد المحراب . ويتوسطها قبر دفن فيه والد المنشئ وأولاده وفاطمة أم خوند وخوند شيرين زوجته .

ويحيط بمربعها افريز مذهب ينتهى بشرفة صغيرة مكتوب فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ، أمر بإنشاء هذه القبة المباركة والمدفن المبارك والمدرسة المباركة والخانقاه مولانا السلطان المالك الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق العالم العادل المجاهد المرابط المؤيد الغازى الحاكم بأمر الله والتالى لكتاب الله سلطان الإسلام والمسلمين نصرة الغزاة والمجاهدين حامى حوزة الدين ذخر الأيتام والمساكين صاحب الصدقات والمعروف المغيث لكل مظلوم وملهوف أدام الله أيامه وأعز أحكامه وختم بالصالحات أعماله يا رب العالمين ، وكان الفراغ فى مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة " .

أما القبة فقد أنشأتها لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٣١١ هـ — (١٨٩٣ م) واحتفظت بمقرنصها القديم المشحون بالزخارف الملونة والمذهبة .

ويلحق بهذه القبة فى جدارها البحرى مكتبة لحفظ المصاحف عثرت فيها سنة ١٩٣٨ على نحو مائة وخمسين قطعة زجاجية من مشكاوات منقوشة بالميناء أودعت دار الآثار العربية . ومن حسن المصادفات أنها أكملت مشكاوات ناقصة كانت منقولة إليها من هذه المدرسة . وهى مخصصة للإضاءة .

المهندس — لم نعرف من أسماء المهندسين الذين شادوا تلك المنشآت المعمارية العظيمة إلا النذر اليسير . ومن حسن الحظ أن نعرف اسم مهندس هذه المدرسة وهو شهاب الدين أحمد ابن الطولونى[1] ، وهو مهندس ابن مهندس من أسرة اشتغلت بالهندسة وقامت بأعمال معمارية فى مصر والحجاز . وقد بلغ من إعجاب الملك الظاهر برقوق به وتقديره له أن صاهره فى ابنته . ويعلق المغفور له أحمد تيمور[2] باشا على تلك المصاهرة بأنها تدل على ما كان للمهندسين ونحوهم من المكانة العظيمة بين الناس بحيث لا يترفع السلطان عن مصاهرة أحدهم .

أعمال الإصلاح — لقد قامت لجنة حفظ الآثار العربية بأعمال جليلة فى هذه المدرسة ؛ فأصلحت رخامها ونجارتها وقومت مبانيها وأصلحت السقوف وذهبتها ، كما أنشأت القبة الكبيرة سنة ١٣١١هـ — (١٨٩٣م) طبقا لصورة قديمة وقبة الصحن سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) .

والحق أنه عمل جليل يعد من مفاخر هذه اللجنة وبرهان ساطع على مقدار دقتها وعنايتها بالآثار الإسلامية .

(١) المنهل الصافى ، ج ١ ص ٣١٧ ونزهة النفوس والأبدان جـ ١ ص ٦٤ (٢) المهندسون الإسلاميون .

مسجد الامام الليث

بشارع الإمام الليث[*]

الليث بن سعد — الإمام الكبير الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى[1] — نسبة الى فهم، وهم بطن من قيس عيلان — الأصفهانى الأصل، المصرى، فقيه مصر وأحد أعلامها . كنيته أبو الحارث وهو من تابعى التابعين .

ولد فى شعبان سنة ٩٤هـ (٧١٣م) حسب روايته . وقيل : إنه من أهل قلقشندة إحدى قرى مديرية القليوبية وبها ولد .

كان من الشخصيات البارزة فى مصر، وكان الإمام الشافعى رضى الله عنه يتأسف على فوات لقائه.

وكان مع علمه وثرائه ممتعا جوادا، فقد كان دخله كل سنة حوالى مائة ألف دينار . وما وجبت عليه زكاة قط . لأن الحول لا ينقضى حتى ينفقها و يتصدّق بها لذلك لقب بأبى المكارم . وقيل : إن الإمام مالكا كتب اليه من المدينة :

" بلغنى أنك تأكل الرُّقاق وتلبس الرِّقاق وتمشى فى الأسواق " فكتب اليه الليث بن سعد[2] ﴿ قل من حرّم زينة الله ﴾ الآية . وقد استقل بالفتوى فى عصره بمصر .

وقيل أيضا : إنه أوّل من دوّن ديوان الأحباس بمصر فى أيامه . وأفرد للرزق الاحباسية ديوانا يختص بها دون ديوان الجيش . وأجمع العلماء على أمامته فى الفقه والحديث .

وقال يحيى بن بكير[3] : ما رأيت أحدا أكمل من الليث بن سعد ، فقد كان فقيها عربى اللسان يحسن القرآن والفقه والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة بها .

توفى الى رحمة الله يوم الخميس[4] منتصف شهر شعبان سنة ١٧٥هـ (ديسمبر سنة ٧٩١م) ودفن يوم الجمعة بالقرافة الصغرى . وقد أسف عليه أهل مصر وصار يعزّى بعضهم بعضا .

ولما أتى الإمام الشافعى[5] مصر زار قبر الليث وقال : « ما فاتنى شىء كان أشد علىّ من ابن أبى ذئب والليث بن سعد» . كما يروى أن الإمام الشافعى لما وقف على قبره قال : « لله درك يا إمام! لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم : العلم والعمل والزهد والكرم » .

(*) انظر الصور من رقم ١٢٢ — ١٣٥ بمجموعة الصور الفوتوغرافية . (١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٢٥، تهذيب الأسماء ص ٥٢٩ (٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨٢، الكواكب السيارة ص ٩٩ — ١٠٠
(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٤ طبع الوطن . (٤) وقال أبى حيان سنة ١٧٦، ٧٧ وقال أبى سعد سنة ٦٥
(٥) الكواكب السيارة ص ١٠٠

موقع المسجد وتاريخه — بعد أن انتقل الى رحمة الله تعالى الامام الليث بن سعد دفن فى مقابر الصدفيين بالقرافة الصغرى . وكان قبره كالمصطبة مكتوب عليه : "الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث المصرى مفتى أهل مصر"[1] .

وبعد سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) أقام أبو زيد المصرى كبير التجار بناء على القبر، واستمر أهل الخير يتبارون فى زيادة هذا البناء . وحوالى سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) جدّد قبته الحاج سيف الدين المقدّم[2] .

وأخبرنا المقريزى المؤرخ عن عمارة أجريت بالمسجد فى دولة الناصر فرج بن برقوق على يد الشيخ أبى الخير محمد ابن الشيخ سليمان المادح فى محرم سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) . ويوجد بالمسجد باب صغير مبنى بالحجر أمام قبة الليث، وجهه من الخارج محاط بالنقوش ، ومكتوب على جانبيه بسمله أدخلوها بسلام آمنين (الآية) ومكتوب أعلاه : "هذا مقام السيد الإمام الليث بن سعد نفعنا الله به آمين" . ومكتوب فوق العتب : "جدّد هذا المقام المبارك فى أيام سيدنا ومولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر محمد عز نصره ، على يد الفقير الى الله تعالى أبو بكر بن يونس شيخ القرافتين الصوفى خادم السيدين الإمامين الشافعى والليث بن سعد لطف الله به فى المحرم عام أحد عشر وثمان مائة" .

وهذا الباب بقى من العمارة التى أجريت بهذا المسجد باشراف الشيخ أبو الخير محمد المادح .

ولكن التناقض الموجود فى هذا النص يحملنى على القول بأنه حدث فى دولة الملك الظاهر محمد أبى سعيد جقمق أن قام شخص ما — ولعله أبو بكر بن يونس — بمحو اسم الناصر فرج وأثبت اسم سلطان وقته الظاهر محمد ، كما محى اسم سلفه أبى الخير المادح شيخ القرافتين الصوفى وخادم الإمامين وأثبت اسمه مكانه . ثم فاته تغيير التاريخ فنم ذلك مع أسباب فنية أخرى على هذه السرقة التاريخية .

وفى سنة ٨٣٢ هـ (١٤٢٩ م) جددته السيدة مرحبا بنت إبراهيم بن عبد الرحمن . وفى سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩م) أنشأ الأمير يشبك من مهدى أحد أمراء الملك الأشرف قايتباى منارة فى الطرف القبلى الغربى للمسجد الحالى، وهى منعزلة عنه الآن ، وقائمة على ساباط ، ولها قاعدة مربعة تعلوها كسرات هرمية، وبكل من أضلاع المثمن بخارية منقوشة . ومن مميزاتها أن خضراف جلستها الأولى به نقوش بدل المقرنصات . ومكتوب عليها ما نصه : "أمر بانشاء هذا المناز المبارك المقر الأشرف العالى المولوى الأميرى الكبيرى المالكى المخدومى المجاهدى المرابطى المشاغرى المؤيدى الذخرى الهامى القوامى السيدى السندى السيفى يشبك من مهدى أمير دوادار كبير الملكى الأشرفى

(١) المقريزى، ج ٢ ص ٤٦٣ (٢) المقريزى، ج ٢ ص ٤٦٣

عز نصره بتاريخ أربع ... " . وباقى الكتابة محتجب خلف بناء منزل مجاور لأحد أضلاع المنارة . كما أن بدن دورتها الثانية منقوش بنقوش دقيقة .

وفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) جدّد المسجد السلطان الغورى . ولم يبق من عمارته سوى الباب الثالث الكبير المؤدّى إلى المسجد . وهو مبنى بالحجر وبه دائرتان بهما اسم الغورى ، وتاريخ العمارة مكتوب على جانبيه بما نصه : " أمر بانشاء هذا الباب الشريف من فضل الله تعالى سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره . وكان الفراغ من إنشاء هذا المكان فى مستهل رجب الفرد من سنة إحدى عشرة وتسعمائة " .

وهو من الأبواب البارزة عن الوجهة مثل بابى مسجدى الحاكم بأمر الله والظاهر بيبرس بميدان الظاهر . ومكتوب على الجنب الغربى منه : " بسم الله الرحمن الرحيم للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . الآية " . وعلى الجنب الشرقى : " ... ناظر الاصطبلات الشريفة وناظر هذا المكان الشريف غفر الله له " .

ولا شك أن هذه الكتابة كانت متضمنة اسم المباشر لهذه العمارة لاشتمالها على وظائفه .

وفى شهر ذى القعدة سنة ١١٣٨ هـ (١٧٢٦ م) جدد المسجد والقبة الأمير موسى جور بجى مرزا مستحفظان . ومن أثر عمارته القبة والمقصورة الموجودتان حتى الآن . وأثبتت هذه العمارة فى لوحة تاريخية مثبتة بالقبة نصها : " بسم الله الرحمن الرحيم هذا تاريخ تجديد رحاب الإمام الأعظم والملاذ الأكرم الليث بن سعد قدّس الله روحه ونور ضريحه الذى جدده الجناب المعظم المخدوم المكرم الأمير موسى جوربجى مرزا مستحفظان تابع المرحوم مصطفى جوربجى مرزا مستحفظان . وكان الفراغ يوم الخميس فى ٢٥ شهر القعدة سنة ١١٣٨ " .

وفى سنة ١١٩٤ هـ (١٧٨٠ م) . أجريت عمارة بالمسجد، كما أجريت به عمارة أخرى سنة ١٢٠١ هـ (١٧٨٦ م) . بقى منهما لوحتان ثبتتا على الباب الخارجى تضمنتا أبياتا من الشعر فى مدح الإمام الليث .

وكذلك أجرى به عمارة الأمير مصطفى أغا قوردزلى سنة ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ م) . وبقى من عمارته لوح رخامى يقرأ فيه :

هـذا مقام فيه ليث ضارى * أعنى وليّـا من عباد البارى

وقد كانت أعمال الإصلاح المتداولة على هذا المسجد داعية الى التغير والتبديل فيه وعدم الإبقاء على أجزاء قديمة كثيرة ؛ اللهم إلا أجزاء بسيطة سأتناولها بالشرح حينما أقف أمامها .

فالقادم الى المسجد يهبط بضع درجات . فأول ما يصادفه باب حديث ثبت عليه لوحتان مؤرختان سنة ١١٩٤ و ١٢٠١ يقرأ على السفلى منهما :.

إذا رمت المكارم من كريم * فيمم من بنى للفضل بيتا
فذاك الليث من يحمى حماه * ويكرم جاره حيا وميتا ١٢٠١

يلى هذا الباب باب آخر حادث أيضا يؤدى الى طرقة كبيرة بها عمودان رخاميان ، ثم باب ثالث مبنى بالحجر أنشأه السلطان الغورى سنة ٩١١ هـ . (١٥٠٥ م) . ونقل إليه من الإمام الشافعى مصراعان من الخشب بهما أويمة دقيقة وتاريخ سنة ٦٠٨ هـ . واسم الإمام الشافعى؛ وهما طبق الأصل من صنوهما هناك . ويجاور هذا الباب مقصورة خشبية بها قبر الشيخ محمد الليثى .

وهذا الباب يؤدى الى المسجد ، وهو مستطيل . على يمين الداخل إليه باب الضريح ، وهو حجرة مربعة أقيمت بوسطها قبة صغيرة محمولة على أربعة أعمدة رخامية بها قواعد وتيجان بها زخارف عربية وكتابات كوفية يقرأ عليها : "بركة كاملة — نعمة شاملة" لعلها باقية من عمارة سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) . يحيط بها سقف عليه نقوش وكتابات .

وتحت القبة تركيبة رخامية كتب على دائرها آية الكرسى ، وحولها مقصورة خشبية مطعمة بالصدف عليها تاريخ ٢٥ القعدة سنة ١١٣٨ هـ ، وهو تاريخ العمارة التى أجراها الأمير موسى جوربجى .

وأمام هذه القبة قبة صغيرة فيها قبر محمد بن هارون الصدفى (١) ، والإمام المحدث شعيب ابن الإمام الليث بن سعد ومكتوب على بابها : "هذا مقام سيدنا ومولانا الشيخ شعيب ابن الإمام الليث بن سعد نفعنا الله ببركاتهم" يجاوره الباب الباقى من عمارة الناصر فرج .

أما باقى المسجد ، بمحرابه ومنبره ، فحديث يرجع الى عمارة المرحوم إسماعيل بك ابن المرحوم راتب باشا الكبير سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) ، وهو الذى جدد الإيوان بالقبة أيضا (٢) .

ومنذ سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) أو بعدها بقليل (٣) اعتاد القراء الاجتماع كل يوم جمعة بعد الظهر بهذا المسجد لتلاوة القرآن الكريم تلاوة مجودة يختمونه فيها عند السحر ؛ وقد ظلت هذه العادة إلى ما قبل خمسة وعشرين عاما .

أما الآن فيجتمع كبار القراء بالمسجد كل يوم جمعة من قبيل العصر إلى قبيل الغروب ويتناوبون القراءة .

وقد كان ملوك مصر يقصدون قبر الإمامين : الليث والشافعى للزيارة والتبرك ، خصوصا السلطان قايتباى والسلطان الغورى . وكثيرا ما كانت تقرأ فيهما ختمات القرآن وتوزع الصدقات تقربا الى الله تعالى و إهداء ثوابها الى سلطان الوقت .

(١) الكواكب السيارة ص ١٠١ (٢) الخطط الجديدة ج ٥ ص ٩٧ (٣) المقريزى ج ٢ ص ٤٦٣

المدرسة الباسطية

سكة الخرنفش (*)

القاضى عبد الباسط — القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل الشافعى ، ولد بدمشق سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م)، وقيل : سنة ٧٩٠ هـ، ونشأ بها فى خدمة البدر محمد بن موسى كاتب السر، ثم اتصل من بعده بالمؤيد شيخ المحمودى حينما كان نائبا بدمشق . وظل ملازما له حتى قدم معه مصر سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) .

ولما ولى المؤيد شيخ ملك مصر عينه ناظرا للخزانة والكسوة الشريفة ؛ فعنى بالكسوة عناية كبيرة وأدخل عليها تحسينات كثيرة . وبقى فى هذه الوظيفة مدة اشترى خلالها قصر الأمير تنكز نائب الشام فأصلحه وزاد فيه واتخذه مسكنا له ، وهو القصر الذى آل الى المغفور له عباس باشا الأول فأنشأه إنشاء جديدا، ثم آل الى أسرة البكرى .

وقد أقام تجاهه مدرسة جميلة تم تشييدها سنة ٨٢٣ هـ (١٤٢٠ م) .

وبلغ القاضى عبد الباسط من الثراء جانبا كبيرا، وعاش عيشة بذخ وترف، واشترى كثيرا من المماليك . وكان متمتعا بعطف السلطان مقربا منه ، وكثيرا ما خصه بهبات سنية . وظلت حظوته قائمة بعد وفاة المؤيد شيخ عند الأشرف برسباى ؛ فقربه منه وعينه فى الوزارة والأستادارية فناظرا للجيوش .

وبعد أن اعتزل الوظائف حج غير مرة فأسدى خيرا كثيرا للأقطار الحجازية . وظل يتنقل ما بين مصر والشام إلى أن توفى يوم الخميس ٤ شوال سنة ٨٥٤ هـ (نوفمبر سنة ١٤٥٠ م) ودفن فى تربته بالصحراء (١) .

ومن منشآته الخيرية مسجد فى دمشق وآخر فى غزة ثم هذه المدرسة ، ومما يذكر عنه سخاؤه فى بناء هذه المدرسة، فلم يسخر أحدا فى بنائها . وبعد الفراغ افتتحها للصلاة وألحق بها مكتبة، وخصص مرتبات لصوفيتها . ولما قدم مصر العلامة محمد بن الجزرى أنزله بها وحضر دروسه .

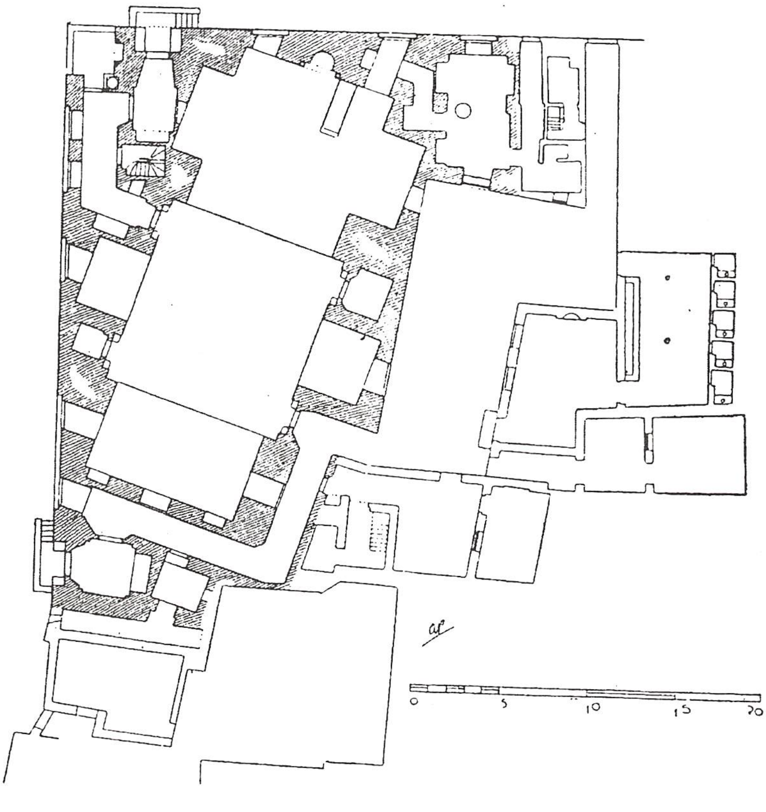
ولهذه المدرسة وجهتان : إحداهما شرقية وبها الباب العمومى، وبنهايتها البحرية سبيل يعلوه كتاب قائم على عمود . وقد لبست أعتاب الشبابيك بهذه الوجهة بالرخام الملون والفصوص الزرقاء ، وغطيت من أعلاها بمقرنصات متنوعة ومكتوب بافريز الوجهة العلوى : " بسم الله الرحمن الرحيم

(*) انظر الصور من رقم ١٣٦ — ١٤٠ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الضوء اللامع، ج ٤ ص ٢٤ (٢) المقريزى، ج ٢ ص ٣٢١

إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر — إلى قوله تعالى : فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أنشأ هذه المدرسة المباركة مما أنعم الله تعالى على الفقير الى رحمة ربه القدير عبد الباسط ابن خليـل الشـافعى ناظر الكسوة الشريفة والخزانة السلطانية المؤيدية أبو النصر شـيخ خلّد الله ملكه تقبلها الله تعـالى وجعلها خالصة لوجهه الكريم . وكان ابتداء عمارتها فى شهر جمادى الأول سنة ثلاثة عشر وثمان مائة وآخرها فى شهر جمادى الأول سنة ثلاثة وعشرين وثمـان مائة " .

هذا النص طبق الأصل وفيه نظر ، لأن تاريخ البدء فى العمارة لا يستقيم وتاريخ المنشئ ، لأن قدومه الى مصر كان مع المؤيد شيخ سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) .



مســقط أفــق

والوجهة الثانيـة البحرية وقد كسيت أعتاب شبابيكها بالرخام الملون ، كما غطيت من أعلاها بمقرنصات متنوعة ، وبها قاعدة المنارة ، وبنهايتها الغربية الباب الثانى للمدرسة وقد حلى بالرخام الدقيق وكسيت مصاريعه بالنحاس .

والباب الشرقى محلى بالرخام الدقيق الملبس فوق العتب بأشكال هندسية ومورقة، وتعلوه مزرات رخامية ملونة ومغطى بمقرنصات . وركب عليه مصراعان غشيا بالنحاس المفرغ، ومكتوب عليهما تاريخ إصلاحهما سنة ١٣٣٤ هـ (١٩١٥ م) . وهذا الباب يؤدى الى دركاة بصدرها مسطبة مؤزرة بالرخام ، وعلى يسارها شباك نحاسى يطل على الإيوان الشرقى ، ولها سقف من رقعة واحدة مذهب ملون ، وعلى يمين هــذه الدركاة باب يؤدى الى طرقة بها باب السبيل، وقد اشتمل على سقف نادر كتب بازاره قوله تعالى : " إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا " . ويتوسط هذا السقف دائرة من عشرة أضلاع تتدلى منها مقرنصات مذهبة، وبه بقية أرضية رخامية .

وبهذه الطرقة باب للسطح والمنارة وبصــدرها مزيرة . ثم تنتهى الى صحن المدرسة التى يحيط بها أربعة إيوانات .

وأهم الإيوانات الشرقى منهـا ، وهو مقسم الى ثلاثة أقســام أكبرها أوسطها . وقد فرشت أرضيته كما فرشت أرضية الصحن بالرخام الدقيق الملون .

أما المحراب فهو حجرى وعار من الزخرف ومن الرخام يكتنفه عمودان نادران من النوع المعروف (بشحم ولحم) . يقوم الى جانبــه منبر طعمت حشوات جوانبه ودرابزينه بالسن والزرنشان . وحشوات الزرنشان فى هــذا المنبر بلغت غاية الدقة مثل منبر مسجد عبد الغنى الفخرى . وكلاهما فى عصر واحد .

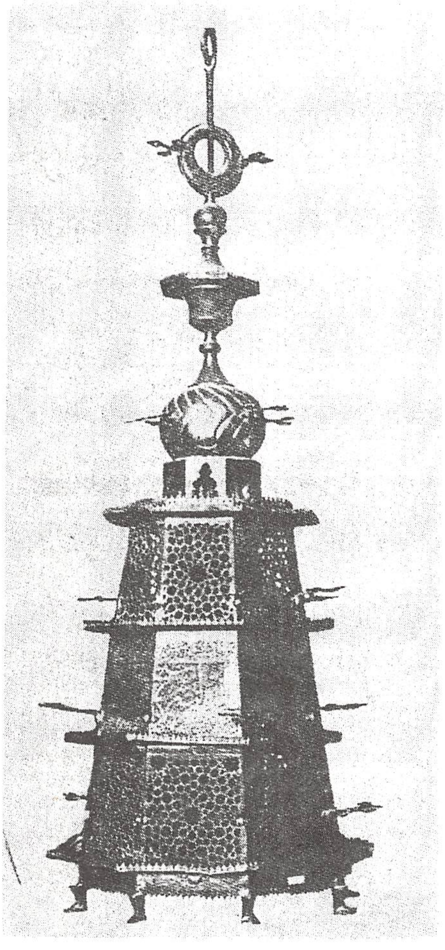
ولوجود شطرات فى أرض هــذه المدرسة تلافاها المهندس بحكمة ؛ فأحدث فى سمك الشباك القبــلى الشرقى على يمين المنبر دولابا طعمت حشوات مصاريعه بالسن، كما أحدث به حجرة صــغيرة تؤدى الى قاعة لها شباك وباب على الوجهة الشرقية .

وبهذا الإيوان شبابيك جصية، القديم منها غاية فى الدقة . وقد بقى من السقف القديم زواياه ذات المقرنصات وإزاره المكتوب فيــه قوله تعالى : " فى بيوت أذن الله أن ترفع . الآية " . وتلك البقايا تنبئ بما كان عليه السقف من روعة وجمال .

وبصدر الإيوان الغربى دولابان، بكل منهما أربعة مصاريع طعمت حشواتها بالسن برسوم فريدة واحتفظ بتفاصيل سقفه .

ويحيط بالصحن أربعة أبواب أحدها يؤدى إلى الباب الشرقى، والثانى فى الركن الغربى القبلى يؤدى إلى الباب البحرى الغربى من طرقة تلتف حول الإيوان الغربى . والبابان الآخران لخلوتين .

وقد فتحت فى جدرها شبابيك بعضها فوق بعض للمضاهاة ؛ لأن سقوفها مرتفعة ارتفاع سقوف الإيوانات وانتهت بسطر مكتوب فيه آية من القرآن وغطى بمقرنص .



ثريا من البرونز

ولما توفى الشيخ أحمد بن خليل السبكى إمام[1] وخطيب المدرسة سنة ١٠٣٢ هـ (١٦٢٢ م) دفن فى تربة أحدثها بجوار الإيوان الغربى . وقد عاين هذه المقبرة مسيو مهرن وقرأ عليها -- هذا مقام الشيخ أحمد السبكى .

ومكتوب بدائر جوانب الصحن من أعلاه : "بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم -- إلى قوله تعالى : الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور صدق الله العظيم -- أنشأ هذه المدرسة المباركة مما أنعم الله على منشئها العبد الفقير الراجى عفو ربه القدير عبد الباسط ابن خليل الشافعى ناظر الكسوة الشريفة والخزانة الشريفة المؤيدية أبو النصر شيخ خلد الله ملكه" . وتخللت الكتابة أربع دوائر بها شطفان كتب عليها : "لا إله إلا الله محمد رسول الله" .

وتقوم المنارة فى الركن الغربى البحرى للصحن ، وهى منارة رشيقة من ثلاث دورات : الأولى مثمنة ، وقد حليت بشرفات صغيرة ومقرنصات . والثانية مثمنة ، وقد حليت بزخارف دالية وكتابات . والثالثة أقيمت على عمد رخامية وفوقها الخوذة وفرغت شقق الدرابزين بزخارف هندسية ومورقة . وهذه المنارة مطابقة لمنارتى المؤيد . ولا عجب فقد أنشئت فى وقت واحد .

(١) خلاصة الأثر ، ج ١ ص ١٨٦

وكان بالمدرسة تنور (ثريا من البرونز) نقل إلى دار الآثار العربية، وهو تنور جميل على شكل هرم ناقص، ذو ثمانية أضلاع؛ مركب من ثلاث طبقات وينتهى من أعلى بخورنقات تعلوها قبة فوقها هلال، ومنقوش على الطبقة الوسطى منه اسم الأمير عبد الباسط وألقابه .

أعمال الاصلاح — كانت المدرسة تابعة لوقف أهـلى فأهملت وأسىء استعمالها وآتخـذت مسكنا مما ترتب عليه ضياع الكثير من معالمها .

وفى سنة ١٩٠٧ أشرفت عليها وزارة الأوقاف فعنيت بها إدارة حفظ الآثار العربيـة، وعملت خندقين أمام البابين الشرقى والبحرى .

ومن سـنة ١٩٠٩ — إلى سـنة ١٩١٢ قامت الإدارة بأعمـال تقوية، وترميم فى الوجهات والإيوانات والسقوف والشبابيك ومصاريع الأبواب، كما أصلحت الأرضيات الرخامية .

وفى سنة ١٩١٦ تم إصلاح الأرضيات الرخامية والأبواب حول الصحن، واكتشفت بها أشرطة نحاسية ترجع إلى العصر الأيوبى مرسوم عليها فرسان بأسلحتهم، وبها نقوش وكتابات كوفية .

وفى عصر الملك الصالح "فاروق الأول" أصلح السبيل وأعيد إلى ما كان عليـه وأكمل المفقود من المنارة فجاءت طرفة قيمة؛ كما عنى بالمنبر فأصلح وآستكمل المفقود من حشواته وأبوابه حتى أعيد إلى أصـله .



مسجد المؤيد شيخ

بشارع المعز لدين الله (السكرية[*])

الملك المؤيد شيخ — المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى الجركسى الأصل، ولد تقريبا سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م)، وقدم القاهرة فى سنة ٧٨٢ هـ (١٣٨١ م) ، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة، فاشتراه الخواجا[(١)] محمود شاه اليزدى تاجر المماليك فعرف بالمحمودى، ثم قدّمه الى الأمير برقوق — وكان وقتئذ أتابكا[(٢)] للعساكر — فأعتقه وعنى به وبتربيته وكان ذكيا فتعلم الفروسية واللعب بالرمح ورمى النشاب والضرب بالسيف والمصارعة وسباق الخيل .

ثم تدرج فى الوظائف وأنعم عليه بإمرة عشرة فى دولة الظاهر برقوق، ثم عين نائبا لطرابلس فنائبا للشام .

وفى أوّل شعبان سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) ولى ملك مصر، وما زال سلطانا بها الى أن توفى فى ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١ م) . ومع أن بعض مؤرّخى عصره وصفوه بالبخل وبعض الهنات، إلا أن الكثير منهم أجمع على اشتغاله بالعلم، وحدبه على العلماء وأنه كان يباشر الأحكام بنفسه وينزل الناس منازلهم، كما أن بعضهم نعته بقوله : « وكان ملكا مهيبا ماجدا أديبا جوادا عالى الهمة جليل القدر يملأ العين ويرجف القلب ... » . وكان مغرما بالعمارة، أنشأ منارة بالأزهر وجدّد مسجد المقياس وأنشأ الخانقاه الخروبية وأنشأ عدّة مساجد وأسبلة ومكاتب ومناظر[(٣)] بمصر والشام، ولم يبق من منشآته سوى بقايا سبيل ومصلى بالقلعة والبيمارستان بالمحجر والحمام بشارع تحت الربع ومسجده هذا.

وهذا المسجد داخل باب زويلة وملاصق له، وهو فخر المساجد فى دولة المماليك الجراكسة؛ فقد أجمع المؤرّخون على أهميته : فنرى السخاوى المؤرّخ يصفه بقوله : «قيل إنه لم يعمر فى الإسلام أكثر منه زخرفة ولا أحسن ترخيما بعد الجامع الأموى . ويصفه عميد مؤرّخى مصر المقريزى بقوله :

(*) انظر الصور من رقم ١٤١ — ١٤٨ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الخواجه لفظ فارسى دخيل فى التركية ورسم فى اللغتين بهاء فى آخره وهو لقب تكريم عندهم يرادف الأغا والأفندى والسيد، ويطلق أيضا على الأساتذة المعلمين ولا سيما المشايخ المعممين منهم . ثم لقب به كبار التجار منذ القرن السابع الهجرى، وظل مستعملا بمصر حتى القرن الثالث عشر الهجرى ، ورأيته مكتوبا على مسجدى أبى العلاء بمصر والبدرى بدمياط ، وعلى منزل جمال الدين الذهبى بمصر وعلى بعض الطرف النحاسية بدار الآثار العربية .

(٢) أتابك هو كبير الأمراء .

(٣) الضوء اللامع ، ج ٣ ص ٣١٠ ، النجوم الزاهرة ج ٦ قسم ١ ص ٥٢٨ طبع كلفرنيا ، نزهة النفوس والأبدان ج ٢

« فهو الجامع الجامع لمحاسن البنيان، الشاهد بفخامة أركانه وضخامة بنيانه أن منشئه سيد ملوك الزمان . يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس و إيوان كسرى أنوشروان، و يستصغر من تأمل بديع أسطوانه الخورنق وقصر غمدان[1] ... » .

و إذ رأينا المقريزى يسرف فى وصفه هذا فلا نستطيع اتهامه بالمغالاة؛ لأنه أدرك الجامع ورآه كاملا فأخذ بجماله، وأن التفاصيل الباقية تعزز رأى المفتونين به . ومن المأثور عن السلطان سليم حينما زاره أنه قال : « هذه عمارة الملوك[2] » .

موقع المسجد — كان موقع هذا المسجد سجنا عرف بخزانة شمائل سجن فيه المؤيد وقت أن كان أميرا وقاسى فيه شدائد ، فنذر حينئذ إن نجاه الله تعالى ليبنينّه مسجدا ، وقد وفى بنذره حينما ولى ملك مصر فاشترى قيسارية الأمير سنقر الأشقر وأضاف إليها خزانة شمائل وعدة دور وحارات هدمها .

وفى رابع جمادى الآخرة سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) ، شرع فى حفر الأساس ، وفى خامس صفر سنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) شرع فى البناء ، واستمر العمل الى يوم الخميس ١٧ ربيع الأول فأشهد السلطان على نفسه أنه وقف هذا المسجد لله تعالى ووقف عليه عدة مواضع بمصر والشام .

وقد كان المؤيد مهتما بسرعة إنجازه فتكررت زياراته للعمارة ، ففى شهر شعبان سنة ٨١٩ هـ جُمعت العمد وألواح الرخام اللازمة له ، ثم نقل الباب النحاس الكبير من مدرسة السلطان حسن مع التنور النحاس ، ودفع ثمنهما ٥٠٠ دينار .

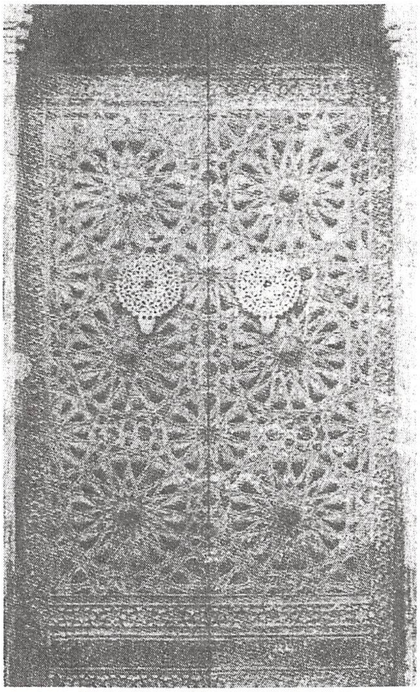
وعلل بعض المؤرخين نقل الباب بحجة أن السلطان برقوقا كان قد سدّ باب مدرسة السلطان حسن فكان الباب غير منتفع به . وقيل : إنه نقله بناء على اقتراح المهندسين ، و إنه فى نظير ذلك وقف على مدرسة السلطان حسن قرية قها بالقليوبية[3] .

و إلى شهر ذى الحجة سنة ٨١٩ هـ (١٤١٧ م) ، بلغت النفقات أربعين ألف دينار ولم ينته المسجد ، ومع ذلك فقد نقل إليه مكتبة حافلة كانت بالقلعة . هذا عدا خمسمائة مجلد قدمها له ناصر الدين محمد البارزى كاتب السر ، وافتتحها فى محرم سنة ٨٢٠ هـ (مارس سنة ١٤١٧ م) .

وفى يوم الجمعة ٢ جمادى الأولى سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) ، أقيمت به صلاة الجمعة ولم يكمل منه سوى إيوان القبلة .

(١) المقريزى ، ج ٢ ص ٣٢٨ (٢) أخبار الأول ص ١٢١ (٣) أخبار الأول ص ١٢١

وهذا الخبر له أهميته فقد أوضح لنا تعليل بعض النصوص التاريخية التى تنص على الفراغ من بناء مساجد كبيرة فى سنة أو دونها ، وهو مالا يقره العقل ؛ فكأن منشئيها كانوا على هذا المنوال يتعجلون افتتاحها بأية وسيلة ويكتبون اللوحة التذكارية التى تنسبها اليهم قبل الفراغ من بنائها .



باب مدرسة السلطان حسن المنقول للمسجد

وفى خامس رمضان سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧م)، هدمت الأماكن اللازمة لبناء الميضأة بشارع تحت الربع وضاع فيها وفى الحد القبلى للجامع سور القاهرة الفاطمى فى هذه المنطقة، وتمت عمارتها فى شهر شوال سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) . وقد بلغت نفقات الإنشاء الى آخر رمضان نحو سبعين ألف دينار، والسلطان دائب الإشراف على العمارة .

غير أنه فى شهر ربيع الآخر سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) ظهر خلل بالمئذنة المجاورة للمسجد فهدمت . وكان المشرف على عمارة الجامع وقتئذ بهاء الدين محمد بن البرجى .

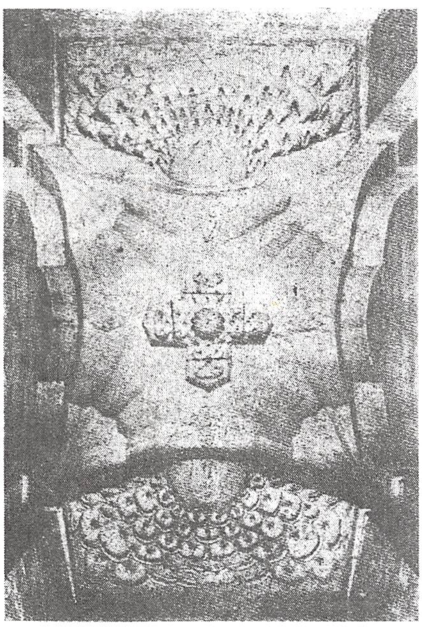
ومع أن العمارة كانت قائمة بالمسجد ولم يشرع فى كثير من أجزائه مثل القبتين ؛ فقد رأينا المؤيد يعين المدرسين له فى شهر جمادى الأولى سنة ٨٢٢هـ (١٤١٩م) للمذاهب الأربعة والحديث والقراءات والطب ويحضر دروسهم .

وفى يوم الجمعة ٢١ شوال سنة ٨٢٢ هـ (١٤١٩ م) أمر بإعداد سماط عظيم ، وأن تملأ الفسقية بالصحن بالسكر، وآحتفل بافتتاحه وأنعم على الخطيب والمدرسين بحضور كبار رجال الدولة وآبنه الصارمى إبراهيم .

وإلى سنة ٨٢٣ هـ (١٤٢٠ م) لم تكن قباب المسجد قد بنيت ؛ ولما مات ابنه الصارمى إبراهيم يوم الجمعة ٢٢ جمادى الآخرة دفن فى القبة البحرية للجامع ولم تكمل بعد . وكذلك لما توفى الملك المؤيد فى يوم الآثنين ٨ محرم سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١ م) دفن بالقبة البحرية قبل أن تتم ، وآستمر العمل فيها حتى كملت فى شهر رمضان سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١ م) . وإلى هذا الوقت كان كثير من ملحقات الجامع لم يشرع فيه مثل القبة القبلية وبيوت الصوفية بالخانقاه .

ولهذا الجامع أربع وجهات جُدِّد ثلاث منها . أما الوجهة الرئيسية الشرقية فهى المحتفظة بتفاصيلها ، وهى وجهة كبيرة شاهقة حليت أعتاب شبابيكها ومزرراتها بالرخام ، كما غطى كل شباكين بمقرنص واحد تعددت حطّاته ، وخلق فى النواصى عمد بتيجانها .

وفى الطرف البحرى لهذه الوجهة المدخل العمومى ، وله سلم مزدوج من الرخام ، وهو باب شاهق كسى بالرخام الملون وغطى بالمقرنصات ، وله مسطبتان طويلتان بهما مزررات رخامية تعلو كلا منهما صفة بوسطها مربع مكتوب فيه بالكوفى المربع : " لا إله إلا الله محمد رسول الله ". وفوقهما سطر مكتوب فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله ، الآية ... سنة ثلاثة وعشرين وثمان مائة " . يعلوه مربع آخر به بالكوفى المربع : " نصر من الله وفتح قريب " . وكتفا الباب من قطعتين كبيرتين من الجرانيت الأحمر المرقط يحملان عتبا لُبّس بالرخام ، ويحيط بالباب إفريز من الرخام مقسم إلى دوائر ومسدسات مطعمة باللونين الفيروزى والأحمر ، وقد ركب عليه مصراعان من الخشب المغشى بالنحاس نقلهما إليه من مدرسة السلطان حسن ، وهما من أنفس المصاريع النحاسية وأكبرها ، يبلغ ارتفاع كل منهما ٦,٠٠ متر ، وبهما من دقة النقش ما يبهر الأبصار . ومكتوب على الباب : " أمر بإنشاء هذا الباب المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الشهيد أبو المعالى حسن بن مولانا السلطان الشهيد الملك الناصر محمد بن قلاوون وذلك فى سنة أربع وستين وسبعمائة " وهو أفخم الأبواب النحاسية وأكبرها .



مصلبة المدخل

وهذا الباب يؤدّى إلى دركاة لها سقف شاهق على هيئة مصلّبة حجرية يكتنفها عقود بها مقرنصات ، وبها تربيعتان من الرخام مكتوب فى كل منهما بالكوفى المربع آية الكرسى .

وعلى يمينه ويساره بابان بهما بخارية وأشرطة نحاسية مكتوب فيها اسم المؤيد شيخ ، الأيمن منهما يؤدّى إلى طرقة مفروشة بالرخام على يسارها مزيرة عليها حجاب من الخشب الخرط مكتوب

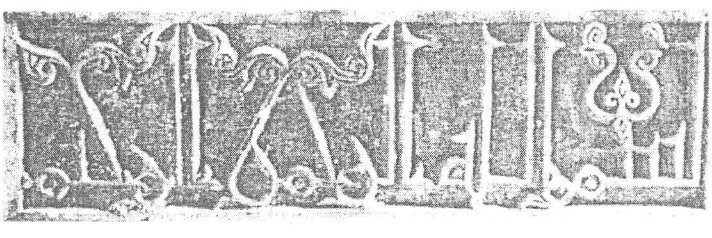
عليه تاريخ إصلاحه سنة ١٣٠٨ هـ وتنتهي هذه الطرقة إلى باب يؤدّي إلى مؤخر الإيوان الشرقي وقد حلي عتبه بمزررات من رخام ملون يعلوه شباك يكتنفه مستطيلان مكتوب فيهما بالكوفي المربع . " بسم الله الرحمن الرحيم إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر " .

والباب الثاني على يسار الدركاة ، وهو يؤدّي إلى قبة شاهقة مبنية بالحجر وحلي سطحها بزخارف دالّية . وقد فرشت بالرخام كما فرشت أرضية الشبابيك بالرخام الملون ، وبها قبران : أحدهما قبر ابنه الصارمي إبراهيم وإخوته المظفر أحمد وأبو الفتح موسى وعليه أجزاء من تركيبة رخامية غير منسجمة لا في الكتابة الكوفية التي عليها ولا في الزخرف ، والثاني قبر الملك المؤيد وعليه تركيبة رخامية مكتوب عليها بالخط الكوفي القديم : " بسم الله الرحمن الرحيم إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخوانا — إلى قوله تعالى وما هم منها بمخرجين " .

وأرى أن هذه التركيبة منقولة إلى الجامع من بناية أسبق منها ؛ لأن قاعدة هذا الخط فاطمية ، ومنها نماذج أخشيدية أسبق من العصر الفاطمي بقليل في تركيبة أمام قبة الخلفاء العباسيين مؤرخة سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) ، ومنها ما حول قاعدة المنارة القبلية لجامع الحاكم بأمر الله .

ورأيت جنبين منقولين أيضا إلى تربة خوند طولبية سنة ٧٦٥ هـ (١٣٦٤ م) ، وهي نماذج تشهد بأنها منقولة لأن للخط الكوفي في عصر المماليك أسلوبا خاصا .

ويحيط بهذه التركيبة مقصورة من الخشب الخرط مكتوب على بابها : " أمر بإنشاء هذه المقصورة المباركة مولانا المقر الأشرف الكريم العالي السيفي يشبك من مهدي أمير سلاح وأمير دوادار الملكي الأشرفي " .



بسملة على قبر المؤيد

ولهذه القبة بابان ركب لكل منهما مصراعان طعّما بالسن والزرنشان ، نقشت وذهبت حلوقهما ، يعلو كلا منهما لوحة ؛ ومكتوب بهما : " بسم الله الرحمن الرحيم وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا صدق الله العظيم وصلى الله على سيدنا محمد " .

وإذ وصلنا إلى الإيوان الشرقى فإنا نرى بدائع الفن مجتمعة ؛ فالزخرف يغمر هـذا الإيوان من الأرض إلى السقف ؛ فقد كسى الجـدار الشرقى بالرخام الملون إلى ارتفاع المحـراب الذى تعـلوه دائرة من الرخام بها دوائر وتواشيح .

ويعلو الكسوة الرخامية شبابيـك جصية دقيقة كل منهـا من شريحتين ، يكتنفها بخاريات ومستطيلات منقوشة ومذهبة ، ويحيط بها إفريزان أحدهما الكبير مكتوب بالخط النسخ المملوكى بحروف مذهبة بما نصه : "بسم الله الرحمن الرحيم شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم — إلى قوله تعـالى : فإن حاجُّوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتَّبعَنِ صدق الله العظيم ورسوله محمد . بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخرْ — إلى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضـله إن شاء إن الله عليم حكيم صدق(١) الله العظيم وصدق رسوله الكريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أنشأ هـذا الجامع المبارك المعمور بذكر الله تعـالى سـيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان الأعظم المالك الملك المؤيد أبو النصر شيخ سلطان الإسـلام والمسلمين سـيد الملوك والسلاطين قاتل الكفرة والمشركين مظهر الحق بالبراهين منصف المظلومين من الظالمين كهف الفقراء والمساكين ذخر الأيتام والمنقطعين حامى حوزة الدين قسيم أمير المؤمنين صاحب العلمين خادم الحـرمين الشريفين ملك العرب والعجم والترك والديلم " .

كما يحيط بها إفريز آخر مكتوب فيه بالخط الكوفى بحروف سوداء على أرضية ذهبية آيات من القرآن منها قوله تعالى :

"لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ... ".

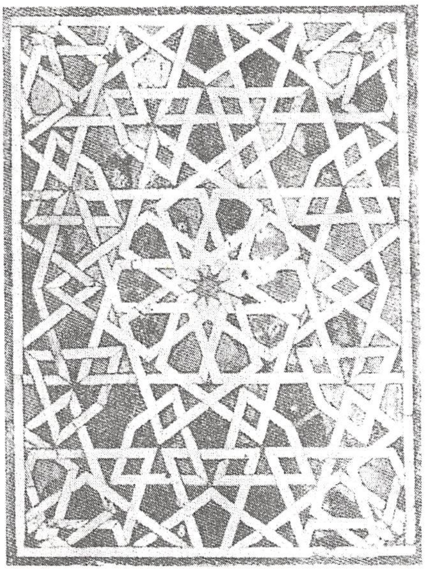
ويتوسط هـذا الجدار محراب مكسو بالرخام حافل بمختلف الألوان والنقوش يكتنفه عمودان أحمران لها تيجان عربية مذهبة يقوم بجواره منبر كبير مطعم بالسن والزرنشان ، وهو منبر غنى ؛ فقد طعمت حشوات الدرابزين أيضا كما ذهّبت منه أجزاء كبيرة ومكتوب عليه : "أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك سيدنا ومولانا السلطان المـالك الملك المؤيد أبو النصر شيخ أدام الله أيامه " .

وعلى ذكر المنبر، أذكر أن الملك المؤيد شيخ هو الذى أمر فى سـنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) بأن الخطباء عند ما يدعون للسلطان على المنبر يوم الجمعة ينزلون درجة ثم يدعون للسلطان حتى لا يكون ذكره فى الموضع الذى يذكر فيه اسم الله واسم نبيّه .

(١) سقطت من هذه الآيات آية ، كما سقطت كلمة رجال من قوله تعالى (رجال لا تلهيهم تجارة — الآية) أعلى الباب العام .

والطرف القبلي لهذا الإيوان سدت فتحتان كانتا به وكسيتا بالرخام والقاشاني، وقد كتب على دوائرها أسماء العشرة المبشرين بالجنة ثم دائرة بها تاريخ هذه العمارة بما نصه : "جدد هذا المسجد المبارك إبراهيم خادم فقراء كاشني سنة ١٢٥٤" .

وقد تنوعت زخارف السقف وهى بلا شك من أرق نماذج السقوف الخشبية . وفى مؤخر الإيوان دكة المبلغ وهى من رخام وقائمة على ثمانية عمد رخامية ، وقد نقشت جوانبها وذهبت ومكتوب عليها : "بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أدم العز والبقاء والنصر على الأعداء لسيدنا ومولانا السلطان المالك الملك المؤيد أبو النصر شيخ سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين مظهر الحق بالبراهين منصف المظلومين من الظالمين ذخر الأيتام والمنقطعين كنز الفقراء والمحتاجين صاحب العلمين خادم الحرمين الشريفين سيد ملوك العرب والعجم السلطان المالك الملك المؤيد أبو النصر شيخ أعز الله نصره" .



(أرضية شباك بالقبة)

وقد انتهز مهندسه فرصة وجود باب زويلة بجوار المسجد فاتخذ من بدنتيه قاعدتين لمنارتيه، وهو اعتداء صارخ فى نظر الأثريين، ولكنه كان موفقا فيه كل التوفيق . وهما منارتان رشيقتان لكل منهما ثلاث دورات حليت بالكتابات والنقوش ، وتقوم الدورة الثالثة على عمد رشيقة ومكتوب على الشرقية منهما :

"عمل هذه المأذنة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن القزاز وكان الفراغ أول رجب سنة اثنتين وعشرين وثمان مائة" .

وعلى الغربية : "أمر بإنشاء هذين المنارتين المباركتين سيدنا ومولانا السلطان المالك الملك المؤيد أبو النصر شيخ عز نصره، وذلك فى نظر العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن القزاز والفراغ فى شهر شعبان المعظم قدره سنة ثلاث وعشرين وثمان مائة" .

وبمناسبة المنارتين أذكر أن المؤرخ على بن داود الجوهرى (١) انفرد عن المؤرخين بذكر ثلاث منارات للجامع إحداها كانت بالوجهة الغربية . وأكدت هذه الرواية حجة الوقف التى تنص أيضا

(١) نزهة النفوس والأبدان ج ٢ ، حجة وقف المؤيد .

على أنه كان للجامع أربعة أبواب فى وجهاته الأربع وأن إيواناته الغربية والبحرية والقبلية كل منها من رواقين .

وقد دب التلف سريعا إلى هذا الجامع فى الوقت الذى احتفظت فيه الجوامع المعاصرة له بتفاصيلها . ولعلّ هذا راجع الى مهاجمة الجامع[1] سنة ١٠٧٦ هـ (١٦٦٥ م) وضربه بالمدافع على أثر تحصن بعض الطغاة به المعروفين بالزرب، وقد كثر فسادهم وقتئذ بمصر فاستفتى عمر باشا حاكم مصر العلماء فأفتوه بأن يقابلهم بما يقابلونه به وان تهدّم شيء من الجامع يعاد بناؤه ؛ فأمر العسكر بالزحف عليهم ومعهم آثنا عشر مدفعا ، وصوّبوها عليهم الى وقت العصر فاستسلموا وفتحوا أبواب الجامع فقبضوا عليهم وقتلوهم وآستصفوا أموالهم . وفى سنة ١١٠٢[2] هـ (١٦٩٠ م) قام بعمارته أحمد باشا والى مصر .

ولم يأت القرن التاسع عشر إلا والمسجد فى أسوإ حالات التخريب؛ فقد عاينه مسيو بسكال كوست ، كما عاينه مسيو مهرن ونقل كتاباته سنة ١٨٧٢ م وقال : «إن المسجد متخرّب ماعدا الإيوان الشرقى» .

وفى المدة من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٧٤ م — وبناء على أمر الخديوى إسماعيل — جدّدت وزارة الأوقاف وجهاته الثلاث : القبلية والبحرية والغربية .

ومنذ سنة ١٨٨١ م وجهت لجنة حفظ الآثار العربية عنايتها إلى المسجد فوجدته متداعيا وقد فقد إيواناته عدا صفى عمد بالإيوان الشرقى كانا على وشك السقوط . ورخام الجدار الشرقى للمحراب مشوّه، وقبة المؤيد فى حاجة الى الاصلاح ومنارتا الجامع مفقود جزؤهما العلوى .

وقد قامت بالمحافظة على البقايا الأثرية وأزالت الدكاكين التى كانت بالوجهة الشرقية،وقوّمت العمد وركبت عمدا جديدة، وأصلحت سقفى الرواقين وأعادتهما إلى سابق مجدهما ، وأصلحت الباب النحاسى والمدخل الرئيسى ، وأصلحت الرخام بالجدران والمحراب، كما أصلحت دكة المبلغ، وكملت المنارتين ، وأنشأت الرواق الثالث المشرف على الصحن، كما عملت قبة الوضوء بالصحن وأصلحت المنبر وأبواب القباب .

وفى حديقة المسجد لوحة تاريخية تشير إلى تعميره سنة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) فى عصر الخديو توفيق .

(١) الخطط الجديدة ج ٥ ص ١٣٠ (٢) الجبرتى، ج ١ ص ٢٤

المدرسة الفخرية (مسجد البنات)

بشارع مسجد البنات (*)

أنشأ هذه المدرسة الأمير فخر الدين عبد الغنى بن عبد الرزاق بن أبى الفرج بن نقولا بن الوزير تاج الدين الأرمنى الأصل . كان جده أرمنيا تابعا لابن نقولا الكاتب فنسب اليه . وهو أول من أسلم من آبائه ، ونشأ ولده عبد الرزاق مسلما وتقلب فى جملة وظائف من صراف لقطيا الى ناظر ثم أمير لها الى أن ولى الأستادارية والوزارة .

ولد الأمير عبد الغنى فى سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) وتعلم بمصر ، ثم تدرج فى جملة وظائف حينما كان أبوه وزيرا ؛ إذ عين واليا لقطيا (١) سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م) ، ثم صرف عنها وأعيد اليها فى دولة الناصر فرج بن برقوق ثم عين كاشفا للشرقية سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨م) . وفى سنة ٨١٤ هـ (١٤١١م) رقى الى وظيفة أستادار فلم يمكث بها كثيرا . وفى دولة الملك المؤيد شيخ عين كاشفا للوجه البحرى ، ثم عين فى سنة ٨١٦ هـ (١٤١٣ م) أستادارا فحسنت سيرته ، ثم أضيفت اليه الوزارة فى صفر سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) .

وقد أخذ عليه فى مبدإ أمره أنه كان مسرفا فى أخذ الأموال من أهل القرى ، وأنه كان جبارا قاسيا . ووصفه السخاوى المؤرخ بأنه كان يعرف كيف يجمع الأموال . وقد جمع فى ثلاث سنين مالا يجمعه غيره فى ثلاثين سنة . أما المقريزى فقد حمل عليه حملة شديدة . وكانت (٢) وفاته فى نصف شوال سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) ودفن بهذه المدرسة .

موقع المدرسة وتاريخها — تقع هذه المدرسة بالقرب من محكمة الاستئناف فى الجزء الواقع بينها وبين شارع الأزهر ، وكان الفراغ من إنشائها سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) حيث احتفل بافتتاحها يوم الجمعة ٢٨ شعبان سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨م) ، وخطب فيها الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد الوهاب ابن البارنبارى الشافعى ، وخصصت بها دروس للتصوف وللفقه على مذاهب السادة الحنفية والمالكية والشافعية ، وتولى التدريس فيها العلماء : شمس الدين محمد البرماوى الشافعى ، وشمس الدين محمد الديرى المقدسى الحنفى ، وقاضى القضاة جمال الدين عبد الله بن مقداد المالكى (٣) .

(*) أنظر الصور من رقم ١٤٩ — ١٥١ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) قطيا بالقرب من الفرما ؛ وهى مكان فحص الجوازات وتحصيل المكوس ، وقد تذمر كثير من الرحالة الذين مروا بها من تعنت ولاتها .

(٢) الضوء اللامع ج ٤ ص ٢٤٨ ، النجوم الزاهرة ج ٦ قسم ١ ص ٤٦٣ طبع كلفرنيا .

(٣) المقريزى ، ج ٢ ص ٣٢٨

ولهذه المدرسة بابان : أحدهما على الشارع العام حيث وجهته الغربية الرئيسية وبها المنارة وسبيل يعلوه كتاب . والآخر يتوصل اليه من درب سعادة . وللباب الكبير مصراعان مغشيان بالنحاس المفرغ بأشكال زخرفية آية فى الدقة والجمال .

ومن هذا الباب يتوصل الى طرقة مربعة مفروشة بالرخام على يسارها باب يؤدى الى الميضاة، وعلى اليمين باب آخر يؤدى الى طرقة طويلة مفروشة بالرخام بها حجاب من خشب الخرط على مزيرة كان بها زير رخامى نقل الى دار الآثار العربية ، وتنتهى هذه الطرقة الى باب يوصل الى صحن المدرسة ، وهو صحن فسيح مكشوف فرشت أرضيته بالرخام الملون ، ويحيط به أربعة إيوانات أكبرها الإيوان الشرقى ؛ ومما يذكر عن هذا الإيوان أنه مقسم الى ثلاثة أقسام أكبرها أوسطها يفصلها صفان من أعمدة الجرانيت تحمل عقودا وسقوفا ملونه . ويغطى القسم الأوسط منه سقف من رقعة واحدة به زخارف وسرر ملونه ، ومكتوب به تاريخ تجديد لجنة حفظ الآثار العربية له فى عام ١٣١٣ ﻫ (١٨٩٥ م) .

أما المحراب فتسوده الآن البساطة ؛ يجاوره منبر مطعم بالسن والزرنشان ، كما حلى داخله وسلمه بزخارف هندسية حفرت فى الخشب ، وهو من المنابر الهامة .

ويحيط بهذا الإيوان من أسفله دواليب وشبابيك يعلوها شبابيك جصية ، وتقوم فى مؤخره دكة رخامية محمولة على ثمانية عمد من الرخام .

وفى أسفل الإيوان الغربى شبابيك ودواليب يعلوها نوعان من النوافذ الجصية ، ولهذا الإيوان سقف حافل بالنقوش المجددة . أما الإيوانان القبلى والبحرى فهما أصغر مساحة ، وهما معقودان بالحجر .

ويحيط بالصحن أربعة أبواب مصاريعها محلاة بالنحاس المفرغ ، أحدهما الشرقى البحرى يوصل الى قبر المنشئ وابنه الأمير زين الدين عبدالقادر الأستادار المتوفى سنة ٨٣٣ ﻫ (١٤٣٠ م)[1]، وهذا القبر فى حجرة على هيئة قاعة يبدو مما بقى بسقفها من زخرف ورنوك أنها كانت غنية بشتى النقوش . ويسترعى النظر فيها جمال الزخرف والكتابة فى التركيبة الرخامية الصغيرة المخصصة لبعض أفراد أسرة المنشئ ، وقد اشتملت على كتابة تاريخية نصها : " بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر أمير حاج بن محمد ابن عبدالغنى بن أبى الفرج أوقفه على نفسه وعلى أولاده ووالدتهم سور باى تغمدهم الله برحمته لا أعان الله من تكلم فى بيعه أو باعه بتاريخ عاشر جماد الأول سنة تسع وتسعين وثمان مائة من الهجرة النبوية أحسن الله عاقبتها " .

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ قسم ٢ ص ٨١٣ طبع كاليفورنيا .

وهـذه الأبواب مغطاة من أعلاها بمقرنص له دلايات تعـددت حطاته وتحـدت أشكاله ، وينتهى الصحن من أعلاه بشرفة مورّقة .

وقد فقدت من هذه المدرسة منارتها القديمة وكثير من رخامها ، وهذا يرجع الى ما أصابها من تخرب، وما طرأ عليها من إصلاحات كثيرة ؛ أو لأن منشئها توفى قبل أن يتمها .

سبب تسميتها مسجد البنات — غلبت هذه التسمية على المدرسة فعرفت بها ونسى اسم صاحبها ؛ ولذلك أقصوصة لازمتها منذ القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، فقد زارها الرحالة عبد الغنى النابلسى سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) . وقال :

«إن أهل مصر يعرفون هذا المسجد بمسجد البنات لأن البنت التى لا يتيسر لها زواج تأتى الى هذا المسجد فى يوم الجمعة والناس فى الصلاة وتجلس فى مكان هناك ؛ فإذا كان المصلون فى السجدة الأولى من الركعة الأولى من صلاة الجمعة تمر بين الصفين وتذهب فيتيسر لها الزواج وقد جربوا ذلك[1]» .

هذا قول رحالة مسلم سمع هذا ممن بالمسجد طبعا ، أو من أهل القاهرة وقتئذ ؛ وقـد قضى على هذه الخرافة ولله الحمد وبقيت التسمية لاصقة بالمسجد وبالشارع .

عناية الأسرة العلوية بالمدرسة — كانت أولى العمارات التى أجريت على الأرجح تلك العمارة الكبيرة التى قامت بهـا السيدة البارّة صاحبة الخيرات والدة حسين بك نجل عزيز مصر المغفور له الحاج محمد على باشا ، وذلك فى سـنة ١٢٦٨ هـ (١٨٥١ م) . فقـد أصلحت الوجهة الغربية وأنشأت المنارة الباقية حتى الآن على يمين الباب .

ومن أعمال هذه السيدة أيضا إنشاؤها السبيل الواقع أمام هـذه المدرسة فى سـنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م) . وقد أثبتت تاريخ عمارتها بالمسجد فى لوح تاريخى فوق الباب العمومى ونصه :

" قد كان تجديد عمارته وإنشاء منارته على يد المصونة والدرّة المكنونة والدة حسين بك نجل عزيز مصر القاهرة الحاج محمد على باشا ذى المآثر الباهرة طاب ثراهما وجعـل فى الجنات قراءهما طلبا لإيصال الثواب اليهما ورغبا فى إنزال الرحمة عليهما من هجرة الرسول الأمين ١٢٦٨ " .

أعمال الإصلاح — يظهر أن هذه المدرسة طرأ عليهـا تخرب كبير أضاع الكثير من تفاصيلها ؛ لأن لجنـة حفظ الآثار العربية أجرت بها عمارة كبيرة فى سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) ، تناولت إصلاح إيوانيها الشرقى والغربى ، وعمل سقوف جديدة لهما ، كما قومت المبانى وأصلحت الأرضيات الرخامية والشبابيك الجصية ، وأصلحت المنـبر وأكملت ما فقد من أجزائه . هـذا عدا ما قامت به من إصلاح الأبواب النحاسية وعمل شبابيك ودواليب فى جميع نواحيها .

(١) الحقيقة والمجاز ص ٢٣٩ خط .

مسجد جانى بك الأشرفى

بشارع المغربلين (*)

كان منشئ هـذا المسجد — وهو الأمير جانى بك الأشرفى [1] — مملوكا للملك الأشرف برسباى ، وقد تدرج عنده فى عدة وظائف الى أن عينه فى محرم سنة ٨٢٦هـ (يناير سنة ١٤٢٣ م) أمير اللطبلخاناه [2] ثم خازندارا، ثم دوادارا ثانيا . وبلغ من حظوته لدى الملك الأشرف أن ترك له التصرف فى شؤون الدولة . توفى الى رحمة الله تعالى فى ٢٧ ربيع الأول سنة ٨٣١هـ (يناير سنة ١٤٢٨ م) . وهو لا يزال فى الخامسة والعشرين من عمره . ودفن فى قبة هذه المدرسة ، ثم نقل منها بعد مدة الى تربة الأشرف برسباى [3] بالصحراء . والمرجح أنه دفن فى القبة المعروفة به بجرى قبة الأشرف برسباى وهى من طراز منشآته .

ومما يذكر عنه أنه كان متدينا كثير البر بالفقراء ، وكان الى جانب هذا مولعا بالصيد . ومن لطيف ما مدحه به العلامة ابن حجر :

الدوادار قال لى * أنا أقضى مآربك
قم زن المال قلت لا * حفظ الله جانبك

وكان الفراغ من [4] إنشائه والاحتفال بافتتاحه فى يوم الجمعة ثانى شهر رمضان سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٧ م) . وهو مسجد عظيم له وجهة كبيرة اشتملت على القبة والمنارة والمدخل العام ويلاحظ أن شبابيك الوجهة لم يتم تلبيس الرخام فى أعتابها . وكان بالطرف البحرى سبيل هدم . كما يوجد بالطرف القبلى باب للميضأة يجاوره حوض لشرب الدواب .

وباب المسجد مكسو بالرخام الأسود والأبيض وعتبه من رخام ملون يعلوه نفيس ، ثم شباك يكتنفه عمودان حولها تربيعتان إحداهما مفقودة، ومكتوب على الثانية بالكوفى المربع: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" . وظاهرة الكتابات الكوفية المربعة فى مثل هذا الوضع ألفنا رؤيتها فى مساجد هذه الفترة إذ نراها فى مساجد المؤيد، وكافور الزمام، والجمالى يوسف، وفيروز الساقى .

وتقوم المنارة على يمين الباب وهى مبنية بالطوب ومكونة من دورتين حليتا بالمقرنصات .

ومصراعا الباب حليا بكسوة نحاسية : زوايا وأشرطة وبخارية مفرغة تفريغا دقيقا مكتوب عليهما اسم المنشئ وتاريخ رجب الفرد سنة ٨٣٠ هـ . ومكتوب على جانبى مدخله :

(*) أنظر الصور من رقم ١٥٢ — ١٥٤ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الضوء اللامع ج ٣ ص ٥٤ (٢) الطبلخاناه — بها آلات الموسيقى المخصصة للعزف أمام قصر السلطان .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ قسم ٢ ص ٨٠١ طبع كلفرنيا . (٤) النجوم الزاهرة ج ٦ قسم ٢ ص ٦٢٣

" بسم الله الرحمن الرحيم إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون صدق الله العظيم . أمر بانشاء هذا الجامع المبارك المقر الأشرف السيفى جانى بك الدوادار الملكى الأشرفى عز نصره بتاريخ شهور سنة ثلاثين وثمان مائة" .

وهذا الباب يؤدى الى دركاة لها سقف خشبى له مقرنصات بدلايات مثل سقوف قصر الحمراء بالأندلس . وتصميم المسجد من الداخل هو تصميم المدرسة : أربعة إيوانات يتوسطها صحن مكشوف فرشت أرضيته بالرخام الملون بأشكال جميلة امتازت بوجود فصوص زرقاء بها ، كما فرشت أيضا أرضيات تلك الإيوانات بالرخام بأشكال متنوعة .



مسقط أفقى

والمنبر وإن كان قد أصابه تلف كبير إلا أن بقاياه تدل على أنه كان منبرا مطعما بالسن والزرنشان.

وقد اشتمل المسجد على مجموعة نادرة من الشبابيك الجصية امتازت بدقتها والكتابات حولها ، والمحراب وإن كان حجريا إلا أن عمده تلفت النظر بأن قواعدها مخلقة من بدنها .

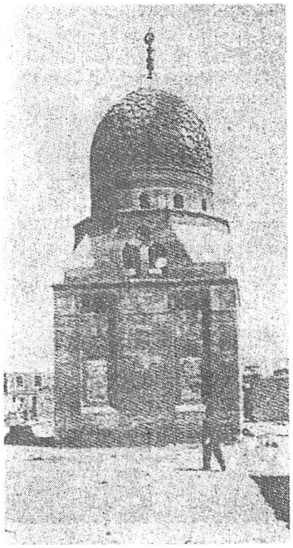
كما أن بقايا السقوف وخاصة فى الإيوانين القبلى والبحرى تدل على ما كانت عليه من دقة وجمال . والقبة فى الركن القبلى الغربى من الصحن ، وهى قبة حجرية صغيرة حلى سطحها بنقوش دالية ، كما اشتملت من الداخل على إيوان صغير فى الجنب القبلى .

ومن هـذا الوصف يكون هـذا البناء لمدرسة ، بينما كتابتها التاريخيـة تنص على أنها جامع ، فى الوقت الذى يقول عنها السخاوى[1] إنها مدرسة للسادة الحنفية وبها صوفية ، ويعبر عنها المقريزى بخانقاه[2]. وقد علق على ذلك مسيو ڤان برشم وقال : « إن تسمية هذه المدرسة جامعا فى كتابة تاريخية من التطورات المهمة فى أسماء المبانى الدينية » . والمرجح أن هـذه الأسماء كانت ترجع الى وظيفة البناء لا الى البناء نفسه ، فكأن مدلولها الغرض الذى أقيم من أجله لا لطرز بنائه .

أعمال الإصلاح — بدأت لجنة حفظ الآثار العربيـة أعمال الإصلاح فيه منذ سنة ١٩٠٩ ، وفى سنة ١٩١١ اتسعت هـذه الأعمال وتناولت الباب النحاس الذى اتضح أنه كان مكفتا بالفضة .

وفى عهـد الملك الصالح فاروق الأول أصلحت الأرضيات الرخامية . وهى على جانب عظيم من الأهميـة .

(١) تحفة الأحباب ، ص ١٧٢ خط . (٢) المقريزى ، ج ٢ ص ٣٣١



قبة جانى بك الأشرفى بالصحراء

مدرسة الأشرف برسباى

بشارع المعز لدين الله[*] (الأشرفية)

الملك الأشرف برسباى — كان برسباى الدقماقى[1] الظاهرى مملوكا للسلطان الظاهر برقوق فأعتقه وعلمه، واستمر فى خدمتــه الى أن ألحق بخدمة ابنه الناصر فرج، وشغل عدة وظائف منها نيـابة طرابلس، ثم دوادار كبير بالقاهرة، ثم تولى سلطنة مصر فى ٨ ربيع الآخر سـنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) وساس الملك خير سياسة، وأذعن له الأمراء والنواب ودانت له البلاد[2].

وكان الأشرف ملكا جليلا مبجلا متدينا يحب العلماء ويقربهم، كما كان يحب أعمال البر ومنح الصدقات، وفتحت فى أيامه بلاد كثيرة، كما فتحت قبرص وأسر ملكها.

توفى الى رحمة الله تعـالى فى عصر يوم السبت ١٣ ذى الحجة سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) ودفن بتربته بالصحراء.

ومن أعماله الجليلة حفره خليج الاسكندرية سنة ٨٢٦ هـ (١٤٢٣ م) وكان مطموما[3]، وقد بقى من آثاره الكثيرة التى أنشأها بمصر: الخانقاه، والتربة بالصحراء، والمسجد بخانقاه سرياقوس، ثم هذه المدرسة.

كان موضع هذه المدرسة حوانيت تعلوها رباع ومن ورائها ساحات وقياسر وبعد أن استبدلت واشتريت الأرض اللازمة لإنشائها، ابتدئ فى هدمها فى أول شهر رجب سنة ٨٢٦ هـ (١٤٢٣ م)، وبمجرد الفراغ من إيوان المحراب أقيمت بها صـلاة الجمعة[4] فى ٧ جمادى الأولى سـنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) وخطب بها الحموى الواعظ.

وهـذا التصريح كشف لنا عن عدم صحة ما يرد فى بعض النصوص التاريخية من تقصـير مدة الإنشاء بقصد الإطناب فى قوة المنشئ، وقد جاء فى النص التاريخى للوجهة ما نصه: " بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا — الى قوله تعالى نصرا عزيزا صدق الله العظيم. أنشأ هذه المدرسـة المباركة سيدنا ومولانا السلطان المـالك الملك الأشرف أبو النصر برسباى خلد الله ملكه بمحمد وآله يا رب العالمين وذلك بنظر العبد الفقير الى الله تعالى عبد الباسط ناظر الجيوش المنصورة

(*) انظر الصور من رقم ١٥٥ — ١٦٠ بمجموعة الصور الفوتوغرافية.

(١) الدقماقى نسبة الى دقماق نائب حماه الذى اشتراه وأهداه الى الظاهر برقوق.

(٢) الضوء اللامع ج ٣ ص ٨، البدر الطالع ج ١ ص ١٦١

(٣) ابن إياس ج ٢ ص ١٧

(٤) المقريزى ج ٢ ص ٣٣١

غفر الله له وللمسلمين فى مدة أولها شهر شعبان سنة ست وعشرين وثمانمائة وآخرها سلخ جمادى الأول سنة سبع وعشرين وثمان مائة " .

والحقيقة أن الفراغ منها كان فى سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٥ م)[1] وهى السنة التى فتحت فيها قبرص ، وبهذه المناسبة علقت خوذة مليكها على باب هذه المدرسة تذكارا لهذا النصر، وظلت باقية عليها حتى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) فقد عاينها الإسحاقى[2] المؤرخ .

والوجهة الشرقية لهذه المدرسة جمعت تفاصيلها الهامة ، فالطرف البحرى ينتهى بقبة حجرية حلى سطحها بنقوش دالية ، وهى من القباب الجميلة ، ثم وجهة الإيوان الشرقى وقد حليت أعتاب الشبابيك بالرخام وغطيت بالمقرنصات ، فالمنارة وهى ذات قاعدة مربعة وتشتمل على ثلاث دورات حلى بدن دورتها الثانية بقنوات مستطيلة متقاطعة تربطها ميمات . وتقوم دورتها الثالثة على عمد رشيقة أتمتها سنة ١٩٤٥ إدارة حفظ الآثار العربية ، ثم الباب العمومى وقد كسى بالرخام الأبيض والأسود ، ومكتوب على جانبيه فى الرخام : " بسم الله الرحمن الرحيم وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا صدق الله العظيم أنشأ هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيي العدل فى العالمين قسيم أمير المؤمنين خادم الحرمين الشريفين المالك الملك الأشرف خلد الله ملكه " .

وعتب الباب محاط بإطار رخامى دقيق ملون وهى ميزة ألفناها فى مساجد هذه الحقبة سبقه فيها أبواب مدرسة السلطان حسن وزاوية فرج بن برقوق ومدرسة القاضى عبد الباسط ، ويعلوه نفيس من الرخام دقت به زخارف مورّقة ، فوقه مزرر من رخام ملون ، يكتنفه دائرتان مكتوب عليهما : "عز لمولانا السلطان الملك الأشرف" يغطى كل هذا مقرنص جميل . وينتهى الطرف القبلى بسبيل يعلوه كتاب مكتوب عليه : "أمر بانشاء هذا المكان المبارك ابتغاء لوجه الله تعالى وطلبا لرضوانه سيدنا ومولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر برسباى خلد الله ملكه " .

وعلى مصراعى الباب كسوة نحاسية بها اسم المنشئ وتاريخ تجديدها سنة ١٣٣٢ هـ . والداخل من هذا الباب يجد دركاة على يسارها باب يؤدى الى حجرة السبيل وقد فرشت بالرخام الدقيق ، كما يعلوها سقف تتوسطه سرة محارية مذهبة .

والباب الأيمن منها يؤدى الى طرقة بها باب السطح والمنارة . وبها مزيرة أقيم على وجهها حجاب من الخشب الخرط مكتوب عليه : " بسم الله الرحمن الرحيم إن الأبرار يشربون من كأس كان

(١) ابن إياس ج ٢ ص ١٨ (٢) أخبار الأول ص ١٢٢

مزاجها كافورا — الى قوله تعالى يوفون بالنـذر ويخافون يوما " . ثم باب إحدى المدارس فباب الميضأة، يقابله الباب المؤدى الى الصحن، وقد أحدقت به أربعة إيوانات ؛ كما أحدقت به أربعة أبواب أحدها يؤدى الى إحدى المدارس ، وقد تهدمت ، والثانى الى القبة ، والثالث الى الميضأة . وقد غطيت تلك الأبواب بمقرنصات من نوع واحد، كما حليت أعتابها بمزررات رخامية . ومكتوب بدائر الصحن ما نصـه : " بسم الله الرحمن الرحيم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه — إلى قوله تعالى ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير . صدق الله العظيم . أنشأ هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان سلطان الاسـلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين منصف المظلومين من الظالمين خادم الحرمين الشريفين الملك الأشرف خلد الله ملكه " .

وكانت جدران الإيوان الشرقى مؤزرة بالرخام لم يبق منـه سوى كسوة جدران المحراب ، وقد ارتفعت بارتفاعه وبها أثر تذهيب، وكسيت عقود الشبابيك بمزررات رخامية ، كما يوجد بها إفريز رخامى منقوش ومكتوب بالخط الكوفى ، ومع ما اشتمل عليه المحراب من صناعة دقيقة فى الرخام ، فان صناعة الأرضية الرخامية تفوقه جمالا ؛ فقـد اشتمل وسـط الإيوان على دائرة رخامية بأشكال زخرفية ملونة تزرى بالسجاد اقتبسها بعد ذلك مهندس الغورى لمدخل مدرسته بالغورية . ومنشآت الأشرف برسباى كلها غنية بصناعة الرخام .

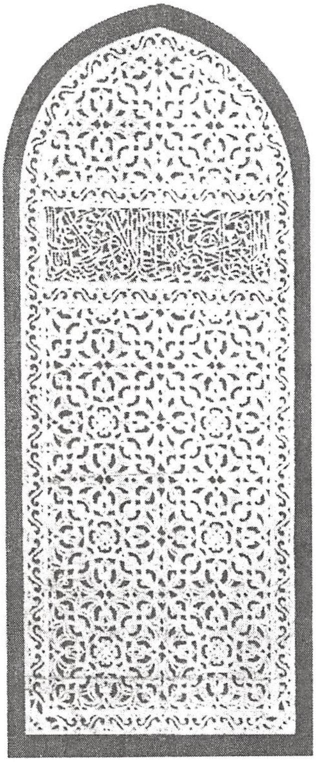
وقد تغير سقف هذا الإيوان وحل محله سقف غيره بكرادى لا يتفق مع طراز هذا العصر .

أما الإيوان الغربى فقـد احتفظ بسقفه ، وهو من رقعة واحدة مثـل سقف الإيوان الشرقى بمدرسة الظاهر برقوق ، وقد حلى بدوائر وسرر مذهبة ، أصلحت إدارة حفظ الآثار العربية جانبا منه كى يعطى فكرة عن مقدار جماله ، ومكتوب بإزاره آية الكرسى . وبه دكة للمبلغ حديثـة . وقد تقرر إزالتها .

ويحيط بجدار الإيوانين الشرقى والغربى سطر مكتوب فيـه بيان الأعيان التى وقفها الأشرف برسباى على هـذه المدرسة وغيرها من منشآته ، وأوجه الصرف عليها ، وقد أوضح حكمة كتابتها بهذه الطريقة فى أولهـا بقوله : " أمر بكتابة هـذا السطر المبارك مولانا المقام الشريف السلطان الملك الأشرف برسباى خلد الله ملكه تذكرة لمن يلى نظر هـذه المدرسة المباركة وأصانت الجهات الموقوفة عليها وعلى ذريته وغير ذلك على ما يشهد به كتاب الوقت المبرور ... " .

ويقوم على جانبى المحراب منبر دقيق الصناعة ، طعمت حشوات جوانبـه وأبوابه ودرابزينه بالسن والزرنشان . ومكتوب على بابه : "أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان

الملك الأشرف عز نصره" . كما يوجد بهـذا الإيوان كرسى للمصحف طعم بحشوات السن بأشكال هندسية . وقد أتبعت فى صناعته طريقة صناعة كرسى مدرسة الظاهر برقوق ، وهى طريقة مبتكرة وجميلة فقدطعم الخشب بحشوات من السن برسوم هندسية .



شباك من جص وزجاج ملون

والقبة بالطرف البحرى يتوصل اليها من باب بالصحن ، ومن خوخة فى الشباك النحاسى البحرى للإيوان الشرقى ، وأمام مدخلها إيوان صغير على وجهـه حجاب من الخشب الخرط كما أقيم على مدخلها حجاب من الخشب الخرط مكتوب عليه : "بسم الله الرحمن الرحيم كل نفس ذائقة الموت و إنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقدفاز" .

وهى قبة عالية يتوسطها قبران حولها سياج قصير من الخشب الخرط ومكتوب على أحدهـا : " هـذا ضريح المرحومة فاطمة جهة المقام الشريف الأشرف " . وهذه السـيدة هى أم ولده الناصرى محمـد ، وقـد توفيت فى ١٥ جمادى الآخرة سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م)[(١)] .

وممن دفن بها أيضا آبنه الناصرى محمـد المتوفى فى ٢٦ جمادى الأولى سنة ٨٣٣ هـ (١٤٣٠ م)[(٢)] .

وقـد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاح هذه المدرسة فأصلحتها فى سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) ، وأصلحت رخام محرابها و إزارها وأرضيتها .

وفى سنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٥م) أصلحت المنبر وكرسى المصحف واستكملت ما كان مفقودا منهما .

عناية الملك الصالح فاروق الأول بهذه المدرسة — وفى عهد الملك الصالح فاروق الأول أصلحت إدارة حفظ الآثار القبـة وأكملت المنارة وعملت شبابيك جصية بالإيوان الشرقى تنفيـذا لأمره الكريم .

ومن طريف ما يذكر أن السوق المجاورة للمدرسـة من جهتها القبلية خصصت لبيع العنبر منـذ سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) وكانت تجارته رائجة جدا وما زالت الى الآن مخصصة لبيع الروائح العطرية .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ قسم ٢ ص ٧٨٤ (٢) النجوم الزاهرة ، ج ٦ قسم ٢ ص ٨١٢ طبع كاليفورنيا .

خانقاه الأشرف برسباى

بالقرافة الشرقية (*)

هذه الخانقاه والتربة ثانى منشآت الملك الأشرف برسباى، وهى فى القرافة الشرقية المعروفة بصحراء قايتباى .

وإذا اعتبرنا أن خانقاه فرج بن برقوق القريبة منها أكبر بناية أنشئت بالقرافات ، فان هذه المجموعة تعتبر الثانية فى السعة ، فقد أنشأها لتؤدى عدة أغراض .

فالخانقاه لإقامة الصوفية ، ثم حوش كبير فيه قبور وبقايا قبة وقبة كاملة لأخيه الأمير يشبك وأقاربه وبعض العلماء ، ومصلى لإقامة الشعائر الدينية ، ثم قبة حجرية عظيمة تجلت فيها عظمة القباب المملوكية . وكان الفراغ من بناء هذه المجموعة فى شهر ذى الحجة سنة ٨٣٥ هـ (١٤٣٢ م)، وتجمعها وجهة كبيرة بنيت بالحجر، تنتهى من الطرف القبلى بالخانقاه ، وهى تشغل مساحة كبيرة تخربت ولم يبق منها إلا وجهتها؛ وقد ثبتت عليها ألواح رخامية نقش عليها بيان الأعيان الموقوفة على التربة التى أنشأها لأخيه بالحوش الملحق بتربته، وبيان وجوه صرفها بتاريخ سنة ٨٣٤ هـ (١٤٣١ م) كما نقش عليها أيضا بيان ما وقفه على التربة التى أنشأها بحوشه لقريبيه الأميرين أقطوه وتانى بك، وبيان وجوه صرفها . ثم وقفية ثالثة على أخيه السيفى يشبك رحمه الله بتربة أنشأها المقام الشريف بالصحراء، وبيان الأعيان الموقوفة ووجوه صرفها، وقد خص مسجد الظاهر بيبرس البندقدارى بحصة منها .

وقد أبان لنا الحكمة فى كتابة وقفيته نقشا على منشآته لمنع عبث العابثين بها ، فلم يجد هذا، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد تخربت هذه الخانقاه وبها بقايا عقود تنوعت أشكالها إلى محاريب فمقابر وصهريج . والقسم المحتفظ بتفاصيله الآن : المصلى، وقبة الأشرف برسباى، وحوشها الشرقى المدفون به أقاربه وبعض العلماء .

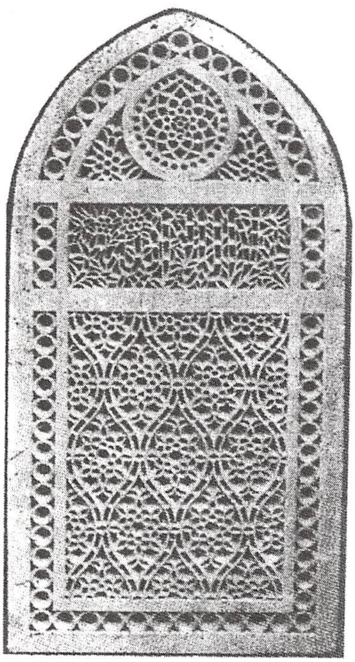
ويتوصل إلى هذه التربة من الطريق المؤدى من خانقاه برقوق إلى مدفن السلطان قايتباى حيث يوجد سلم ذو جناحين يؤدى إلى مدخل لطيف تعلوه منارة جزؤها العلوى حديث ساذج الشكل .

ووجهة التربة مبنية بالحجر على طراز الوجهات المألوفة فى المساجد . صفف مفتوح فيها صفان من الشبابيك : أحدهما قريب من أرضية المصلى والقبة . والآخر علوى ومغطى بشبابيك جصية

(*) أنظر الصور من رقم ١٦١ – ١٦٧ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

غالبها جديد . ثم أكتاف فاصلة بين الصفف المغطاة من أعلى بمقرنصات . ويتوج الوجهة افريز كانت تعلوه شرفات . والباب العمومى مكتوب على جانبيه : " بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه الخانقاه المقام الشريف مولانا السلطان الملك الأشرف سلطان الإسلام والمسلمين ابو النصر برسباى عز نصره ، وكان الفراغ من ذلك فى شهر ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وثمانمائة " .

وعتب الباب مزرر وفوقه نفيس منقوش ، يعلوه سطر آخر مكتوب فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله — الآية " . يكتنفه دائرتان بهما : " السلطان الملك الأشرف برسباى عز نصره " . وعقد الباب مدايني مخوص ينتهى بطاقية بها مقرنصات .



شباك من جص وزجاج ملون

وفى الجانب البحرى للدركاه التى تلى المدخل باب معقود يؤدى إلى مصلى ذى إيوانين يفصل بينهما مجاز تؤدى نهايته البحرية إلى باب القبة .

وسقف المصلى محمول على صفين من العقود يشتمل كل صف منهما على ثلاثة عقود محمولة على عمودين من رخام : اثنان منهما قواعدهما تيجان . وأرضية الإيوان الشرقى بالمصلى من الرخام الدقيق وبها ترابيع محاطة بمزررات ملونة وهذا يشاهد لأول مرة فى الأرضيات فقد ألفنا رؤية المزررات فى أعتاب الأبواب والشبابيك فقط .

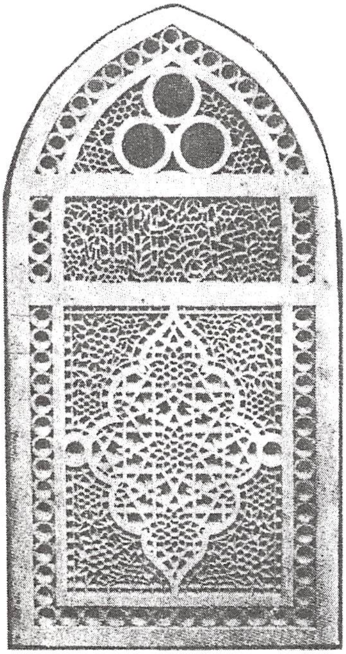
وبالمصلى محراب حجرى عارٍ من الزخرف وشبابيك جصية عملت حديثا ، وقد نقشت السقوف بالبوية ، وكتب بإزارها ألقاب المنشئ . أما القبة فان أرضيتها من الرخام ، ولكنه مع جماله دون دقة الأرضية بالمصلى . وقد احتفظت وزرة جدرانها بأشرطة من رخام وصدف دقيق جدا ، وصناعة الرخام بالمحراب دقيقة . وعلى جانبيه خورنقات صغيرة طعمت بالصدف الدقيق ، وأمامه قبر المنشئ وزوجته خوند جلبان أم ولده الملك العزيز يوسف ، وقد توفيت فى ٢ شوال سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٦ م)(١) .

والقبة من القباب الكبيرة ، قاعدتها مربعة ، تعلوها رقبة ، فوقها قبة كبيرة جميعها من الحجر ، وسطحها مغشى بنقوش هندسية بديعة . ونقوش هذه القبة تعتبر الخطوة الثانية بعد قبتى خانقاه فرج بن برقوق

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ قسم ٢ ص ٨٤٢ طبع كاليفورنيا .

فى سبيل ترقية زخارف القباب الإسلامية، ومكتوب برقبتها من الخارج : " بسم الله الرحمن الرحيم، الله لا إله إلا هو الحى القيوم الآية " ثم اسم الأشرف برسباى وألقابه .

وخلف المصلى الحوش الذى يضم قبور أخيه وأقاربه ، ويتوصل إليه من باب بصدر الدركاه بالمدخل، وبه الآن قبتان : إحداهما تلاصق المصلى، وقد هدمت ولم يبق سوى قاعدتها . والثانية أمامها وقد أقيمت على أربعة عقود، ومقرنصها من الجص : وتحتها تركيبتان من الرخام ، مكتوب على الكبيرة منهما آية الكرسى وعلى التركيبة الصغيرة أمام المحراب لوح رخامى مؤرخ ٢٠ شوال سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) . باسم خوبى بن سيدى داوود ولد المقام الشريف ... وأرجح أنه منقول من مكان آخر لأنه فى غير موضعه؛ وهى قبة صغيرة مبنية بالحجر، وقد نقش سطحها بالزخارف الجميلة .



شباك من جص وزجاج ملون

وممن دفن فى هذا الحوش : الأمير سيف الدين يشبك بن عبد الله أخو الملك الأشرف برسباى، وقد توفى فى شهر رجب سنة ٨٣٣ هـ (١٤٣٠م)(١) والعلامة محمد ابن محمد بن أحمد شمس الدين القليوبى ، وقد توفى سنة ٨٤٩هـ (١٤٤٥ م)(٢) . وعلى بن بركات بن حسن ابن عجلان ، وقد توفى فى ١٣ رجب سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م)(٣) .

المنبر — يقوم الى جانب المحراب بالمصلى منبر جميل طعمت حشواته بالسن والزرنشان والأويمة برسوم جميلة ميزته على كثير من المنابر المعاصرة له وقد حلى باب مقدمه بخرط ميمونى دقيق مكتوب فيه بالخط الكوفى : " إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه " له نظير فى صنوه، منبر المدرسة المزهرية . وقد طعم الخشب الخرط بدرابزينه بالسن .

وهذا المنبر منقول اليه هو وكرسى المصحف من مسجد الغمرى بشارع امير الجيوش المنشأ سنة ٨٤٣هـ (١٤٣٩ م) بعد تخربه وهدمه .

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ قسم ٢ ص ٨١٤ (٢) التبر المسبوك ص ١٣٨ (٣) الضوء اللامع ج ٥ ص ١٩٧

ومعلوم أن الآمر بعملهما للمسجد هو محمد بن على المعروف بابن الردادى[(١)] حوالى سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م) .

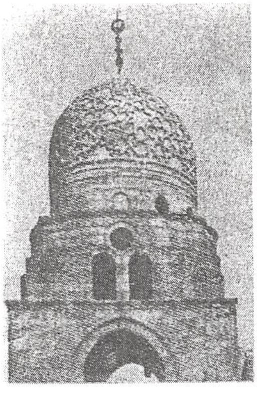
وقد كان هذا المنبر والكرسى فى حالة سيئة ، قد فقدا بعض حشواتهما ، فعنيت إدارة حفظ الآثار العربية بهما ، وأصلحتهما ؛ ثم وقع اختيارها على إيداعهما هذا المسجد لحاجته اليهما ، فقد كان به منبر فى منتهى البساطة لا يمت له بصلة .

وصانع هذا المنبر هو النجار الماهر أحمد بن عيسى بن أحمد الدمياطى ثم القاهرى . كان نابغا فى صناعته[(٢)] ، وقد قام هذا النجار بأعمال هامة فى دولة الظاهر جقمق والجمالى ناظر الخاص ، وجاء فى ترجمته أنه هو الذى عمل منبر المدرسة المزهرية ، ثم المنبر المكى ومنبر جامع الغمرى ؛ توفى بالمنزلة فى ذى القعدة سنة ٨٩٧ هـ[(٣)] (١٤٩٢ م) .

وبمقارنة هذا المنبر بمنبر مدرسة أبى بكر بن مزهر بحارة برجوان المنشأة سنة ٨٨٤هـ (١٤٧٩ م) نجده متفقا معه فى كثير من التفاصيل ، وخاصة الخرط الدقيق والكتابة الكوفية فى باب المقدم ، وتقاسيم الجانبين ، وقد ميزتهما على كثير من المنابر .

وبذلك نكون قد وفقنا الى معرفة نجار ماهر ترك لنا من صناعته منبرين من أنفس المنابر وأجملها .

(١) الضوء اللامع ج ٩ ص ٩ (٢) الضوء اللامع ج ٢ ص ٥٩ (٣) الضوء اللامع ج ٢ ص ٥٩



القبة شرق المصلى

مسجد الأشرف برسباى

بالخانكاه (*)

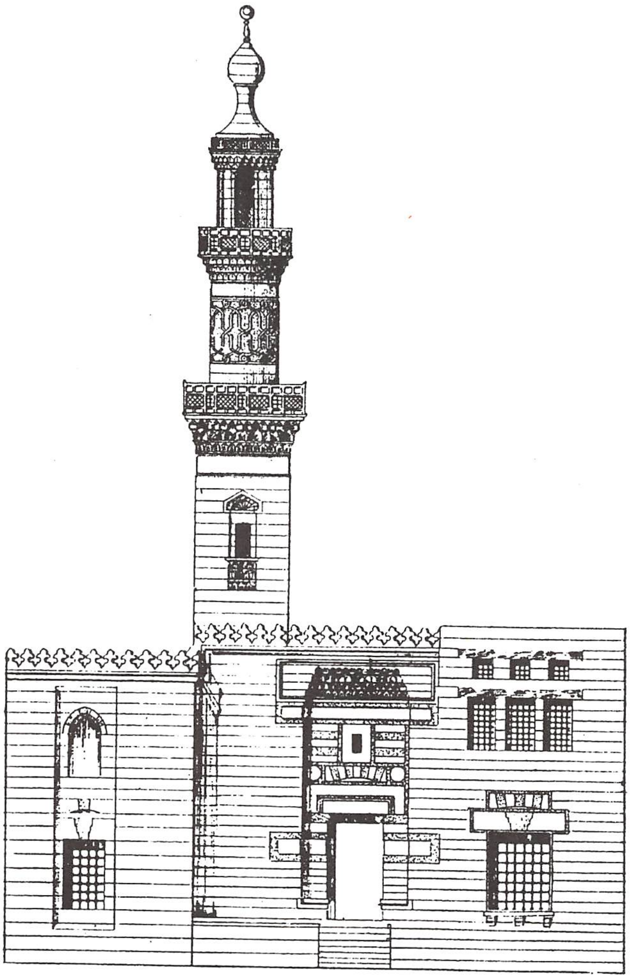
الخانكاه — بلدة تابعة لمركز شبين القناطر بمديرية القليوبية، وواقعة على خط سكة حديد القاهرة . وكانت تعرف قديما باسم « سماسم سرياقوس » وقد غلب عليها اسم الخانكاه لأنه كان بها الخانقاه التى أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) وسبب بنائها أنه لما بنى الميدان والأحواش فى بركة الجب القريبة من هذه المنطقة لشغفه بالصيد فيها ، اتفق أن ركب على عادته اليها ، فطرأ عليه ألم جسيم كاد يهلكه وهو يغالبه ، حتى اضطر إلى النزول عن فرسه ، فنذر إن شفاه الله ليبنين فى هذا المكان مسجدا لعبادة الله تعالى ؛ فتقبل الله منه ، وزال ما به من مرض ، ونشط للصيد بقية يومه ؛ ثم عاد الى قلعة الجبل ، فلزم الفراش أياما ، ثم عوفى فركب بنفسه ومعه المهندسون ، واختط على قدر ميل من ناحية سرياقوس خانقاه جعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى ، وبنى بجانبها مسجدا كما بنى بها حماما ومطبخا [1] ؛ وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٧٢٣هـ (ديسمبر سنة ١٣٢٣م) وافتتح هذه المجموعة فى يوم الجمعة ٧ جمادى الآخرة سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) ؛ ثم وزعت التشاريف السلطانية على قاضى القضاة والعلماء وشيخ الشيوخ (شيخ الخانقاه) .

ومنذ ذلك الوقت رغب الأمراء وغيرهم فى السكنى حولها ، فأنشئت بها المساجد والدور والخانات ، وصارت بلدة كبيرة عرفت بخانقاه سرياقوس ، إلا أن الزمن لم يُبْقِ على هذه الخانقاه فزالت من الوجود .

مسجد الأشرف برسباى — حدثنا الإسحاقى [2] والصفوى المؤرخان عن سبب بناء هذا المسجد حديثا خلطا فيه بين فتح الأشرف برسباى لقبرص وبين سفره الى آمد ومحاصرتها ، استخلصنا منه أنه عند خروجه لفتح قبرص سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٦ م) نزل فى مكان خال من البناء بالخانقاه السرياقوسية ، ونذر إن أحياه الله تعالى وظفر بعدوه ورجع سالما ليعمرن فى هذا المكان سبيلا ومدرسة ؛ فنصره الله وفتحها ، وأسر ملكها [3] ، وجىء به الى القاهرة أسيرا ، فزينت المدينة ؛ وصادف ذلك الفراغ من بناء مدرسته بالأشرفية ، فأمر بتعليق خوذته على باب هذه المدرسة ، وقد بقيت حتى رآها الإسحاقى المؤرخ فى القرن الحادى عشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) وقد وفَّى بنذره ، وأنشأ المسجد وألحق به سبيلا ، كما أنشأ بجواره مقعدا وخانا وحوضا لشرب الدواب [4] .

(*) انظر الصور من رقم ١٦٨ — ١٧٢ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .
(١) المقريزى ، ج ٢ ص ٤٢٢
(٢) أخبار الأول ص ١٢٢ ، صفوة الزمان ص ١٠٠
(٣) هو الملك جان دى لوزنيان .
(٤) حجة الوقف .

وفى هذه الرواية نظر — لأن حجة الوقف تفيد أن هذه المنطقة كانت عامرة بالمدارس والدور وان الخانقاه الناصرية كانت موجودة غربى المسجد . ومدرسة سودون بن عبد الرحمن كانت شرقيه .



المدخل والمنارة

تاريخ المسجد ووصفه — كان البدء فى إنشاء هذا المسجد وملحقاته فى سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٧ م)[١] وأنشأ بجواره مقعدا وخانا وبستانا فى الجهة البحرية منه، ودورة للمياه وساقية وحوضا لشرب الدواب فى الجهة القبلية .

(١) ابن إياس ج ٢ ص ١٨

وكان الفراغ من بناء هـذه المجموعة فى سـنة ٨٤١ هـ[1] (١٤٣٧ م) ، ولم يبق منها الآن سـوى المسجد وملحقاته و بقايا الحوض ودورة المياه .

ولهذا المسـجد أربع وجهات مبنية بالحجر بارتفاع ١٠,٢٥ متر بمـا فيها الشرفة وأهمها الوجهة الشرقية، وهى الرئيسية، و بطرفها البحرى الباب العمومى وسبيل تعلوه حجرة كتّاب .

والباب العمومى مكسوّ بالرخام، من مداميك بيضاء وسوداء، ومكتوب على جانبيه ما نصه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إنمـا يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الى ... (المهتدين) . أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك سيدنا السلطان الملك الأشرف أبو النصر برسباى عز نصره .

ومصراعا الباب من الخشب المغطى بالنحاس ،قامت بعملهما حديثا إدارة حفظ الآثار العربية على مثال باب مدرسته بالأشرفية .

وقد كان مركبا عليه باب مكسو بالنحاس منقول اليه من أثر آخر أقدم منه ،وعليه اسم الآمر بعمله الأمير شمس الدين سنقر الطويل المنصورى ، فأصلح سنة ١٩٠١ م . وأودع دار الآثار العربية ، وهو باب منقوش بالنحاس الحافل بالكتابات ، وبه صور حيوانات .

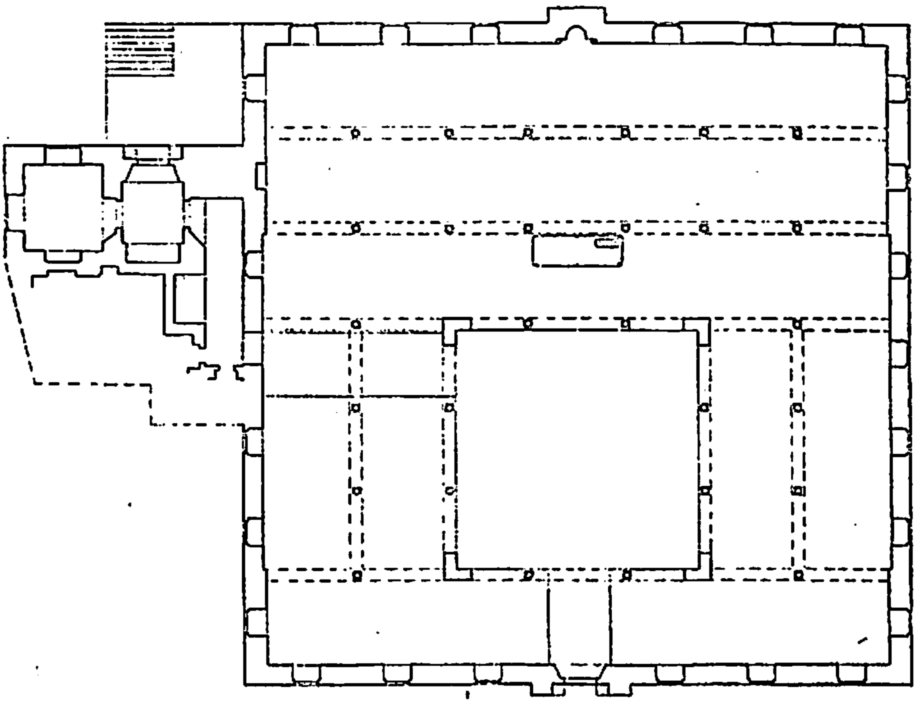
و يعلو الباب عتب رخامى مزرر على هيئة شرفات بيضاء وسوداء،يحيط به إفريز رخامى ملوّن ، كما يوجد به دائرتان مكتوب عليهما :"عز لمولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر برسباى عز نصره" يعلوهما سطر مكتوب فيه تاريخ الفراغ من البناء بما نصه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع و يذكر فيها آسمه ، الى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ صدق الله العظيم . وكان الفراغ من ذلك فى مستهل جمادى الأولى سـنة أحد وأربعين وثمانمائة من الهجرة النبوية .

وعلى يسار هذا الباب منارة رشيقة قاعدتها حتى الدورة الأولى مربعة لم يبق قديم سواها .وقد قامت إدارة حفظ الآثار العربية بتكملتها ،فجاءت تحفة فنية . وتتكوّن من ثلاث دورات يبلغ آرتفاعها من سطح المسجد ٢٣,٠ متر : الدورة الأولى مربعة ٣,٠٠ × ٣,٠٠ متر وآرتفاعها ٧,٨٠ متر وبهـا مقرنص من ثلاث حطات وأربع مشربيات بجوانبها . والدورة الثانية مستديرة، قطرها ٢,٤٠ متر وارتفاعها ٥,٧٠ متر بها زخارف على شكل جفوت متقاطعة ، وبها مقرنص من ثلاث حطات ، والدورة الثالثة مثمنة ، ارتفاعها بما فيه الخوذة والهلال ٨,٥٠ متر ، وبها ثمانية أعمدة رخامية يعلوها مقرنص من حطتين .

---

(١) النجوم الزاهرة، ج ٦ قسم ٢ ص ٧٥٣ طبع كاليفورنيا ، نزهة النفوس والأبدان ، ج ٣ ص ١٢٨ خط .

والباب يؤدّى إلى دركاة مربعة، بصدرها مسطبة لها وزرة رخامية، على يمينها باب معقود يؤدّى إلى السبيل، يقابله باب آخر يؤدى إلى طرقة مفروشة بالرخام، بها مزملة (مزيرة) عليها حجاب من خشب الخرط الجديد، يليها باب يؤدّى إلى القاعة الملحقة بالوجهة البحرية، وبصدر هذه الطرقة باب يؤدّى إلى الكتّاب والحجرات الملحقة به والى المنارة والسطح .



مســـقط أفـــقى

والمسجد مربع طول ضلعه ٣٨,٤ مترا ومساحته ١٤٧٤ مترا ومساحته بما فيه المدخل والسبيل وملحقاته ١٧٢٧ مترا، ويتكوّن من أربعة إيوانات، يتوسطها صحن مكشوف مفروش بالرخام الملون مساحته ١٣,٩٠ × ١٣,٩٠ مترا .

وأكبر الإيوانات الإيوان الشرقى، وبه ثلاثة أروقة، بكل رواق ستة عمد رخامية، تحمل عقودا حجرية فتحت فى خواصرها شبابيك مستطيلة للتخفيف . وبمؤخر هذا الإيوان دكة المبلغ، محمولة على ستة عمد رخامية، ولها درابزين بوجهين من الخشب الخرط .

وصدر هذا الإيوان وجانباه مكسوّة بوزرة رخامية ملونة، يتوسطه محراب تجويفه وطاقيّته من الرخام الدقيق، قيل : إنه كان به تسع شعرات من شعر النبى صلى الله عليه وسلم .[1]

(١) اخبار الأول ص ١٢٢، الحقيقة والمجاز ص ٢٩، صفوة الزمان ص ١٠١ — خط .

ويجاور المحراب منبر خشبي مطعم بالسن و بكل من الإيوانين البحرى و القبلى رواقان . أما الإيوان الغربى فمن رواق واحد، يتوسطه باب تسوده البساطة .

ويحيط بجدران المسجد من أسفل شبابيك حديدية ، ومن أعلى شبابيك جصية من الداخل والخارج . وكانت سقوف المسجد محلاة بزخارف البوية ؛ فأعيد سقف الإيوان الشرقى منها طبقا لأصله .

أعمال الإصلاح — عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بهذا المسجد منذ سنة ١٨٩٤ م ، فقررت تسجيله ضمن الآثار العربية ، وكانت حالته سيئة فأجرت به إصلاحات جزئية على مر السنين .

وفى عصر المغفور له الملك فؤاد الأول أجريت به إصلاحات هامة هيأته لإقامة الشعائر الدينية وتمت هذه الأعمال نهائيا ، وأعد للصلاة فى عهد الملك الصالح فاروق الأول .

وقد تناولت هذه الأعمال إصلاح الوجهات ، وتكملة السبيل وملحقاته ، والوجهة البحرية ، وعمل باب جديد ، وتقوية المنارة وتكملتها ، وعمل مزيرة ، و إصلاح رخام الوزرات والأرضيات ، وتكملة المحراب والمنبر و إصلاحهما ، وتقوية العمد ، وإصلاح الرخام بالصحن وأمام المحراب ، وعمل شبابيك جصية من الداخل والخارج بالوجهات وأعيدت طبقا لأصلها نقوش سقف الإيوان الشرقى .

"وقد تفضل بافتتاحه حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول بأداء فريضة الجمعة فيه يوم ١٤ المحرم سنة ١٣٦٤ هـ (٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤٤ م) أعزه الله وأدام ملكه السعيد" .

مسجد زين الدين يحيى

بشارع الأزهر[*]

الأمير زين الدين يحيى — يحيى بن عبد الرزاق الزينى القبطى — وفى رواية الأرمنى — الظاهرى[1] الأستادار المعروف بالأشقر . ولد بمصر قبل أوائل القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، فنشأ بها وتدرب فى وظائف الدولة ، وتدرج فيها إلى أن عين ناظرا لديوان المفرد[2] غير مرة ، ثم عين ناظرا للاسطبل السلطانى ، ومحتسبا للقاهرة .

وفى دولة الظاهر چقمق كان الأمير مقربا منه ، فأقبلت عليه الدنيا ، وأثرى ثراء عظيما بسبب تعسفه ، واستيلائه على أموال كثيرة بطرق غير مشروعة .

وبعد وفاة الظاهر چقمق تنكرت له الدنيا ، فنكب وعذب غير مرة ، واستخلصت منه أموال كثيرة ، وقاسى أهوالا شديدة ، ثم أرسل إلى المدينة الشريفة النبوية فبقى بها أشهرا عاد بعدها إلى مصر ولزم بيته .

ولما ولى الملك الأشرف قايتباى ملك مصر صادره أيضا ، وحبسه بالقلعة ، إلى أن توفى ليلة الخميس ٢٨ ربيع الأول سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) . وقد زاد عمره على الثمانين ودفن بهذه المدرسة ، عفا الله عنه .

وله منشآت عمارية كثيرة ، منها مسجدان : أحدهما بالحبانية . والآخر ببولاق ، وكلاهما باق إلى الآن ، وهما من الآثار القيمة ، وقد جدد رباط أبى طالب بشارع بين السورين ، وأنشأ هذا المسجد تجاه داره ، مع ملحقات كثيرة وردت فى كتاب وقفه الذى يتبين منه أيضا أن باب الخوخة أحد أبواب السور الفاطمى[3] كان مجاورا له من الجهة القبلية .

موقع المسجد ووصفه — عند تلاقى شارع الأزهر بشارع الخليج المصرى ، يسترعى النظر وجهة جديدة بنيت بالحجر ، تجلت فيها دقة الصناعة ، تلك هى الوجهة القبلية الجديدة لمسجد زين الدين يحيى .

(*) انظر الصور من رقم ١٧٣ — ١٧٦ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

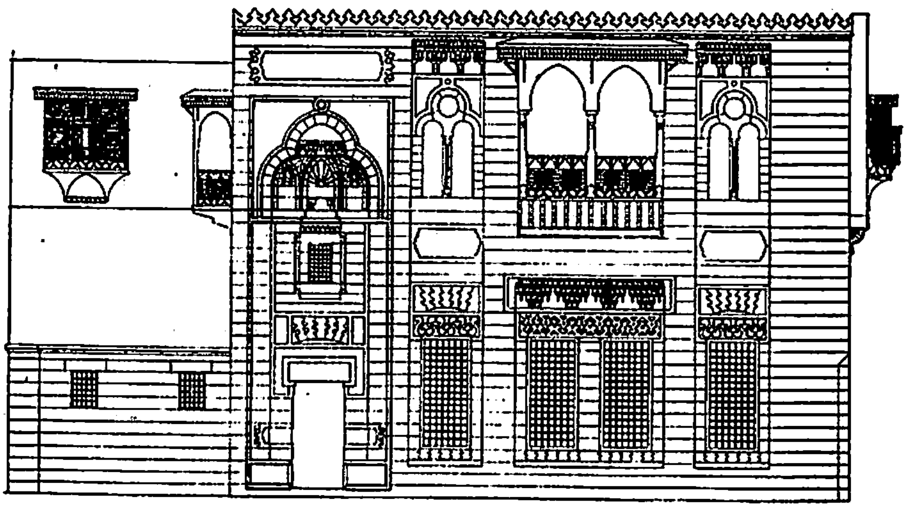
(١) ابن إياس ج ٢ ص ١١٤ ، الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٣٣ — ٣٤

(٢) ديوان المفرد (ديوان الخاصة) وهو الذى يتولى الانفاق على مماليك السلطان وإيراده من البلاد المفردة له .

(٣) جهة الوقف .

أنشئ هذا المسجد سنة ٨٤٨ هـ (١٤٤٤ م) وهو من المساجد الجميلة الحافلة بشتى الصناعات. وله الآن ثلاث وجهات : الشرقية، وبها شبابيك أعتابها من مزررات رخامية ، وبطرفها القبلى مدفن للمنشئ، كان بجواره سبيل، وبطرفها البحرى المنارة الرشيقة ذات الدورات الثلاث والملبس بدن دورتها الثانية برخام، وبهذه الوجهة أيضا شباك صغير مكتوب عليه : "هذا ضريح الشيخ الصالح سيدى فرج السطوحى أعاد الله بركته على من جدّد هذا المعروف وعلى المسلمين بمحمد وآله".

والوجهة البحرية تتكون من باب للميضأة المنخفضة عن مستوى الشارع ، يجاوره الباب الرئيسى للمسجد ، وهو باب جميل كسى بالرخام الأبيض والأسود ، وعتبه مزرر بالرخام ويكتنفه مستطيلان من رخام دقيق ملون، يعلو ذلك سطر مكتوب فيه ما نصه : « أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى، المقر الأشرف الكريم الملكى الظاهرى» . يغطى ذلك مقرنصات جميلة ذات دلايات .



الوجهــة القبليــة

ومكتوب على جانبى هذا الباب قوله تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ بتاريخ جمادى الأول سنة ثمان وأربعين وثمان مائة » . ومركب على هذا الباب مصراعان مكسوان بالنحاس المخزم بأشكال زخرفية. وهذا الباب يؤدى إلى دركاة مربعة صغيرة، بصدرها مسطبة مفروشة بالرخام الملون وشباك ، يعلوها سقف منقوش مذهب، مكتوب بأزاره قوله تعالى : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ . وعلى يسار هذه الدركاة باب يؤدى

إلى ضريح عرف بالشيخ فرج و إلى سلم السطح ، وعلى يمينها باب يؤدي إلى طرقة مستطيلة فرشت بالرخام ، توصل إلى صحن المسجد ، وتصميمه تصميم مدرسة أربعة إيوانات متعامدة أكبرها إيوان القبلة ، بصدره محراب حجرى عار من الزخرفة ، كتب بتجويفه قوله تعالى : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها) . الآية . يجاوره منبر خشبي طعمت حشوات جوانبه ودرابزينه وأبوابه بالسن والزرنشان ؛ فهو من المنابر القيمة وعلى بابه رنك محبرة . وكرسى المصحف صناعته مثل صناعة المنبر ، مطعم بالسن والزرنشان .

ولهذا الإيوان سقف مزخرف مذهب مكتوب بإزاره آيات من القرآن ، وكذلك باقى سقوف الإيوانات وهى فى غاية الجمال وعلى جانب عظيم من الأهمية هذا عدا الشبابيك الجصية ذات الزجاج الملون .

وقد غطى الصحن بسقف مزخرف مذهب ، بإزاره آيات من القرآن ، كما كتب بمثمن منوره تاريخ عمارته سنة ١٣١٤ هـ .

ومكتوب تحت مقرنص أرجل عقود الإيوانات اسم المنشئ وألقابه وتاريخ العمارة بما نصه :
"أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا المقر الأشرف الكريم العالى المولوى الأميرى الكبيرى الأجلى المحامى المخدومى السيدى السندى المالكى الذخرى العضدى النظامى الهامى المشيرى السفيرى الزينى أبو زكريا يحيى أمير أستاددار العالية . . وكان الابتداء فى . . سنة . . وثمان مائة ، والفراغ منه فى ثانى شعبان المكرم سنة تاريخه عمرها ا . . بذكره .
والباب القبلى الشرقى للصحن يؤدى إلى مدفن المنشئ ، تتوسطه تركيبة رخامية كتب بجوانبها كلمات من آية الكرسى ثم مانصه :

«أنشأ هذا المدفن المبارك الفقير إلى ربه المقر الأشرف العالى الزينى يحيى أمير أستادار العالية وما مع ذلك عز نصره بتاريخ عاشر جمادى الآخر سنة خمسين وثمان مائة » .

ويتوسط هذه الكتابة حلية زخرفية بها شمعدانان يتوسطهما قنديل . والباب القبلى الغربى يؤدى إلى سلم يهبط إلى دورة المياه القديمة ، وكانت تحت الإيوان الغربى ؛ ويؤدى الآن إلى دورة المياه الحديثة الملحقة بالجهة الغربية للمسجد .

عناية لجنة حفظ الآثار العربية بهذا المسجد — عند ماشرعت لجنة حفظ الآثار العربية فى العناية بهذا المسجد كان فى حالة سيئة فقد كان خاليا من أكثر السقوف ، ونصفه متخرب تقريبا ؛

والمنارة لم يكن بها سوى دورتها الأولى. أما باقيها فقد كان من الخشب والطوب، عمل سنة ١٢٥٣ ﻫ (١٨٣٧ م)، والوجهات مشعثة، والنجارة مفقود أكثرها ؛ فعنيت بتقوية أبنيته، وتكملة وجهاته، وأعادت بناء الكتّاب بمشربيته، وأصلحت المنبر والكرسى، وقد فقد الكثير من حشواتهما، وسرقت نصوصهما التاريخية، وحفظت اللوحة التاريخية التى كانت على المنبر بخزانة النقود العتيقة بباريس، ونصها : « أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك المقر الأشرف العالى الأميرى الزينى أستاددار العالية عز نصره ».

وحفظت اللوحة التاريخية التى كانت على كرسى المصحف فى مجموعة شيفر الأثرية، ونصها : « أمر بإنشاء هذا الكرسى المبارك المقر الأشرف العالى الزينى أستاددار العالية عز نصره فى شهور سنة ثمان وأربعين وثمان مائة ».

وكذلك أكملت المنارة من تفاصيل منارات عصرها، وأعيدت السقوف إلى أصلها، والشبابيك الجصية، حتى أصبح المسجد تحفة فنية على ما هو عليه الآن، وقد بلغت نفقات تعميره ٢٧١١ جنيها ؛ وأثبت تاريخ هذه العمارة على منور سقف الصحن، وفى لوح رخامى بطرقة المسجد بما نصه : « شرع فى تجديد هذا الجامع المبارك فى عصر ساكن الجنان الخديو الأعظم محمد توفيق باشا سنة ثلاث وثلاثمائة وألف، وانتهى فى عصر ولى النعم الخديو الأعظم عباس حلمى باشا الثانى بمباشرة لجنة حفظ الآثار العربية عام خمسة عشر وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية ».

وعلى أثر فتح شارع الأزهر انكشفت الوجهة القبلية لهذا الجامع، فوجدت مهدّمة لا تتفق وجمال هذا الأثر وأهمية الشارع، فعنيت بها إدارة حفظ الآثار العربية ووضعت لها تصميما حافلا تم تنفيذه فى عصر الملك الصالح فاروق الأول.

ولهذه الوجهة باب حافل بالنقوش والكتابات والمقرنصات، مركب عليه مصراعان مغشيان بنحاس مخرم بأشكال جميلة، كما حليت أعتاب الشبابيك بالرخام، والوجهة بالمشربيات، وقد كتب أعلى الباب العمومى ما نصه : « تجددت هذه الوجهة فى عهد الملك الصالح (فاروق الأول) فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة وألف ».

وكان أداء حضرة صاحب الجلالة الملك فريضة الجمعة فيه يوم ٢٤ شعبان سنة ١٣٥٩ ﻫ (٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤٠ م) إيذانا بافتتاح عمارته الجديدة التى تمت فى عهده الزاهر، أمدّ الله فى عمره السعيد، وثبّت قواعد ملكه.

مسجد زين الدين يحيى ببولاق

بشارع الخضـــرا (*)

هو ثانى جامع أنشأه الأمير يحيى زين الدين ، وعرف بجامع المحكمة ، لاتخاذه محكمة منذ القرن العاشر الهجرى (١) حتى عصر المغفور له محمد على باشا .

وقد أنشئ فى سنتى ٨٥٢ هـ (١٤٤٨م)—٨٥٣ هـ (١٤٤٩م)، وافتتح للصلاة فى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨م) قبل الفراغ من عمارته، لأن السخاوى المؤرخ يقرر « أنه فى يوم الجمعة ٣ رمضان سنة ٨٥٢ هـ خُطب بالجامع الذى أنشأه الزينى الأستادار بشاطئ النيل ببولاق ، بإذن السلطان ، وكان يوما مشهودا، وخطيبه يومئذ هو الشيخ المقرى تاج الدين عبد الوهاب السكندرى المالكى . وقرر بالجامع تصوفا وميعادا، وقرر فى مشيخة ذلك الشيخ نور الدين على المناوى سبط ابن الملقن ، وفى الإمامة بدر الدين البرماوى الموقع . وفى قراءة الحديث الشيخ أباحامد القدسى . فعل كل هذا، وعمارته لم تنته إلا فى السنة الآتية (٢) » .

ويظهر أن الإسراع بحفلة الافتتاح كان من عادة منشئى هذه الآثار ، لأن العمارة استمرت بعد افتتاحه خمسة عشر شهرا، فلم تنته إلا فى ذى الحجة سنة ٨٥٣ هـ (يناير سنة ١٤٥٠م) (٣) بينما نقرأ على الجامع أن الفراغ منه فى شهر شعبان سنة ٨٥٢ هـ. وقد تكررت هذه الحالة فى كثير من المساجد والمدارس ، وكأنهم أرادوا أن يشعروا الأجيال التى تليهم بقوة سلطانهم ونفوذهم .

ونرى ابن تغرى بردى (٤) عند ذكره تاريخ الفراغ من العمارة يقول : « ولم أدر المصروف على بنائه من أى وجه ومن كان له شئ فله أجره » .

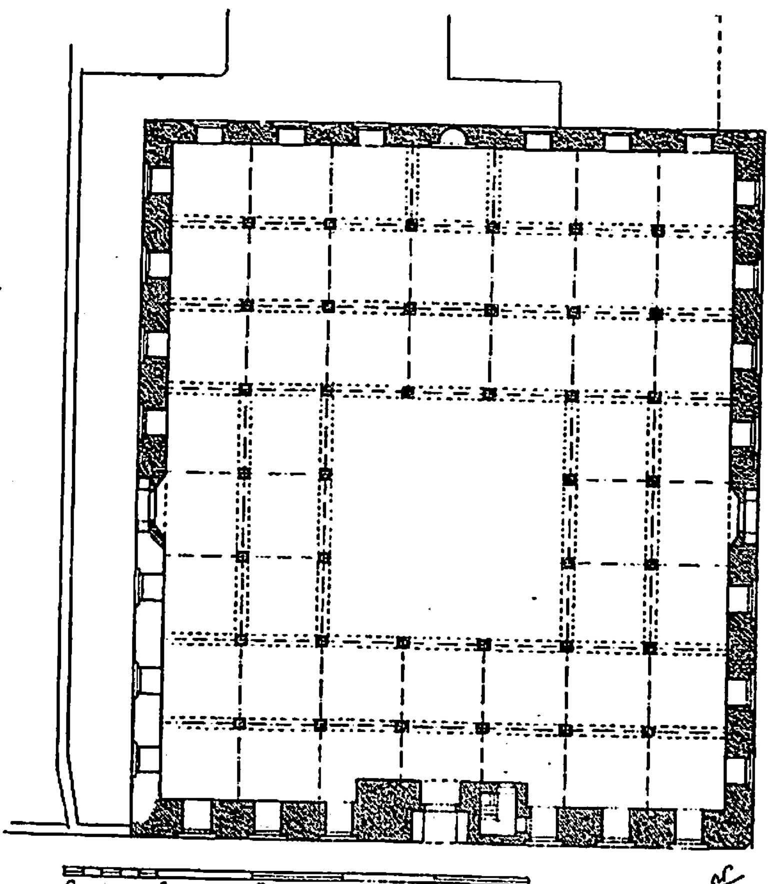
ولهذا المسجد ثلاث وجهات رئيسية مبنية بالحجر ، يتوسط كلا منها باب : القبلى والبحرى منهما متماثلان، بينما اختلف الغربى عنهما ، وقد اشتملت تلك الأبواب على مقرنصات متنوعة ، وزخارف هندسية، وتطعيم بالرخام الملون ، وكتابات تاريخية ، فما هو مكتوب على الباب الغربى فى أربعة مستطيلات حجرية : « أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك المقر الأشرف الكريم العالى الزينى استاذ دار العالية الملكى الظاهرى عز نصره » .

(*) أنظر الصور من رقم ١٧٧ — ١٧٩ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) بأى شرع تحكم ص ٣١ (٢) التبر المسبوك ص ٢١٧ (٣) النجوم الزاهرة ج ٧ قسم ١ ص ١٨٢ ، طبع كالفرنيا والتبر المسبوك ص ٢٧٠ (٤) النجوم الزاهرة ، ج ٧ قسم ١ ص ١٨٣ طبع كلفرنيا .

ومكتوب أعلى البـاب القبلى : « أمر بإنشاء هـذا الجامع المبارك ابتغاء لوجه الله تعالى المقر الأشرف الكريم العالى الزينى أستاذ دار العالية الملكى الظاهرى عز نصره » .

ومكتوب على جانبى الباب : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ . « وكان الفراغ من ذلك فى شهر شعبان سنة اثنى وثمان مائة » .



مسـقط أفـقى

ولا شـك أنه قد سقطت من الكاتب كلمة (وخمسين) فتكون صحته اثنى وخمسين وثمانمائة .

وتصميمه الداخلى تصميم مسجد أربعة إيوانات يتوسطها صحن مكشوف كتب بدائره ما نصه :

« ... الشريف السـلطان الملك الظاهر أبو سـعيد جقمق عز نصره ، العبـد الفقير إلى الله تعالى المقر الأشرف الكريم العالى المولوى الملكى المخدومى العضدى الزخرى ... ... » .

وبكل من إيواناته الثلاثة رواقان : أما الإيوان الشرقى فيشتمل على ثلاثة أروقة، يتوسطه محراب حجرى عار من الزخرف لبست طاقيته بالحجر الأحمر وبها لفظ الجلالة ، ومكتوب بتجويفه : « أنشا هذا الجامع المبارك فى صحائف مولانا السلطان الملك الظاهر محمد أبو سعيد جقمق عز نصره ، فقير رحمة ربه، أبو زكريا يحيي الشافعى ، عامله الله بلطفه الخفى » .

ويعلو المحراب قبة خشبية جددت على مثال القبة فى مسجده بالحبانية ، ويجاوره منبر خشبي جديد مكتوب على باب مقدمه : « أنشئ هذا المنبر فى عصر حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول » .

والمسجد وإن كان خاليا الآن من الزخرف بسبب ما أصابه من تخرب وهدم ، فإن حجور أبوابه من الداخل حفلت بزخارف جصية دقيقة تسترعى النظر .

وتقوم المنارة على يسار الباب الغربى ، وقد هدم قسمها العلوى فلم يبق سوى قاعدتها حتى الدورة الأولى وبها زخارف وكتابات تضمنت اسم المنشئ . ويلاحظ فيها أن جلسة دورتها الأولى مخضرفة منقوشة . وقد قلدها مهندسا السلطان قايتباى فى منارة مسجده بقلعة الكبش والأمير يشبك من مهدى فى منارة الإمام الليث .

المهندس — لم نجد نصا صريحا فى اسم مهندس الأمير زين الدين يحيي ، ولكن عرفنا أن مهندس السلطان فى ذاك الوقت كان المعلم محمد بن حسين الطولونى[1] ، وقد توفى فى ذى الحجة سنة ٨٥٢ هـ (يناير سنة ١٤٤٩ م) فيحتمل أن يكون قد أشرف على إنشاء مسجده بشارع الأزهر وعلى هذا الجامع .

أعمال الإصلاح — أدركت إدارة حفظ الآثار العربية هذا المسجد خربا مندثرا مهدما، وجدرانه مائلة ، وعقوده ساقطة ، وسقوفه مفقودة ، فقد كان عبارة عن أطلال . وقد قدرت المقايسة التى أعدت لإصلاحه سنة ١٨٩١ م بمبلغ ٦٠٠٠ جنيه مصرى .

ومنذ سنة ١٩١٦ بدأت عنايتها باصلاحه تدريجيا وتخلية ما حوله ؛ ومن الممكن القول بأن إصلاحه من الداخل كان بمثابة إنشائه مع إدخال الأجزاء القديمة فى التجديد فلم تأت سنة ١٩٢٠م إلا وقد تم إعادة الإيوان القبلى إلى أصله ، والإيوانين البحرى والغربى والنصف الأيمن من الإيوان الشرقى ، ثم أعيد بناء المفقود من الوجهة البحرية وترميم باقيها ، وأقيمت القبة الخشبية فوق المحراب ، وعمل له منبر جديد .

وقد تمت أعمال الإصلاح وافتتح للصلاة . فى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول رحمه الله .

(١) منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، ج ١ ص ٣٩

مسجد زين الدين يحيى

بالحبانيـــة (*)

هــذا المسجد ثالث مسجد أنشاه الأمــير أبو زكريا يحيى زين الدين بن عبــد الرزاق ، وكان الفراغ من إنشائه فى شهر جمادى الآخرة (1) سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) .

ولهذا المسجد وجهة بحرية تشتمل على الباب ، وقد أحيطت عتبته برخام دقيق ملون يحوطه إفريز حجرى منقوش ، يعلوه عتب مزرر ، يكتنفه تلبيس بالحجر الأصفر فى الأبيض على شكل شرفات . وعقد الباب مدايني مخوص ، له طاقات ملبسة بالحجر الأحمر والأبيض ، مغطى بمقرنصات لها دلايات ، كما نقشت أعتاب الشبابيك السفلية والعلوية بنقوش هندسية ومورقة نادرة المثال ، وتنتهى الوجهة بإفريز مكتوب فيه آية الكرسى إلى قوله تعــالى : ﴿ وسع كرسيه ﴾ .

وتقوم على يمين البــاب منارة حجــرية يجاورها الكتّاب ، ولم يبق منها الآن سوى قاعدتها حتى دورتها الأولى المزدانة بالنقوش والكتابات والمقرنصات .

ويحيط بمصراعى الباب أشرطة نحاسية ، وهو يؤدّى إلى طرقة بصدرها شباك يطل على الإيوان الغــربى ، وعلى يسارها باب يؤدّى الى طرقة توصــل إلى المسجد . ويشتمل داخله على أربعــة إيوانات يتوسطها صحن مكشوف ، وأكبرها الإيوان الشرقى المشتمل على رواقين . أما بقيــة الإيوانات فكل منهــا يشتمل على رواق واحد ، وقــد حليت خواصر العقود حول الصحن بدوائر مفرغة من الوسط وحولها مقرنصات ، وتواشيح منقوشة ، يعلوها سطر كان مكتوبا .

والمحراب حجرى وقد طعمت تواشيحه برخام أسود ، وأحيط عقده وطاقيته بجفوت حجرية ، يعلوه شباك مستدير ، تكتنفه مستطيلات بها زخارف وكتابات ، وهذا المحراب من بواكير المحاريب الحجرية ، ومكتوب بتجويفته العليا قوله تعــالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم يأيهــا الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . إلى قوله تعــالى : هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ .

ومكتوب بتجويفته الوسطى ما نصه : « أنشأ هــذا الجامع المبارك فى صحائف مولانا السلطان الملك الظاهر محمد أبو سعيد عز نصره ، فقير رحمة ربه يحيى ، عامله الله بلطفه الخفى بمحمد وآله » .

(*) انظر الصور من رقم ١٨٠ — ١٨٣ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) التبر المسبوك ص ٣٨٨ ، ومنتخبات من حوادث الدهور ، ج ١ ص ١٢٩

وهنا نلاحظ كتابته اسم السلطان الظاهر چقمق فى هـذا المسجد وفى مسـجده ببولاق ، كما نلاحظ كتابته أيضا فى مسجد لاچين اللالا بشارع مراسينه ، وفى المدرسة الفخرية[1] القديمة بدرب سعادة بعد تجديدها مع عدم قيامه بانشاء تلك المساجد .

وقد كفانا مؤونة البحث فى هـذا العلامة السخاوى[2] إذ يقـول : إن الظاهر چقمق عقب توليتـه الملك رغب فى أن يتسمى بمحمد تشرفا ، و يغير اسمـه ؛ ثم رأى الجمع بينهما لما خيل إليـه من طمع الملوك فيه ، لظنهم أنه من عنصر غير تركى ، فأمر بكتابة اسمه على كثير من المساجد المجدّدة والمنشأة فى عصره .

و يعلو المحراب قبة صغيرة خشبية ، لهـا مقرنصات خشبية أيضا ؛ كانت ملوّنة والقباب فوق المحاريب مألوف وجودها فى المساجد السابقة لهذا العصر ، بينما هى نادرة فى مساجد دولة الممـاليك الجراكسـة ، وامتاز بها مسجده هـذا ومسجده ببولاق . وتحت المقرنص إفريزان أحدهما خشبى والآخر حجرى بهما آيات من القرآن .

ويجاو ر المحراب منبر صـغير طعمت حشوات جوانبـه وقاعدته ودرابزينه بالسنّ والزرنشان الدقيق الملوّن ، وعلى باب مقدّمه رنك محبرة .

و يوجد بالمسجد كرسى للمصحف مطعم بالسنّ أيضا ، ومكتوب عليه : « وقف مولانا السلطان الملك الظاهر محمد أبو سعيد چقمق عز نصره » .

وقد عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بهذا المسجد فأصلحته إصلاحا شاملا فى سـنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م) .

(١) المدرسة الفخرية القديمة أنشأها الأمير فخر الدين أبو الفتح بن قزل سـنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) ، وفى سنة ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) سقطت منارتها فخربتها ، وفى سـنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) جدّدها ناظر الخاص الجمالى يوسف وكتب عليها اسم الظاهر چقمق فعرفت به .

(٢) الضوء اللامع ، ج ٣ ص ٧١

مسجد عمر بن الفارض

بجهة الأبجية بسفح المقطم

عمر بن الفارض — أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبى الحسن على بن المرشد بن على المعروف بابن الفارض شاعر مصرى وصوفى جليل، من أجلة الشعراء الذين تفتخر بهم مصر، فهو حجة أهل التوحيد وحامل لواء الشعراء، له النظم الرائق والنثر الفائق .

قدم أبوه من حماة الى مصر فقطنها، وصار يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدى الحكام، ولذلك عرف بالفارض . ثم ولى نيابة الحكم فغلب عليه التلقيب « بالفارض » .

ولد بمصر فى الرابع من شهر ذى القعدة سنة ٥٧٦ هـ (١١٨١ م)[١]، فنشأ فى رعاية أبيه الذى عنى بتعليمه. ولما شب اشتغل بفقه الشافعية، وأخذ الحديث عن ابن عساكر وغيره. ثم اشتغل بالأدب فأجاده وأنشد الشعر ثم سلك طريق الصوفية، وتردّد الى الحج غير مرة، وأقام بمكة مدّة . وكان حسن الهيئة والملبس رقيق الطبع فصيح العبارة .

ولما عاد الى مصر أقام بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر[٢]، وعكف عليه الأئمة والعلماء، وقصده بالزيارة الخاص والعام ، حتى إن الملك الكامل كان يسعى لزيارته ، وسأله أن يعد له قبرا عند قبة الشافعى فاعتذر .

وديوان شعره اعترف به الموافق والمخالف، والمعادى والمحالف ؛ وقد اعتنى بشرحه جماعة من العلماء ؛ وأثنى على هذا الديوان حتى من كان سيئ الاعتقاد فيه ، ومنهم ابن أبى حجلة الذى وصفه بأنه أرق الدواوين شعرًا، وأنفسها درا؛ وأسرعها للقلوب جرحا، وأكثرها على الطلول نوحا؛ إذ هو صادر عن نفثة مصدور، وعاشق مهجور، وقلب بحز النوى مكسور؛ والناس يلهجون بقوافيه، وما أودع من القوى فيه . توفى إلى رحمة الله تعالى فى يوم الثلاثاء الثانى من جمادى الأولى سنة ٦٣٢ هـ (يناير سنة ١٢٣٥ م) بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر ودفن بالمقطم[٣] .

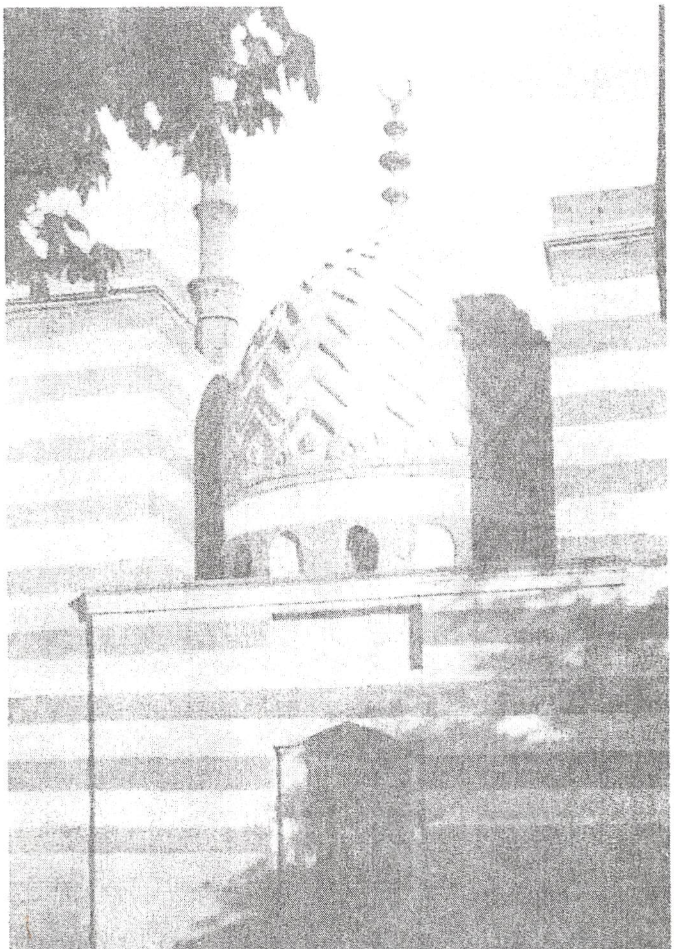
---

(١) ابن خلكان، ج ١ ص ٥٤٦ ، النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ٢٨٨

(٢) شذرات الذهب، ج ٥ ص ١٤٩

(٣) شذرات الذهب، ج ٥ ص ١٤٩ — ١٥٢ ، الكواكب السيارة ص ٣٠٠

فى هـذا القدر كفاية للتعريف بآبن الفارض، فهو يستحق دراسـة مفردة تجمع آراء العلماء فى شعره، والمتحاملين عليه، والمدافعين عنه، والغلبة فى جانبهم .



قبـة ابن الفارض

وقـبر آبن الفارض مزار يحفه النور ، مقصود بالزيارة والتبرك فى جميع عصوره ، إذ كانت تعقد فيـه حلقات الصوفية لإنشاد أشعاره، وكثيرا ما وقع آختيار ملوك مصر وأمرائها على ضريحه لقراءة القرآن فيه تقربا إلى الله تعـالى ، وقد سماه سيدى على وفا « قاعة الفرح » كما سمـاه إبراهيم المتبولى « ميدان الأولياء » .

تاريخ المسجد — يرجع تاريخ إنشاء القبة المقامة على قبره الى حوالى سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦٠ م) فقد بقى قبره من غير قبـة شأن أعلام القرافة فى ذاك الوقت، الى أن عنى باقامة هـذه القبة الأمير برقوق الناصرى الظاهرى[(١)] نائب الشام المتوفى سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م). ويقرر السخاوى: «إن العناية بالقبر فى ذلك الوقت وجهت من الملك الأشرف إينال العلائى، فقد عهد الى الأمير تمر الإبراهيمى عتيق الأشرف برسباى وابنه برقوق الناصرى عتيق السلطان الظاهر جقمق العلائى بعمل الأوقات عنده، والتصدّق على الفقراء. وفى سنة نيف وستين وثمانمائة وقف السيفى تمر على قبر الشيخ عمر حصصا من إقطاعه، ابتاعها من بيت المـال، وأنشأ مقاما مباركا، وجعل له خادما، وعين السيفى برقوق ناظرا على ذلك[(٢)]».

وهى قبة صغيرة مبنية بالحجر، أقيمت على أربعة عقود مفتوحة، وقد حلى سطحها بنقوش دالية، ومقرنصها من خمس حطات بعضها مخوص، وقـد ارتفعت الأرض عليهـا. وفى سنة ١١٧٣ هـ (١٧٥٩ م) جدّد المسجد أمير اللوا السلطانى على بك قازدغلى أميرالج. وقد أدرك المسجد المرحوم على باشا مبارك وقال فى وصفه: إن على بابه الخارجى لوحا مكتوبا فيه: «هذا مسجد العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه ونفعنا به أمير اللوا الشريف السلطانى على بك قازدغلى أمير الحاج حالا فى غرة رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف».

"وعلى بابه الداخلى تاريخ سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف. وبه منبر وأربعة أعمدة من الرخام حاملة لبائكتين من الحجـر؛ وسقفه بلدى من الخشب، وبه قبلتـان: إحداهما قديمـة يكتنفها عمودان صغيران من الحجر الأسود، وبداخلها أعمدة صغيرة من الحجر، وبها آثار شغل قديم بالصدف، والأخرى جديدة من الحجر. وله منارة، وأغلب محالّه متخربة، وبداخله ضريح سـيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه[(٣)]".

وما زالت بقايا مسجد على بك قازدغلى قائمة فى الجهة الشرقية للمسجد الحالى، وهى مكوّنة من عمودين حجريين، ومحراب حجرى ودكة المبلغ وبقايا منبر. وأحدث بداخله مدفن إسماعيل باشا صبرى العمرى الفارضى قومندان عموم السواحل المصرية وأمير الج سابقا، المتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٤ هـ.

(١) ابن إياس ج ٢ ص ١٤٢

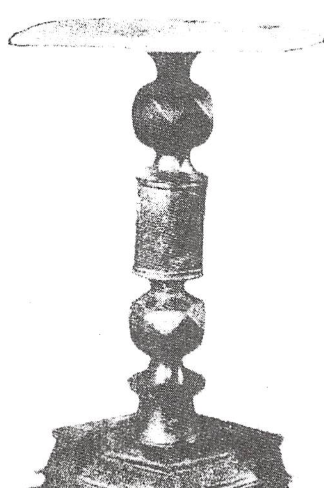
(٢) تحفة الأحباب ص ٤٢٣ خط.

(٣) الخطط الجديدة ج ٥ ص ٥٨ — ٥٩.

والمسجد الحالى أنشأته على جزء من أرض المسجد القديم المغفور لها الأميرة جميلة فاضيلة هانم كريمة المغفور له الخديو اسماعيل باشا سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩م) وهو مسجد مستطيل، محمولة سقوفه على أربعة عمد حجرية ، وله محراب بسيط منقوش بالبوية، يجاوره منبر بسيط .

وقد أنشأت بجوار المسجد قبة كبيرة دفن فيها ابنها الأمير إبراهيم جمال الدين المتوفى سنة ١٣٠٥هـ (١٨٨٧ م) .

وقد ألحقت بالمسجد مطهرة وحديقة صغيرة . وتشرف الأوقاف الخصوصية الملكية على المسجد والقبة، وتعنى بهما العناية التامة .



مسجد فاطمة شقرا

بشارع أحمد باشا ماهر « تحت الربع »(*)

من المساجد التى ذكرها المقريزى بخط تحت الربع على يسرة من سلك من دار التفاح يريد قنطرة الخرق مسجد أنشأه رشيد الدين البهائى(1) دون أن يعرفه أو يذكر تاريخ إنشائه . فهل جددته السيدة فاطمة شقرا ؟ هـذا جائز الاحتمال كما يحتمل زواله من الوجود وقيام السيدة فاطمة شـقرا بانشاء مسجد جديد فى موقع آخر .

وهذا المسجد تنحصر وجهته الغربية فى بابه العمومى ، وهو باب مبنى بالحجر ، ونبّس عتبه بالرخام وفصوص زرقاء ، كما حلى بكثير من الزخارف . أما أعلاه فينتهى بطاقية استخدم فى بنائها حجر رفيع السمك جدًا باللونين الأبيض والأحمر .

وتقوم المنارة على يساره ، وهى لا تتفق وطراز الباب ، بل هى منارة عثمانية أسطوانية الشكل ، لعلها منشأة فى القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) . وقد حليت وجوه قاعدتها بمستطيلات حجرية مزخرفة مخلّفة من المنارة القديمة .

ومكتوب على جانبى الباب ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ... الست المصونة فاطمة شقرا ... بتاريخ شهر جمادى الآخر من سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة » .

ظل هـذا الجامع معدًا لإقامة الشعائر ، وعرف بمسجد المرأة و بمسجد المقشات الى أن تخرب فأدركته إدارة حفظ الآثار العربية سنة ١٨٨٩ فوجدت به أكواما من القاذورات ، وردما من أثر الهدم ، فكان مهملا تمـام الإهمال .

وفى سنة ١٩٠٥ طلبت وزارة الأوقاف تجديده ، فوافقت لجنة حفظ الآثار العربية على ذلك ، بشرط الاحتفاظ بالأجزاء القديمة منه ، وهى الباب العمومى والمنارة والمحراب والمنبر . ثم عنيت لجنة حفظ الآثار العربية باصلاح المنبر والمحراب ، فتم إصلاحهما سنة ١٩٠٧

والمسجد من الداخل حديث البنـاء ، وهو يشتمل على خمسة أروقـة ، بها أكتاف حجـرية تحمل عقودا وأعتابا أقيم السقف عليها . وبالجنب البحرى منه مدفن عرف بقبر السـيدة فاطمة ،

(*) انظر الصور من رقم ١٨٤ — ١٨٥ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(1) المقريزى ، ج ٢ ص ٤١٠

مما يرجح دفن المنشئة فى هذا المسجد . ولا يزال منبره القديم باقيا ، وهو منبر خشبي طعمت حشواته بالسن والزرنشان الدقيق .

ويجاور هذا المنبر محراب قديم يعد من أجمل المحاريب الحجرية ، فقد اشتملت طاقيته على مقرنصات وتلبيس بالرخام الأسود ، ويحيط بصنج عقوده أشرطة منقوشة ، ويعلوه مستطيلان كتب فيهما : ﴿ وما النصر إلا من عند الله . إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ .

وظاهرة وجود المحاريب الحجرية المنقوشة فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) تعتبر متممة لسلسلة تطور زخرف المحاريب فى العمارة الإسلامية . فقد اتخذت المحاريب فى الدولة الطولونية محاطة عقودها بزخارف جصية ودوائر صغيرة، ثم لم تلبث أن ترقت فى الدولة الفاطمية ونقشت عقودها وطواقيها وتواشيحها بزخارف جصية وعمد رشيقة . ثم تطورت الى تضاليع محارية تنتهى بمقرنصات . وتحلى تواشيحها بزخارف ويحاط دائرها بكتابات كوفية ؛ ومنها ما اكتفى باحاطة دائره بكتابة كوفية . ثم تدرجت الى نقوش فى تجويفها .

ونحن وإن كنا لم ندرك نماذج رخامية من المحاريب الفاطمية ، فان التاريخ أثبت استعمال الرخام فى محاريب جامع عمرو[1] والمشهد النفيسى فى العصر الفاطمى .

وفى مبدأ العصر الأيوبى حليت عقود المحاريب بزخارف جصية على شكل تضاليع محارية . ثم شاع استعمال الرخام فيها وتغطية الطاقية إما بفسيفساء مذهبة، وإما بخشب منقوش ومكتوب. ثم تدرج إلى رخام .

وفى دولة المماليك البحرية ارتقت جدا صناعة الرخام فى المحاريب ، فالمحراب غطى كله بالرخام ما بين أشرطة الى رخام دقيق مطعم بالصدف تنوعت أشكاله .

وفى هذا العصر ظهرت نماذج قليلة لمحاريب من الجص غاية فى الأهمية، كما وجدت منها نماذج حجرية قليلة جدا حليت طواقيها بمقرنصات . واستمرت المحاريب الرخامية متقدمة فى دولة المماليك الجراكسة ومستواها لا يقل عن محاريب دولة المماليك البحرية .

---

(١) المقريزى ج ٢ ص ٢٥١ ، ٤٤٢

وفى الوقت الذى ازدهرت فيه صناعة الرخام فى المحاريب شاعت المحاريب الجصرية بجانب المحاريب الرخامية ، وانحصر شيوعها فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)، وأول القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) .

ومن الغريب ظهورها فى مساجد امتازت بصناعة الرخام فى وزراتها وأرضياتها ، ومن نماذجها القيمة أيضا محراب جامع القاضى يحيى بالحبانية ومحرابا تربتى الأشرف إينال وقايتباى بالصحراء ، فقد كسى أسفلهما بأشرطة رخامية كما نقش تجويفهما الجصرى وطاقيتهما وتواشيحهما بزخارف ملونة .

وكذلك منشآت الأشرف قايتباى الغنية بصناعة الرخام ، اتخذت محاريبها من الجص . على أن محراب هذا المسجد امتاز بنقوشه وبتطعيم جَصّه بالرخام وهو نموذج ممتاز .



مدرسة قايتباى بالقرافة الشرقية

صحراء قايتباى (القرافة الشرقية[*]) — كانت المنطقة الممتدة من قلعة الجبل الى العباسية حتى أوائل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ميدانا فسيحا أعدّ للعب الكرة، وقد عرف بميدان القبق، وميدان العيد .

وفى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) بدأ ملوك مصر وأمراؤها فى إنشاء المساجد والخوانق بهذه المنطقة، وألحقوا بها مدافن لهم .

وقد تباروا فى هذا المضمار الخيرى حتى آزدحمت هذه المنطقة بمختلف الآثار، تطاول السماء بمناراتها الرشيقة وقبابها المزخرفة .

وما انتهى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، إلا كانت بها مجموعة لم تجتمع فى صعيد واحد مثل ما اجتمعت هناك . وفيها يرى الفنان والمهندس خير إلهام له، إذ يرى الفن متجليًا فيها ما بين مترف وغنى ومتوسط .

ورغم ما أصاب الكثير منها من ضياع وتخرّب ، فقد بقيت بها بقايا معمارية على جانب عظيم من الأهمية .

وقد عرفت هذه المنطقة بمقابر الخلفاء ، وهى تسمية غير صحيحة ، إذ الأولى بها أن تعرف بمقابر المماليك .

وأكثر من عنى بإنشاء آثار بها الملك الأشرف أبو النصر قايتباى، فقد أنشأ بها ربعا كبيرا وحوضا لشرب الدواب وسبيلا ومقعدا ومدفنا لأسرته ومدرسة، وقبة للشيخ عبد الله المنوفى وربعا آخر تجاه المدرسة خصصه لإقامة الصوفية، هذا عدا ملحقات المدرسة، ودرة منشآت تلك المنطقة مدرسته ومدفنه .

السلطان قايتباى — السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى الجركسى المحمودى الأشرفى ثم الظاهرى، ولد سنة ٨٢٦[1] هـ (١٤٢٣ م) وقيل بضع وعشرين تقريبا ، ثم اتصل بالملك الظاهر جقمق، فأعتقه . ولم يزل يترقى الى أن وصل الى وظيفة أتابك . ثم آل أمره الى أن بويع له بالسلطنة يوم الاثنين ٣ رجب سنة ٨٧٢ هـ (يناير سنة ١٤٦٨ م) .

(*) انظر الصور من رقم ١٨٦ — ١٩١ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الضوء اللامع، ج ٦ ص ٢٠١، شذرات الذهب، ج ٨ ص ٧ .

وكان ملكا جليلا صالحا من خيرة ملوك الجراكسة وأطولهم مدة ، فقد ظل ملكا لمصر نحو ٢٩ سنة ، كان فيها مثال الملك العادل الصالح ، فقد عنى بسياسة مصر الخارجية ، كما كان كثير العطف على مسلمى أسبانيا ، وقد حاول حمايتهم مما هم فيه من خطر ، فأرسل رهبان كنيسة القيامة كوفد الى ملك أسبانيا فرديناند يهدده بأنه اذا لم يبق على غرناطة فان كنائس الشرق تهدم ، والحجيج الى الأراضى المقدسة يبطل (١) .

وكانت له عناية كبيرة باختيار كبار الموظفين ، وخاصة الوظائف الدينية ، كالقضاء والمشيخة والتدريس ، لا يعين فيها إلا من تأكد من صلاحيته وحسن سيرته . وكان محبا للسفر ، كما كان مغرما بالمهارة . واهتم اهتماما كبيرا بالأراضى المقدسة . وله منشآت معمارية خيرية كثيرة بمكة والمدينة والقدس . وقل أن يخلو حى من أحياء القاهرة أو إقليم من أقاليمها أو قطر من الأقطار الإسلامية إلا وله فيه أثر لامع .

ومن هذه المنشآت فى مصر طائفة من المساجد والمدارس والوكالات والمنازل والأسبلة والقناطر . كما عنى بالحصون ، فانشأ قلعة بالاسكندرية ، وأخرى برشيد . وكلها منشآت امتازت بالرشاقة ودقة الصناعة .

وقد ظل متوليا ملك مصر الى أن توفى فى ٢٧ ذى القعدة سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٦ م) ، وترك اسمه مسطورا على ما يزيد على سبعين أثرا إسلاميا ما بين إنشاء وتجديد .

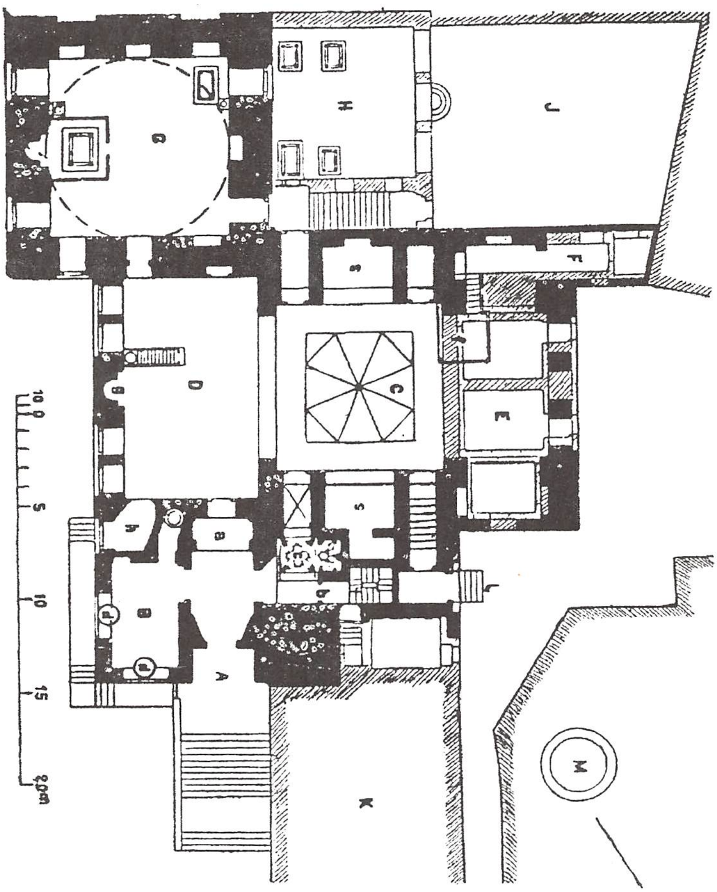
تاريخ إنشاء المدرسة — كان البدء فى إنشائها فى سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) ، والفراغ منها فى شهر رجب سنة ٨٧٩ هـ (نوفمبر سنة ١٤٧٤ م) .

وهى مجموعة مكونة من مدرسة وملحقاتها وتربة وسبيل وكتاب . والزائر لها تستهويه بجمالها ورشاقتها ، ولا غرو فهى محط رحال زائرى مصر ، لأنها جمعت أرق التفاصيل المعمارية التى وجدت فى دولة المماليك الجراكسة .

والوجهة البحرية لها هى الرئيسية وبها الباب ، وقد حلى عتبه ومزرره بالرخام الملون والكتابات ، يغطيه مقرنصات منقوشة وطاقية ملبسة بالحجرين الأبيض والأحمر وعلى يساره سبيل يعلوه كتاب له وجهتان : إحداهما الغربية من عقدين ، والثانية الشرقية ، ولها ثلاثة عقود ، تحملها عمد منقوشة .

(١) تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص ١٦١

وعلى يمين الباب منارة رشيقة من ثلاث دورات حلى بدن دورتهـا الأولى بنقوش وكتابات ، أما بدن الدورة الثانية فقد حلى بنقوش مورّقة محاطة بجفوت ، وتقوم الدورة الثالثة على عمد رشيقة. وهى من أرق منارات مصر . ومن طريف ما يذكر أن مؤذن هذه المنارة فى عصر قايتباى وعصر ابنه ، كان يجيد الخط والنقش فى الحجر . فقد نقش على قاعدة القبة وباب المنارة ومدخلها و باب دورتها الأولى آيات من القرآن وحكما مؤرخة بسنى ٨٨٥، ٩٠٤، ٩١١ هجرية (١٤٨٠، ١٤٩٨، ١٥٠٥ م) ووقعها باسمه بما نصه : ــ نقشه محمد الشبيني ــ كتبه بيده الفانية محمد الشبيني المؤذن .



مســـقط أفـــق

وتنتهى الوجهة الشرقيـــة من الجهة القبلية بقبة عاليـــة حلى سطحها بنقوش هندسية ومورّقة ، وتعتبر من أجمل القباب .

والباب حلّى مصراعه بخارية نحاسية مفرغة بأشكال زخرفية وأشرطة مكتوب عليها «عز لمولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيى العدل فى العالمين عز نصره» . ومكتوب على جانبيه : «بسم الله الرحمن الرحيم وما تفعلوا من خير فان الله به عليم» . أمر بانشاء هـذه المدرسة مولانا الملك الأشرف قايتباى سيد ملوك العرب والعجم الملك الأشرف قايتباى خلد الله ملكه وثبت قواعد دولته بمحمد وآله بتاريخ سنة سبع وسبعين وثمان مائة من الهجرة» . كما يعلو هذا الباب دائرتان رخاميتان مكتوب عليهما : «عز لمولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره» :

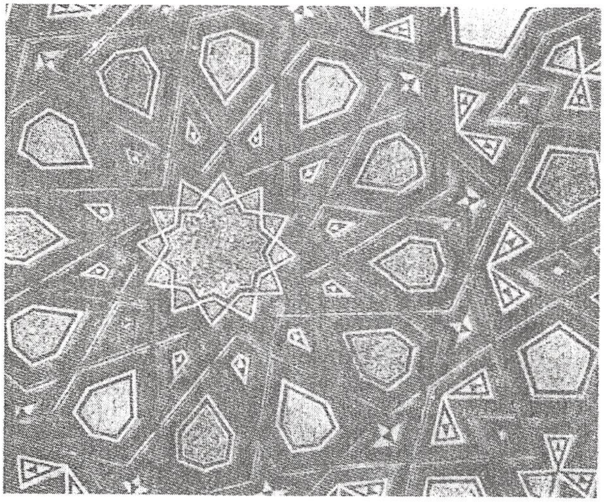
وهذا البـاب يؤدّى إلى دركاة مربعـة ، بصدرها مسطبة مفروشـة ، مؤزرة بالرخام الملون على جانبيها دولابان بكل منهما أربع مصاريع طعمت حشواتها بالسنّ المدقـوق أويمة دقيقة جدًا ومكتوب عليهما «اللهم انصر عبدك مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى خلد الله ملكه» وعلى يمينها ويسارها باب كتب فى دائرة فوق عقده بشكل زخرفىّ نادر : «قل كل يعمل على شاكلته» . الأيسر منهما باب السبيل ، له سقف منقوش ملوّن ، ومكتوب بازاره : «بسم الله الرحمن الرحيم ، إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . الى قوله تعالى ويخافون يوما كان شره مستطيرا . أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى صاحب الصدقات والمعروف» .

والباب الأيمن يؤدّى إلى طرقة مستطيلة بصدرها باب يؤدى الى المنارة وإلى الكتّاب تجاوره مزيرة على وجهها حجاب من الخشب الخرط ، مكتوب عليه بالخط الكوفى المربع : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» . ومكتوب على بابها «بسم الله الرحمن الرحيم ، يسـقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون» .

ويعلو هذا القسم من الطرقة (مصلّبة) حجرية لها أرجل مخوّصة دقيقة ، وتنتهى هذه الطرقة إلى صحن المدرسة ، وقد فرشت أرضية هذا الصحن برخام ملون ، كما فرشت أرضيات الإيوانات . والمداخل كل قسم منها يغاير الآخر ، فبينما نرى الصحن من دوائر رخامية ملوّنة ، نرى الإيوانات على شكل دالات تنوّعت ، ويغطى الصحن سقف يتوسطه منور ، وقد نقش بزخارف ملوّنة ومذهبة ، وبعضها على شكل قصع تتوسطه قبـة صغيرة كتب عليها : «قل كل يعمل على شاكلتـه» بشكل زخرفى . وكتب على إزاره تاريخ تجديد لجنة حفظ الآثار العربية له سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) .

ويحيط بالصحن أربعـة إيوانات معقودة تأخذ بالأبصار بمـا حوته من نقوش وشـبابيك جصية ، ومكتوب على وجه عقودها حول الصحن ما نصـه : «بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله

إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، الآية . أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا ومالك رقنا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفقراء والمساكين ناصر الدنيا والدين سيدنا ومولانا الإمام الأعظم المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره بتاريخ رمضان المعظم قدره سنة سبع وسبعين وثمان مائة » .



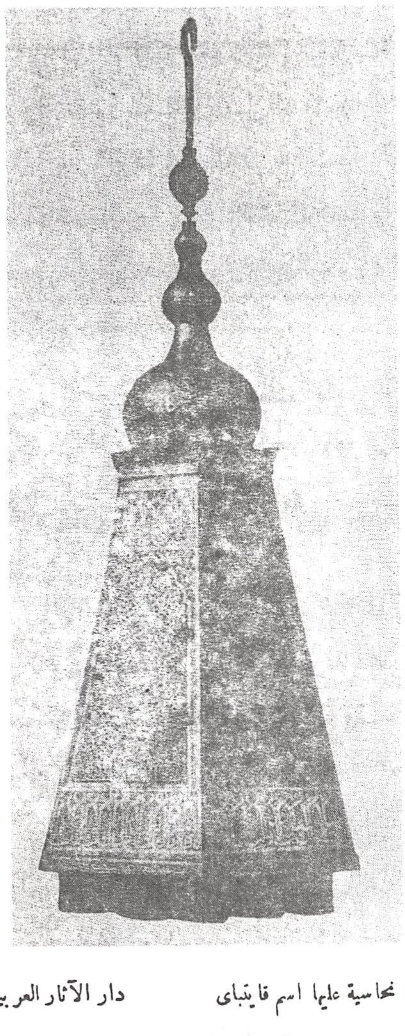
تفاصيل من المنبر

وقد حليت أرجل عقود الإيوانات بمقرنصات مزخرفة مذهبة . وقد حرص المهندس على المضاهاة، فلم يترك بابا إلا فتح أمامه بابا أو دولابا على هيئة باب .

وأكبر هذه الإيوانات إيوان المحراب، وقد أحيط بطراز مذهب مكتوب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر. الى قوله تعالى وكان الله عليا حكيما صدق الله العظيم ورسوله الكريم ، وكان الفراغ من ذلك فى شهر رجب الفرد عام سبع وسبعين وثمان مائة من الهجرة» . ومكتوب على الجانب القبلى منه : « أمر بإنشاء هذا المكان المبارك مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى، سلطان الإسلام والمسلمين وارث الملك، سيد الملوك والسلاطين » .

والمحراب وإن كان خاليا من الزخرف إلا أنه يكتنفه عمودان مثمنان حلى بدنهما مع قواعدهما وتيجانهما بنقوش مورقة ، كما لبّست طاقيته بحجر أحمر على هيئة شرفات، يجاوره منبر دقيق جميع حشوات جوانبه ودرابزينه وأبوابه من السنّ المدقوق اويمة دقيقة، وقد ذهّبت قوائمه وخوذته .

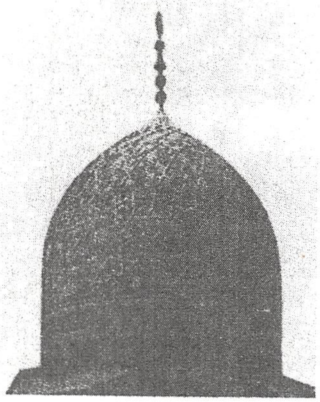
ونقشت حجور الشبابيك بزخارف جصية ، وهى ميزة امتازت بها منشآت السلطان قايتباى ، ولهذا الإيوان سقف من برطوم، ومربوعات منقوشة مذهبة . وكانت المدرسة مزوّدة بمجموعة قيمة من الشمعدانات والثريات النحاسية والمشكاوات معلقة فى كرّات من القاشانى .


ثريا نحاسية عليها اسم قايتباى   دار الآثار العربية

أما الإيوان الغربى فقد قسم الى ثلاثة أقسام تغطيها سقوف ملونة مذهبة . وفى القسم القبلى منه حجرة المكتبة وما زالت رفوفها موجودة بينما نقلت كتبها الباقية الى دار الكتب المصرية ، ومكتوب على طراز هذا الإيوان : «بسم الله الرحمن الرحيم لقد جاءكم رسول من أنفسكم » الآية . وفى الركن البحرى الغربى للصحن باب يؤدّى الى سلم يهبط الى الباب الغربى للمسجد وهو المعروف بباب السر .

والقبة تلاصق الإيوان الشرقى من قبليه ، وهى قبة عالية جدا ، وقد نقشت من الخارج فى الحجر ، كما نقشت من الداخل بزخارف مذهبة ملوّنة ، وبها مجموعة من الشبابيك الجصية الدقيقة ، وأحيطت جدرانها بوزرة رخامية تنتهى بإفريز مكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون — الآية ، أمر بإنشاء هذه القبة المباركة من فضل الله تعالى وجزيل عطائه العميم على سيدنا ومولانا ومالك رقّنا سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين ، محيى العدل فى العالمين الإمام الأعظم والملك المكرم السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين سيد ملوك العرب والعجم السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أعز الله تعالى أنصاره وختم بالصالحات أعمالنا وأعماله وثبت قواعد دولته وأيّد أحكامه بمحمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا يارب العالمين آمين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ،

بسم الله الرحمن الرحيم ، قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا يا رب العالمين اللهم وأيد الإسلام وأعل كلمة الإيمان ببقاء عبدك سيدنا ومولانا المقام الشريف السلطان الزاهد العابد العالم العامل العادل فى أحكامه الورع المتورع الصايم القايم بحدود الله، التابع سنة رسول الله، التالى كتاب الله، الحاج إلى بيت الله الحرام، الزاير قبر رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، المجاهد فى سبيل الله سيد الملوك والسلاطين أبو الفقراء والمساكين المجاهد المرابط المؤيد المنصور السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى صاحب الصدقات والمعروف خلد الله ملكه بمحمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا يا رب العالمين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله . وكان الفراغ من هذه القبة المباركة فى شهر رجب الفرد الحرام سنة تسع وسبعين وثمان مائة » .


قبة قايتباى

وبها كرسى للمصحف طعمت جميع أجزائه بالسنّ المدقوق أو بمة مثل المنبر، ومكتوب عليه : « أمر بإنشاء هذا الكرسى الملك الأشرف قايتباى بتاريخ شهر ربيع سنة ثمان وسبعين وثمان مائة » .

ومحرابها حجرى كسى أسفله بأشرطة رخامية وباقيه مع طاقيته وعقده حلى بزخارف مدقوقة بالحجر وملونة، وأمامه مقصورة خشبية بداخلها قبر المنشئ . وقد فرشت أرضيتها بالرخام الملون الدقيق .

وقد دفن فى هذه القبة أيضا ابنه الملك الناصر محمد ، كما دفن فى تربة أخرى أبناء عمه جانم وجانى بك وأزبك الخاصكى . وغربى القبة قبور خاصته وإحدى سراريه دولات باى .

ويجاور قبر قايتباى قبة صغيرة نحاسية مذهبة تحتها حجر أسود ، به أثر قدمين يقال : إنهما للنبى صلى الله عليه وسلم ، كما يوجد بجوار القبر الآخر قبة أخرى خشبية على شكل مسلة بها حجر عليه أثر قدم يقال : إنه قدم الخليل إبراهيم عليه السلام ، وكلاهما غير صحيح ، لأنه يوجد بمصر أقدام أخرى متفاوتة المقاس ، كما توجد أقدام منها فى القدس والطائف والقسطنطينية ، وكذلك فى الأقطار الإسلامية أقدام منسوبة الى آدم بالهند ، والخليل بالحرم المكى ، وموسى بظاهر دمشق ، وعيسى ببيت المقدس .

وقد نص جماعة من حفاظ المحدثين على أن ما استفاض واشتهر خصوصا على ألسنة الشعراء والمدّاح من أن قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم غاصت فى الحجر لا أصل له . كما أن للإمام السيوطى إجابة على سؤال رفع اليه عن هذه الأقدام بأنه لم يقف فى ذلك على أصل ولا سند ، ولا رأى من خرّجه فى شيء من كتب الحديث ، كما أنكره كثير من العلماء وأثبته بعضهم[1]. وقيل عن هذه الأحجار إن السلطان قايتباى آشتراها وأوصى بجعلها عند قبره .

ويقول العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا : و إذا لم يصح شراء السلطان لهذين الحجرين أو أحدهما فلا يبعد أن يكونا من الأحجار التى قيل إنها أحضرت من خيبر لشمس الدين ابن الزمن التاجر وجعلها فى مدرسته التى كان شرع فى إنشائها بشاطئ بولاق، فيحتمل أنه أحضرها معه من الحجاز ، ثم آختار السلطان منها هذين الحجرين فنقلهما بعد موته من مدرسته .

وقد زار قبة قايتباى رحالة القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجرى (السابع عشر والثامن عشر الميلادى) ، ووصفوا الأحجار والقبة التى عليها ، وذكر المرحوم أحمد تيمور باشا إن السلطان أحمد ابن محمد المعروف عند العثمانيين بأحمد الأوّل نقل حجر القدم الى القسطنطينية سنة ١٠٢٤هـ . ثم أمر بردّه الى محله ، وجعل عليه قبة مكتوبا عليها الأبيات الركيكة الموجودة حتى الآن، ومنها :

تشوّق حضرة السلطان أحمد * زيارة موطئ القدم المكرم
فحرّكه بجاذبة اشتياق * على إقدام أقدام فقدّم
وسيّره إلى القسطنطينية * فقال له : تقدّم خير مقدم

وبعد أن ذكر هذه الأبيات، وصوّبها المغفور له أحمد تيمور باشا لم يستبعد على السلطان أحمد نقله الحجر إليه، لأنه كان كثير التعظيم للآثار النبوية .

أعمال الإصلاح — لعل هذا الأثر هو الوحيد بين آثار الصحراء الذى احتفظ بكثير من تفاصيله التى ساعدت على إعادته الى أصله ، كما أن لشهرته خير أثر فى البدء باصلاحه قبل آثار الصحراء إصلاحا شاملا، وترجع عناية لجنة حفظ الآثار العربية به الى سنة ١٨٩٣ م، فقد عنيت بإصلاحه ولم تنته سنة ١٨٩٧ إلا وقد تناولت أعمال الاصلاح تقوية مبانيه و إصلاح الرخام والسقوف والأرضيات الرخامية والنجارة والشبابيك الجصية، و إصلاح المنارة وتقويتها، ثم تتابعت بعد ذلك بقية الإصلاح حتى أصلح إصلاحا شاملا كاملا ، وأصبح لا يحتاج الى أى إصلاح الآن .

(١) الآثار النبوية للرحوم أحمد تيمور باشا ص ٦٧ مجلة الهداية الاسلامية ج ١ مجلد ٢ سنة ١٩٢٨

قبة يشبك من مهدى

بكوبرى القبة (*)

هذه القبة عند مدخل حدائق قصر القبة العامر ، أنشأها الأمير يشبك من مهدى[1] ، وأنشأ الى جانبها مدرسة وأماكن كثيرة .

والأمير يشبك من خيرة أمراء دولة المماليك الجراكسة ، امتلكه الظاهر جقمق ، وتقلب فى جملة وظائف فى دولته ودولة الأشرف إينال ، إلى أن عين فى سنة ٨٧١ هـ (١٤٦٦ م) فى دولة الظاهر خشقدم كاشفا للصعيد بأسره ونائبا للوجه القبلى بأكمله الى أسوان وأنعم عليه بإمرة عشرة ، فحكم هذه البلاد ، وجرت بينه وبين عرب هوّارة حروب وخطوب انتهت بفوزه ، فاستتب الأمن فى عهده ، وتألق نجم يشبك وأثرى ثراء كبيرا .

وفى دولة الأشرف قايتباى نال حظوة كبيرة فعينه دواداراً[2] كبيرا ، ثم أضاف إليه الوزارة ، فالأستادارية[3] ، فتركزت شؤون الدولة فى شخصه ، وسكن فى قاعة ألماس تجاه مسجده ، ثم انتقل الى قصر الأمير قوصون خلف مسجد السلطان حسن وأدخل عليه إصلاحات كثيرة وكتب اسمه وألقابه عليه . كما نقش رنكه على جانبى مدخله .

ونعته كثير من مؤرخى عصره بالخصال الحميدة . وميله الى أعمال الخير ، وحبه للعلماء . واشتغاله بالعلوم ، واقتنائه للكتب ، وميله الى العمران والى تنظيم الطرق .

فمن مآثره أنه فيما بين سنتى[4] ٨٨٢ — ٨٨٤ هـ (١٤٧٧ — ١٤٧٩ م) اهتم باصلاح الطرق وتوسيعها ، و إصلاح وجهات الربوع التى تطل على الشوارع ، وهدم الكثير مما كان يعوق سعتها ، ومهد الشوارع . وترتب على ذلك اكتشاف سلم باب مسجد الصالح طلائع[5] ، وإصلاح مسجدى المؤيد والفاكهانى وغيرهما .

وقد بقى على هذا الحال من البأس والقوة والنفوذ حتى سافر إلى الشام على رأس جيش كبير ثم سافر إلى العراق ومنها إلى الرها حيث قتل فى شهر رمضان سنة ٨٨٥ هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٠ م) .

(*) انظر الصور من رقم ١٩٢ — ١٩٣ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

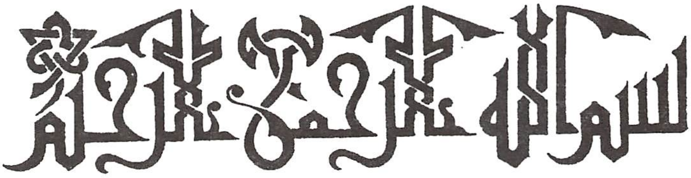
(١) من مهدى ، نسبة إلى مهدى التاجر الذى باعه . (٢) دوادار : اسم لوظيفة من يحمل دواة السلطان .

(٣) الاستادار : موظف كبير يعهد إليه بالإشراف على مالية الملك الخاصة .

(٤) الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٢٧٤ (٥) النزهة السنية ص ١٣٥

كان رحمه الله شغوفا بالعمارة، فأنشأ كثيرا من الآثار التى لم يبق منها سوى زياداته فى قصر الأمير قوصون ومنارة الإمام الليث وقبة الفداوية ثم هذه القبة .

وكان البدء فى إنشاء هذه القبة سنة ٨٨١ هـ (١٤٧٦ م) ، وأنشأ إلى جانبها مدرسة وأماكن كثيرة . وكانت هذه المنطقة معدودة من أجمل المتنزهات .



بسملة من الوزرة

ولما كمل بناؤها فى سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م) افتتحها الملك الأشرف قايتباى وأعجب بها فأقام هناك يوما وليلة، وأثنى على منشئها .

ثم تكرر نزول السلطان بها وإقامة الحفلات هناك ، ومنها حفلة ابن مزهر رئيس ديوان الإنشاء التى أقامها لسيده[1] الملك الأشرف قايتباى سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٨ م) .

وعند عودة السلطان قايتباى من الحج عام ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) نزل بهذه القبة واحتفل بقدومه الأمير أزبك الأتابكى، وبات هناك[2] .

وكثيرا ما كان السلطان قايتباى يتوجه اليها متنزها أو لصلاة الجمعة[3] بها ، كما أنه أقام حفلة كبيرة فيها لجمجمة بن عثمان فى سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م)[4] .

وممن فتن بجمال هذه المنطقة الملك الأشرف قانصوه الغورى ، فأنشأ بجوارها منشآت عمارية كان يخرج اليها للتنزه[5] .

وقد أزيلت المدرسة التى أنشأها يشبك وملحقاتها ، كما أزيلت منشآت الغورى ولم يبق سوى هذه القبة .

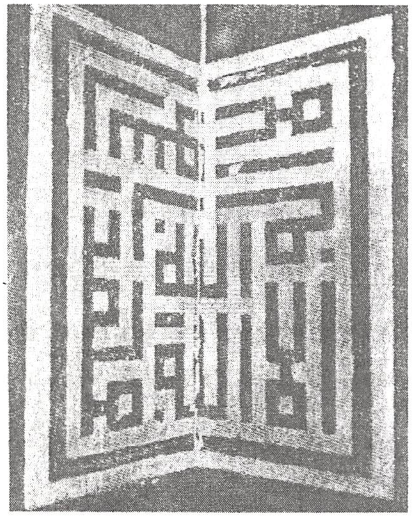
وهى من القباب الكبيرة ، امتازت بطراز خاص لم يكن شائعا بقباب مصر، تسود خارجها البساطة بخلاف قباب عصرها، فهى مكونة من قاعدة حجرية فوقها قبة بالطوب .

أما من الداخل فقد كسيت جدرانها بوزرة من الرخام المختلف الألوان، وتنتهى هذه الوزرة بافريز رخامى كتب عليه بالخط الكوفى المزهر، المنزل بالمعجون الأسود فى الرخام الأبيض مانصه :

(١) ابن إياس، ج ٢ ص ١٨٣ (٢) ابن إياس، ج ٢ ص ١٩٣ (٣) ابن إياس، ج ٢ ص ٢٠٥
(٤) ابن إياس، ج ٢ ص ٢٠٨ (٥) ابن إياس، ج ٣ ص ٦٢

«بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد — السورة . إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما . قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء . إلى قوله تعالى : وترزق من تشاء بغير حساب صدق الله العظيم » . وكان الفراغ من ذلك فى شهر ربيع الأول سنة اثنين وثمانين وثمان مائة .

ومكتوب بنواصى القبة فى الوزرة بالخط الكوفى المربع : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .



كوفى مربع بنواصى الوزرة

وكتب فى محيط القبة أسفل الشبابيك بالخط النسخ المملوكى : «بسم الله الرحمن الرحيم هل أتى على الإنسان حين من الدهر ، إلى قوله تعالى : وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . وذلك فى شهر ذى القعدة سنة أحد وثمانين وثمانمائة » .

ومكتوب برقبة القبة أعلى الشبابيك : « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله — الآية — أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام — الى قوله تعالى وجنات لهم فيها نعيم مقيم — ثم تاريخ تجديدها سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) » .

والمحراب من الحجر، كُسى أسفله بالرخام وكتب على حافة عقده الداخلية : «بسم الله الرحمن الرحيم وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » الآية .

وقد حليت طاقيته بزخارف مذهبة . وفى رقبة القبة شبابيك من الجص والزجاج الملون . وفى أرضية الشباك البحرى الغربى حوض رخامى مقسم الى ثلاثة أقسام منقوشة لوضع قلل الماء وغشيت جدران القبة بزخارف ملونة ومذهبة، وأقيم إلى جانب المحراب منبر صغير حديث الصناعة . وملحق بالقبة من الجهة القبلية مصلى ومنارة أسطوانية ، أنشأها المرحوم مصطفى باشا فاضل سنة ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) بإشراف نيازى بك .

وكان لقرب هذه القبة من قصر القبة العامر أحسن الأثر فى العناية بها، فأصلحتها إدارة حفظ الآثار العربية، وأصلحت رخامها، كما أجرت بها كثيرا من أعمال النقش والتذهيب .

وفى عصر الملك الصالح فاروق الأول وبناء على أمره الكريم أخليت المنطقة حول القبة وأنشئت بها الحدائق والميادين و بذلك أعاد اليها بهجتها وجمالها .

مدرسة قجماس الاسحاقى

بشارع الدرب الأحمر[*]

الأمير قجماس الإسحاقى — نشأ فى خدمة أستاذه جقمق نائب الشام الذى عنى بتعليمه وتجويده الخط، فنبغ فيه. ثم رقى إلى عدة وظائف . وفى دولة الظاهر خشقدم عين خازندارا[1]، ثم رقى فى دولة الظاهر بلباى أمير عشرة[2] .

ولما ولى ملك مصر الملك الأشرف قايتباى كان من المقربين إليه ، ثم عينه نائبا للاسكندرية فى سنة ٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م)، فأنشأ بها مسجدا خارج باب رشيد، وأنشأ بجانبه تربة وخانا، وجدد جامع الصوارى خارج باب سدرة، كما أنشأ خارج باب البحر رباطا[3] .

وفى سنة ٨٨٠ هـ (١٤٧٥ م) عينه أميرآخورا[4] كبيرا لمصر . وفى أثناء توليه هـذه الوظيفة سافر إلى الاسكندرية غير مرة للإشراف على عمارة قلعة قايتباى .

وفى سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) عينه نائبا للشام، فأنشأ بها مدرسة وبقى بها إلى أن توفى فى شهر شوال سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) . ودفن هناك .

كان حسن السـيرة مؤدبا متواضعا، محبا للعلماء والصالحين . ولم يبق من منشآته العمارية التى أنشأها بمصر والإسكندرية سوى هذه المدرسة ولم يدفن بقبتها التى أعدها لنفسه، بل دفن فيها أحد الصالحين المعروف بالشيخ أحمد أبو حريبة[5]، المتوفى سنة ١٢٦٨ هـ (١٨٥٢ م) فعرف المسجد به .

تاريخ المدرسة ووصفها — لم تذكر النصوص التاريخية فى هـذه المدرسة تاريخ البـدء فى إنشائها ، بل كلها تنصب على الفـراغ من أجزائهـا فى سنى ٨٨٤ و ٨٨٥ و ٨٨٦ و٨٨٧ هـ . وإذا عرفنا أنه عين واليـا على الشام فى أواخر سـنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) ، فاننا نستطيع أن نرجح

(*) انظر الصور من رقم ١٩٤ — ٢٠٠ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) خازندار : وظيفة لمن يشرف على خزائن السلطان أو الأمير .

(٢) الضوء اللامع ج ٦، ص ٢١٣ وابن إياس ج ٢ ص ١٢٤

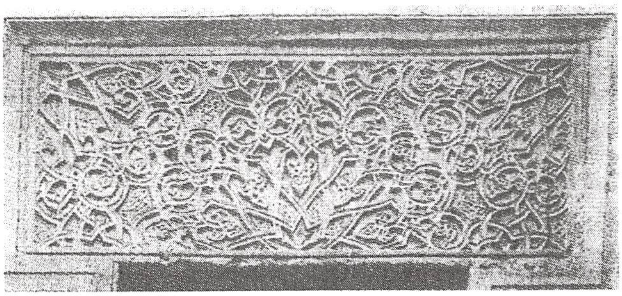
(٣) الرباط هو سكن الصوفية والمنقطعين من الفقراء . وباب البحر كان قريبا من مسجد أبى العباس المرسى .

(٤) أميرآخور كبير : المشرف على اصطبلات الخاصـة والبريد والهجن . (٥) الخطط الجديدة ج ٤ ص ٤٨

أنه شرع في بنائها قبل سنة ٨٨٤هـ (١٤٧٩ م)، كما أن النصوص التاريخية الداخلية بالمدرسة المؤرخة سنة ٨٨٥هـ تضمنت ذكر وظيفته (أميرآخور) بينما كتابة المدخل العمومي المؤرخة سنة ٨٨٦هـ خالية من ذكر الوظيفة، وهذا يؤكد أن أعمال البناء ظلت سائرة في المدرسة بعد سفره إلى الشام، كما أن أعمال النجارة لم تنته إلا في سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م).

وهذه المدرسة مرتفعة عن مستوى الشارع، وتحت وجهاتها الأربع حوانيت، وهي من أحفل مدارس دولة المماليك الجراكسة، بل تعتبر نموذجا كاملا للكثير منها، فهي غنية بشتى الفنون الإسلامية. وهي تكون مجموعة أثرية هامة، فقد ألحق بها سبيل ثم ساباط يؤدي إلى الميضأة، تعلوه مشربية، وحوض لشرب الدواب، يعلوه كتّاب لتعليم الأطفال.

وهي منسجمة متناسبة تنتقل العين فيها من حسن إلى أحسن، فالباب العمومي وأعتاب الشبابيك محلّاة بالرخام الملون، وجلسات الشبابيك وأعتابها وأعتاب الأبواب وعمد النواصي والمقرنصات محلّاة بنقوش في الحجر تنوعت اشكالها.



عتب باب السبيل

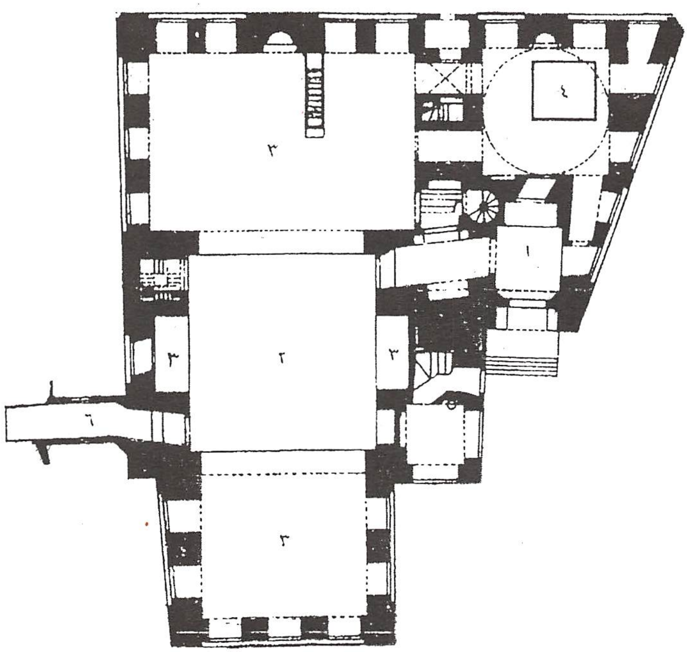
وتقوم على يسار الباب منارة رشيقة من ثلاث دورات: دورتها الأولى مثمّنة، ثم بدن مستدير، فالدورة الثالثة محمولة على عمد رخامية، كما يجاوره سبيل صغير حلّي عتب بابه بنقوش جميلة وفرشت أرضيته بالرخام الدقيق، وله سلسبيل رخامي منقوش وسقفه الخشبي محلّي بنقوش مذهّبة ملونة. وبه سلّم يوصل الى حجرتين تشرفان على وجهة المسجد وعلى صحنه حلّي سقف إحداهما بنقوش ملونة بها رنك المنشئ، ومكتوب بازارها اسمه وألقابه.

وركّب على باب المسجد مصراعان غشيا بالنحاس المفرغ بأشكال هندسيّة، ومكتوب بالحزام العلوي اسم المنشئ بما نصه: «المقر الأشرف العالي السيفي قجماس أميرآخور كبير الملكي الأشرفي أعز الله أنصاره». وله سماعتان رأساهما على هيئة حيوان. ومكتوب على جانبيه: «بسم الله

الرحمن الرحيم وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا صدق الله العظيم . وكان الفـراغ من الجامع فى شهر الله المحرم سنة ست وثمانين وثمان مائة » .

وهو يؤدّى إلى دَركاة مربّعة لها سقف منقوش مذهب مكتوب بإزاره قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا الى — وينصرك الله نصرا عزيزا — صـدق الله العظيم ورسـوله الكريم وصلى الله على سيدنا محمد . بتاريخ شهر شعبان سنة أربع وثمانين وثمان مائة » على يمينها مسطبة بها شباك وبها باب صغير يؤدّى إلى منور، عليه باب للقبة، وهو أحد آبتكارات المهندس التى تغلب بها على ما صادفه من شطرات فى الأرض ، وعلى يسارها باب كبير له مصاريع جرّارة تسير فى مجراة وتدخل فى سمك الجدار ، وبها باب يؤدى الى سلم يهبط الى استطراق معقود بصلبات حجرية بها دوائر مزخرفة يمر أسفل مدخل القبة وبعرضه حتى يصل الى الباب الشرقى للمدرسة . وهو باب حافل بالزخارف الحجرية .

وعلى يسار هذا الاستطراق باب يوصل الى الفراغ أسفل الإيوان الشرقى .



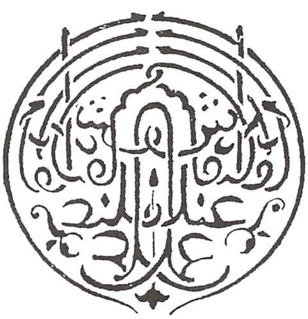
مسـقط أفـقى

وطريقة الأبواب والشبابيك الجرارة كان المظنون أنها من المبتكرات الحديثة، ولكنها وجدت فى هذه المدرسـة وفى مدرسة أبى بكر بن مزهر المعاصرة لها ثم رأيناها بعد ذلك فى شـبابيك الدور فى العصر التركى بمصر ورشيد .

ومن الطرقة الثانية يتوصل الى صحن المدرسة المفروش بالرخام، وقد أحدقت به أربعة إيوانات: آثنان كبيران وهما الشرقى والغربى، وآثنان صغيران وهما القبلى والبحرى؛ كما يشرف على هذا الصحن أبواب تؤدى إلى المنارة وإلى حجرات علوية؛ ومنها باب يؤدى إلى الساباط الموصل إلى دورة المياه وآخر الى الصهريج.

وأينما آتجهت العين داخل هذه المدرسة فلا ترى إلا صناعة دقيقة وألوانا زاهية، فالأرضيات بالصحن، والإيوانات فرشت برخام ملون تنوعت أشكاله، وجميع السقوف ملونة مذهبة، والجدران مؤزرة بالرخام وبها نقوش وكتابات مذهّبة كما تنوعت أشكال الشبابيك الجصية.

وإيوان المحراب يستهوى الناظر إليه بما حواه من صناعات دقيقة، وألوان أخّاذة، فقد كُسِى صدره بوزرة رخامية ارتفاعها نحو خمسة أمتار، وحلّيت خواصر العقود وتواشيحها برخام مطعم بالمعجون الملوّن ومكوّن بأشكال زخرفية. وهذا نوع من الزخرف شاع فى دولة المماليك الجراكسة، استغنى به عن تجميع الرخام الخردة، أو تلبيس القطع الملونة فى الرخام الأبيض. ويتوسطه المحراب، وهو مكوّن من أشرطة رخامية، ورخام مطعم بالمعجون الملوّن، إلى طاقية من رخام دقيق معدودة من النماذج النادرة. وكتب بتجويفته بالخط الكوفى المزهّر قوله تعالى: ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾.


توقيع النقاش

وقد آعتز الصانع بعمله هذا فكتب آسمه بشكل زخرفى فى تجويفة المحراب وكسوة الشبابيك بما نصه: «عمل عبد القادر النقاش». وسواء أكان نقاشا أم مرخما فهو صانع ماهر، وهو الذى قام أيضا بأعمال النقش فى محراب وإيوان المدرسة المزهرية بحارة برجوان، المنشأة سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م). وهى أيضا من طرائف العمارة الإسلامية.

وجميل أن نعثر على آسم هذا الصانع مدونا على أعمال تشرّفه، فى حين أننا فقراء إلى معرفة أسماء الصناع، فلا يوجد لدينا منها إلا القليل فى نماذج معدودة لنجارين ومرخمين أحصيتُ وصوّرتُ ما عثرتُ عليه منها منقوشا على الآثار الاسلامية بمصر والأقاليم.

أما دار الآثار العربية فقد آشتملت على مجموعة كبيرة من أسماء هؤلاء الصناع مرقومة على الطرف الخزفية والنحاسية وغيرها.

ويجاور المحراب منبر خشبي جمّعت حشواته بأشكال دقيقة، وطعّمت جوانبه وأبوابه ودرابزينه وقاعدته بالسنّ والزرنشان، وهو من النماذج المعدودة فى دقة الصناعة وتنوعها، ومكتوب عليه : « أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك المقـر الأشرف الكريم السيفي بجماس أميرآخور كبـير الملكى الأشرفى عز نصره » .

وفى الجـانب القبلى للإيوان الشرقى باب يؤدى إلى القبـة يكتنفه شـباكان حليت خواصرهما بزخارف حجرية مذهّبة، وهى قبة شاهقة مبنية بالطوب وخالية من الزخرف . ولا شك فى أنها أبسط جزء فى هذا الأثر، فقد ألفنا أن نرى قباب هـذا العصر تتخذ من الحجر، وتنقش سطوحها الخارجية إما على شكل دالات أو شرفات مورقة، كما ينقش داخلها بالبوية أحيانا مثل قباب قايتباى وقانصوه أبى سعيد والكاشني وغيرها ، وتكتنف عقـود الإيوانين البحرى والقبلى عقود محارية بتواشيحها وبأعلاها زخارف حجرية، ومكتوب بداثر الصحن : « بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا . أمر بإنشاء هذا الجامع السعيد المبارك من فضل الله تعالى وجزيل عطائه العميم على مولانا المقـر الأشرف الكريم العـالى المولوى الأميرى الكبيرى السيدى السندى المالكى المخدومى المجاهدى المرابطى المؤيدى المنصورى الورعى المتورّعى الزاهدى العابدى الصائمى القائمى الراكعى الساجدى السيفي بجماس أميرآخور كبير المـالكى الملكى الأشرفى أعز الله أنصاره بمحمد وآله فى أيام مولانا السلطان الملك الأشرف أبوالنصر قايتباى عز نصره . وكان الفراغ من هذا المكان المبارك فى شهر رمضان المعظم قدره سنة خمس وثمانين وثمان مائة » .

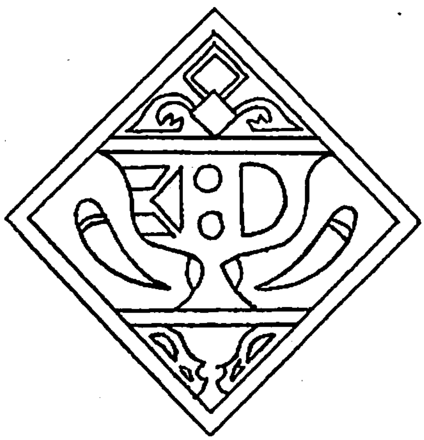
ويحيط بجدران الإيوان الغربى إفريز مكتوب عليـه : « بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيهـا اسمه . إلى قوله تعالى : والله يرزق من يشاء بغير حساب ... وكان الفراغ من هذا الجامع فى شهر رمضان المعظم قدره سنة خمس وثمانين وثمانمائة من الهجرة » .

ومكتوب على كرسىّ المصحف : « أمر بإنشاء هـذا الكرسى المبارك المقر السيفى بجماس كافل المملكة الشامية سنة سبع وثمانين وثمانمائة » .

ومع أن هذه المدرسة توفرت فيها كل مميزات المدارس، فقد رأينا جميع نصوصها التاريخية تنعتها بالجامع ، وهذا يعطينا فكرة عن أن الرغبة الأولى لمنشئ المدارس فى هـذا العصر هى إعدادها أولا لإقامة الشعائر ، ثم إلحاق مدافن لهم بها . ولمـا كان تصميم المدرسـة هو الشائع فى هذا الوقت ، فقـد غلب على تصميم المسجد بصرف النظر عن إعداده للتدريس أو عدم إعداده له ، دون التقيد بنعته مدرسة أو جامعا .

وما إن تم بناء المدرسة حتى أمر بخماس بتعيين مدرس لها وقارئ للبخارى، ونقل ما كان قرره من التصوف بجامع الأزهر إليها .

وقد عُنيت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاح هذه المدرسة إصلاحا شاملا منذ سنة ١٣١٢ ﻫ (١٨٩٤ م) فكشفت عن جوانبها، وأكملت المنارة، وأصلحت المنبر والرخام والشبابيك والسقوف والأرضيات الرخامية، حتى أعادت إليها رونقها . وصنعت لها نوعا خاصا من المشكاوات الزجاجية المكتوبة والمنقوشة بالمينا .



رنك المنشىء

مسجد سلطان شاه

بشارع[*] غيط العدة

أنشأ هذا المسجد المقر السيفى الأمير سلطان شاه بن قرا، أمير الطبلخاناه فى دولة السلطان شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون[1]، ثم أنعم عليه السلطان وعينه حاجب الحجاب فى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٦م). وقد توفى فى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) ودفن فى مسجده بباب الخرق. وكان محبا للخير صالحا.

ويرجع إنشاء المسجد إلى حوالى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م). وقد ظل قائما إلى أن هدمه ووسعه الملك الأشرف قايتباى بعد سنة ٨٨٠ هـ (١٤٧٥ م) بإشراف الأمير تغرى بردى القادرى[2]، كما أنشأ ربما تجاهه فوق مطهرته التى بناها[3] هناك، وكذلك أمر بعمل منبر قيم له، كبقية المنابر المنشأة فى عصره دقيق الصناعة، مطعمة حشواته بالسن، ومدقوق بالأويمة الدقيقة، مما يشعر بأهمية المسجد وجمال زخرفه وقتئذ، وقد بقى منبره هذا إلى حوالى سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) حيث تصرف فيه بالبيع ناظر المسجد محمد أفندى الكريدلى بمبلغ ٢٥٠ جنيها إلى أحد الأجانب فأخرجه من مصر.

وما إن بلغ المغفور له الخديو إسماعيل باشا ذلك حكم على هذا الناظر وعلى النجار الذى تولى فكه بالنفى إلى البحر الأبيض بالسودان، فمات الناظر هناك.

وكان المسجد قد تخرب، فأمر الخديو إسماعيل باشا بإصلاحه، وجدد وجهته العمومية، وذلك فى سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م)، كما أمر بعمل منبر له[4].

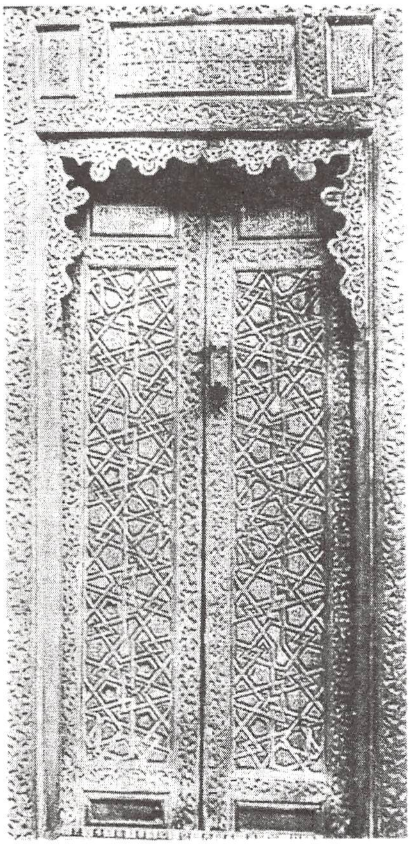
أما المنبر القديم فقد طوحت به الأقدار إلى أن استقر فى المتحف البريطانى بلندن.

وفى زيارة المرحوم مرقس سميكة باشا (مؤسس المتحف القبطى) وعضو لجنة حفظ الآثار العربية لهذا المتحف عام ١٩٢٣ رأى هذا المنبر وقرأ اسم قايتباى عليه، فأحضر صورته الفوتوغرافية وأهداها إلى إدارة حفظ الآثار العربية.

(*) انظر الصور من رقم ٢٠١ — ٢٠٣ بمجموعة الصور الفوتوغرافية.

(١) ابن إياس، ج ١ ص ٢٢١ وفى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٢٠ (ابن قراجا). (٢) الضوء اللامع، ج ٦ ص ٢٠٨ (٣) الضوء اللامع، ج ٣ ص ٣٠ (٤) الخطط الجديدة، ج ٥ ص ٣٠

ولما كان غالب منابر مساجد السلطان قايتباى موجودة فيها ، فالمرجح أن هذا المنبر هو منبر مسجد سلطان شاه ، وهو من الطرف القيمة فقد دقت حشواته بأويمة دقيقة وطعم بالسن ، كما دقت قوائمه بالأويمة ، وطعمت حشوات الدرابزين أيضا ، ومكتوب على باب الروضة : « عز لمولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى خلد الله ملكه » .



(باب المنبر)

والمسجد يتكون من صحن مكشوف يحيط به أربعة إيوانات محمولة على عمد حجرية مثمنة نقشت أضلاعها بنقوش مورقة وهندسية مختلفة ، وقد اشتمل الإيوان الشرقى على رواقين .

أما الإيوانات الثلاثة فكل منها من رواق واحد ، وقد حليت خواصر العقود بزخارف حجرية مورقة ، ومكتوب فى دائرتين بوجه الإيوان الشرقى : « عز لمولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره » .

والمحراب بسيط لا زخرف فيه ، يجاوره منبر من خشب مجمع « معقلى » ، وفى الطرف القبلى الشرقى مقصورة بها قبر المنشئ ، وبالسقف بقايا قديمة .

وأهم ما يسترعى النظر فى هذا المسجد الزخارف المدقوقة فى أضلاع عمده المثمنة ، وهى ميزة وإن كانت سبقت منشآت السلطان قايتباى فى نماذج قليلة معدودة مثل مسجد ألماس وخانقاه شيخو ومسجد أم السلطان شعبان ، إلا أنها كثرت فى منشآت السلطان قايتباى فى الحجر والرخام ، رأيتها فى العمد الباقية من مقعده بالقلعة ، وفى عمودى السلسبيل بالسبيل الذى أنشأه بالصليبة ، وفى عمودى محراب مدرسته بالصحراء ، وفى عمد الكُتّاب الملحق بها ، وهى نماذج إن دلت على مقدار جمالها فقد دلت أيضا على التورع عن أخذها من مساجد أخرى أو كنائس ، وأعطت نوعا جديدا لعمود إسلامى كامل .

قبة الفداوية

بالعباسية (*)

كانت المنطقة الممتدة من العباسية الى الحسينية فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) تحتوى على مقابر وعدة دور .

وفى سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) أمر الأمير يشبك من مهدى بإزالة هذه القبور والدور ، وغرس مكانها حدائق غناء ، وحفر بئرا عظيمة فوقها أربع سواق ؛ وأنشأ مناظر للنزهة وحوضا كبيرا وساباطا وقبة كبيرة أمامها بساتين ومشاتل ، وأنشأ قبلى هذه القبة تربة كبيرة ألحق بها مساكن للصوفية وشيخهم ، و بنى تجاه التربة مدرسة وسبيلا وحوضا لشرب الدواب ، وشق ترعة كبيرة يجرى فيها الماء الى المزارع ، حتى صارت المنطقة من أبهج المتنزهات (١) .

ومن وصف السخاوى المؤرخ لهذه المنشآت نفهم أنها تمت فى حياة الأمير يشبك بينما يخالفه فى ذلك ابن إياس ، فقد ذكر فى حوادث شهر ذى القعدة سنة ٨٨٤ هـ (يناير سنة ١٤٨٠ م) «أن الأمير يشبك شرع فى بناء القبة التى أنشأها فى رأس الحسينية ، وخرب عدة قبور كانت هناك ، ثم أنشأ بهذا المكان غيطانا ومجارى وسواقى ، وقصد أن يجعله من جملة متنزهات القاهرة ، ولو عاش لفعل ذلك ، بجاءت القبة من محاسن البناء فى ذلك المكان (٢) » .

ثم عاد فذكر فى حوادث سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) أن السلطان قايتباى عاين قبة الأمير يشبك الدوادار ، وأمر الأمير تغرى بردى الأستادار بأن يكمل عمارتها لأن الأمير يشبك مات (٣) ولم يتمها . وفى هذه دلالة على أن الأمير يشبك توفى قبل أن يتم بناء هذه المجموعة .

و إذا طرحنا خلاف السخاوى مع ابن إياس جانبا ، وبحثنا عن هذه المنشآت ، فلا نجد منها الآن سوى قبة عظيمة مربعة ، طول ضلعها ١٩,٩٠ مترا ، وهى تعلو دورا أرضيا مكونا من ثلاث قاعات مستطيلة مغطاة بقبوات .

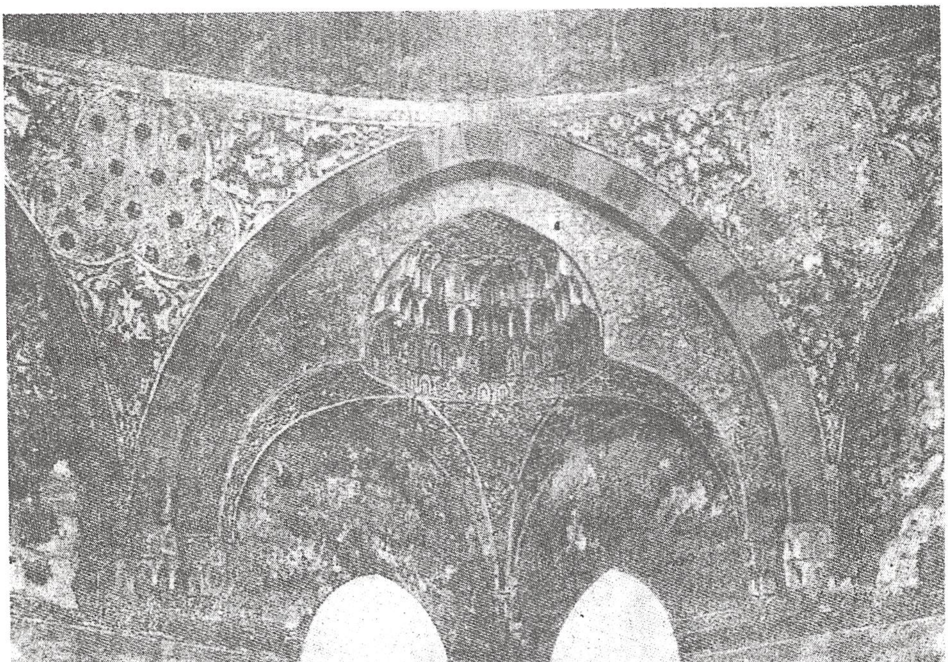
(*) انظر الصور من رقم ٢٠٤ — ٢٠٥ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٢٧٤

(٢) ابن أياس ، ج ٢ ص ١٩٢

(٣) ابن أياس ، ج ٢ ص ٢١٠

ويتوصل إلى هذه القبة من باب فى الجدار القبلى ، عتبته على ارتفاع ٥,٢٥ أمتار من مستوى الأرض حولها . وبناء القبة الخارجى بسيط قاعدة حجرية تعلوها قبة مبنية بالطوب لها طراز خاص . أما من الداخل فقد كانت الجدران مغطاة بوزرة رخامية بارتفاع ٣,٥٠ أمتار وفى منطقة الاتصال بين القاعدة المربعة والقسم المستدير من القبة أربع عقود بزواياها، بداخلها مقرنصات بدلايات مشحونة هى وجدران المربع وعقد القبة وقطبها بزخارف من الجص الملون ، وهى والقبة التى أنشأها بكوبرى القبة من طراز خاص مغاير للقباب التى شاعت بمصر فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) . فقد تأثرتا بطراز القباب السورية[(١)] .



(مقرنص القبـــة وزخارفها)

وهذه القبة وإن كان منشئها هو الأمير يشبك من مهدى إلا أنه كتب عليها اسم سيده الملك الأشرف قايتباى حيث يقرأ على جانبى الباب القبلى : « أمر بإنشاء هذه القبة المباركة سيدنا ومولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أعز الله أنصاره بمحمد وآله وسلم » . وتحت المقرنص قوله تعالى : « فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها — الآية » وهو

(١) Les Mosquées du Caire, vol 1, p. 325.

باب ظريف حلّيت أعتابه بالرخام الملون ، كما حلّيت أعتاب الشبابيك ، كذلك يقرأ فى دائر القبة أعلى المقرنص : « بسم الله الرحمن الرحيم شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة — الآية . إن الدين عند الله الإسلام . قل اللهم مالك الملك — الآية صدق الله العظيم . اللهم وأدم عز مولانا ولى النعم سيد ملوك العرب والعجم ناصر دين الله حافظ بلاد الله قسيم خليفة الله الحاج إلى بيت الله الفائز بزيارة قبر رسول الله السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى خلد الله سلطانه وأفاض على البلاد والعباد جوده و إحسانه من فضله الله بالحج والزيارة على ملوك البرية وناداه ربه فحج فى سنة أربع وثمانين وثمانمائة » .

وهذا النص يرجح رأى السخاوى فى أن هذه الأعمال تمت فى حياة الأمير يشبك، وآسم السلطان قايتباى تكرر فى كتابة أخرى بالقبة وقد ظلت تلك المنشآت عامرة حتى القرن الثانى عشر الهجرى فقد زارها الرحالة عبد الغنى النابلسى سنة ١١٠٥ ﻫ (١٦٩٣ م) وقال : « زرنا جامع اليشبكية نسبة الى يشبك من مهدى فصعدنا إليه فإذا هو جامع عظيم فى أحسن ترصيف ، وأقوم وأكمل بنيان ، وأجمل إتقان، و بجانبه مساكن وقصور و بيوت ، وهناك بركة كبيرة يستخرج إليها الماء بالمدار ، وفى جانبها قصر مطل عليها بشبابيك ينطلق منها البصر فى فسيح تلك الأقطار (١) » .

أعمال الإصلاح — أدركت لجنة حفظ الآثار العربية هذه القبة وهى بحالة سيئة جدا، فعُنيت بإصلاحها وقومت مبانيها وأحدثت بابا لها فى الوجهة الشرقية وذلك فى سنة ١٨٩٩ م: وكان أمام الوجهة الشرقية قطعتا أرض يشغلهما مقهى ومركز للدخولية (٢)، فأزالتهما وعملت على تخلية ما حولها ، ووضعت لوحة تذكارية تضمنت ترميم : « القبة فى سنة سبع عشرة وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة» .

وبناء على ما تقدم به سكان العباسية يتقدمهم المرحوم ماهر باشا محافظ مصر وسعادة لطيف باشا سليم رئيس شرف المحكمة المختلطة لإعداد القبة للصلاة ، أعدتها إدارة حفظ الآثار لهذا الغرض فى سنة ١٣١٩ ﻫ ووضعت لوحة تذكارية بذلك .

وفى سنة ١٩٠٧ عُنيت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاح منبر مسجد كاتم السر بدرب الجماميز، وهو منبر صغير طعمت حشواته بالسن والآبنوس وبناء على آقتراح هرتس باشا وضع فى هذه القبة، وكان آختيارا موفقا، لأن صناعته تتفق وعصر القبة .

(١) الحقيقة والمجاز ص ١٦٢ خط .

(٢) الدخولية : حدثت فى زمن الخديو إسماعيل باشا لجباية ضرائب على جميع ما يدخل القاهرة من حبوب وخضروات وفواكه وصناعات وتجارات . وقد بلغ إيرادها سنة ١٨٨٣ : ١٦٨٠٤٧ جنيها .

الفداوية — عرفت هذه القبة بالفداوية ، وغلبت هذه التسمية على اسم السلطان قايتباى ، وعلى اسم الأمير يشبك من مهدى .

والفداوية طائفة من الإسماعيلية ، من الشيعة المنتسبين إلى إسماعيل[1] بن جعفر الصادق القائلين بإمامته ، وكانوا يقيمون بقلاع الدعوة وهى : مصياف والرصافة والخوابى والقُدموس والكهف والعليقة والمينقة .

قال ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار : وهم يعتقدون أن كل من ملك مصر كان ظهيرا لهم ، ولذلك يرون إتلاف نفوسهم فى طاعته . وكان لمشايعتهم هذه لملوك مصر أثر كبير فى إرهاب أعدائهم . وكان من تقاليدهم أن من جبن عن أداء رسالته ، أو هرب ، قتله أهله ، ولا يبالى الفداوى أن يؤدى رسالته ولو قتل بعدها . وفى الأزمنة السابقة كانوا يسمون كبيرهم المتحدث عليهم : « مقدم الفداوية[2] » أو « شيخ الفداوية » .

وفى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) عرفوا أيضا بالمجاهدين ، وأطلقوا على كبيرهم « أتابك المجاهدين » ويعرفون فى بلادهم بالإسماعيلية وفى بلاد الفرنج بالحشيشية وعند أهل الإقاليم بالفداوية . وإلى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى كان يطلق لقب الفداوية على الأشداء من الرجال .

وفى قوانين دواوين المماليك البحرية كان يدخل فى اختصاص رئيس ديوان الإنشاء النظر فى أمر الفداوية ؛ وكان لملوك الإسلام بهم عناية كبيرة . وممن عنى بهم الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، وعهد إليهم بأعمال هامة قاموا بأدائها بين الفرنج والتتار ، وكذلك عنى بهم الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، والملك الناصر محمد بن قلاوون وكانت لهم المرتبات والهبات الكثيرة . ورأينا الحسن[3] بن عبدالله المؤرخ يتوجه إلى سلطان وقته بيبرس الجاشنكير راجيا « العناية بهم والاحسان إليهم و إجراؤهم على عوائدهم وندبهم فى المهمات العائدة بالنفع على الملك والممالك » .

(١ و ٢) ضوء الصبح المسفر ، ج ١ ص ٤٥ — ٤٦ ، صبح الأعشى ج ١ ص ١١٩

(٣) آثار الأول وترتيب الدول ص ١٥٣

مسجد قايتباى بالروضة

الروضة جزيرة واقعة بين الجيزة والفسطاط(*) (مصر القديمة) ، لم يبق من أعلامها الهامة سوى مقياس النيل فى طرفها القبلى .

وقد كانت روضة من رياض الدنيا منذ الفتح الإسلامى ، سكنها ملوك مصر وأمراؤها ، فقد كانت على عهد والى مصر عبد العزيز بن مروان عامرة بالدور من الجانبين ، وبها فرقة إطفاء مكونة من خمسمائة عامل لمكافحة حريق طارئ أو هدم . وكان بها حصن لأحمد بن طولون ، ودار صناعة (ترسانة) لعمل الأسطول[1] المصرى ، كما كان بها بستان المختار وقصره اللذان أنشأهما محمد بن طُغُج الإخشيد . ووضع تصميمهما صالح بن نافع ونفذهما زقازق وابن أبى الرداد .

وفى الدولة الفاطمية أنشئت بها المتنزهات ، فأنشئ بها المشتهى كما أنشأ بها الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى مكانا نزها سماه الروضــة ، فعرفت الجزيرة كلها بالروضة . وكانت تعرف قبل ذلك بجزيرة مصر وجزيرة الفسطاط وجزيرة الصناعة .

وفى خلافة الآمر بأحكام الله بنى بها قصرا سماه الهودج ، وأسكن به زوجته الغالية البدوية . وأنشأ بها بدر الجمالى مسجد المقياس . وفى آخر الدولة الأيوبية بنى بها الملك الصالح نجم الدين القلعة الصالحية ، وأنشأ قصرا له . كما أنشأ الغورى قصرا على بسطة المقياس .

وفى عصر المغفور له محمــد على باشا[2]، أنشأ ولده المرحوم إبراهيم باشا بستانا فى الطرف البحرى للروضــة حوى النادر من النباتات والزهور التى أدخلت إلى مصر . وأنشأ بها أمراء دولته القصور والبساتين ، ومنها قصر المرحوم حسن باشــا المنسترلى الباقى حتى الان بجــوار المقياس . كما كان للمغفور له إسماعيل باشا قصر وبستان بالقرب من هذا المسجد . وقد كان بها كثير من المساجد ، وأهم ما بقى منها مسجد قايتباى .

والسلطان الملك الأشرف قايتباى من خيرة ملوك مصر الجراكسة الذين عنوا بالعمارة الإسلامية . وله فيها آثار كثيرة بمصر والشام والحجاز ، كلها غنية بشتى الفنون .

(*) انظر الصور من رقم ٢٠٦ — ٢٠٧ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) المقريزى، ج ٢ ص ١٩٧

(٢) المشتهى للمغفور له تيمور باشا مجلة الزهراء ج ٥ م ٥ ، ص ٢٩٤ ، حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ٥٣

وأول من أنشأ هذا المسجد هو ناظر الجيش محمد بن فضل الله القاضى فخر الدين المعروف بالفخر المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م)[١]، ثم جدده الصاحب شمس الدين عبدالله المقسى فعرف بجامع المقسى. ثم تخرب وعطلت الشعائر فيه الى أن هدمه ثم أنشأه الملك الأشرف قايتباى، وألحق به ناعورة على وضع غريب ركب عليها طاحونا تدور بدورانها .

وكان البدء فى تجديده سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) . وفى سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) زاد فيه وأنشأ حوله الحدائق والعمائر .

وقد أشار السخاوى الى منشآت قايتباى وذكر هذا المسجد ضمنها فقال : « وبالروضة جامع هائل كان من قديم مع صغره ساقطا مائلا فهدمه، وعمل بجانبه ربعا، وأنشأ خلفه قاعة، وأنشأ عدة دكاكين وطاحونا بإشراف البدر حسن بن الطولونى المهندس[٢] » .

أما ابن إياس فقد ذكر الفراغ من هذه الأعمال فى سنة ٨٩٦ هـ (١٤٩١ م)[٣] .

ويظهر أن البدر بن الطولونى كان مفتونا بجمال هذه المنطقة، فقد كان يحتفل فى كل ليلة ١٤ من الشهر بالمسجد؛ إذ يجتمع القراء والوعاظ، وتنصب خيام أمام الجامع، وتضاء الأنوار، وتجتمع المراكب فى النيل، حتى عرفت لياليه بالبدرية .

وقد عرف المسجد أيضا باسم السيوطى لأن الإمام جلال الدين السيوطى أقام به أو سكن قريبا منه .

وفى سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) احترق المسجد بسبب انفجار بارود[٤]، قضى على جميع نجارته الأثرية.

وهو الآن أقل مساجد قايتباى زخرفا، ولعل هذا راجع الى ما أصابه . أما تصميمه فهو تصميم مدرسة؛ أربعة إيوانات يتوسطها صحن مكشوف يحيط به أربعة أبواب مكتوب على أحدها «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» . وعلى الآخر: « وصلى الله على سيدنا محمد السراج المنير» وعلى الثالث : « فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » .

وكأنه أريد باختيار الآية الأخيرة الإشارة إلى تجديد الجامع بعد اندثاره . ويعلو كلا من هذه الأبواب نفيس منقوش وعقد مسلوب مقرنص .

والإيوان الشرقى أكبرها . وقد نقشت حجور الشبابيك الشرقية بزخارف جصية مورقة رأيناها فى مدرسته بالصحراء .

(١) كوكب الروضة للسيوطى ص ٩٤ خط، المقريزى، ج ٢ ص ٣١١ (٢) الضوء اللامع، ج ٦ ص ٢٠٨
(٣) ابن إياس، ج ٢ ص ٢٧١ (٤) الجبرتى، ج ٣ ص ١٩١

والمحراب من الحجر ، وقد حلّى بجفوت ومميات وكتب بتجويفته ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » ويعلو المحراب سطر بطول الجدار الشرق مكتوب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا . الى قوله تعالى : تجرى من تحتها الأنهار » .

والوجهة الشرقية بها الباب وقد كتب على جانبيه اسم قايتباى وألقابه بما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه المدرسة المعظمة مولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره سلطان الإسلام والمسلمين محيي العدل فى العالمين ناصر شريعة سيد المرسلين خلد الله ملكه وثبت قواعد دولته » .

وهو مبنى بحجارة صفراء وبيضاء ، وعتبه مزرر ، وله عقد مدائنى مخوص به تلابيس حجرية . وتقوم المنارة على يساره ، وهى مبنية بالحجر ، ومكونة من ثلاث دورات . دورتها الأولى مخضرفة بدون نقش ، والثانيـة من كرانيش (خرزانية) ، والثالثة مقرنصات . وبدن الدورتين مستدير ، وقد أحيطت الدورات الثلاث بشقق درابزين مفرغة بأشكال متنوعة .

ويلفت النظر أن منارات السلطان قايتباى فى مصر تنوعت أشكالها . وهذا دليل ملموس على نبوغ مهندسيه وعبقريتهم .

وكان لتأدية مولانا الملك فاروق الأول فريضة الجمعة فيه خير أثر فى إصلاحه ، وتعبيد الطرق المؤدية اليه وتوسيعها . مما جعل الألسنة تلهج بالدعاء لجلالته .

وإنى أتمثل بأبيات أنشدها الشاعر أيدمر المحيوى فى الملك الصالح نجم الدين لما عمر قلعة الروضة[1] .

الصالح الملك الذى أيامه * عقد به جيد الزمان مطوق
أبهى من القمرين أصبح للهدى * نجما به فلك السعادة مشرق

(١) ديوان أيدمر المحيوى ص ٣

مسجد أبي العلا

بشارع فــؤاد الأول (*)

نسب هذا المسجد إلى الشيخ الصالح حسين أبى على المكنى بأبى العلا، الولى المعتقد صاحب الكرامات والمكاشفات ؛ على ما يصفه به الصوفيون الذين أطنبوا و بالغوا فى كراماته .

سكن هذا الشيخ فى خلوة بزاويته بالقرب من النيل فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وكان للناس فيــه اعتقاد، فكثر مريدوه ومعتقدوه . وكان من بينهم التاجر الكبير الخواجا نور الدين على ابن المرحوم محمــد بن القنيش البرلسى ، فطلب منــه الشيخ أن يجــدد زاويته وخلوته التى كان يتعبد فيها . فصدع بالأمر وأنشأ هذا المسجد ، وألحق به قبة دفن فيها الشيخ أبو العلا حينما توفى سنة نيف وتسعين وثمــانمائة هجرية (١٤٨٦ م) [(١)] .

ويرى المرحوم محمد [(٢)] رمزى بك أن هذا المسجد حل محل المسجد الذى أنشأه الفخر ناظر الجيش محمد بن فضل الله سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) .

وكان إنشاؤه للمسجد حوالى سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥م)، وهو عصر ازدهرت فيه العمارة الإسلامية . والغالب على تصميمه وقتئذ أنه كان على طراز مدرسة ذات أربعة إيوانات متعامدة غنية بالنقوش والكتابات، كما تنبئ بقاياها القديمة . وتنحصر فى الباب البحرى مع قسم من الوجهة البحرية والشرقية والقبة والمنــارة والمنبر .

فالباب العمومى مبنى بالحجر، وله عقد مدايني بطاقية مقرنصة، ومكتوب عليــه قوله تعــالى : ﴿ وما تفعلوا من خير فان الله به عليم ﴾ .

وتقوم المنارة على يسار الباب ؛ وهى منارة حجرية رشيقة مكونة من ثلاث دورات لا تقل أهمية عن المنارات المنشأة فى عصرها الزاهر . فقد حلى بدن الدورة الأولى بجفوت وعقود، كما حلى بدن الدورة الثانية بخطوط متقاطعة على شكل شرفات ، وقامت الدورة الثالثة على عمد رخامية صغيرة .

(*) انظر الصور من رقم ٢٠٨ — ٢١١ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) طبقات الشعرانى، ج ٢ ص ١٠١

(٢) تعليقه على ص ٢٠٢ ج ٩ النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية .

وقد كتبت بأحزمة القاعدة وأسفل مقرنصات الدورات آيات من سورة «تبارك»، كما كتبت آيات منها أيضا فى المربعات فوق قاعدتها .

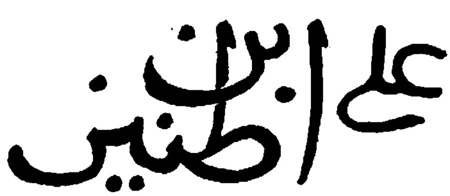
وقد بدأت الكتابة التاريخية بالوجهة على يسار الباب، وامتدت إلى وجهة القبة . ومع الأسف تشوه وفقد أكثرها، ويقرأ منها الآن : « أنشأ هــذه المدرسة المباركة من فضل الله تعالى وجزيل عطائه العبد الفقير إلى الله تعالى الحـ ... على ... محمد ... القنيش ... غفر ... » .

وتقوم القبة فى أوائل الوجهة الشرقية، وهى قبة مبنية بالطوب تغلب عليها البساطة من الخارج، بخلاف قباب عصرها التى امتازت بجمال نقوشها وبلوغها القمة من الرقى . وليست هــذه البساطة مقصورة على هذه القبة، بل يشاركها فيها بعض قباب عصرها، مثل قبة يخاس الإسحاقى، وقبة قانصوه أبى سعيد وغيرهما . ومكتوب فوق عتبى شباكى القبة آيات من القرآن تظهر الأطراف العلوية للحروف متقاطعة بشكل زخرفى مثل ما نراه منها فى مسجد الغورى وفى ثريات وشمعدانات باسم قايتباى .

وأهم ما يسترعى النظر بداخل هذه القبة الزخارف المدقوقة بتواشيح المحراب والشبابيك ثم كتابة تاريخية فوق المحراب نصها : «أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى الخواجا نور الدين على بن المرحوم ...[1] الدين محمد بن القنيش غفر الله لهم لسيدنا ومولانا الشيخ حسين أبا على نفعنا الله ببركاته والمسلمين فى الدنيا والآخرة » .

وبرقبة القبة شبابيك ومضاهيات منقوشة كما نقشت القبة بنقوش هندسية ملونة .

أما نجارته فقد كانت على جانب عظيم من الأهمية، ولم يبق منها إلا المنبر الذى لا شك فى أنه فخر المنابر الإسلامية فى دولة المماليك الجراكسة ؛ فقــد طعمت حشواته بالسن والزرنشان، وامتازت جوانبه وأبوابه بتقاسيم فريدة وخاصة فى دائرته الكبرى التى تتوسط ريشتى جانبيه فانها لم توجد فى منبر آخر مع ما فيها من شــذوذ . ومما زاد فى أهميته اشتماله على اسم صانعه المكتوب على باب المقدم بما نصه : «نجارة العبد الفقير إلى الله تعالى الراجى عفو ربه الكريم على بن طنين بمقام سيدى حسين أبو على نفعنا الله » .



اســم النجار

ولعــله ثالث توقيع رأيناه لنجار ممتــاز على منبر حتى نهــاية دولة المــاليك الجراكسة بمصر . ثم رأيت توقيع الكثير منهم فى العصر العثمانى بالأقاليم .

(١) سقطت كلمة، ولعلها شمس .

هذه هى الأجزاء القديمة الباقية من هذا المسجد، لأنه قد تواترت عليه إصلاحات كثيرة ، فقد أجريت به عمارة سنة ١١٥٤ هـ (١٧٤١ م) . وأخرى سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) .

وقد دفن به غير واحد من العلماء منهم الشيخ أحمد الكعكى المتوفى سنة ٩٥٢ هـ (١٥٤٥ م) والشيخ عبيد والسيد على حكشه المتوفى سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٤ م) والشيخ مصطفى البولاقى المتوفى سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) .

وقد ترتب على هذه الأعمال تغيير فى المسجد، فقد أدركه المغفور له على باشا مبارك، ووصفه: «بأنه جامع عامر ومقامة فيه الشعائر. له ثلاثة أبواب: أحدها على الشارع وهو الباب الكبير، والثانى تجاه باب المقام غربى الجامع موصل لعطفة ضيقة ، والثالث للميضأة . ويشتمل على إيوانين وثمانية أعمدة من الرخام . ومنبره من الخشب النقى المطعم بالعاج، ومحرابه مكسو بالرخام»(1) .

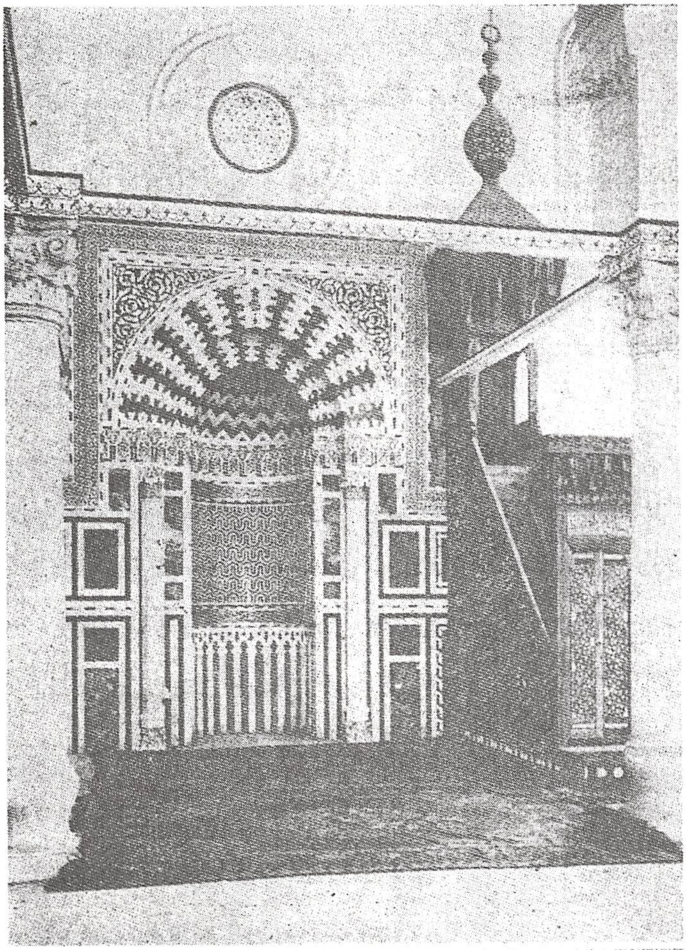
أعقب هذه العمارات تلك العمارة التى قامت بها لجنة حفظ الآثار العربية فى المدة من سنة ١٩١٥ — ١٩٢٠م، فقد أجرت له إصلاحات شاملة ، وأنشأت فى النهاية الغربية للوجهة البحرية سبيلا يعلوه كتاب اقتبست تفاصيله من نماذج عصره، وفكت مبانى المنارة وأعادت بناءها، وأكملت قمتها طبقا لمنارات عصرها .

وقد بقى المسجد موضع الرعاية باعتباره حرم حىّ بولاق المحبب إلى سكانه ، إلى أن سقط سقف إيوانه الشرقى أثناء الاحتفال بمولده فى ١٣ يوليه سنة ١٩٢٢ م فتعطلت الشعائر فيه إلى أن أمر المغفور له الملك «فؤاد الأول» طيب الله ثراه بتجديده وتوسيعه فى سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م). فقامت وزارة الأوقاف بتنفيذ هذه الإرادة السامية، بأن عملت على نزع ملكية الأماكن التى اقتضاها التوسيع ، ثم عهدت إلى إدارة حفظ الآثار العربية فى وضع تصميم لتجديده ، فوضعت تصميما لبناء المسجد ، راعت فيه المحافظة على الأجزاء القديمة وإدماجها فيه ، وعلى أن تكون جميع تفاصيله مقتبسة من منشآت القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) .

والمسجد كما هو الآن تبلغ مساحته ١٢٦٤ مترا، وقد كان قبل ذلك ٨٤٣ مترا . وروعى فيه أيضا أن تكون أبوابه ثلاثة كما كانت ، وقد وضع تصميمه مكونا من أربعة إيوانات سقوفها مرفوعة على عقود من الحجر الأحمر والأبيض، وترتكز على عمد رخامية تحدق بصحن غطى بسقف مذهب، تحيط به شبابيك بمربع الصحن وقد كتب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم قل لعبادى الذين

(1) الخطط الجديدة، ج ٤ ص ٥٢ .

آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلال . إلى قوله تعالى : وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار . أمر بتجديد هذا المسجد وتوسيعه حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول أيد الله ملكه وحفظ له ولى عهده، وكان الفراغ من هذا العمل المبرور والأثر المشكور فى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة الشريفة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية » .



المحراب والمنبر

وقد ابتكرت طريقة لعمل السقوف الأثرية بالأسمنت المسلح زيادة فى متانته، وقسمت على شكل الأسقف الخشبية القديمة، ثم نقش وذهب بإتقان لا يترك مجالا للشك فى أنه من الخشب .

وقد تنوعت تلك النقـوش، فبينما نرى الإيوانين الشرقى والغـربى متمـاثلين نرى الرواقين القبـلى والبحرى برسم آخر.

وقد كسيت جدران إيوان المحراب بوزرة رخامية انتهت من أعلاها بدوائر ملونة ثم إفريز رخامى دقيق، وبه محراب من الرخام الدقيق تنوعت زخارفه وألوانه، يكتنفه عمودان قواعدهما وتيجانهما عربية، كما يحيط به من أعلاه مجموعة من الشبابيك الجصية التى قد تنوعت أشكالها.

وفى مؤخر الجامع دكة المبلغ وجميعها من الرخام، وقد حلّيت بزخارف عربية مذهبة، ونقشت الأوتار الرابطة للعقود، كما وضعت للمسجد إضاءة خاصة.

وقد تناول التجديد وجهاته الثلاث: الشرقية والقبلية والغربية؛ إذ بنيت بالحجر الأبيض والأحمر على التعاقب بارتفاع ١٣,٥٠ مترا، وقد غطيت صفف شبابيك الوجهات بمقرنصات متنوعة، كما حليت الأبواب أيضا. فالباب الغربى المؤدّى إلى الميضأة اقتصرت زخارفه على الحجر الملون، وغطى بمقرنص. أما الباب القبلى فقد حلّيت مزرّراته وجانباه بالرخام الملون وغطى بالمقرنصات. ومكتوب على الطراز العـلوى لهذه الوجهة تاريخ الفـراغ منها بمـا نصه «أمر بتجديد هذا المسجد وتوسيعه مولانا صاحب الأيادى البيضاء على المعاهد والمساجد والموفق لخـدمة كل راكع وساجد من أحيا شعائر الدين وأعلى كلمته وأقام العدل وأصلح رعيته حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول أيد الله ملكه وحفظ ولى عهده ووفق رجال حكومته إلى خير الأمة وسـعادة البلاد. وكان البدء فى هـذا العمل المبرور، والأثر المشكور فى سنة أربع وأربعين وثلثمائة وألف، والفراغ منه فى سنة ثمـان وأربعين وثلثمائة وألف من الهجرة الشريفة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية».

ولا شك فى أن تجديد هذا المسجد كان طبقا لأساليب العمارة الإسلامية الصحيحة. وقد بلغت نفقات تجديده ١٧,٠٠٠ جنيه.

وقد تفضّل حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح «فاروق الأول» فافتتحه بأداء فريضة الجمعة يوم ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ (٥ يونيه سنة ١٩٣٦ م).

مسجد قانى باى الرّماح

بميدان صلاح الدين (*)

الأمير قانى باى — قانى باى قرا كان مملوكا للملك الأشرف قايتباى فأعتقه وعينه فى جملة وظائف، إلى أن رقاه أمير عشرة فى سنة ٨٩٨ هـ (١٤٩٣ م)، ثم عينه نائبا لصهيون، فأميرا لحلب، ثم عاد إلى مصر وتزوج ابنة الأمير يشبك من مهدى .

وفى دولة الناصر محمد بن قايتباى رقى إلى مقدم ألف، ثم أميرآخور كبير فى المحرم سنة ٩٠٣ هـ (سبتمبر سنة ١٤٩٧ م) . واشتهر بالشجاعة والفروسية واللعب بالرمح، فعرف بالرماح .

وقد أنشأ مسجدا فى الناصرية، كما أنشأ هذا المسجد (١) . توفى إلى رحمة الله يوم الجمعة ٢٦ ربيع الأول سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥ م)، ودفن بقبة هذا المسجد .

وهذا المسجد بميدان صلاح الدين، يقع فى الجهة البحرية من مسجد المحمودية، وهو مبنى على شرف عال . وله وجهتان : إحداهما شرقية وبها وجهة الإيوان الشرقى والقبة . والثانية قبلية وبها وجهة القبة والمدخل الرئيسى والمنارة فسبيل وكتاب . ويعتبر من المساجد المعلقة، فهو قائم على عقود مصلبة، تحملها أكتاف حجرية مربعة تكوّن حجرات واستطراقات أسفل المسجد، لها وجهة أسفل الإيوان الغربى، وللحجرات مزغلة وشباك بالوجهة القبلية .

ويتوصل إلى باب المسجد بارتقاء بضع درجات تؤدّى الى باب لبّس عتبه الحجرى برخام ملوّن يعلوه مزرر رخامى مكتوب على جانبيه : « أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة من فضل الله المقر الأشرف العالى المولوى السيفى قانى باى أميرآخور كبير أعزه الله تعالى » .

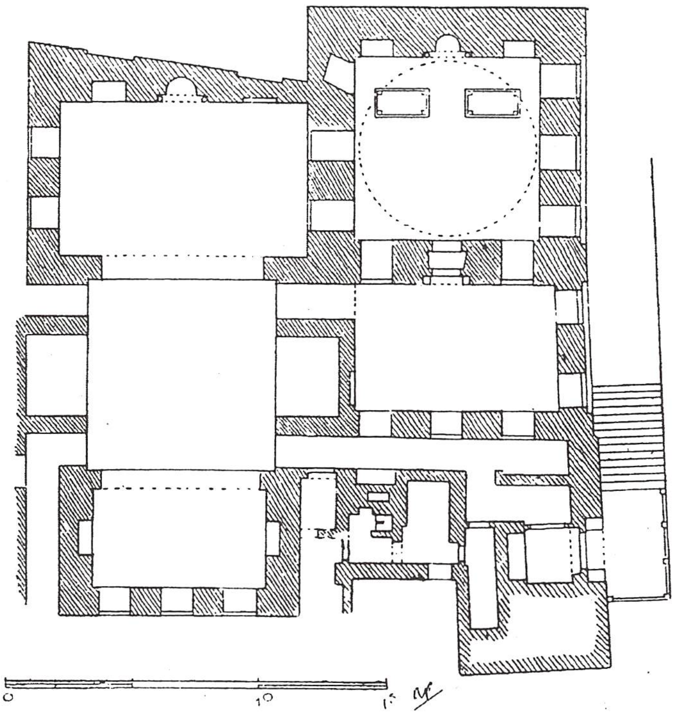
وقد حلى الباب بزخارف حجرية، يغطيه عقد له أرجل مخوّصة ؛ وهذا الباب يؤدى إلى دركاة مربعة، سقفها ملوّن مذهب له إزار مقرنص، ثم طرقة مغطاة بمصلبتين على يسارها باب المنارة، ثم ينثنى إلى طرقة أخرى معقودة تنتهى إلى الصحن .

والمسجد منشأ على طراز المدارس المشتمل على أربعة إيوانات تنوعت عقودها .

(*) انظر الصور الفوتوغرافية من رقم ٢١٢ — ٢١٣ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) ابن اياس، ج ٤ ص ٤٥٠ — ٤٥٣

وهذا المسجد لم تستعمل فيه السقوف الخشبية عدا دركاة المدخل ؛ فهو مغطى بعقود تنوّعت أشكالها ، فالإيوانان القبلى والبحرى عقودهما مدبّبة وهما صغيران . وقد حلى وجهاهما وجوانبهما بالنقوش والكتابات .



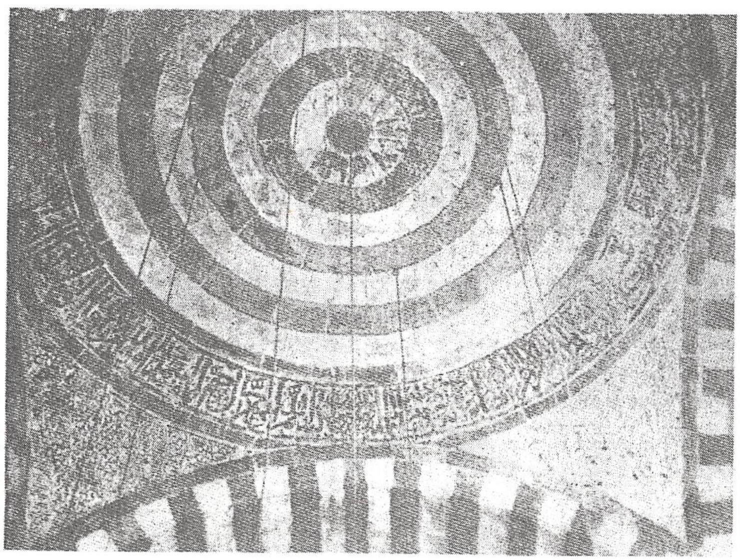
مسقط أفقى

والإيوان الغربى معقود بقبو مصلب ، حلّيت تواشيح وجه عقده بزخارف نباتية ؛ وأهم هذه الإيوانات الإيوان الشرقى ؛ وقد غطى بقبو كرى يكتنفه من الجانبين قبوان دائران ، وقد نقشت أركان هذا القبو بنقوش مذهبة ومكتوب على دائره : « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » إلى قوله تعالى : المهتدين . صدق الله العظيم . أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة المقر الأشرف الكريم العالى المولوى السيدى السندى الذخرى العضدى الكريمى الكبيرى السيفى قانى باى أميرآخور كبير الملكى الأشرفى أعز الله أنصاره بمحمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا » . وكانت هذه الكتابة مذهّبة ، والمحراب حجرى . وقد حلى عقده وطاقيته بنقوش وجفوت وميمات متقاطعة ، ومكتوب بتجويفه : « بسم الله الرحمن الرحيم يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون صدق الله العظيم » .

ويحيط بهذه الكتابة من أعلى وأسفل زخارف على هيئة شرفات بها أثر تلوين وتذهيب .

ويجاور المحراب منبر صغير طعمت حشوات جوانبه وباب مقدمه بالسن، ويكتنفه دولابان حلى شعاعاهما بزخارف نباتية مورقة ، وعلى جانبى هذا الإيوان شبابيك نقشت أعتابها بزخارف دقت فى الحجر ، ويعم الزخرف أحجار هـذا المسجد كما كان يعمها التذهيب شأن الكثير من مساجد ذلك العصر . ومكتوب أعلى الأبواب الأربعة حول الصحن : « أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة المقر الأشرف الكريم العالى السيفى قانيباى أمير آخور كبير الملكى الأشرفى أعز الله أنصاره » .

والبـاب الشرقى القبلى من هـذه الأبواب يؤدى إلى حجرة مستطيلة مغطاة بعقود مصلبة لهـا أرجل مخوصة ، ولها شبابيك تطل على الوجهة القبلية ، وأخرى تطل على طرقة المدخل ، وبجدارها الشرقى باب القبة وهو مغطى بمقرنصات ومكتوب على جانبيه قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم — ادخلوها بسـلام آمنين » . ويعلوه سطر مكتوب فيه : « اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدارين » .

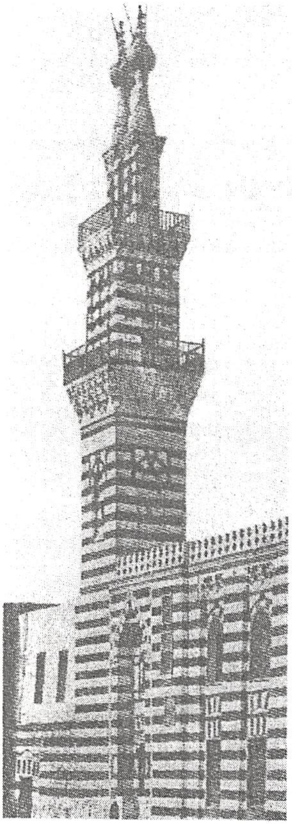


قبـــة الإيوان الشـــرقى

وهذه القبة من النماذج القيمة التى تتجلى فيها عظمة القباب المملوكية فهى بارزة عن وجهة المسجد الشرقيـة ، وبنواصيها عمـد حجرية منقوشـة ، كما نقش سطحها الحجرى بزخارف مورقة جميـلة

ومكتوب على رقبتها : « بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ... الاية . أمر بإنشاء هذه القبة المباركة المقر الأشرف الكريم العالى السيفى قانى باى أميرآخور كبير الملكى الأشرفى » .

وقد أحيطت جدرانها من الداخل بوزرة رخامية انتهت بإفريز لبّست فيه زخارف بالمعجون الملون ، كما نقش عقد محرابها وطاقيته بجفوت متقاطعة مثل محراب المسجد . ومكتوب أعلاه : « بسم الله الرحمن الرحيم . قد نرى تقلب وجهك فى السماء » .



المنارة قبل هدمها

ويحيط بمربعها تحت رجل المقرنص إفريز كبير مكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ... الآية . صدق الله العظيم . أمر بإنشاء هذه القبة المباركة المقر الأشرف الكريم العالى المولوى الأميرى الكبيرى السيدى السندى الذخرى العضدى المالكى المخدومى السيفى قانى باى أميرآخور كبير الملكى الأشرفى بتاريخ مستهل شعبان المكرم عام ثمان وتسعمائة » .

وعلى جانبيها شبابيك : القبلية منها تشرف على الوجهة ، والجانب البحرى به شباكان يشرفان على الإيوان الشرقى ، وثالث يشرف على الحارة و به عالج المهندس شطرة بها . وأمام المحراب قبران أحدهما للمنشئ .

المنارة — وتقوم المنارة على يسار الباب العمومى ، وهى مبنية بالحجر ومكونة من دورتين مربعتين حلّيت جلساتهما بمقرنصات ، و يعلو الدورة الثانية مربعان حلّيا بالمقرنصات ، يعلو كلا منهما خوذة .

والمنارات ذات الرءوس المزدوجة شاعت بمصر فى نهاية القرن التاسع وأول العاشر الهجرى ، رأيناها فى منارة الغمرى بميت غمر ، كما كانت كذلك منارة مسجد جان بلاط بجوار باب النصر التى هدمت سنة ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) [1] ، فمنارتا الغورى بمسجده و بالأزهر . ثم منارة مسجد العمروى بالمنيا . وقد أنشأ الأمير قانى باى منارة مسجده بالناصرية على هذا الطراز أيضا .

(١) الجبرتى ، ج ٣ ص ١٥٩ .

و يصف ابن كثير المؤرخ منارة مدرسة السلطان حسن التى سقطت[1] سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) بأنها كانت مزدوجة الرأس مما يعزز نشأة هذا النوع من المنارات فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

بقيت منارة هذا المسجد إلى أن هدمت حوالى سنة ١٨٧٠ م لخلل طرأ عليها ، وفى هذا الوقت طرأ تغيير كثير على المسجد ؛ فأنشئت بوجهته دكاكين شوهت جماله ، ومنذ ذلك الوقت عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاح المسجد ؛ فأزالت الدكاكين من أمام الوجهة وأصلحتها فى سنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م) ، كما أزالت السقف الحادث الذى كان يغطى الصحن وأزالت البياض الذى كان يحجب الزخارف الملونة والمذهبة ، وأعادت بناء الإيوان الغربى ، وأصلحت قاعدة المنارة وذلك فى سنة ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م) . وكذلك قامت بتقوية المبانى الحاملة للمسجد بالدور الأرضى .

على أن أهم عمارة أجريت به كانت فى عصر الملك الصالح فاروق الأول ؛ فقد أعيد بناء المنارة والسبيل بجوارها طبقا لصورة أخذت بالتصوير الشمسى كانت محفوظة بإدارة حفظ الآثار العربية مهداة لها من فرنس باشا ، وأخرى أهداها إليها جناب الأستاذ كريسويل . مع الاقتباس من منارته بالناصرية . كما أصلح الايوان الغربى وقد تمت هذه الاصلاحات فى سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) ، وكان لها أحسن الأثر فى احياء هذا المسجد وتجميل الميدان .



(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٧٧

مسجد الغوری

بشارع المعز لدين الله (*) (الغورية)

الملك الأشرف قانصوه الغورى — السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه من بيبردى الغورى الجركسى الجنس، ولد فى حدود سنة ٨٥٠هـ (١٤٤٦م) ثم امتلكه الأشرف قايتباى وأعتقه وعيّنه فى جملة وظائف مابين كاشف للوجه القبلى إلى نائب لطرسوس فملطية . وفى دولة الأشرف جان بلاط عين دوادارا كبيرا ووزيرا وأستادارا . ثم نودى به ملكا على مصر فى يوم الأثنين مستهل شوّال سنة ٩٠٦هـ (أبريل سنة ١٥٠١ م) وظل فى ملك مصر إلى أن قتل بمرج دابق شمالى حلب (١)، وهو على رأس جيشه فى قتاله مع السلطان سليم فى ٢٥ رجب سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦ م). وكان ملكا حازما شديدا سياسيا ملك زمام الملك بحكمة وكياسة فخطب ودّه الملوك وبادلوه الهدايا، ففى السنة التى استقبل فيها سفير البندقية بهداياه وهى سنة ٩١٨ هـ و ١٥١٢ م استقبل سفراء أربع عشرة دولة من ملوك الشرق (٢) والغرب يقدمون اليه الهدايا، وفى عصره ازدهرت الفنون والعلوم وراجت سوق الأدب والموسيقى .

وكان رحمه الله مغرما بالعمارة فازدهرت فى عصره وأينعت، واقتدى به أمراء دولته فى إنشاء العمائر . كما عنى بإنشاء الحدائق واقتناء الطيور المغردة .

وقد خلف ثروة فنية جلها خيرية؛ بمصر وحلب والأقطار الحجازية . واهتم بتحصين مصر فأنشأ قلعة العقبة وأصلح قلعة الجبل وأبراج الإسكندرية . وزاد فيها أبراجا وأسوارا وغيّر مأخذ الماء الموصل الى القلعة فأنشأ السواقى على النيل وما يتصل بها من قناطر للمياه حتى تلاقت مع المجراة القديمة . وجدّد خان الخليلى فأنشأه من جديد وأصلح قبة الإمام الشافعى ومسجد الإمام الليث وأنشأ منارة للجامع الأزهر . هذا عدا ما أنشأه من قصور ووكالات وخانات وتعمير مساجد؛ كما عنى بأسطول مصر . وليس أدل على غرامه بالعمارة من إنشائه فى منطقة واحدة مجموعة أثرية مكونة من وكالة وحمام ومنزل ومقعد وسبيل وكتّاب ومدرسة وقبة ثم هذا المسجد .

وهذه المجموعة جميعها فى نهاية شارع الغورية عند تقاطعه مع شارع الأزهر . وهى باكورة أعماله العمارية؛ لأن الفراغ منها كان سنة ٩٠٩ — ٩١٠ هـ (١٥٠٣ — ١٥٠٤ م) .

(*) انظر الصور من رقم ٢١٤ — ٢٢٥ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) شذرات الذهب ج ٨ ص ١١٤ ، ابن إياس ج ٣ ص ٤٧ (٢) ابن إياس ج ٤ ص ٢٦٨

تاريخ المسجد ووصفه — بدأ في إنشاء هذا المسجد الطواشي مختص[1] ، كبير السقاة في دولة الظاهر قانصوه أبي سعيد . ولما ولي الملك الأشرف قانصوه الغوري أمر بالقبض عليه وصادر أمواله ، وطالبه بأموال أخرى ، فأعطاه أرض هذا المسجد بما عليها من بناء سدادا لبعض ما طالبه به ، فهدمه الغوري وأمر بتوسيعه وأضاف له بعض الأسواق ، وعني برخامه وزخرفته إلى أن انتهت عمارته في سنة ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ م) وقد بلغت نفقته نحو مائة ألف دينار .

ومما أخذه بعضهم على الغوري أنه أدخل في عمارته مهمات معمارية اشتراها بثمن بخس ، وأنه هدم وخرب عدة قاعات ، وأخذ رخامها وأبوابها لعمارة الجامع مما حدا ببعض الظرفاء إلى أن يسميه «بالمسجد الحرام» . فليقل فيه حساده ما صوره لهم حقدهم ، ولئن جاز أن نصدقهم في أخذ الرخام فلا نستطيع تصديقهم في النجارة التي أثبتت تفاصيلها أنها عملت خصيصا للمسجد .

وقد احتفل بافتتاحه يوم الجمعة[2] مستهل شهر ربيع الآخر سنة ٩٠٩ هـ (سبتمبر سنة ١٥٠٣ م) بحضور الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة ثم خلع السلطان على قاضي القضاة عبد البر ابن الشحنة لأنه حكم بصحة الخطبة في هذا الجامع وخلع على إينال شاد العمارة وأنعم عليه بإمرة عشرة كما خلع على المهندسين وكافأ الصناع .

ولا شك أن هذا المسجد تحفة هذا العصر ؛ فقد عني به عناية بالغة كما أفرط في زخرفه إفراطا أخرجه من وقار المساجد إلى بهرجة القاعات ، مما حدا بالسلطان سليم أن يصفه بقوله : « هذه قاعة تاجر»[3] .

وكما حرص مهندسه على التماثل والمضاهاة في أجزائه الداخلية ؛ فقد تعدى هذا التماثل إلى خارجه ، فأنشأ تجاهه مدرسة وقبة وسبيلا وكتابا اتفقت معه طولا وعرضا وزخرفا ؛ وهيأ لمن يعبر بينهما فرصة المتعة بجو فني يملأ النفس روعة وجلالا .

ولهذا المسجد ثلاث وجهات : إحداها قبلية وهي بسيطة جدا ، والأخرى غربية وأسفلها حوانيت ويتوسطها الباب الغربي ؛ وقد حلي بنقوش في الحجر وكسيت مصاريعه بالنحاس وكتب على جانبيه : « أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر

(١) ابن إياس ج ٤ ص ٥٣

(٢) ابن إياس ج ٤ ص ٥٨

(٣) أخبار الأول ص ١٢١

قانصوه الغورى عز نصره» . وثالثها الوجهة الشرقية — وهى الوجهة العامة — و بطرفها البحرى الباب العمومى وقد كُسِى بالرخام ومزرّرات رخامية ، يعلوه شباك كسى ما حوله بالرخام على هيئة مزرّرات يغطيه مقرنص صغير منقوش فوقه سطر مكتوب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب و بشر المؤمنين يا محمد » يغطى كل هذا مقرنص من عدّة حطات ينتهى بطاقية ملبّسة بالحجر، وله توشيحتان رخاميتان بكل منهما دائرة مكتوب عليهما : « عز لمولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره » .

وقد زيّنت جلسات الشبابيك وأعتابها بزخارف دقيقة دقت فى الحجر ، وبهذه الوجهة شبابيك الإيوان الشرقى، وقد نقشت جلساتها، كما كسيت أعتابها بمزرّرات رخامية ملوّنة، ونقشت تواشيح الشبابيك العلوية دقًّا فى الحجر، وغُطيت بمقرنصات، وتُوِّجت بشرفة مورّقة منقوشة الوجه .

ويسترعى النظر فيها عمد النواصى الملبسة أجزاؤها بالحجر الملون ، ولها تيجان وقواعد عربية . ومكتوب على أعتاب الشبابيك : « بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا — إلى قوله تعالى — وأعد لهم أجرا كريما » .

ومكتوب على الباب الصغير بوسط الوجهة : «اللهم انصر عبدك مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره» .



(بسملة بطراز الوزرة بمدخل القبة)

ويعلو الوجهة طراز مكتوب فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا إلى قوله تعالى عليا حكيما صدق الله العظيم . أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة من فضل الله تعالى و جزيل عطائه العميم سيدنا ومولانا ومالك رقابنا الإمام الأعظم والملك المكرم صاحب السيف والقلم والبند والعلم السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى سلطان الأرض الحاكم طولها والعرض القائم بالسنة والفرض » .

ويتصل بالنهاية البحرية للوجهة الشرقية بقايا منزل قديم أتمه سنة ١٩٠٧ المرحوم مصطفى افندى الساده على الطراز العربى طبقا لمواصفات لجنة حفظ الآثار العربية .

والمسجد مرتفع وتحته دكاكين وباب يوصل إلى سوق الجملون على جانبيه حوانيت، ويتوصل الى الباب من سلم مزدوج، وقد ركب عليه مصراعان كسيا بالنحاس الدقيق المزخرف ومكتوب عليهما اسم الغورى، وتاريخ الفراغ منهما سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) .

وهذا الباب يؤدّى إلى دركاة مربعة فرشت أرضيتها برخام ذى رسوم دقيقة ملونة مقتبسة من أرضية الإيوان الشرقى لمسجد الأشرف برسباى بالأشرفية ، ولها سقف مذهب وبصدرها مسطبة مفروشة ومؤزرة بالرخام الدقيق ؛ ومكتوب بطرازها بالخط الكوفى المزهر المتزل بالمعجون الأسود فى الرخام الأبيض : « بسم الله الرحمن الرحيم وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق وآجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا صدق الله » .

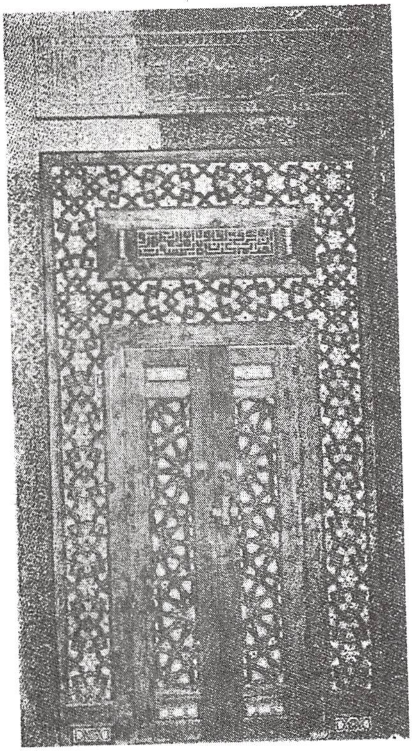
وعلى يسار هذه الدركاة باب يؤدّى الى طرقة بها مزيرة ، غُطيت بمقرنصات بسيطة ويظهر أنها وحيدة فى نوعها .

وتصميم المسجد أربعة إيوانات متعامدة تحيط بجدرانها وجدران الصحن وزرة من أشرطة رخامية تنتهى بإفريز مكتوب عليه بالخط الكوفى المزهّر المتزل بالمعجون الأسود فى الرخام الأبيض ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم — إلى قوله تعالى — قال أعلم أن الله على كل شيء قدير صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . وكان الفراغ من المدرسة السعيدة فى شهر ربيع الأوّل عام تسع وتسعمائة » . ومكتوب بوزرة الإيوان الغربى : « بسم الله الرحمن الرحيم قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون — إلى قوله تعالى — وشجرة تخرج من طورسيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين . صدق الله العظيم ورسوله » . وبصدر الإيوان الشرقى وزرة رخامية ارتفعت الى جلسة الشبابيك العلوية وتنتهى بطراز مكتوب عليه بالخط النسخ المملوكى : « بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا — إلى قوله تعالى — فوزا عظيما صدق الله العظيم ورسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا . وكان الفراغ من هذه المدرسة المباركة السعيدة فى شهر ربيع الأوّل عام تسع وتسعمائة من الهجرة النبوية » .

ويتوسطه محراب من الرخام الدقيق ، ويكسو عقود الشبابيك مزررات رخامية ؛ ويقوم الى جانبه منبر قيّم دقت حشوات السنّ فيه بالأويمة . كما توجد به حشوات صغيرة من الزرنشان، وقد

طُعمت حشوات الدرابزين أيضا ، وطُعمت حشوات باب المقدم من الوجهين — الوجه دقت حشوات السنّ بالأويمة . والظهر من سنّ سادة . كما طعمت خوذته بالسنّ . وذهّبت مقرنصاتها .

وبهذا الإيوان كرسى المصحف وقد طُعم بالسنّ ، وهذا الإيوان ينقسم الى ثلاثة أقسام ، فرشت أرضياتها وأرضية الشبابيك بالرخام الدقيق برسوم تنوعت أشكالها ، وبالقسم البحرى منه دولاب كبير أعدّ لحفظ المصاحف مكتوب عليه بالخط الكوفى المربع « أنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون » ، طُعم وجهه ومصاريعه بالسن والزرنشان ؛ وقد ذهّب دائره وكتب أعلاه : « بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » كما توجد به حجرة صغيرة شبابيكها العلوية تطل على الوجهة .



دولاب بالإيوان الشرقى

وكما أسلفت القول فقد أسرف مهندسه فى زخرفته فلم يترك جزءا منه بدون زخرف ؛ فقد نقشت الأعتاب وكتبت بشكل زخرفى كما نقشت أرجل عقود الإيوانات وباطنها ووجهها بزخارف دقا فى الجحر . ومكتوب حول عقد الإيوان الشرقى : « بسم الله الرحمن الرحيم إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب — الى قوله تعالى — وتوفنا مع الأبرار » .

وقد فرشت أرضية الصحن ، كما فرشت أرضية الإيوانات برخام دقيق ملون تنوعت أشكاله ويحيط بدائر منور الصحن من أعلاه مقرنص خشبى مذهب ، كما نقشت وجهات العقود وتواشيحها بزخارف وكتابات . ويحيط بدائر الصحن من أعلاه طراز مكتوب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا — إلى قوله تعالى — عليما حكيما . بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم — الآية » .

ويكتنف الإيوان البحرى بابان أحدهما يؤدّى إلى الطرقة المؤدّية إلى الباب ، والآخر مضاهية باب .

و يكتنف الإيوان القبلى بابان: الشرقى منهما يؤدّى إلى سلم يهبط إلى دورة مياه صغيرة منعزلة . ودورات المياه أسفل المساجد من مميزات المساجد فى دولة المماليك الجراكسة . والباب الغربى منهما يؤدّى إلى طرقة بها مزيرة على وجهها حجاب من الخشب الخرط كما يؤدّى إلى باب المنارة ، وإلى حجرة صغيرة بها تابوت خشبى فوق قبر عرف بقبر الأنصارى ؛ لها شباك يطل على الإيوان الغربى ،وتنهى بدرجات تهبط الى الباب الغربى للمسجد، وبصدره باب حديدى يهبط إلى آستطراق فى الأسفل بطول الجامع يؤدّى إلى الباب الذى يتوسط الوجهة الشرقيـة — والمحوّل الان إلى دكان — ومكتوب على الأبواب الأربعـة بالصحن : « أمر بإنشاء هـذه المدرسة المباركة من فضل الله تعالى وجزيل عطائه سيدنا ومولانا ومالك رقابنا الإمام الأعظم الملك المكرم ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين المقام الشريف السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره » . ومكتوب على أعتابها الحجرية ســور الإخلاص والمعوذتين وتظهر الأطراف العلوية لحروفها متقاطعة بشكل زخرفى .

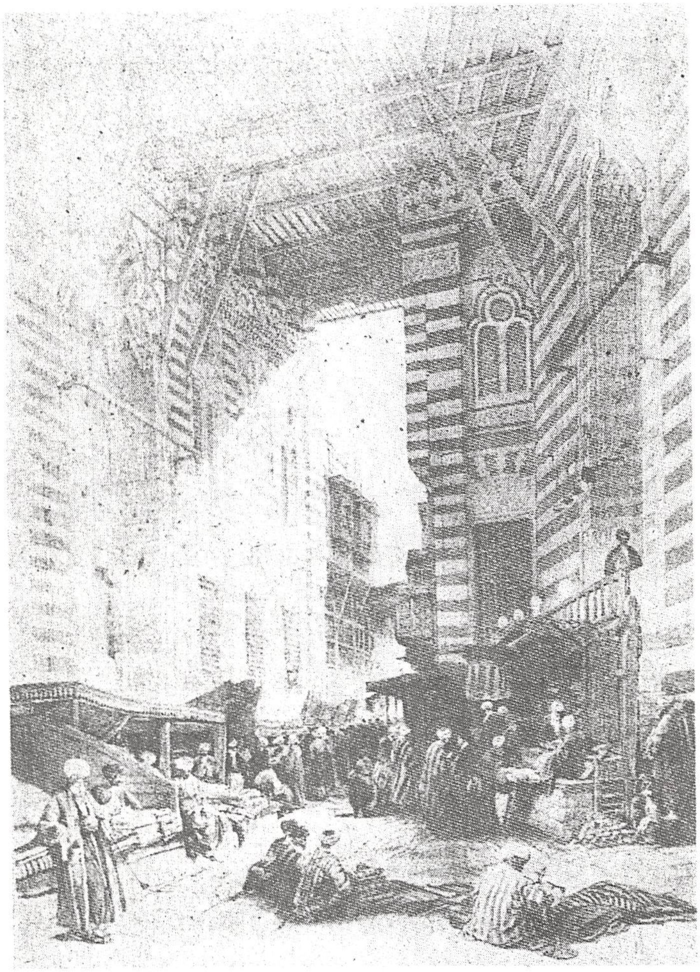
ومكتوب حـول عقد الإيوان الغربى : « بسم الله الرحمن الرحيم شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم — الى قوله تعـالى — وترزق من تشاء بغير حساب » . وكانت الكتابات والنقوش مذهبة .

وفى مؤخر هـذا الإيوان دكة المبلغ محمولة على كابوليين خشبيين ولها درابزين مطعم بالسنّ ومكتوب عليها : « أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة السعيدة من فضل الله تعـالى وجزيل عطائه العميم سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره » . ويتوصل إلى هذه الدكة من السلم الموصل إلى السطح وإلى المنارة .

المنـارة — وتقوم المنارة فى الطرف القبلى للوجهة الشرقية،وهى منارة مربعة ضخمة، أقيمت قاعدتها مع أساس الوجهة، وآشتملت جلسات دورتيها الأولى والثانية على مقرنصات دقيقة متنوعة . ويعلو الدورتين دورة ثالثة كانت مكسوّة بالقاشانى تحمل مربعا آخر فوقه خمسة رءوس خشبية، هذا هو وصف المنارة الحالية التى طرأ عليها تغيير كثير منذ نشأتها، فقد وصف آبن إياس المؤرخ منارته بمناسبة افتتاح المسجد فى يوم الجمعة مستهل شهر ربيع الاخر سنة ٩٠٩هـ (سبتمبر سنة ١٥٠٣ م) فقال : إن منارته لها أربعة رءوس . وهو أول من آتخذ ذلك[١] ؛ ثم ذكر فى حوادث شهر جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ

(١) ابن إياس ج ٤ ص ٥٨

(١٥٠٥ م) أنه حصل خلل وميل بهـذه المنارة ، وآلت إلى السقوط بسبب ثقل علوها لكونهـا تشتمل على أربعة رءوس فأمر السلطان بهدمها ؛ فلما هدمت أعيد بناؤها ، وقد بنى علوها بالطوب وكسى بالقاشانى الأزرق (١) وتبعا لذلك قد أبدل الرءوس الأربعـة التى تسبب منها الخلل برأسـين ؛



المسجد والقبة تجمعهما السقيفة — عن دافيد روبرت

ولذلك فإنا نرى قمة المنارة فى الرسم القديم الذى عمله مسيو بريس دافين حول سـنة ١٨٥٠ م دورة رابعـة مزدوجة بخوذتين يحيط بهما درابزين من خشب الخرط ، مثـل الدورة الثالثـة فى منارته

(١) ابن إياس ج ٤ ص ٨٤

بالجامع الأزهر ، وقد كسي بدن الدورة الثالثة حتى قمة الخوذتين بقاشاني كما يبدو في الصورة . ثم طرأ عليها التغيير الذي نراه الآن بعد هذا التاريخ .

وكان يغطي ما بين المسجد والقبة سقيفة خشبية أدركها وصوّرها كل من مسيو روبرت هي في كتابه مناظر عن القاهرة ، ودافيد روبرت في كتابه مصر والنوبة[1] . وقد بقيت هذه السقيفة حتى هدمت سنة ١٨٨٢ م[2] .

وكان هذا النوع من السقايف يعم أسواق القاهرة وأخطاطها . كما اشتملت لوحة بريس داڤين على صورة للقبة قبل هدمها . وهذه القبة وإن كانت غير موجودة الآن، فقد كتب لها منذ إنشائها عدم الاستقرار ؛ فقد كان الفراغ من أول إنشاء لها في شهر ربيع الآخر سنة[3] ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ م) وكانت مكسوة بقاشاني أزرق . غير أنها لم تلبث كثيرا حتى ظهر بها خلل جسيم في شهر شوال سنة ٩١٧ هـ (يناير سنة ١٥١٢ م) فأمر السلطان الغوري بهدمها وإعادة بنائها وكسوتها بالقاشاني[4] .

ولم يمض على بنائها ثانيا إلا عامان حتى ظهر بها خلل في شهر صفر سنة ٩١٩ هـ (١٥١٣ م) فأمر بهدمها وأعاد بناءها[5] ، وظل يستحث العمال على إنجازها حتى تمت وكسيت بالقاشاني .

ويبدو في الصورة المنشورة لها أثر كسوة القاشاني في سطحها . وقد نقل إلى دار الآثار العربية من هذه القبة طراز كبير من القاشاني كان مكتوبا عليه آية الكرسي بحروف بيضاء على أرضية زرقاء ومن المرجح أنه كان يكسو رقبة القبة .

ثم هدمت القبة وأبدلت بها قبة خشبية عملت حوالي سنة ١٨٨١ م ، ثم هُدمت وحل محلها السقف الحالي . وجدرانها من الداخل حافلة بالنقوش والكتابات وبها وزرة وأرضية رخامية .

وفي سنة ١٩٣٤ م وافق القسم الفني للجنة حفظ الآثار العربية على إعادة بناء القبة طبقا لأصلها القديم . وقد كتب على الوجهة الغربية لهذه القبة مانصه : « أمر بإنشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان العالم العامل العادل المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين محيي العدل في العالمين قاتل الكفرة والمشركين مولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري خلد الله تعالى ملكه بمحمد وآله وصحبه أجمعين آمين » .

(١) المجلد الثالث . (٢) دليل دار الآثار العربية ص ٢١٤

(٣) ابن إياس ج ٤ ص ٥٨ (٤) ابن إياس ج ٤ ص ٢٤٩

(٥) ابن إياس ج ٤ ص ٢٩٩

و باب القبة ومصراعاها مثل باب المسجد المقابل لها تماما . و بالطرف البحرى لها السبيل وقد كتب فى طراز على وجهتيه : «أمر بإنشاء هذا المعروف المبارك من فضل الله تعالى سيدنا ومولانا السلطان الأعظم ومالك رقاب الأمم سيد ملوك العرب والعجم السلطان العالم العادل المالك الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى خلد الله تعالى ملكه وأدام أيامه بجاه محمد وآله وصحبه وسلم . وكان الفراغ من ذلك فى شهر ذى الحجة الحرام سنة تسع وتسعمائة من الهجرة النبوية محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين» .

ولهذا السبيل سقف جميل مذهب وأرضية رخامية دقيقة جدا، وسلسبيل رخامى نقشت على حافتيه صور أسماك . تعلوه لوحة رخامية مكتوب عليها :

انظر جمالى فإنى حين أرسله * يحكى سلاسل بلور على ذهب

ومكتوب فوق الأبواب بجانبيه : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك مولانا السلطان قانصوه الغورى عز نصره بتاريخ فى شهر رمضان المعظم سنة تسع وتسعمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين » .

وبعد الفراغ من القبة ومدرستها سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) نقل اليها السلطان الغورى الآثار النبوية الشريفة وقد كانت مودعة برباط الآثار، وذلك بناء على فتوى من العلماء . كما نقل اليها «المصحف العثمانى، ثم نقل اليها الربعة العظيمة المكتوبة بالذهب، وكانت بالخانقاه البكتمرية»[1] .

وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاح المسجد والقبة وملحقاتهما ، فأجرت بهما إصلاحات من سنة ١٩٠٢ — ١٩٠٧ بلغت قيمتها ٣٣٣٢ جنيها أتبعتها بإصلاحات أخرى .

وفى عهد الملك الصالح فاروق الأول أجريت إصلاحات بالمسجد، وسينفذ إن شاء الله مشروع إعادة بناء القبة تكريما لتلك الشخصية التى مجدت الفنون، وشادت هذا المسجد الذى يعدّ بحق من مفاخر العمارة الإسلامية .

---

(١) المصحف المعروف بالعثمانى محفوظ بالمشهد الحسينى، أما الربعة فهى كاملة ومحفوظة بدار الكتب المصرية، وهى من النفائس، ففى أول كل جزء من أجزائها صفحتان منقوشتان بالذهب والألوان، وهى مكتوبة برسم الملك الناصر محمد بن قلاوون. وبها اسم كاتبها ومذهبها عبدالله بن محمد بن محمود الهمذانى بدار الخيرات الرشيدية بهمذان فى شهور سنة ٧١٣ هـ . وعليها وقف مؤرخ سنة ٧٢٦ هـ من أبى سعيد سيف الدين بكتمر بن عبد الله وجعل مستقرها القبة التى بالتربة المعروفة بانشائه بالقرافة الصغرى المجاورة لحوش الملك الظاهر (l'Exposition Persane de 1931 P. 70-72) .

مسجد المحمودية

بميدان صلاح الدين (*)

ميدان صلاح الدين (المنشية) — هذا الميدان الجميل غنى بمجموعات أثرية هامة ، حيث تشرف عليه من شرقيه قلعة صلاح الدين ومسجد محمد على باشا الكبير، ومن غربيه مسجدا السلطان حسن والرفاعى . ومن بحريه مسجد قانى باى أميرآخور بقبته الجميلة ومنارته الجديدة . ويتوسط الميدان مسجد المحمودية .

المنشئ — أنشأ هـذا المسجد محمود باشا والى مصر من قبل الدولة العثمانية فى عصر السلطان سليمان بن السلطان سليم ، وقد قدم اليها فى أول شهر شوال سنة ٩٧٣ هـ (أبريل سنة ١٥٦٦ م) .

ومما يذكر عنه أنه لما وصل الى ثغر الإسكندرية (١) قدمت اليه الهدايا والتحف والخيل . وحين بلغ القاهرة قدم اليه حاكم الصعيد الأمير محمد بن عمر هدايا كثيرة وتحفا وخمسين ألف دينار، فتسلم منه الهدايا ثم غدر به فقتله واستولى على ثروته .

وكان عسوفا ظالما شديدا جائرا فى أحكامه، وقد صادر كثيرا من أموال الناس ، غير أنه كان مع ذلك مشهورا بالكرم .

وفى يوم الأربعاء آخر جمادى الأولى (٢) سنة ٩٧٥ هـ (ديسمبر سنة ١٥٦٧ م) ، وقيل فى غرة جمادى الثانية خرج محمود باشا بموكبه الفخم من القلعة، وبينما هو يمر على بركة الناصرية بين البساتين اعتدى عليه شخص مجهول وأطلق عليه طلقا ناريا أصابه ، ولم يجد فيه العلاج ، فأوصى بعتق جميع مماليكه ، كما أوصى بجميع ممتلكاته لزوجته . ثم توفى الى رحمة الله تعالى ودفن فى مسجده .

تاريخ الجامع ووصفه — كان الفراغ من بناء هـذا المسجد سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ م) . وهو من المساجد المعلقة يصعد اليه ببضع درجات، وله أربع وجهات مبنية بالحجر ، وتضم الوجهة الشرقية القبة ، وهى بارزة عن سمت الوجهة وقائمة بمفردها ، بنيت هى وقاعدتها بما فيها الرقبة الهرمية بالحجر . أما القبة فمبنية بالطوب وهى بسيطة جدا وغير متناسبة مع القاعدة الحاملة لها .

(*) انظر الصور من رقم ٢٢٦ — ٢٢٧ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ص ٤٩ — ٥٢ خط .

(٢) فى التوفيقات الالهامية فى غرة جمادى الآخر . وفى أخبار الأول ٢٩ جمادى الآخر .

والقباب فى ذلك العصر قد أخذت فى الانحطاط ماعدا القليل منها ، وإلا فأين هذه القبة من قبة قانى باى أميرآخور المجاورة لها الحافل سطحها بالنقوش الجميلة مع أن الفرق بينهما ٦٧ سنة فقط.

أما الوجهة القبليـة وهى الرئيسية للسجد فيتوسطها باب عقده موتور، يعلوه ثلاثة مربعات بداخلها مزررات على هيئة شرفات ، يعلوها عتب آخر مزرر وشباك صغير مغطى بمقرنص ، فوقه مقرنصات أخرى ، فطاقية الباب الملبسة بالحجرين : الأبيض والأحمر . ويكتنف عقد الباب توشيحتان ملبستان بالحجر الأبيض والأحمر . قد كتب فى ميمة العقد «الله حسبى» .

وتدل الصور القديمة لهذا المسجد المصورة حوالى سنة ١٨٨٠ م ، على أنه كان يقوم إلى يسار هذا الباب سبيل أدركت لجنة حفظ الآثار العربية بقايا أرضيته الرخامية فأودعتها دار الآثار العربية. ولا تزال حتى الآن له بقايا .

وفى الناصية الشرقية القبلية قاعدة مستديرة ، حُلّيت بزخارف تنتهى عند ارتفاع الواجهة بمقرنص متصل بالمقرنصات التى تغطى حجور شبابيك الوجهة القبلية ، وتعلو هذه القاعدة منارة بسيطة ذات دورة واحدة تنتهى من أعلاها بمسلّة ، وهذا هو طرز المنـارات التى دخلت مصر فيما دخلها من الطراز العثمانى ،وهى إذا قيست بمنارات مصر الرشيقة الجميلة فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) تجلى مقدار تأخر العمارة فى كثير من التفاصيل المعمارية فى هذا العصر .

وبناء المنارة فوق قاعدة مستديرة وفى هذا الوضع ، وبناء القبة خلف المحراب بارزة عن الجدار الشرقى ، اقتبسها مهندس هذا الجامع من مسجد السلطان حسن القريب منه .

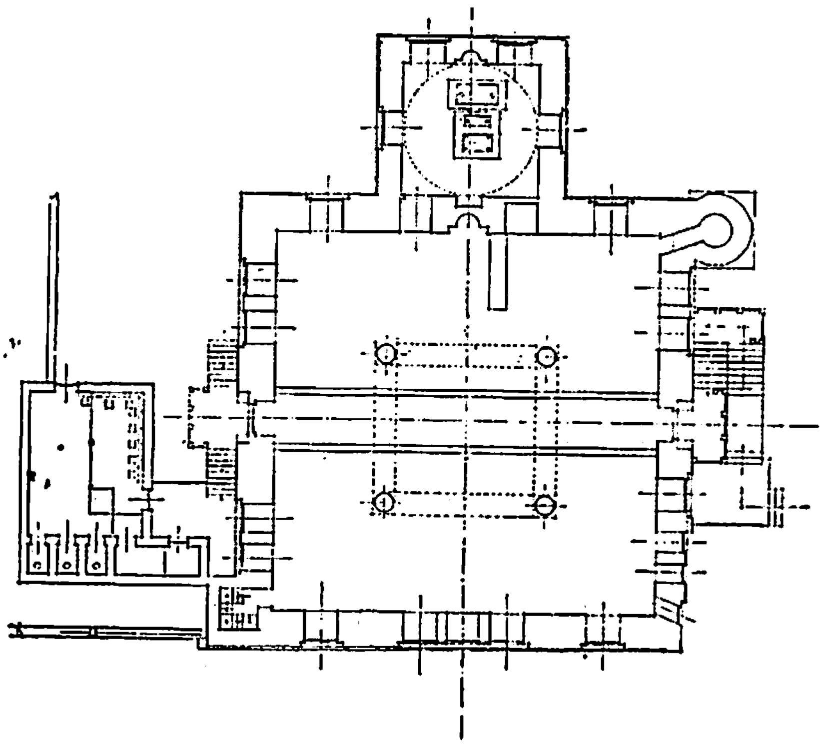
ويتوسط الوجهة البحرية باب يقابل الباب القبلى اختلف عقده بمقرنصاته عن الباب الآخر ، يجاوره من غربيه باب صغير يؤدّى إلى استطراق معقود أسفل الإيوان الغربى للجامع .

والمسجد من الداخل عبارة عن قاعة كبيرة مربعة طول ضلعها ١٩,٧٥ مترا تتوسطها أربعـة عمد كبيرة من الجرانيت الأحمر ، تحمل أربعة عقود كبيرة قام وسطها منور ارتكزت عليها وعلى كوابيل حجرية عوارض خشبية تحمل السقوف حوله .

ويشطر المسجد طرقة منخفضة عن مستواه قليلا ، وهى تصل البابين القبلى والبحرى قسمته الى إيوانين .

وهـذا التصميم شاع أيضا فى مساجد مصر فى الدولة العثمانية ، فلا هو تصميم مسجد ولا هو تصميم مدرسة .

ويتوسط الجدار الشرقي محراب بسيط من الحجر عار عن الزخرف، فقد عموداه منذ أمد بعيد، يعلوه شباك جصي مكتوب عليه «لا إله إلا الله محمد رسول الله». يجاوره منبر من الخشب المجمع له درابزين من الخشب الخرط.



مسقط أفقي

وعلى يسار المحراب باب يؤدي إلى القبة الواقعة خلف المحراب مباشرة، وقد فرش مدخلها برخام أسود وأبيض على شكل دالات مما يدل على استعمال الرخام في أنحاء المسجد، وقد ضاع أثناء تخريبه، وهذه القبة مرتفعة جدا يحيط بجدرانها من أسفل شبابيك عليها مصبعات نحاسية تعلوها أخرى جصية جديدة، ويتوسطها ثلاثة قبور: أحدها قبر المنشئ. وهي خالية من النصوص التاريخية.

ويحيط بجدار الجامع من أسفل شبابيك ركبت عليها مصبعات نحاسية، تعلوها شبابيك من جص وزجاج ذات ألوان زاهية. والسقوف من برطوم ومربوعات مدهونة ملونة مذهبة لا تقل أهمية عن مثيلتها في دولة المماليك، ولها إزار كبير مكتوب عليه آيات قرآنية بحروف بيضاء تتخللها فروع زخرفية مذهبة؛ منها آية الكرسي وقوله تعالى: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر. وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين».

ولسقف المنور إزار مكتوب عليه ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . قال صلى الله عليه وسلم من بنى لله مسجداً[1] بنى الله له بيتا فى الجنة أوسع منه . أمر بإنشاء هذا المسجد المعمور من فيض ماله المبرور المقام العالى واسطة عقد اللالى أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام فكان ابتداؤه وتاريخه بحكم منشئه الأول المبدى ٩٧٥ وآنتهاؤه بمعاونة ... ... له من الرتب على أنه ليضيء برا للرضا للقوة ... لأغلبية وأول ... والاكرام المختص ... حضرة الأمير الباشا محمود راجيا من كرم الله القبول[2] والرضا من فضله العفو مرتضى تقبل الله » .

ونتوسط الجدار الغربى دكة المبلغ محمولة على كوابيل حجرية ، ويتوصل إليها من السلم الموصل إلى السطح الموجود فى الركن البحرى الغربى حيث يؤدّى إلى باب ثم استطراق فى سمك الجدار الغربى يوصل إلى هذه الدكة ، وهى حيلة هندسية اتبعت فى بعض مساجد هـذا العصر . ويعلو الدكة مجموعة من الشبابيك الجصية ذات الزجاج الملون .

أعمال الإصلاح — احتفظ هذا المسجد بتفاصيله الخارجية وفقد كثير من تفاصيله الداخلية فأدركته لجنة حفظ الآثار العربية عام ١٨٨٥ م ولم تجد فيه شيئا من الأبواب والشبابيك والأرضيات .

وفى سنة ١٩٠٤ قامت بفحص أسس الجامع وأقامت السلم المؤدّى إليه وقومت مبانيه وعملت له أبوابا جديدة، كما عملت جميع الشبابيك الجصية والشرفات . وآستمرت الأعمال فيـه إلى أن تم إصلاحه وافتتح رسميا بإقامة الشعائر الدينية فيه عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) .

عناية الملك الصالح بالمسجد — ولمـا أدى فريضة الجمعة فيـه حضرة صاحب الجـلالة الملك الصالح فاروق الأول يوم ١٥ المحرم سنة ١٣٥٩هـ (٢٣ فبراير سنة ١٩٤٠م) وعاين الحالة السيئة التى عليها سقف منوره أمر حفظه الله بتجديده وإعادة نقوشه، مع المحافظة على النصوص التاريخية . فنفذت رغبة جلالته السامية .

(١) قال السيوطى فى الجامع الصغير « هـذا الحديث رواه الطبرانى عن أبى أمامة باسـناد ضعيف وفى صحيح مسلم من بنى مسجدا لله تعالى يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتا فى الجنة ، وفى رواية مثله فى الجنة . وفى رواية بنى الله له فى الجنة مثله .

(٢) مجموعة محاضر وتقارير لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٠٦ ص ١١٨

مسجد الشعراوى

بشارع الشعرانى البرانى

الإمام الشعراوى — ينسب هذا المسجد إلى الإمام العامل العابد الزاهد الفقيه المحدث الصوفى عبد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمد بن محمد الشعراوى الشافعى، ولد هذا الإمام سنة ٨٩٨ هـ (١٤٩٣ م) بناحية قلقشندة. ثم انتقلت به والدته بعد أربعين يوما من ولادته إلى قرية أبيه المعروفة بساقية أبى شعرة فنشأ بها، حتى إذا كان سنة ٩١١ هـ[(١)] (١٥٠٥ م) قدم مصر وتلقى العلم على أكابر علمائها وحبب إليه علم الحديث فعكف على دراسته. ثم سلك طريق التصوف وقطع علاقته بالدنيا. فكان يطوى الأيام المتوالية صائما ويفطر على قليل من الخبز، وظل على هذه الحال حتى قويت روحانيته، فكان يفتتح الذكر عقب صلاة العشاء فلا يختمه إلا عند الفجر.

وكانت إقامته بمسجد الغمرى[(٢)]، ثم انتقل منه إلى مسجد فاطمة أم خوند القريب من مسجده الحالى حيث تبعه أتباعه وتلاميذه، وقد حج مرارا.

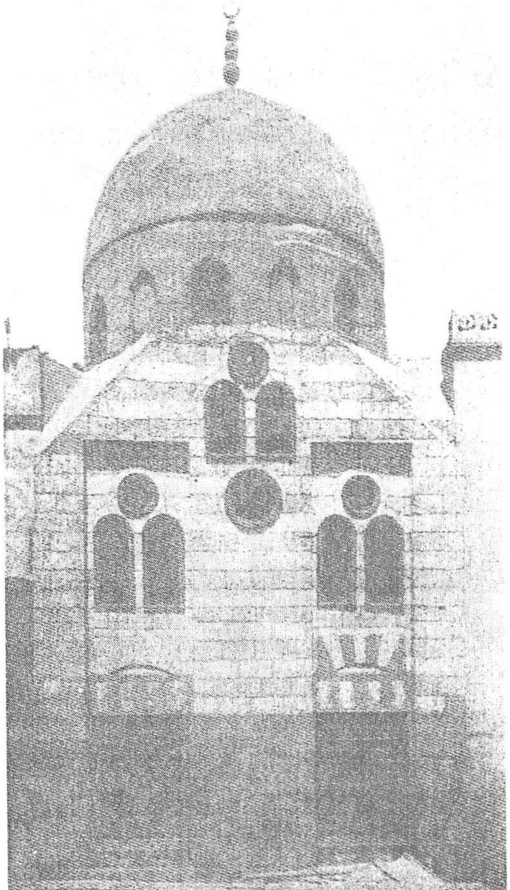
وكان ينهى عن الحط من قدر الفلاسفة وتنقيصهم وينفر ممن يذمهم ويقول: «هؤلاء عقلاء».

والمؤرخون وإن كتبوا اسمه الشعرانى بالنون، فقد رأيته يكتبه بخطه الشعراوى بالواو على قسم من مختصر له لمدونة الإمام مالك بما نصه: «يقول مسطرها عبد الوهاب بن أحمد الشعراوى الشافعى. إنى بلغت فى الاختصار من أول المدونة إلى هنا امتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لى بالاطلاع على أقوال الإمام رضى الله عنه بتاريخ رابع ذى الحجة الحرام سنة ٩٥٤ هـ».

كان رحمه الله متمسكا بأهداب السنة، مغاليا فى الورع، مؤثرا ذوى الفاقة على نفسه حتى بملبسه، موزعا أوقاته على العبادة والدرس. ثم عنى بالتأليف فألف كتبا بلغت نحو السبعين، منها: مختصر الفتوحات، وسنن البيهقى الكبرى، ومختصر تذكرة القرطبى، والميزان، والبحر المورود فى المواثيق والعهود، وكشف الغمة عن جميع الأمة، والمنهج المبين فى أدلة المجتهدين، والبدر المنير فى غريب أحاديث البشير النذير، ومشارق الأنوار القدسية فى العهود المحمدية، والجوهر المصون فى علوم الكتاب المكنون، وطبقات ثلاث، ولواقح الخذلان على من لم يعمل بالقرآن.

(١) شذرات الذهب ج ٨ ص ٣٧٢ — ٣٧٣، الكواكب السائرة قسم ٣ ص ٨٥٩ — ٨٦٠ وفيه أن وفاته فى حدود السبعين وتسعمائة. (٢) الخطط الجديدة ج ١٤ ص ١٠٩ — ١١٢

وفى مدة إقامته بمدرسة(1) أم خوند أنشأ القاضى عبد القادر الأرزمكى(2) مدرسته المعروفة بالقادرية. وهى التى حل محلها المسجد الحالى ، فانتقل إليها الشيخ الشعراوى فآوى إليــه الفقراء وطلبة العــلم



(قبة عبد الوهاب الشعراوى)

لسماع دروسه فى الفقه، وقصده الأمراء والحكام للتبرك، وظل كذلك إلى أن توفى عصر يوم الاثنين ٢ جمادى الأولى سنة ٩٧٣ هـ (نوفمبر سنة ١٥٦٥ م) ودفن فى تربته هذه التى أعدت له يوم وفاته بجوار المدرسة . ثم أقيمت عليها هذه القبة .

(١) هــذه المدرسة ما زالت بقاياها موجودة بالقرب من مسجد الشعراوى وهى من انشاء فاطمة بنت قانيباى العمرى . شرعت فى انشائها حوالى سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م) .

(٢) الخطط الجديدة ج ١٤ ص ١١٠

ولم يبق من مجموعة البناء القديم سوى القبة المقامة على قبره، وهى قبة مبنية قاعدتها بالحجر وبنيت هى بالطوب، وحليت جميع جدرانها من الداخل بنقوش وكتابات بالبوية تتوسطها مقصورة خشبية مطعمة بالصدف عملت سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) . ولهذه القبة باب حشواته مسدسة ومدقوقة أويمة دقيقة ، صناعته سابقة لعصر إنشاء القبة ، وبها شبابيك جصية دقيقة يعلوها مقرنص، ثم شبابيك الرقبة فطراز به آيات من القرآن .

والمسجد الحالى أقيم محل المدرسة القادرية، وقد تم تجديده فى عهد نظارة السيد محمد عبد الحليم الشعرانى سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م) .

وهذا المسجد له ثلاث وجهات : إحداها على شارع الخليج المصرى ، والأخرى على شارع الشعرانى البرانى وبها القبة . وداخله مستطيل ، وبه ثمانية عمد تحمل عقودا يتوسطها منور تعلوه قبة خشبية منقوشة . وقد نقش المحراب بنقوش بالبوية تقليدا للرخام، كما حلى المنبر بنقوش تقليدا لتطعيم السن .

ويتوسط المسجد قبر العلامة الشيخ على نور الدين الشونى ، وقد ترجمه الشعرانى بقوله : « شيخى ووالدى وقدوتى الشيخ نور الدين الشونى ، خدمته [1] خمسا وثلاثين سنة » وشونى اسم بلدة بنواحى طندتا ، وبها نشأ ثم قدم إلى مصر فأقام بها فى تربة السلطان برقوق بالصحراء، وأنشأ بالجامع الأزهر مجلسا للصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) فلما أنشأ السلطان طومانباى [2] العادل تربته نقله إليها ، وعهد إليه بالسبيل الملحق بها . ثم انتقل إلى المدرسة السيوفية ، فأقام بها إلى أن توفى سنة ٩٤٤ هـ (١٥٣٧ م) ، ودفن بالقبة المجاورة لباب المدرسة القادرية » وممن دفن عند الشعراوى أيضا ابنه [3] العالم الصالح الشيخ عبد الرحمن بن عبد الوهاب الشعراوى المتوفى فى أواخر سنة ١٠١١ هـ (١٦٠٣ م) . كان رحمه الله شيخا للمدرسة بعد وفاة والده ووصفه المحبى بأنه « حسن الخلال من بيت مبارك متصل المدد والخيرات » .

---

(١) طبقات الشعرانى، ج ٢ ص ١٩٩

(٢) قبة طومانباى : أنشئت سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) وما زالت موجودة بالعباسية داخل معسكرات الجيش .

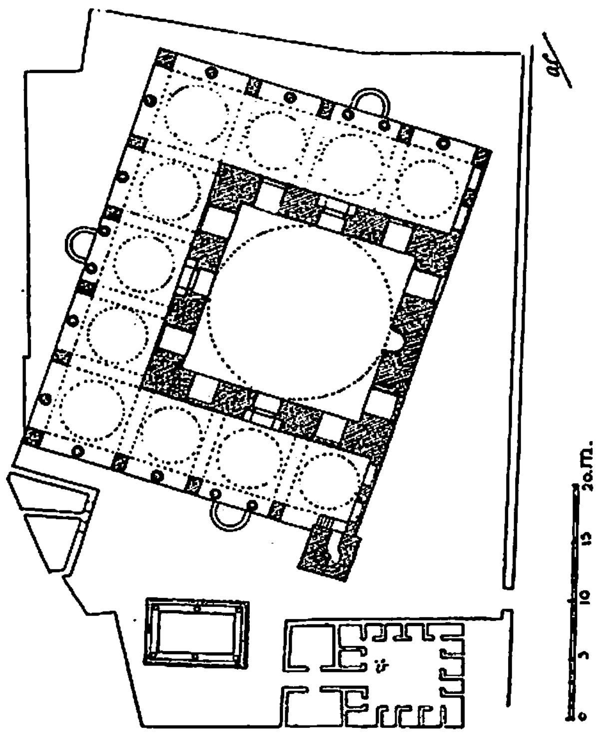
(٣) خلاصة الأثر، ج٢ ص ٣٦٤ ، شذرات الذهب ج ٨ ص ٣٧٤

مسجد سنان باشا

بشارع جامع السنانية ببولاق (*)

سنان باشا — هو القائد التركى الكبير، والسياسى المحنك ، الذى عاصر أربع سلاطين : سليمان القانونى بن السلطان سليم الأول فاتح مصر، وابنه سليم الثانى ، ثم مراد الثالث ابن السلطان سليم الثانى وابنه محمد خان .

عين واليا على مصر مرتين : الأولى فى ٢٤ شعبان سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ م) الى ١٣ جمادى الآخرة سنة ٩٧٦ هـ (١٥٦٩ م) . ثم قام على رأس حملة إلى اليمن لقمع فتنة الزيديين ، فقام بمهمته خير قيام وتم له فتح اليمن .



مسقط أفقى

ثم عاد الى مصر واليا عليها فى أول صفر سنة ٩٧٩ هـ (يونيه سنة ١٥٧١ م) وبقى بها الى ذى الحجة سنة ٩٨٠ هـ (١٥٧٣ م) حيث غادرها إلى إستامبول فعين صدرا أعظم . ثم عهد إليه

(*) انظر الصور من رقم ٢٢٨ — ٢٣٠ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

السلطان سليم الثانى بفتح تونس وآستخلاصها من أيدى الأسبان فقام على رأس جيش كبير وقهر الأسبان وآستولى على قلاع تونس فى ٢٥ جمادى الأولى سنة ٩٨١ هـ فكانت من أهم الغزوات العثمانية .

ثم ولى الصدارة العظمى فى عهد السلطان مراد الثالث فى شهر ربيع الأول سنة ٩٨٨ هـ (١٥٨٠ م). ثم ولى نيابة الشام فبنى بها مسجدا لا زال باقيا إلى الآن، ثم عاد إلى إستامبول وتولى بها الصدارة العظمى . وقد ولى هذه الوظيفة أربع مرات فى عصر بلغت فيه السلطنة العثمانية من سعة الملك مالم تبلغه فى أية مرحلة من مراحل تاريخها .

وكان سنان باشا معاصرا لخوجه سنان المهندس الحربى العظيم ، وذكر جلال أسعد فى كتابه القسطنطينية أن سنان المهندس الحربى سمى خوجه سنان تمييزا له عن سنان آخر من تلاميذه . ومن ثم يغلب على الظن أن منشىء جامع بولاق[1] هو سنان التلميذ وكان أيضا مهندسا عسكريا :

توفى إلى رحمة الله[2] تعالى سنة ١٠٠٤ هـ (١٥٩٦ م) بغأة وهو فى الثمانين من عمره . وترك ثروة كبيرة ما بين نقود وسبائك ذهبية وملابس وأمتعة وتحف وجواهر . فقد كان دخله ٤٠٠ ألف جنيه سنويا .

ومن مآثره إعادة حفر[3] خليج الإسكندرية وإنشائه مسجدا وسوقا وحماما بها لأنه كان مغرما بإنشاء العمائر من خيرية ومدنية فقد ترك منشآت خيرية فى كل البلاد التى أقام بها من مساجد وحمامات وخانات بلغت عددا كبيرا ، منها بمصر خان وحمام ببولاق ، ثم هذا المسجد ، وهى باقية إلى اليوم .

تاريخ المسجد — هذا المسجد ثانى مسجد أنشئ بمصر على الطراز العثمانى البحت ، والأول مسجد سليمان باشا داخل القلعة .

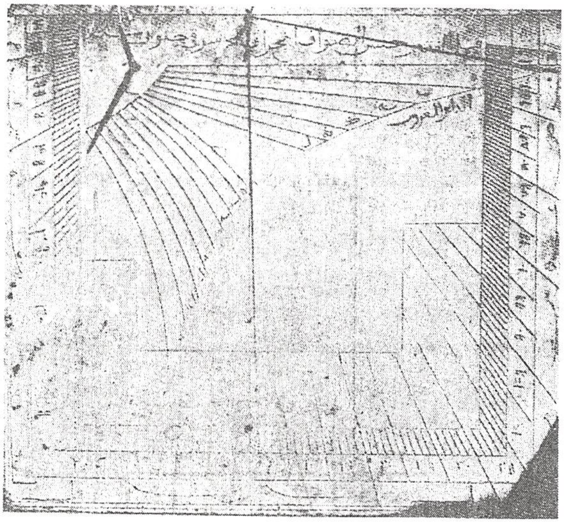
أنشأه سنان باشا سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م) . وهو يتكون من قبة حجرية كبيرة ، لها ثلاث أبواب تؤدى إلى ثلاثة إيوانات فى جوانبها الثلاثة الغربية والقبلية والبحرية ، وعقود الأبواب موتورة ، ويعلوها مقرنصات بدلايات تنوعت أشكالها تشغل حجر الباب . وقد كان المسجد محاطا من خارجه بأسوار بها أبواب هدم الشرقى منها فى سنة ١٩٠٢

(١) M. A. Patricolo, Comptes Rendus du Comité de Conservation des Monuments de l'Art Arabe, 1915-19, p. 176.

(٢) خلاصة الأثر ص ٢١٤ ج ٢ ، والبرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص ١٢٢ — ١٢٣ ، تاريخ الدول الاسلامية ص ١٠٥ ، وأخبار الأول ص ١٣٧ ، والأستاذ الجليل عزيز بك خانكى فى اهرام يوم ٨ يونيه سنة ١٩٤٢

(٣) النزهة الزهية ص ٥٣

ولهذه القبة من الداخل أربع زوايا بكل منها عقد ينتهى ببطاقية مقرنصة بها لفظ الجلالة منزل بالحجر الأصفر فى الحجر الأبيض و يعلو هـذا المربع مستدير مقسم إلى ست عشرة ضلعا ، منها ثمانية بكل منها تسـعة شبابيك جصية مستديرة ، وأخرى بكل منها دوائر حجرية مضاهاة للجصية ، وقـد خلق فى كل ضلع من الأضلاع الستة عشر عمود حجرى رشيق ، يحـل مقرنصات بدلايات ، فوقها ممـر يحيط بالقبة ، له درابزين خشبي ثم شبابيك من الجص قريبة الشبه بشبابيك قبة السيدة رقية الفاطمية . تعلوها القبة وتفصل هذه الشبابيك من الخارج دعائم حجرية .



مـــزولة

والمحراب من الرخام الدقيق ، يجاوره منبر خشبي مجمّع معقلى ، له درابزين من الخشب الخرط . وقد فرشت أرضيات المداخل والشبابيك بمربع القبة برخام دقيق . ممـا يعزز شيوع الرخام فيه .

و يعلو الباب الغربى دكة المبلغ وهى من الخشب ، محمولة على كابولين ، ولها سقف من الخشب يتوسطه مربع به دلّاية ، وقد نقش السقف والكابولان الحاملان له بالبوية .

ويتوصل إليها و إلى الممـر العلوى من سلم فى سمك الجدار الغربى ، له باب فى الشباك البحرى من الجدار المذكور ، وهذا السلم من النكت الفنية ، اقتبسه مهندس مسجد أبى الذهب .

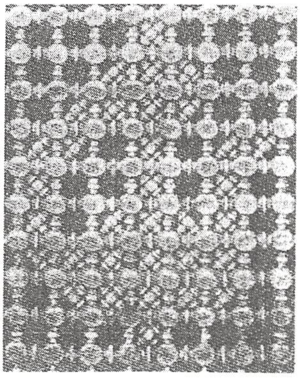
والإيوانات حول القبة من جوانبها الثلاثة البحرية والقبلية والغربية معقودة بقباب نصف كرية ، محمولة على أكتاف وعلى عمد ، فوقها عقود ما بين كبيرة وصغيرة ، تعلوها دوائر جصية مفرغة بأشكال

زخرفية من الداخل والخارج ومكتوب على بعضها : « الله ربى » . والوجهة الشرقية اشتملت على وجهة القبة ووجهتى الإيوانين القبلى والبحرى وقد غطيت شبابيكها بمصبّعات نحاسيّة وتنتهى من أعلى بمقرنصات متنوعة .

وصناعة الأبواب والشبابيك بالقبة من النوع المعروف بالمعقلى وبها دوائر حديدية زخرفية وهى مقتبسة من نجارة مسجد سليمان باشا بالقلعة .

والمنارة فى الطرف القبلى الشرقى، وهى منارة أسطوانية يقوم سلمها مع قاعدتها المربعة، وهى ليست كاملة لأن مسلتها قائمة على نصف بدن دورتها الثانية . ويوجد بالمسجد مزولة من عمل حسن الصوّاف سنة ١١٨٢هـ، مصنوعة من البلاط ومثبتة فى النهاية الغربية القبلية للإيوان الخارجى.

أعمال الإصلاح — تعتبر أهم عمارة أجريت فى هذا الجامع تلك التى نفّذت فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول؛ فقد شملت إصلاحات هامة فى القبة وصيانتها . وكان لفتح الشارع أمام الوجهة البحرية خير أثر فى إظهار هذا المسجد واجتلاء محاسنه .



مسجد الملكة صفية

بشارع محمد علی (*)

أثر المرأة فى الحضارة الإسلامية — بمناسبة نسبة هذا المسجد الى سيدة أتناول البحث فى هذه العجالة البسيطة فى ناحية من نواحى عظمة المرأة فى الإسلام ، نعم ناحية من نواحى عظمتها المتعددة التى تتعطر بها الأفواه ، والتى ستترنم بها مدى الأجيال ، على أن المتتبع لتاريخ المرأة فى الإسلام يرى تاريخا حافلا بجلائل الأعمال حيث نراها اشتركت فى الفتوح الإسلامية ، وفى المعارك الحربية .

ومنهن من ولين الملك ، وكثيرات كن ملكات غير متوجات ، أدرن دفة سياسة الملك بحكمة وروية ، كذلك عين الكثير منهن فى بعض الوظائف الكبيرة فى قصور الملوك ، ناهيك عن أثرها الكبير فى النهضة الأدبية ، هذا فضلا عن نهوضها العلمى الكبير .

والمتتبع لحضارتها يجد أمامه مادة غزيرة مشرقة ، ولا عجب أن كانت الأمم الإسلامية ارتقت ذلك الرقى الذى أدهش العالم .

ولم تكتف المرأة بمشاركتها الرجل فى شؤونه الاجتماعية والسياسية ؛ بل شاركته وتابعته فى أعمال البر والإحسان .

والمشتغل فى تاريخ العمارة الإسلامية يسره أن يرى اسم المرأة خفاقا على طائفة كثيرة من الآثار العظيمة ، وليس ذلك مقصورا على مصر فحسب ، بل فى بغداد والأندلس والحجاز ودمشق وحلب وطرابلس والقدس ، وسائر الأقطار الإسلامية .

ومن دواعى الفخر والإعجاب أن يرى الزائر للآثار الإسلامية بمصر قسما كبيرا باقيا من الآثار التى أمرت بإنشائها النساء .

الملكة صفية — هى زوجة السلطان مراد الثالث ووالدة السلطان محمد خان الثالث ابن السلطان مراد خان الثالث . وهى من فينيسيا من (1) أسرة بافو النبيلة . وكان والدها حاكما على (كرفو Corfou) . وبينما كانت فى سفينة مع فريق من السيدات النبيلات فى طريقها إلى والدها

(*) أنظر الصور من رقم ٢٣١ — ٢٣٤ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) L'Egypte musulmane et les fondateurs de ses monuments Mrs. R.L. Devonshire p. 123 - 124.

سرقها القراصنة ، وكانت سنها وقتئذ أربعة عشر عاما . وكانت على جانب عظيم من الجمال ، وقد بيعت وألحقت بالقصور الملكية باستامبول، فلم تلبث أن تألق نجمها ، وصارت مقربة من السلطان مراد فتسراها . وفى ٧ ذى القعدة سنة ٩٧٤ هـ (١٥٦٧ م) ولدت السلطان الغازى محمد خان[1] .

وبعد وفاة السلطان مراد تولى ولدها السلطان محمد خان الملك سنة ١٠٠٣ هـ (١٥٩٥ م) فزادت عظمتها، ولعبت دورا كبيرا فى سياسة الدولة .

وهنا نتساءل عن علاقتها بهذا المسجد ، وهل جاءت إلى مصر ؟ هذا مالا أظنه، ولكن وقفية الجامع تحدثنا عن سبب نسبته إليها . فقد تضمنت الوقفية أن المنشئ لهذا الجامع هو عثمان أغا ابن عبد الله أغاة دار السعادة مملوك الملكة صفية ، وقف عليه أراضى وعقارات ، ثم آل بطريق شرعى لسيدته .

ولما توفى عهدت الملكة صفية إلى عبد الرزاق أغا ابن عبد الحليم أغاة دار السعادة برفع دعوى مضمونها أن عثمان أغا المذكور هو عبد ومملوك لموكلته ، وأنه ليس مأذونا ببناء الجامع ولا بوقف أربعمائة فدان بزاوية تميم جهة منوف، ولا باقى العقارات ، وأن هذا الوقف غير صحيح، ويطلب الحكم به لموكلته لأنه مملوكها . ثم قدم فتوى من شيخ الإسلام بأن الإيقاف المذكور غير صحيح وأن لسيدته الاستيلاء على جميع أملاكه كسائر أمواله .

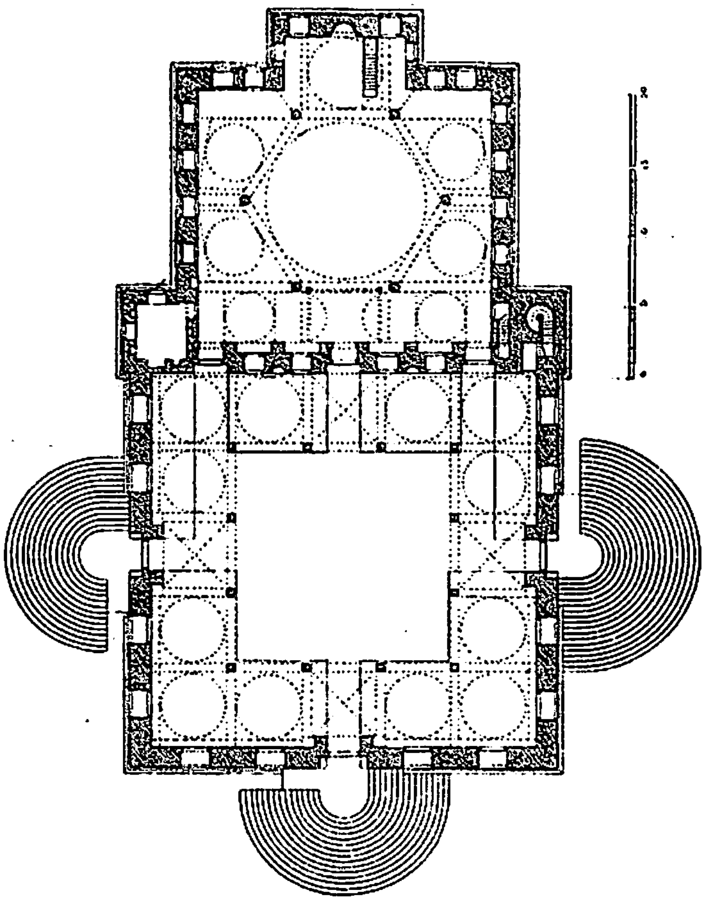
وقد دفع ذلك وكيل الوقف داود أغا بأن المرحوم عثمان أغا معتوق قبل وفاته، وأنه بنى الجامع ووقف الأعيان وغيرها بإذن الملكة صفية معتقته، فأنكر وكيلها حصول العتق، وأنكر إذنها له فى بناء الجامع ووقف تلك الأعيان ؛ فطُلبت البينة من داود أغا فعجز عن إقامتها ، وطلب تحليفها اليمين الشرعى، فأرسل القاضى لها شاهدين عدلين فحلفت اليمين أمامهما على صحة دعواها . ولما عادا وأخبرا القاضى بأنها حلفت اليمين حكم بأن الجامع والممتلكات ملك لها ، وحكم على داود أغا برفع يده عن تلك الأملاك[2] .

وهنا تظهر شخصية جديدة وهو إسماعيل أغا الناظر الشرعى على الوقف الجديد الذى خصصته للجامع، ومن المحتمل أن يكون المسجد لم يكمل،فعهدت إليه بإتمامه فأتمه، ثم كتب لوحة تذكارية ثبتها فوق الباب الأوسط للقبة نصها : « أنشأت هذا الجامع المبارك المعمور بذكر الله تعالى صاحبت الخيرات الآدر الشريفة والدة المرحوم مولانا السلطان محمد خان طاب ثراه على يد فخر الخواص

(١) تحفة الأنام مختصر تاريخ الإسلام ص ٢٣٨ (٢) الخطط الجديدة ج ٥ ص ٣٩

المتقربين مولانا إسماعيل أغا الناظر الشرعى على الوقف المذكور . وكان الفراغ من هذا البناء المذكور فى السابع والعشرين من شهر محرم الحرام من سنة تسع عشر وألف من الهجرة » .

ثم حررت الوقفية الجديدة على المسجد وبها رواتب موظفى المسجد والقراء، ومعمارى للاصلاح، وأمين لحفظ المصاحف الشريفة، ومن هذه المصاحف مصحف بدار الكتب المصرية مجدول ومحلى بالذهب مكتوب عليه «أنه وقف المرحومة صفية أم السلطان محمد خان فى سنة (١) ١٠٣٢ هـ» .



مسقط أفقى

ومكتوب على ربعة مجدولة ومحلاة بالذهب ــ رأيت جزءا منها فى مكتبة المغفور له أحمد زكى باشا ــ أنه وقف الملكة صفية بمسجدها بخط المدابغ .

(١) فهرس المصاحف بدار الكتب المصرية ج ١ ص ٢

وصف الجامع — هذا الجامع ثالث جامع بمصر وضع تصميمه على مثال الجوامع العثمانية فى مدينة إستامبول ؛ فأولها سليمان باشا بالقلعة ، وثانيها سنان باشا ببولاق ، وهذا هو الثالث ؛ يليه مساجد : محمد بك أبى الذهب أمام الأزهر ، والمغفور له محمد على باشا بالقلعة ، وجامع الفتح الملكى ؛ وهذا الطراز وحده هو ما يجب أن نطلق عليه بمصر العمارة العثمانية .

ومسجد الملكة صفية مرتفع عن مستوى الشارع بنحو أربعة أمتار ، وبناؤه مستطيل ومنقسم الى قسمين : القسم الشرقى منه يتكوّن من مربع يتوسطه ستة عمد كبيرة من الجرانيت ، تحمل عقودا حجرية فوقها قبة كبيرة ، يرى بدائرها فوق العقود ممر صغير يحيط برقبتها ، أقيم عليه درابزين من الخشب الخرط ، خلفه أربعة وعشرون شباكا من الجص والزجاج ، ثم غطاء القبة الكبيرة وقد فتحت به مناور صغيرة مستديرة ، واتخذت بالمنطقة الواقعة بين عقود المسدس قباب صغيرة .

ووسط الجدار الشرقى بارز عن هذا المربع ، وبه محراب مكسو بالرخام ، وبتواشيحه قاشانى ودوائر زخرفية يعلوه قبة صغيرة برقبتها شبابيك جصية . ويجاور المحراب منبر من الرخام فرغت الزخارف الهندسية فى قاعدته وأجنابه ودرابزينه بشكل جميل ونقش ما حولها بنقوش نباتية ؛ فلذلك جاء آية فى الدقة والجمال .

وبوسط الجدار الغربى دكة المبلغ ، وهى قائمة على عمودين ولها درابزين من الخشب الخرط الدقيق ، وخلفها بطول الجدار مستشرفات معقودة أقيم على وجهها درابزين من الخشب الخرط ، يتوصل إليها وإلى الدكة من باب فى النهاية القبلية الغربية لمربع القبة فى سمك الجدار ، يتوصل منه إلى استطراق طويل معقود فى سمك الجدار الغربى على يمين من يسلكه تلك الفتحات ، ولعلها كانت مخصصة لصلاة السيدات ؛ وعلى يساره حنايا صغيرة معقودة لعلها مخصصة للإضاءة .

وينتهى هذا الاستطراق من الجهة البحرية بسلم يؤدى إلى قبة صغيرة ، كما ينتهى طرف هذا المربع من الجهة القبلية بالمنارة التى يتوصل إليها من باب فى الركن الشرقى القبلى للصحن وهى منارة أسطوانية تنتهى بمسلة .

وفى الركن الغربى البحرى حجرة سقفها معقود بمصلبة حجرية ؛ وبجدرانها حنايا صغيرة معقودة لعلها كانت مخصصة لوضع مصابيح الإضاءة .

والقسم الثانى من الجامع غربى القسم الأول تؤدى إليه أبواب ثلاثة فى مؤخر القسم الأول ، أهمها أوسطها حيث حلى عقده بمقرنصات ، وعليه لوح رخامى تضمن اسم المنشئة وتاريخ الانشاء واسم الناظر . وقد كسى عقده الموتور بالرخام الملون على هيئة شرفات ، وعلى جانبيه صفتان .

ويتكون هـذا القسم من صحن مكشوف حوله أربعة إيوانات عقدت سقوفها بقباب صغيرة أهلتها حجرية . أما القبوات الثلاثة القائمة أمام الأبواب ، والقبو الواقع أمام باب القبـة الأوسط ، فانها مصلبات على هيئة مخاريط منحنية الأضلاع .

و يتوسط كل جنب من جوانب هذا القسم القبلى والبحرى والغربى باب يوصل كلا منها إلى وجهة من وجهات الجامع المبنية جميعها بالحجر ، وبكل من الوجهتين القبلية والغربية سلم كبير مستدير لا نظير له فى سعته فى أى أثر آخر بمصر . وتسـود الوجهات البساطة فهى خاليـة من الزخرف ومن الكتابات .

أما الوجهة البحرية فسلمها مفقود ، ولعله لم ينشأ منذ البدء إذ لا أثر له فى الجدران والوجهة . وأمام الباب البحرى وعلى بعد ثلاثين مترا تقريبا باب كبير مبنى بالحجر من طرز بناء المسجد ، بجانبيه طرفا رباط ممـا يدل على امتداد البناء قديما حول المسجد ، وهو أحد أبواب السور الخارجى الذى كان يحيط بالميدان الكبير أمام الوجهات .

وهـذا الميدان لم يكن إلا حديقة كبيرة ، يعزز ذلك ما ورد فى حجة وقف المسجد بمـا نصه[1] : « ... و يترتب رجلان عارفان بغرس الأشجار والرياحين و إصلاحها وسقيها برسم خدمة البستان الكائن أمام الجامع ، و يرتب رجلان قو يان برسم سقى الأشجار » . كما أن ميضأة الجامع وضعت منعزلة عنه ، بل فى الميدان وسط الحدائق .

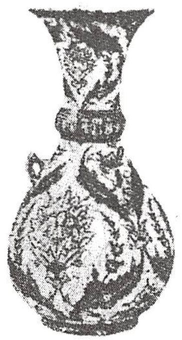
تصميم الجامع — لمـا كان تصميم هذا الجامع وأمثاله يعدّ خارجا عن الطراز المعمارى المتبع فى مصر ، فقد بحثت عن الجامع الذى بنى على طرازه فى إستامبول ، فاهتديت إلى مسجد أحمد باشا[2] المعروف بجامع طوب قبو فى حى طوب قبو ، وقـد بدئ فى إنشائه حوالى سنة ٩٥٩ هـ (١٥٥٢ م) ومنشئه قرا أحمد باشا المتوفى سنة ٩٦٢ هـ (١٥٥٥ م) ، وواضع تصميمه المهندس الكبير سنان ، فهو من الداخل محمول على ستة عمد أيضا ، والتشابه كامل بين الوجهتين بما فيهما السلم الكبير المستدير .

(١) الخطط الجديده ج ٥ ص ٤٠

(٢) تفضل الزميل المحترم حضرة محمد شريف حافظ أفندى سكرتير لجنة حفظ الآثار العربية وعرب لى عن التركية القطعة الخاصة بجامع أحمد باشا عن كتاب جوامعنا صفحة ٥٨ تأليف خليل أدهم .

والمنبر الرخامي يكاد يكون طبق الأصل، كما اتضح من الصور الفوتوغرافية المأخوذة عنه . ومما يذكر أن أكثر منابر مساجد استامبول من الرخام، وزخارفها وتقاسيمها مثل منبر الملكة صفية، بل منبر الملكة صفية مثلها وهو الأصح .

أعمال الإصلاح — لم تكن أعمال لجنة حفظ الآثار العربية مقصورة على إصلاح هذا المسجد فحسب، بل تعدتها إلى ما هو أهم بكثير، فقد كانت وجهاته محتجبة خلف منازل حوله؛ ففي عهد المغفور له الملك فؤاد الأول نزعت ملكية تلك المنازل وهدمتها، حتى بدت الوجهات بعد احتجابها، وهي سياسة محمودة قد اتبعتها اللجنة في تخلية الكثير من الأماكن الأثرية بمصر .



مسجد يوسف الحين

بميدان أحمد ماهر[*] باشا

الأمير يوسف المعروف بتابع السعدى، من كبار أمراء الجراكسة . كان كاشفا للبحيرة والبهنساوية وناظرا للسحابة الكبرى . انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة ١٠٥٦ هـ (١٦٤٦ م) .

ومما يؤثر عنه ميله إلى أعمال الخير فقد أنشأ فى باب الخرق مسجدا ألحق به سبيلا يعلوه كتاب وأنشأ ربعا كبيرا وعقارات أخرى؛ كما أنشأ مدفنا وقبة له ولأسرته[1] تجاه المسجد على يسار السالك من باب الخرق إلى درب الفواخير، ولما مات دُفن بهذه القبة .

وقد هُدم المدفن والقبة عند فتح شارع محمد على سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) ونقل المنشئ إلى قبر أعدّ له فى الإيوان البحرى بالمسجد؛ كما أنه لم يبق من منشآته فى هذه المنطقة سوى المسجد وملحقاته .

تاريخ إنشاء المسجد — يُقرأ فى لوح رخامى أعلى المدخل العام بيت من الشعر نصه :

أنشأ الأمير يوسف جامعا للذكر والنجوى * أرّختــه لله مسجد أسس على التقــوى

وبحساب الجمل يكون التاريخ سـنة ٩٥٠ هـ . وهـذا التاريخ يمكن تطبيقه على طراز البـاب وعلى تصميمه الداخلى . وأعتبره المرحوم على[2] باشا مبارك من منشآت القرن التاسع الهجرى .

ولكن يقرأ على إزار سقف السبيل الملحق بوجهته فى الطرف القبلى ما نصه : « وكان الفراغ فى شهر رجب سـنة خمس وثلاثين بعـد الألف » وهـذا التاريخ ينطبق على تفاصيل السبيل، كما ينطبق على تفاصيل وجهة المسجد ومنارته .

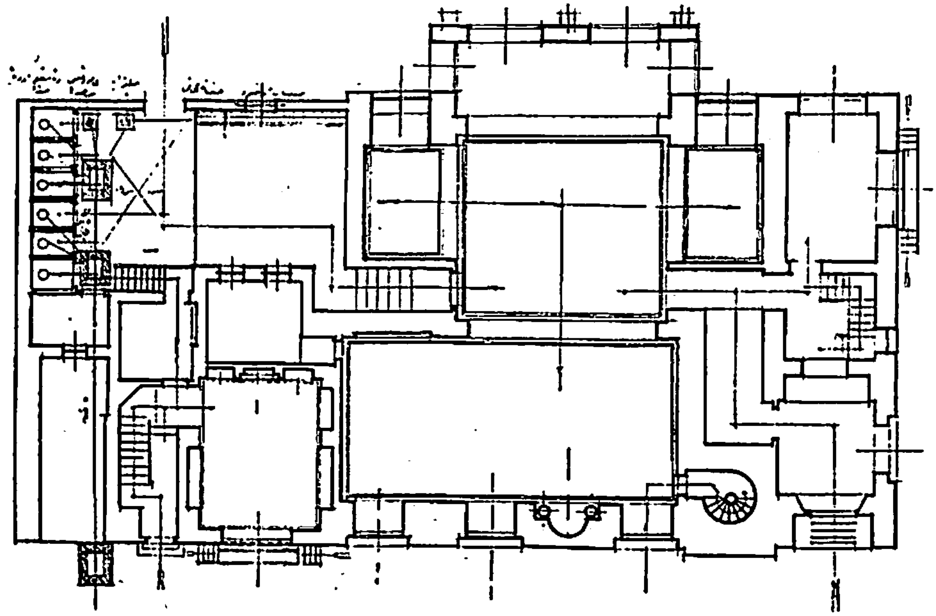
وقـد كنت أعتبر السبيل ملحقا بالجامع فى هـذا التاريخ إذا كانت وجهته منفصلة عن وجهته ولكنهما كتلة واحدة — أو ان نقش السقف وكتابته عملا فى السنة المذكورة ؟

هذه الأسـباب دفعتنى للبحث عن مستند جديد فلم أجد أصدق من حجة وقفه ، و بالاطلاع عليها تبين أنها صادرة من محكمة الباب العالى بمصر المحروسة فى ١١ شعبان سنة ١٠٤٤ هـ، وأن الحجة مؤرخة ١٨ جمادى الثانية سنة ١٠٤٥ هـ . « وفيها أن الأمير يوسف عيّن أعيان أمراء الجراكسة بمصر

(*) أنظر الصور من رقم ٢٣٥ — ٢٣٦ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) حجة الوقف . (٢) الخطط الجديدة، ج ٤ ص ١٠٢

المحروسة ، وكاشف البحيرة والبهنساوية ، وناظر السحابة[١] الشريفة الكبرى سابقا ، أوقف وحبس وتصدق بجميع الجامع المستجد الإنشاء والعمارة المعروف بإنشائه وعمارته ، بالقرب من جامع بطيخة وهو مسجد تقام فيه الجمعة والجماعة ، ويلاصقه الصهريج ومكتب الأيتام » . ثم وصفه وصفا دقيقا ينطبق على هذا المسجد .



مسقط أفقى

أمام هذا المستند لا يسعنى إلا أن أقول بخطأ الشعر المتضمن تاريخ الإنشاء خصوصا أنه غير موزون ، وهذا كثير الوقوع ، وله نظائر فى أماكن أخرى ؛ إذ نرى مسجد البردينى قد كتب فى إزار سقفه تاريخ الفراغ منه سنة ١٢٠٥ وصحته ١٠٢٥ هـ لأن منارته انتهت سنة ١٠٣٨ هـ (١٦٢٨ م) ، وكلاهما عمارته متأثرة بالعمارة المملوكية .

وعلى ذلك يكون تاريخ الإنشاء سنة ١٠٣٥ هـ (١٦٢٥م) فى حين أن الحجة مؤرخة سنة ١٠٤٥هـ ، وتضمنت اسم المنشئ يوسف المكتوب على المدخل أيضا .

وصف المسجد — هذا المسجد مرتفع عن مستوى الشارع ببضع درجات ، وواجهاته الأربع خالية ، وهو وإن كان منشأ فى العصر العثمانى ، فقد بنى مدخله وداخله على طراز يخالف

(١) فى وقفية للسلطان الغورى مؤرخة سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) تخصيص مبلغ لتجهيز سحابتين صحبة الحج المصرى لحمل الفقراء من الحجاج .

وفى حوادث سنة ٩١٩ هـ (١٥١٢ م) من ابن إياس انه نصبت سحابة على سطح مسجد الغورى بمناسبة حضوره لمعاينة قبة تجاهها .

طراز ذلك العصر، فقد تأثر بالعمائر المملوكية، فبابه العمومى كسى بالرخام الملون المنقوش والمكتوب، كما أن تصميمه الداخلى تصميم مدرسة ؛ فالباب يؤدى الى دركاة مربعة بصدرها مسطبة ثم طرقة مستطيلة لهـا سقف منقوش وبه دوائر مكتوب عليها بشكل زخرفى «قل كل يعمل على شاكلته» تنتهى الى صحن أحدقت به أربعة إيوانات معقودة وكانت مفروشة بالرخام الدقيق .

وقد حرص المهندس على الانتفاع بالخليج المصرى ومنظره الخلاب ، فتعمد الخروج بالإيوان الغربى المشرف عليـه عن باقى الوجهة الغربيـة ، وأبدل بنصف الجدار العلوى ساترا من الخشب الخرط ، ممـا ساعد على اجتلاء منظر الخليج وقت الفيضان ، والانتفاع بالتهوية الكافية ، كما انتفع بهذا الإيوان بإقامة دكة المبلّغ فيه .

والإيوان الشرقى أهمها وقد غطيت فتحاته العليا بشبابيك جصية ذات زجاج ملوّن وكتابات ، كما نقش السقف بنقوش مذهبة ، ملوّنة ومكتوب على إزاره آيات من سـورة الفتح ، والمحراب بسيط منقوش بالبوية محاكاة للرخام، يقوم الى جانبه منبر من الخشب المجمع (معقلى) . وفى الركن البحرى الشرقى باب المنـارة يؤدى الى سلمها الحلزونى فيوصل الى حجرة فوق طرقة المدخل تشرف على الصحن ثم الى دكة فوق الإيوان البحرى والى شـباك بالوجهة الغربية . كما يوصل الى السطح والى دورة المنـارة ، وهى منارة حجرية أسطوانية . وفى الطرف القبـلى للوجهة الشرقية سبيل يعلوه كتّاب اشتمل على أرضية رخامية دقيقة . ومكتوب بإزار سقفه تاريخ إنشائه .

وقد انتهزت إدارة حفظ الآثار العربية فرصـة توسيع ميدان باب الخلق وتخليـة المسجد من جميع نواحيه، فأصلحت وجهاته ، وأنشأت دورة مياه حديثة، وألحقت بها حجرات زينتها بمشربيات .

وأنشأت بالوجهة البحرية على ميـدان باب الخلق سبيلا يعلوه كتّاب، راعت فى إنشائه طراز الأسبلة التركية، واقتبست أكثر تفاصيله من سبيل الأمير عبد الرحمن كتخدا بشارع بين القصرين؛ فقد اشتملت وجهتاه على عمد رشيقة ورخام دقيق ومقرنصات متعددة .

وانتهت هذه الأعمال فى عصر جلالة الملك الصالح فاروق الأول أعزه الله . وقد ثبتت بهـذه المناسبة لوحة تذكارية أعلى السبيل بالوجهة البحرية نصها : « جدّدت لجنـة حفظ الآثار العربية هذه الوجهة فى عهد الملك الصالح فاروق الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة » .

وقد تفضل جلالة الملك الصالح حفظه الله بافتتاحه بأداء فريضة الجمعة فيه يوم ١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٦٠ هـ (١١ يوليه سنة ١٩٤١ م) .

مسجد عقبة بن عامر

هذا المسجد فى الطرف القبلى الشرقى لقرافة الإمام الشافعى (*)، وفى نقطة هامة من القرافة الكبرى تضم رفات أعلام أجلاء، فى مقدمتهم عقبة بن عامر بالتحقيق، وعمرو بن العاص على ما قاله غير واحد من المؤرخين.

والمنطقة التى تضم هذا الجامع هى قرية صغيرة كانت تحدها إلى عهد قريب من الخارج بوابة كبيرة تؤدى إلى فضاء كبير به قبور كثير من الأعلام، منهم: الشيخ الصالح الزاهد أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصرى الذى توفى سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م)، والشيخ عثمان الزيلعى شارح كتاب الكنز فى فقه الحنفية المتوفى سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م). ثم باب آخر يؤدى إلى طرقة تنتهى إلى حوش كبير، بصدره جامع عقبة وملحقاته.

عقبة بن عامر — هو السيد عقبة بن عامر بن عبس بن غنم بن عدى بن عمرو بن رفاعة[1] ابن جهينة الجهنى الصحابى، من أعلام الصحابة ومن خدام النبى صلى الله عليه وسلم. كان رحمه الله محدثا عالما بالفرائض والفقه، كاتبا شاعرا، وهو آخر من جمع القرآن؛ وأول من نشر الرايات على السفن؛ قال أبو سعيد بن يونس رأيت مصحفه بمصر. وفى آخره «كتبه عقبة ابن عامر بيده».

اشترك رضى الله عنه فى الفتوح الإسلامية، وكان رائد عمر بن الخطاب عند فتح دمشق، كما شهد فتح صفين مع معاوية، وشهد فتح مصر مع عمرو بن العاص. ثم عين واليا عليها من قبل معاوية بن أبى سفيان فى ذى الحجة سنة ٤٤ هـ (٦٦٥ م) وظل واليا عليها لمدة سنتين وثلاثة أشهر، إلى أن صرف عنها فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧ هـ (٦٦٧ م)[2].

وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر، ثم أقام بمصر إلى أن توفى سنة ٥٨ هـ (٦٧٨ م).

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس وأبو أمامة وغيرهم[3]. ولأهل مصر فيه اعتقاد عظيم، ولهم عنه نحو مائة حديث.

(*) انظر الصور من رقم ٢٢٧ — ٢٢٨ بمجموعة الصور الفوتوغرافية.

(١) تاريخ مصر وولاتها ص ٣٦ — ٣٨ وعلق بالحاشية بأن نسبه فى التهذيب عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو بن رفاعة.

(٢) المقريزى ج ١ ص ٣٠١ (٣) النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١١٦ — ١٣٠

وقال الشيخ الموفق ابن عثمان فى تاريخه المرشد ناقلا عن حرملة من أصحاب الشافعى : إن البقعة التى دفن فيها عقبة بها أيضا قبر عمرو بن العاص ، وقبر أبى بصرة الصحابيين . تحويهم القبة التى هدمها صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وكان قبر عقبة موضع رعاية المصريين يقصدونه للزيارة والتبرك ، كما كان يقصد إليه زائرو مصر ورحالتها . وكان ملحقا به متحف حربى صغير يضم سيفه وترسه . ولقد حرص كثير من أجلة العلماء على أن يدفنوا بجواره تبركا به حتى غدت بقعته مقبرة للعظماء .

ثم ظل القبر موضع عناية ملوك مصر وولاتها . وكان أول من عُنى به ملك مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فقد هدم القبة التى كانت على قبره ، وأنشأ غيرها قبة عظيمة [1] وكذلك جدده ملك مصر الكامل محمد ابن الملك [2] العادل .

وفى سنة ١٠٦٦ هـ (١٦٥٥ م) عنى بتجديد المسجد وإنشائه على ما هو عليه الآن والى مصر الوزير محمد باشا سلحدار الملقب بأبى النور ، وألحق به زاوية لتعليم الأطفال وسبيلا ، كما أنشأ حوله مساكن للوظفين ، ورصد عليه وعلى غيره من منشآته الخيرية أوقافا كثيرة . ومن طريف ما تضمنته وقفيته تعيين أربعة (سيمانية) من رماة البندق برسم الحراسة والمحافظة على المسجد وملحقاته .

وهو مسجد صغير بسيط البناء ، وتشتمل وجهته الغربية على الباب العام ، وتقوم على يساره قاعدة مربعة تنتهى بمقرنص تحمل منارة مرتفعة ذات دورة واحدة ، ويتصل بهذه الوجهة السبيل . ويؤدى الباب إلى دركاة مربعة تحتوى على سلم يؤدى إلى المنارة ، كما تضم قبور مشايخ المسجد : منهم الشيخ إبراهيم المتوفى سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) وتتصل هذه الدركاة بمسجد مستطيل يشتمل على رواقين يتوسطهما صف من العقود المحمولة على عمد حجرية مثمنة ، وقد حلى سقفه بنقوش ملونة ، ومكتوب بإزار سقف الرواق الشرقى أبيات من قصيدة البردة . ويحيط بجدران المسجد مجموعة من الشبابيك الجصية المحلاة بالزجاج الملون ، ويشرف بناء المسجد من الجهة الشمالية على قبر وجيه الدين عبد الوهاب البهنسى قاضى قضاة مصر فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى [3]) وعلى قبر نوح أفندى مصطفى من علماء الحنفية المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ (١٦٥٩ م) . والشيخ أحمد بن الشيخ محمد الإمام راوية سيدنا عقبة المتوفى فى ذى القعدة سنة ١١٧٢ هـ

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٢٠ (٢) جوار الأخيار فى دار القرار ، خط .
(٣) ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٤٧

ومن الأعلام الذين دفنوا فى الجهة القبلية للقبة العلامة عبد الرحمن بن عبد الملك الشافعى فقد عثر على شاهد قبره مطمورا وقامت إدارة حفظ الآثار العربية بتثبيته على الوجهة القبلية للقبة ونصه : «الحمد لله الباقى بعد فناء خلقه هذا قبر الفقير إلى رحمة ربه المستقيل من جريمته وذنبه عبد الرحمن بن عبد الملك بن عبد المحسن القرشى نسبا الشافعى مذهبا الأشعرى معتقدا تغمده الله برضوانه وأسكنه فى دار أمانه . توفى إلى رحمه الله تعالى فى ليلة يسفر صباحها عن يوم الخميس رابع شهر رمضان المعظم سنة سبع وخمسين وستمائة رحمه الله وعفا عنه وعن جميع المسلمين » . وإلى جانبه قبر ولده[1]، وفى غربيهم قبر شهاب الدين بن أبى حجلة وولده .

والقبة وبها قبر عقبة رضى الله عنه فى الركن الغربى القبلى للمسجد، عليها مقصورة خشبية وهى منقوشة من الداخل بنقوش تحاكى القاشانى، ومكتوب على طراز مربعها آية الكرسى، وبها من الداخل قطعة رخام سوداء لها بريق ، وأمام القبر شاهد من الرخام مكتوب على أحد وجهيه آية الكرسى، وعلى الوجه الآخر ما نصه : « هذا مقام العارف بالله تعالى الشيخ عقبة بن عامر الجهنى الصحابى رضى الله تعالى عنه جدد هذا المكان المبارك الوزير محمد باشا سلحدار دام بقاه فى سنة ستة وستين وألف » ومن الخارج مضلعة، وبرقبتها كسوة من القاشانى، ميزتها على قباب عصرها . وهى ثانى قبة عثمانية كسيت رقبتها بالقاشانى إذ الأولى قبة الأمير سليمان أغا سنة ٩٥١ هـ (١٥٤٤ م) وهى أجمل قبة أنشئت فى العصر العثمانى .

وتكسيه رقاب القباب بالقاشانى ظهرت بمصر فى أول القرن الثامن الهجرى فى قبة سبيل الناصر محمد بن قلاوون لصق المدرسة المنصورية . وفى قباب طشتمر حمص أخضر وأم آنوك وأصلم السلحدار وآبن غراب .

ثم تطورت إلى تكسية القبة كلها بالقاشانى فى القرنين : الثامن والتاسع الهجرى (الرابع عشر والخامس عشر الميلادى) مثل قباب الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة والغورى بالغورية وسليمان باشا بالقلعة والشيخ سعود بشارع سوق السلاح والتكية السليمانية بشارع السروجية .

ومن مآثر المليك حفظه الله أنه كان من أثر أدائه فريضة الجمعة فى هذا المسجد إجراء إصلاحات به من أظهرها إصلاح الشبابيك الجصية الملونة، وتمهيد الطرق المؤدية اليه .

---

(١) الكواكب السيارة ص ٢٤٢ وفيها استقصاء لمن دفن حوله .

المدرسة الفارقانية

بشارع درب سعادة

هذه المدرسة خلف محكمة الأستئناف . أمر بانشائها الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى السلحدار وأفتتحها يوم الأثنين ٤ جمادى الأولى سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) مدرسة للشافعية والحنفية .

والأمير آق سنقر كان مملوكا للأمير نجم الدين أمير حاجب . ثم انتقل إلى الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، فترقى عنده فى جملة وظائف إلى أن صار من كبار الأمراء وعينه أستادارا . وناب عنه بمصر مدة غيبته[1] .

وكان مقدما على كثير من الأمراء ، شجاعا حازما ، محسنا ، عهد اليه الظاهر بفتح بلاد النوبة ، ففتحها . وفى دولة السعيد بركة بن الظاهر بيبرس ولى نيابة السلطنة بديار مصر وقد توفى فى سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م). وقيل ٦٧٧هـ (١٢٧٨م). وكانت داره بجوار مدرسته بداخل باب سعادة[2].

وفى سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩م) أنشأ المسجد إنشاء جديدا على ماهو عليه الآن الأمير محمد كتخدا مستحفظان ، أحد كبار موظفى مصر العسكريين ، ولذلك لا نرى فيه الآن أثرا للمدرسة القديمة . بل هو مسجد عثمانى بحت عرف بمسجد الحبشلى . ويظهر أن هذه التسمية لازمته منذ تجديده ، لأن الجبرتى ترجم ضمن وفيات سنة ١١٧٨ هـ (١٧٦٥ م) الشيخ على بن أبى الخير بن على المرحومى الشافعى وقال عنه «خطيب جامع الحبشلى[3]» .

ولهذا المسجد وجهتان : إحداهما قبلية وبنهايتها الشرقية المنارة قائمة على جلسة مربعة انتهت بمقرنصات وغطيت شبابيكها بمقرنصات ، وهى منارة أسطوانية تركية الطراز ، والأخرى غربية وبطرفها القبلى السبيل وتعلوشباكه زخارف حجرية وقاشانى ولوحة تذكارية بإنشائه ، وبالطرف البحرى الباب العمومى للمسجد وهو باب عقده مدايني به مقرنصات بسيطة وله نفيس من القاشانى .

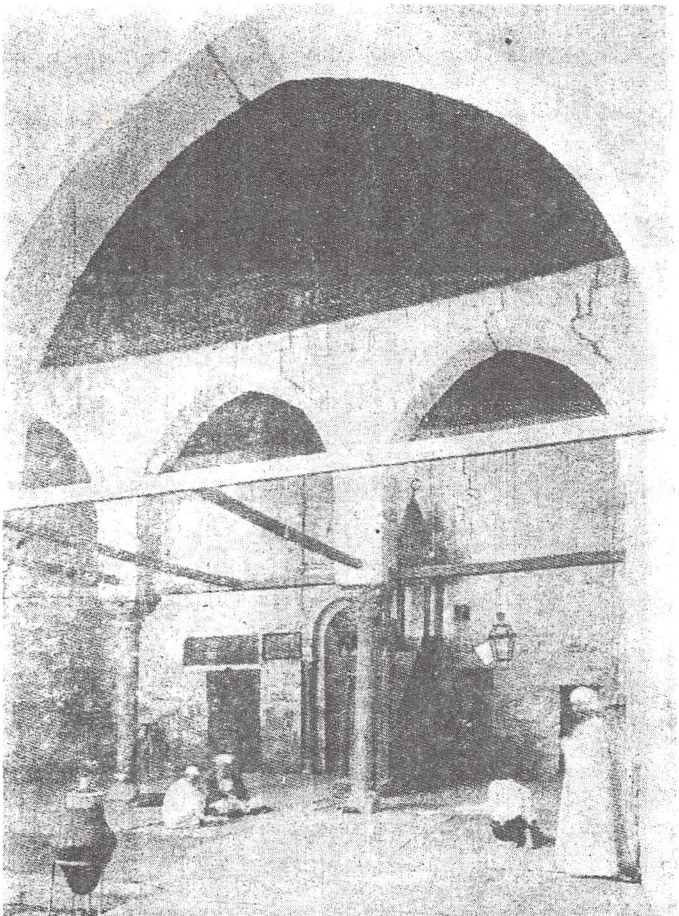
ويحيط بصحنه أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة ، وهو يشتمل على رواقين : المشرف منهما على الصحن مكون من عقدين كبيرين يحملهما عمود رخامى ، والآخر أمام المحراب ، ويشتمل على ثلاثة عقود محمولة على عمودين حلزونيين .

والمحراب بسيط يعلوه مربع مزخرف به قاشانى ، ويجاوره منبر خشبي مجمع ، وبالركن القبلى باب المنارة .

---

(١) المقريزى ، ج ٢ ص ٣٦٩ ، والمنهل الصافى . (٢) باب سعادة أحد أبواب القاهرة الفاطمية وكان قريبا من هذه المدرسة . (٣) الجبرتى ، ج ١ ص ٢٦٣

والسقف من برطوم ومربوعات منقوش بالذهب والألوان برسوم دقيقة لا يقلّ أهمية عن السقوف المملوكية ، ومكتوب على إزاره آيات من سورتى الفتح ويس وتاريخ المسجد بما نصه : « أنشأ هذا المسجد المبارك من فضل الله تعالى وعونه وجزيل عطاه العميم الأميرى الكبيرى الأمير محمد كتخدا مستحفظان كان الله له بتاريخ سنة ثمانين وألف » .



داخل المسجد

والإيوان الغربى مكوّن من عقد كبير، وبه دكة المبلغ وباب للسبيل المفروش بالرخام الدقيق الملون، وسقفه منقوش مذهب ومكتوب على إزاره قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . الى قوله تعالى : وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . صدق الله العظيم » .

مسجد ذو الفقار

بشارع اللبودية

يرى المغفور له على باشا مبارك أن ذا الفقار هذا هو الذى ورد اسمه فى ترجمة والى مصر حمزة باشا، فقد جاء فيها : « أنه فى يوم الأحد ١٦ شعبان سنة ١٠٩٧ هـ مات عز الدولة العثمانية فى الديار المصرية أمير الحاج الشريف الأمير ذو الفقار بك رحمه الله تعالى وكان آية وحجة على أهل الفساد من العرب وغيرهم فى سائر الأقاليم . وبعد موته جرت حوادث يطول شرحها . وكان أميرا طاهرا محافظا على الصلوات الخمس فى أوقاتها[1] ، معظما للعلماء ، شفوقا على الفقراء ، قاسيا على المفسدين . وقبل دفنه ألبس الوزير حمزة باشا ولده الرشيد أمير اللوا إبراهيم بك خلعة الصنجقية[2] » .

وبمراجعة تراجم من سمى بذى الفقار فى هذه الفترة ، وجدت بينهم الأمير ذا الفقار بك تابع الأمير حسن بك الفقارى، تولى الصنجقية وإمارة الحج فى يوم واحد، وسافر أميرا للحج إحدى عشرة مرة . توفى سنة اثنتين ومائة وألف .

وتوفى ابنه الأمير إبراهيم بك الذى تولى الإمارة بعد أبيه، وسافر أميرا على الحج سنة ١١٠٣ هـ (١٦٩٢ م) ولم يزل أميرا للحج إلى أن مات سنة ١١٠٧ هـ (١٦٩٥ م) وتولى إمارة الحج خمس مرات . وكانت داره بدرب الجماميز مقصدا لقضاء الحوائج[3] .

واتفاق الحوادث فى الروايتين تعززها الكتابة بسقف الجامع مما يجعلنى أرجح رواية الجبرتى من أن وفاته كانت سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩٠ م) .

وهو من المساجد المعلقة البسيطة ، ووجهته الغربية العامة مبنية بالحجر الأحمر، حيث تقوم المنارة عند طرفها الجنوبى؛ وهى منارة أسطوانية قصيرة من دورة واحدة ، يجاورها الباب العام، وهو محلى بالمقرنصات، وبه ترابيع من القاشانى القيم يتوسطها لوحة رخامية مكتوب عليها ما نصه :

جامع جاء لطيفا وبديع الإنشا * عالى السمك منيعا ووسيع الإحشا

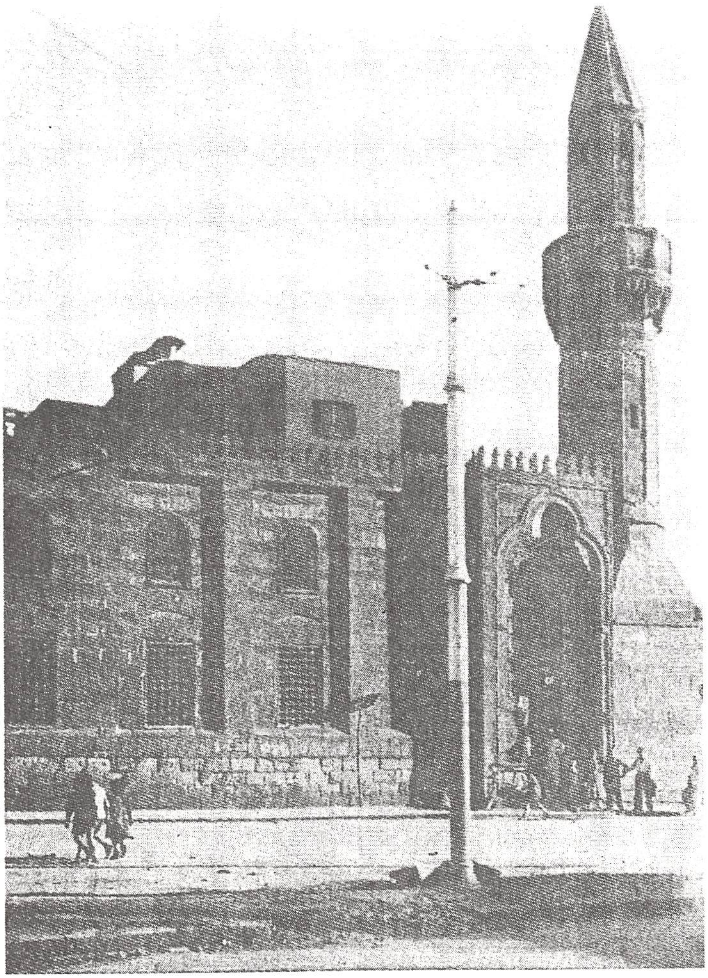
فى بيوت أذن الله لها أن ترفع * والعبادات بها كل زمان تفشى

(١) الخطط الجديدة ، ج ٤ ص ١١٣ (٢) السنجق والسنجاق العلم ويراد به اللواء .

(٣) الجبرتى، ج ١ ص ٩٠

دام فيه صلوات وأجيبت دعوات * بنهار متجل وبليل يغشى
ذو الفقار فاز بالخير فقل تاريخا * عمر الجامع بالسعد بديع الإنشا
١٠٩١

وهذا الباب يؤدى إلى سلم من ست درجات فدركاة مربعة على يمينها باب يؤدى إلى باب المنارة، وإلى المطهرة وعلى يسارها شباك ثم باب المسجد .



الوجهة الغربية للمسجد

وداخل المسجد مستطيل ، وهو يتألف من رواقين يتوسطهما صف من العمد الرخامية تحمل خمسة عقود حجرية .

أما محرابه فهو من الحجر وقد حلّى بنقوش ومقرنصات، وبتواشيحه ألواح من القاشانى الحديث ويعلوه مربع به دائرة من القاشانى القديم، ويجاوره منبر خشبى. وتقع دكة المبلغ فى الجدار الغربى، وهى محمولة على كابوليين . وكانت أرضية المسجد مفروشة بالرخام الدقيق، كما يدل على ذلك بقايا دقيقة بأرضية الشبابيك الغربية .

وتحيط بالجامع من أعلاه نوافذ من الجص والزجاج الملون عملت بمناسبة أداء حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول فريضة الجمعة فيه . وقد نقشت سقوفه بنقوش ملونة، وكتب على إزار الرواق الشرقى آيات من سورة الفتح، كما كتب تاريخ إنشائه بما نصه : « أنشأ هذا المسجد المبارك من فضل الله تعالى وعونه وجزيل عطائه العميم الجناب الكريم العالى والكوكب المنير المتلالى الأمير ذو الفقار بيك أمير اللوا الشريف السلطانى وأمير الحاج . وكان الفراغ فى شهر ذى الحجة سنة ١٠٩٠ هـ » .

ومكتوب على إزار الرواق الغربى آيات من سورة يس إلى قوله تعالى : « قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » .

مسجد عثمان كتخدا

بميدان إبراهيم باشا (*)

أنشأه الأمير عثمان كتخدا القازدغلي والد الأمير الكبير عبد الرحمن كتخدا ، صاحب الخيرات والمنشآت العمارية الكثيرة فى أنحاء القاهرة .

كان الأمير عثمان تابعا للأمير حسن جاويش القازدغلي ، ثم تقلّب فى جملة وظائف إلى أن عيّن كتخدا (أى وكيلا مفوضا) لسيده حسن جاويش ، وصار من كبار الموظفين ، وسطع نجمه ، كما ساعدته ظروف خاصة على اقتناء ثروة كبيرة (1) .

وقد ظل عظيم النفوذ وافر الحرمة مسموع الكلمة إلى أن توفى سنة ١١٤٩ هـ (١٧٣٦ م) .

وله عدا هذا المسجد منشآت خيرية أخرى منها زاوية للعميان كانت بمجاورة للجامع الأزهر ، ورصد عليها خيرات ، كما رصد خيرات على أروقة : الأتراك والجاوة والسليمانية والشوام بالأزهر الشريف ، وهو الذى أنشأ المسجد (2) بجوار قبة حسام الدين طرنطاى المنصورى بدرب سعادة ، كما أنشأ رواق الأتراك والسليمانية بالأزهر .

موقع المسجد وتاريخه — يقع هذا المسجد عند ميدان إبراهيم باشا على ناصية شارعى قصر النيل وإبراهيم باشا ؛ وقد تم بناؤه سنة ١١٤٧ هـ (١٧٣٤ م) ، وألحق به سبيلا وكتابا وحماما . ولا يزال الحمام موجودا .

وكانت المنطقة فى حاجة شديدة إلى هذا المسجد . وقد بلغ من ازدحامه بالمصلين يوم افتتاحه أن كثيرا من الكبراء لم يجدوا فيه مكانا فانصرفوا إلى غيره ؛ وهذا ما نراه به إلى الآن .

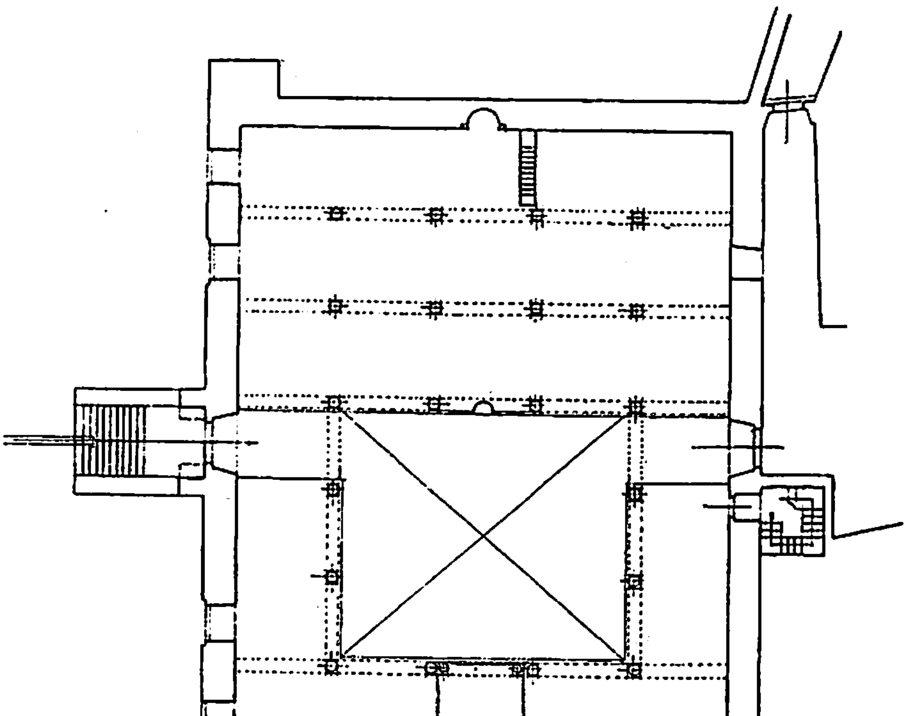
وبعد افتتاحه وزعت الصدقات ، وأنعم على حسن أفندى ابن البواب خطيب المسجد ، وعلى الشيخ عمر الطحلاوى المدرّس فيه وغيرهما .

(*) انظر الصور من رقم ٢٣٩ — ٢٤٢ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(1) الجبرتى ، ج ١ ص ١٦٨

(2) ورد اسمه فى إزار سقف هذا المسجد الأمير عثمان جاويش تابع المرحوم حسن كتخدا قصضغلى سنة ١١٤٠ هـ .

وقد رصد المنشئ أملاكا كثيرة للصرف منها على هذا المسجد وعمارته وأعمال البر التى بيّنها فى كتاب وقفه المؤرخ سنة ١١٤٩ هـ ، واشترط أن يكون الإمام شافعيا . ثم رتب درسا للسادة الحنفية، ورواتب لسبعة من الطلبة يحضرونه ، وآخر للسادة الشافعية يحضره ثلاثة من الطلبة لهم رواتب أيضا؛ كما قرر رواتب لمدرّس الحديث مع ستة من الطلبة يحضرون درسه .



مسقط أفقى

ومن طريف ما اشتملت عليه هذه الوقفية تخصيص راتب لمناد ينادى فى السوق عند حلول الصلاة بقوله : « الصلاة يامفلحون »(١) .

ويرتفع هذا المسجد عن مستوى الشارع ، وله وجهتان : إحداهما شرقية وهى بسيطة ، والأخرى بحرية يتوسطها باب يصعد إليه بدرجات رخامية ، وهذا الباب مبنى بالحجر ، وقد حلّى بترابيع من القاشانى الجميل ، ويعلوه شباك صغير يكتنفه عمودان ؛ ومن فوقه حلية زخرفية على هيئة شرفة . وينتهى أعلاه بعقد مدائنى مخوّص تحتوى تواشيحه على زخارف هندسية .

(١) الخطط الجديدة ج ٥ ص ٩٠ — ٩١

ويكتنف الباب من جانبيه شبابيك من أعلى وأسفل ، اليمنى منها حديثة ، وقد غطيت بمقرنصات متنوعة ؛ وقد ركب عليه مصراعان من الخشب ، حليا بزخارف نحاسية مفرغة على مثال الأبواب المملوكية .

وتقوم المنارة على الناصية الشرقية البحرية ، وهى منارة أسطوانية حلى بدنها بخطوط ، وهى بسيطة شأن منارات عصرها .

وداخل المسجد أربعة إيوانات يتوسطها صحن مكشوف ، فرشت أرضيته بالرخام الأبيض والدقيق الملون ، أهمها الإيوان الشرقى ؛ فقد اشتمل على ثلاثة أروقة بها عمد رخامية ، تحمل عقودا حجرية ، فوقها سقوف مزخرفة لا تزال محتفظة برونقها يسترعى النظر فيها تنوع زخارف الإزار حولها .

وفى صدر هذا الإيوان محراب من الرخام الدقيق ؛ يكتنفه عمودان أخضران مجزعان حلى أعلاه وأسفله بزخارف مورقة منزلة فى الرخام وعلى يسار المحراب قطعة رخامية منقوش عليها زهريتان مذهبتان تفرعت منهما غصون وأزهار يكتنفهما أعواد سرو ، ويعلو المحراب شباك جصى مستدير مكتوب عليه الله . محمد . أبو بكر (عثمان) ويجاوره منبر من الخشب المجمع بشكل مموج ، له درابزين من الخشب الخرط ؛ وقد أحيطت جدرانه الأربعة من أعلاه بشبابيك جصية لها زجاج ملون ؛ كما فتحت شبابيك فى أسفل جداره البحرى .

وفى الجدار القبلى بابان : أحدهما الكبير ، وقد حلى مصراعاه بأشرطة نحاسية كما كسى النفيس أعلاه بترابيع من القاشانى . وازدانت معبرة الآخر الموجود فى منتصف الإيوان الشرقى بنقوش ملونة . وكلا البابين يوصل إلى المصلى والميضأة .

والحمام ما زال باقيا بالقرب من المسجد ، ولعل السبيل والكتاب كانا يجاورانه ؛ ولكنهما قد زالا . وقد أدرك السبيل المغفور له على باشا مبارك وكتب عنه : « أنه كان بالطريق الموصل إلى المسجد . وكان على بابه لوح رخامى مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذا الصهريج المبارك عبد الله چوربجى من صدقات وخيرات المرحوم الأمير عثمان كتخدا مستحفظان قازدغلى واقف هذا المكان الواقع تاريخه فى اثنين وعشرين من جمادى الآخرة سنة خمس وستين ومائة وألف» وقد سقط هذا اللوح عند هدم وجه السبيل وحفظ عند خادم المسجد (1) » .

تواضع المنشئ — وقد بلغ من تواضع المنشئ أنه لم يكتب اسمه على هذا المسجد ؛ إذ أن كل ما وجد به من النصوص التاريخية لوح مثبت فى وجهة الإيوان الشرقى على الصحن قد كتب فيه :

(1) الخطط الجديدة ، ج ٥ ص ٨٩

« قد وافق الفراغ من إنشاء هـذا المسجد المبارك غرة جمادى الأول من شهور سنة الف ومایة سبعة وأربعين فنسأل الله الكريم من فضـله العميم أن يتقبله من واقفه و يدخله الجنة دار النعيم » .

عناية المغفور له الملك فؤاد بالمسجد ــ وكانت الوجهة البحرية للمسجد محجوبة بالدكاكين المشوهة لمنظره، وظلت كذلك إلى سنة ١٩٣٣ ؛ إذ أمر المغفور له الملك فؤاد بإزالة هذه الدكاكين و إصلاح الوجهة فظهرت بعد احتجابها .

عناية الملك الصالح فاروق الأول ــ أما عناية الملك الصالح فاروق الأول بهذا المسجد فكانت عظيمة الأثر ؛ وذلك أنه كان يجاور الباب البحرى للمسجد منزل يحجب نصف الوجهة من الجهة البحرية الغربية .

وفى سنة ١٩٣٩ هدمت وزارة الأوقاف هـذا المنزل ، وأعدّت مشروعا لبناء عمارة كبيرة رسا عطاؤها على أحد المقاولين .

وما إن بلغ مسامع مولانا الملك نبأ هـذه العمارة وضجة الأثريين من حضرات أعضاء لجنة حفظ الآثار العربية ، وخوفهم من تشويه الجامع ، وأن العمارة الجديدة قد تطاول منارته ، فتفضّل حفظه الله فأصـدر أمره الكريم بإلغاء المشروع ؛ ثم أصـدر أمره الكريم إلى لجنـة حفظ الآثار العربية بتكملة بناء هـذه الوجهة على مثال قسمها القـديم فنفّذت رغبته السامية وكان لذلك أعظم الأثر فى صون المسجد، وتجميل هذا الميدان الكبير .



مسجد عبد الباقي جوربجي

بشارع الميدان بالإسكندرية (*)

هذا المسجد أنشأه الحاج عبد الباقي جوربجي[1] بقلعة الركن[2] بثغر الإسكندرية ابن المرحوم على جوربجي بالقلعة المذكورة ابن الشيخ محمد الشربوبي الشهير نسبه بزقوقع . فى سنة ١١٧١ ه‍ (١٧٥٨ م) .

وهو من المساجد المعلقة، مرتفع عن مستوى الشارع، وتحته حوانيت، وله بابان: أحدهما فى النهاية القبلية الغربية، والآخر فى النهاية الشرقية البحرية . وكلاهما مبنى بالطوب المنجور الملون .

والداخل من بابه القبلى يصعد درجات تؤدى إلى الإيوان الغربى الخارجى للمسجد، وبه الباب الموصل إلى الداخل، وهو باب عقده مداينى، كسى أسفله بالرخام وأعلاه وحجره بالقاشانى المغربى يتوسطه اسم صانعه بما نصه: (عمل كاتبه الحاج مسعود[3] السبع) وبه لوح رخامى مكتوب عليه:

إن المساجد للإله الباقى * فلمن لها أحيا ثوابا باقى
الله يبنى فى الجنان لمن بنى * بيتا أتى نصا بغير شقاق
فأبشر من الباقى فإنك عبده * بالفوز فى العقبى وقاك الواقى
واغنم ثناء دائما لا ينقضى * فى سائر الأوقات والآفاق
إن رمت أن تحظى بكل مسرة * وتفوز بالحسنى من الخلاق
اسمع لأمر بالرشاد مؤرخا * جزاء الهدى والخير عبد الباقى

فى شهر ربيع آخر سنة ١١٧١ ه‍ .

وعلى يمين ويسار الباب شباكان من خشب الخرط، يتوسطهما خرط منجور، مكتوب فيه بالكوفى المربع : « لا إله إلا الله، محمد رسول الله »؛ وحليت مصاريعه بأحزمة وبخاريات حديدية .

وأما داخل المسجد فيتكون من ثمانية عمد رخامية، تحمل عقودا مسقوفة، يتوسطها منور، وقد غشيت جميع الجدران بالقاشانى المغربى، ويتوسط الكثير من أجزائه زهريات جميلة لها قاعدة

(*) انظر الصور من رقم ٢٤٣ — ٢٤٦ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) جوربجى — فى هذا الوضع تدل على وظيفة عسكرية تعادل يوزباشى فى هذا العصر .

(٢) حجة الوقف المؤرخة غرة جماد أول سنة ١١٧٢ ه‍ .

(٣) فى دار الآثار العربية ألواح من القاشانى عليها اسم صانعها المغربى (محمد بن عبد الكريم الفاسى) المعروف بالزربع سنة ١١٧١ ه‍ .

تتفرع منها غصون وأزهار تنتهى بعقد فوقه هلال ، ويوجد فى دار الآثار العربية أربع زهريات مطابقة لها فى الصناعة والألوان كل منها مكونة من خمسين قطعة كانت فى منزل (نفيسة الجاسوسة بالقاهرة) . ولعلها من صناعة الحاج مسعود السبع . وبمؤخره دكة المبلغ وتعرف فى الإسكندرية بالصندرة .

أما المحراب فقد كُسِى بالرخام و بالقاشانى الجميل ، ويتوسطه زهرية كاملة من القاشانى تعدّ من أبدع الأنواع ، وكتب على دائره بالخط الكوفى المربع : « لا إله إلا الله محمد ، رسول الله » . ويكتنف هذا المحراب عمودان لوابيان ، ويقوم على يمينه منبر من الخشب المجمع بأشكال هندسية ، طعمت حشواته بالسنّ ، ومكتوب على باب مقدمه ما نصه :

يا مسجدا منه ضيا الأشراق راق * لمؤسس للاجر يوم تلاق لاقى
سبب الخلاص لمن بنى إخلاصه * وله من النيران بالأشواق واقى
ووسيلة عند الظما يوم الجزا * والتفت الساق العلى بالساق ساقى
فعلاوة أرختـه وأساسـه (1) * المسجد التقوى لعبد الباقى باقى
سنة ١١٧١

ثم اسم الصانع بما نصه : « عمله الحاج السيد عبد المولا الطويْبى » وكتابات بالكوفى المربع .


(زهرية قاشانى)

ووجود أسماء الصناع على الآثار الإسلامية فى مصر يعدّ من الأمور النادرة غير أن الإسكندرية و بلدان الوجه البحرى قد حفلت بعدد غير قليل منهم ، وأكثره ما كان فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجرى (السابع عشر والثامن عشر الميلادى) . ويحيط بالمسجد من جوانبه الثلاثة القبلية والغربية والبحرية إيوانات مسقوفة ذات عقود محمولة على عمد ، وقد بنيت هذه العقود وخاصة البحرية منها بالطوب المنجور ذى اللونين الأحمر والأسود .

وهذا التخطيط الذى نرى فيه قاعة الصلاة محاطة بإيوانات يشاهد أيضا فى مسجد الحاج إبراهيم تربانة بالإسكندرية ، المنشأ سنة ١٠٩٧ هـ (١٦٨٥ م) وغيره من مساجد الإسكندرية ورشيد .

(1) هذا نظم ركيك مختل الوزن والمعنى ، ولولا أنه نص تاريخى يعول عليه فى تأريخ المسجد لما عنيت بالاشارة إليه .

وهو مقتبس من الطراز العثمانى الذى أدخل على مساجد مصر ، فهو يرى فى مسجد سنان باشا ببولاق ، المنشأ سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م) ومسجد أبى الذهب بشارع الأزهر المنشأ سنة ١١٨٧ هـ (١٧٧٣ م) غير أنهما آمتازا بأن المسجد غطى بقبة كبيرة، وغطيت الإيوانات حوله بقباب صغيرة، مع تنوع فى التفاصيل .

ودورة الميـاه منعزلة عن المسجد فى الجهـة الغربية ومنخفضة عنـه مغطاة بمصلبات معقودة مخوصة، وقد اقتصر هذا النوع من زخرف المصلّيات على الإسكندرية ورشيد .

وقد هدمت منارة المسجد، وكانت قائمة أمام الرواق الغربى فوق مصلّبة تتكئ على جدار الرواق، وعلى عمودين من الرخام، وهى ميزة آنفردت بها مساجد الإسكندرية مثل منارة مسجد تربانة .

و بمناسبة المنـارة أذكر طريقة كانت متبعة فى منارات مساجد الإسكندرية ولا زالت متبعة حتى الآن فى مسجد البوصيرى ، وهى نشر علم أخضر فى أوقات الصـلاة نهارا و إضاءة مصـباح ليلا إيذانا بحلول وقت الصلاة ليستدل بذلك من بعد عن المدينة من لم يسمع الاذان، وهى طريقة جاءت إلى الاسكندرية من بلاد المغرب فقد رأيتها فى مدينة الجزائر، ولعلها ترجع الى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) فقد أمر بها السلطان[1] أبو عنان فى مسجد القرويين بفاس فى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) .

أما إضاءة المنارات فقـد آستعملت فى مصر والشام والحجـاز فى شهر رمضان فقط إيذانا بالسحور على أن تطفأ قبل أذان الفجر، ولشعراء مصر والإسكندرية فيها أشعار طريفة فمن ذلك ما أنشده الأديب أبو الحجاج يوسف بن على من شعراء أوّل القرن السابع الهجرى (الثـالث عشر الميـلادى)[2] :

هـذا لواء سحور يستضـاء به * وعسكر الشهب فى الظلماء جرّار
والصائمون جميعـا يهتدون به * كأنه عـلم فى رأسـه نار

وأنشد الأديب على بن ظافر[3] من أدباء نهاية القرن السادس وأول السابع الهجرى :

وليـلة صوم قـد سهرت بجنحها * على أنهـا من طولها تعدل الدهرا
حكى الليل فيها سقف ساج مسمرا * من الشهب قد أضحت مساميره تبرا

---

(١) زهرة الآس ص ٣٩ ، الاستقصا، ج ٢ ص ١٠٢

(٢) و (٣) بدائع البداة ص ١٤٧ ، ١٤٩

وقام المنار المشرق اللون حاملا * لفانوسه والليل قد أظهر الزهرا
كما قام رومىّ بكأس مدامة * وحيّا بها زنجية وشحت درّا

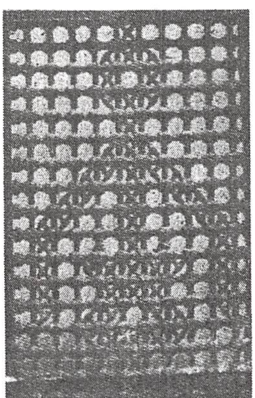
وأنشد الأديب القاضى أبو الحسن بن النبيه :

حبذا فى الصيام مئذنة الجا * مع والليل مسبل أذياله
خلتها والفانوس إذ رفعته * صائدا واقفا لصيد الغزاله

وأنشد الأديب الرشيد أبو عبد الله محمد بن متانو :

أحبب بفانوس غدا صاعدا * وضوءه دان من العين
يقضى بصوم وبفطر معا * فقد حوى وصف الهلالين

ومن منشآت الأمير – رحمه الله – وكالة تلاصق المسجد من الجهة البحرية الشرقية ، ويشرف عليها الإيوان البحرى للمسجد ، ولهذه الوكالة عقود مبنية بالآجر الملون باللونين الأحمر والأسود ، وهى من الوكائل الجميلة التى يندر وجود مثلها بالإسكندرية .



مسجد النبي دانيال

بشارع النبي دانيال بالإسكندرية

دانيـال النبي — هو دانيـال النبي أحد أنبياء بنى إسرائيل، قيل : إن معنى دانيـال : « الله قاض » أو « قاضى الله » ، وهو من أسرة عريقة فى الحسب . ويُظَنّ أنه ولد فى أورشليم حسب ما حققه المؤرخ الشهير يوسيفوس، وأنه هو الذى كتب سفر دانيال[1] .

وفى سـنة ٦٠٦ ق م، وهى السـنة الثالثة من ملك يوياقيم بن يوشـيا أحد ملوك بنى إسرائيل فى الدولة الثالثة[2] — صعد بختنصّر ملك بابل الى بيت المقدس وسباها ، وجلا أكثر أهلها الى بابل، ومعهم دانيال النبي والفتية الثلاثة أولاد يوياقيم أعمام دانيال النبي ووضع الجزية على يوياقيم ورجع عنه.

اختاره البابليون هو ورفقاؤه ليتعلموا لغة الكلدانيين، وعلموهم وألحقوهم بالقصر الملكى، وسمى دانيال بلطشاصر ، فحافظ على ديانته وتمسك بها ، وارتقى بحكمته الى أعظم منصب فى مملكة وثنية، وبسبب تحقيق نبوءته فى تفسـير أحلام لبختنصر وداريوس عظم شأنه وعلت منزلته ، وعيّن أوّل الوزراء الثلاثة فى دولة داريوس ، ونال حظوة كبيرة فى بلاط بابل ، وبقى بها الى أن مات ، وظل تابوته فى السوس بخوزستان .

مسجد النبي دانيال — بناء هذا المسجد بسيط، ومن طرازه وطراز منارته القديمة التى كانت قائمة على يسار الباب العمومى، اعتبرته من أبنية القرن الثانى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى)، كما أن عقود المصلّية المؤدّية للقبة ومقرنصات المنور فوق القبر، وطراز القبة التى كانت تعلوه ترجع الى هذا العصر .

وهذا المسجد و إن كان المرحوم على باشا مبارك[3] كتب عنه أن المغفور له محمد على باشا جدّده ووسّعه سنة ١٢٣٨هـ (١٨٢٢ م)، فإن طراز بنائه لا يتفق وطراز أبنية محمد على باشا، وعلى الأخص مدفن الأسرة المجاور له ، كما أن الوثائق التاريخية التى تفضل المغفور له الأمير الجليـل عمر طوسون

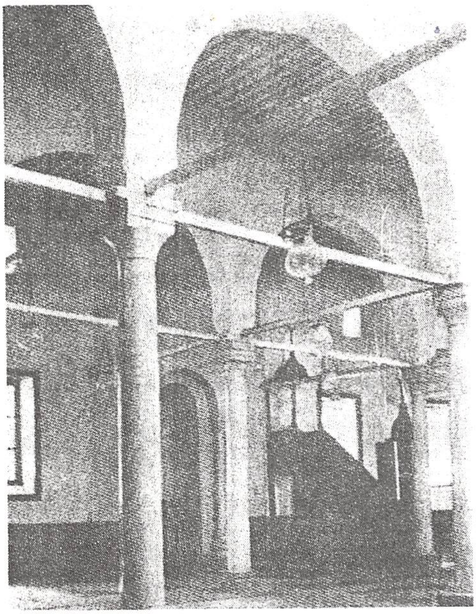
(١) تاريخ الاسرائيليين ص ١٤٩

(٢) تاريخ مختصر الدول ص ٦٩

(٣) الخطط الجديدة، ج ٧ ص ٧٠

باعطائى نسخة منها أثبتت أن إنشاء مدافن الأسرة المجاورة للمسجد كان سنة ١٢٣٨ هـ ، وأن إصلاح المسجد كان سنة ١٢٦٧ هـ (١) (ديسمبر سنة ١٨٥٠ م) . وصرف عليه ١٩٠ جنيها .

وعند ماحقق سمو الأمير فى بحثه المنشور فى الأهرام يوم ١٨ مارس سنة ١٩٣٠ عدم وجود النبي دانيال بالإسكندرية اعتمد فى بحثه على ماجاء فى تاريخ الرسل والملوك للطبرى وعزز هذا الرأى بما كتبه ياقوت الحموى فى معجم البلدان وأبى الفدا فى تاريخه المختصر فى أخبار البشر طبع مصر.



داخل المسجد

وإنى أدعم رأى سموه بما كتبه كثير من المؤرخين المعتمد على رأيهم ، فقد كتب مؤلف مراصد الاطلاع عن السوس أنها (٢) «بلدة بخوزستان وجد فيها جسد دانيال فدفن فى نهرها تحت الماء» .

وعند ما تكلم ابن العبرى فى تاريخه عن دولة ملوك بنى اسرائيل (٣) ذكر أنه «فى السنة الثالثة من ملك يوياقيم بن يوشيا صعد بختنصر ملك بابل الى بيت المقدس وسباها وجلا أكثر أهلها الى بابل ومعهم دانيال النبي» .

وذكر الواقدى فى فتوح الإسلام لبلاد العجم أن أبا موسى الأشعرى بعد أن فتح السوس وجد خزانة مقفلة، ففتحها فوجد فيها حجرا طويلا على مثال الحوض ، وفيه رجل ميت قد كفن بأكفان منسوجة بالذهب فكتب إلى عمر بن الخطاب يخبره و يطلب رأيه فأخبره الإمام على بأنه قبر النبي دانيال (٤) ، فأمر سيدنا عمر بدفنه ، فطلب أبو موسى من أهل السوس أن يحبسوا نهرهم إلى موضع آخر، ودفنه فى قاع النهر، ثم أجرى النهر ثانيا .

(١) وثيقة رقم ٤٢٦ — ٢٣ صفر سنة ١٢٣٨ هـ من المحفوظات الملكية ، والأمرين رقم ٥٣ ، ٥٤ بتاريخ ١٩ ، ٢٩ المحرم سنة ١٢٦٧ هـ ٢٤ نوفمبر ، ٤ ديسمبر سنة ١٨٥٠ م .

(٢) مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٦٧ (٣) تاريخ مختصر الدول ص ٦٩

(٤) فتوح الإسلام لبلاد العجم ص ٧٤ — ٧٥ ، مسالك الممالك للاصطخرى . ص ٩٢

وفى فتوح البلدان للبلاذرى أن فتح السوس كان فى أواخر سنة ١٥ وأوائل سنة ١٦ هـ (٦٣٧م). ولما فتحها أبو موسى وجد فى قلعتها بيتا وعليه ستر، فسأل عنه فقيل له : إنه جثة دانيال النبي، فكتب إلى عمر بذلك، فأمره بدفنه، فدفنه فى النهر[١] .

وإذ انتهينا من أقوال ثقات المؤرخين التى أجمعت على وجود النبي دانيال بمدينة السوس نبحث عن منشأ القول بوجوده بالإسكندرية، وإلى أى تاريخ ترجع رواية وجوده فى كوم الديماس .

لعل أول من ذكر أنه بالديماس ابن عطاء الله السكندرى، وقد أشار إليه تلميحا لا تصريحا فى رواية متناقضة ضمن الفصل الذى عقده عن علم أبى العباس المرسى[٢] وزهده إذ يقول : « ولقد أخبرنى الشيخ مكين الدين الأسمر[٣] قال دخلت مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالإسكندرية بالديماس فوجدت النبي المدفون هناك قائما يصلى، عليه عباءة مخططة، فقال لى : تقدم فصل . فقلت له : تقدم أنت وصل . قال تقدم أنت وصل : فإنكم من أمة نبي لا ينبغى لنا التقدم عليه ... » .

ويفهم من هذه الرواية وتضاربها أنها تتعلق بنبى يسبق العصر الإسلامى .

ولما تتبعت أخبار الرحالة الإسلاميين الوافدين على الإسكندرية لم أجد أحدا منهم تعرض لذكر النبي دانيال، وخاصة المتقدمين، فلا الحافظ السلفى، ولا ابن خزيمة، ولا ابن جبير، ولا أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى مؤلف كتاب ألف باء، ولا ابن بطوطة، ولا ابن فضل الله العمرى، إلا خالد بن عيسى البلوى فى رحلته تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق[٤]، فإنه بعد أن أشاد بذكر الإسكندرية وقت أن زارها سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) ذكر تلميحا وجود بعض الأنبياء إذ قال : وفيها تربة بعض الأنبياء — عليهم السلام — وترب بعض التابعين — رضوان الله عليهم أجمعين — .

وأول من ذكره تصريحا غرس الدين خليل الظاهرى[٥] نائب السلطنة بالإسكندرية المتوفى سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) إذ يقول : «وبها من المزارات والأماكن المباركة ما يطول شرحه، منها مشهد دانيال عليه السلام» .

(١) فتوح البلدان ص ٣٧٨

(٢) لطائف المنن ص ٩٤

(٣) المكين الأسمر عبدالله بن منصور شيخ الإقراء بالإسكندرية . توفى بها سنة ٦٩٢ هـ(١٢٩٢ م) . وقبره بجوار مسجد ياقوت العرشى . (٤) تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق .

(٥) كتاب زبدة كشف الممالك ص ٤١ طبع باريس .

هذا ما يتعلق بالنبيّ دانيال، ومنه يتبين أن إشاعة وجوده بالإسكندرية ترجع الى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ولم يأخذ بها أجلة العلماء. ويوجد بالموصل[1] مدرسة عرفت بالنبيّ دانيال لوجود ضريح بها كان يقال إنه للنبيّ دانيال .

وقد لازمت هـذا المسجد فكرة وجود قبر الإسكندر فيه ، فقد نفى المرحوم محمود باشا الفلكى فى كتابه عن الإسكندرية المطبوع سنة ١٨٧٢ وجود النبيّ دانيـال بالإسكندرية وقال : إنه توفى قبل إنشاء الإسكندرية بأكثر من ثلاث قرون ثم قال : إن القبر الذى يعزى[2] إليه يمكن أن يكون قبر الإسكندر ، وتبعه فى ذلك المغفور له الأمير عمر طوسون فى بحثه الذى أشرت إليه ، إذ رجح أن القبر الموجود فى مسجد النبيّ دانيال هو قبر الإسكندر .

وقد نحا هذا النحو مسيو بريشيا فى مجلة الفن الحى[3] ثم فى بحث له فى كتاب المتحف الجريكى الرومانى الذى قرر فيه : « أن شكل مقبرة النبيّ دانيـال غريب فى الحقيقة عن الطرز الإسلامية ، ويرجع تصميمها إلى السراديب اليونانية كالتى آكتشفت بالشاطبى، والأنفوشى، والورديان ... » .

ثم نشر الدكتور إبراهيم الدسوقى فى جريدة المقطم فى يناير سنة ١٩٤٣ وفى نشرة خاصة لحضرته ملخصا لمـا كتبه المرحومان الفلكى باشا ، وحضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون ، والدكتور بريشـيا والأب لويس عضـو الجمعية الأثرية بالإسكندرية من أن الإسكندر مدفـون فى مسجد النبيّ دانيـال ، وأن ضريح النبيّ دانيـال جدير بالبحث وآستخراج الجثث التى به لفحصها علميا .

وبناء على طلب المرحوم الأمير الجليل عمـر طوسون وافق المرحوم عبد الهادى الجندى باشـا وزير الأوقاف وقتئذ على البحث فى مقبرة النبيّ دانيال ودراستها ، فتفضل سموّه وعهـد الىّ بهذا العمل فى شهر فبراير سنة ١٩٤٣

وقبل الدخول فى تفاصيل أعمال الحفر نلقى نظرة على أقوال المؤرخين الإسلاميين الذين ذكروا قبر الإسكندر، فنجد أن أقدم مؤرخ إسـلامى وصف قبره هو المسعودى[4] ، فقد وصفه على ما كان موجودا عليه سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) غير أنه لم يحدد موضعه، ولم يقل إنه بالديماس، فإن صحت مشاهدة المسعودى له فإنى أرجح أنه لم يكن بالديماس فى ذلك الوقت لسببين وجيهين :

(١) مخطوطات الموصل ص ٢٠٤ (٢) Mémoire sur l'Antique Alexandrie p. 51-24.

(٣) ص ٥٧٧ عدد ١٣٤ وفيها صورة للقبة والمنارة قبل هدمهما .

(٤) مروج الذهب طبع بولاق ، ج ١ ص ١٤١

(أولا) أن الحافظ السلفي[1] ذكر الديماس كمقبرة إسلامية فى غير موضع من معجمه، كما سيأتى بيانه، وذلك فى مبدأ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ولم يذكر شيئا عن قبر الإسكندر.

(ثانيا) أن العلامة محمد بن خزيمة[2] الذى قدم الإسكندرية سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) وصف أسوارها ومساجدها ومسلّاتها، ووصف الديماس ولم يذكر قبر الإسكندر به؛ إذ يقول ماملخصه:

« وذكروا أنه كان بقرب كوم ديماس وجامع العسلية بحرى طرف الكوم قصر مغلق قيل إنه كان به رصد يجمع الكناسة من البلد على كوم الديماس ».

فلو كانت مقبرة الإسكندر موجودة لذكرها كذكره لجامع العسلية، ولو كانت هناك وآندثرت لذكرها كذكره للقصر.

ومن الغريب بل ما يوجب الشك أن المسعودى يصف القبر سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) ويأتى بعده القضاعى بنحو ١٢٠ سنة فيصف أعلام الإسكندرية ولم يذكر قبر الإسكندر. وبعد القضاعى أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى الذى زار الإسكندرية سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ووصف المنار أحسن وصف، كما وصف مسجد سليمان[3]، فإنه لم يتعرض لقبر الإسكندر.

ومثله ابن جبير الذى زار الإسكندرية سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) وعبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) فإنهما وصفا عمود السوارى والمنار، ولم يتعرضا لقبر الإسكندر.

وها هو ياقوت الحموى[4] المتوفى سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) يقرر صراحة رأيه فى الإسكندرية بقوله:

« وقد دخلت الإسكندرية وطوّفتها فلم أر فيها ما يعجب منه إلا عمودا واحدا يعرف الآن بعمود السوارى تجاه باب من أبوابها يعرف بباب الشجرة، ثم وصف المنار ورسمه، وختم وصفه بقوله: فهذا الذى شاهدته وضبطته، وكل ما يحكى غير هذا فهو كذب لا أصل له ».

وهكذا مؤرخو ورحالة القرنين الثامن والتاسع الهجرى (الرابع عشر والخامس عشر الميلادى) مثل ابن بطوطة، والبلوى صاحب تاج المفرق، وابن فضل الله العمرى مؤلف كتاب مسالك الأبصار، والمقريزى، وابن دقماق، وخاصة نائب الاسكندرية غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى فإنه وصف الإسكندرية ومعالمها، ولم يتعرض لقبر الإسكندر.

---

(١) الحافظ السلفى، هو الفقيه أبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة، أصبهانى الأصل، قدم الإسكندرية سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) وبقى بها إلى أن توفى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م). (٢) كتاب فضائل الإسكندرية، مخطوط.
(٣) ألف با، ج ٢ ص ٥٣٦ — ٥٣٧. (٤) معجم البلدان، ج ١ ص ٢٤١ — ٢٤٣.

وكذلك رحالة القرن السادس عشر الميلادى لم يذكره أحد منهم لا تلميحا ولا تصريحا، فلو كان قبر الإسكندر موجودا وذكره مؤرخ سابق لنقلوا عنه مثل ما نقلوا وصف المنار . وأيضا فإن كثيرا من زائرى الاسكندرية من الأجانب فى القرن الخامس عشر لم يذكروا قبر الإسكندر ، بينما وصفوا المنار وعمود السوارى ، ومنهم سبرياك دى انكوناه الذى زارها سنة ١٤٣٥ م . فإنه لم يصف سوى منارة فاروس والمسلات وعمود السوارى ، وكذلك برناردى بريد نباخ[1] .

وقد ذكر ليون الإفريقى فى القرن الخامس عشر أنه رأى أهالى الإسكندرية يعظمون قبر للإسكندر كتعظيمهم للنبى[2] . وفى سنة ١٥٤٦ م ذكر مارمول أنه شاهده فى وسط المدينة قريبا من كنيسة سان مارك[3] . ويقول على باشا مبارك : « وفى القرن الخامس عشر للميلاد كانت أهالى الإسكندرية تفرّج السائحين على قبر إسكندر ، لكن من أين لنا أنه القبر الحقيقى[4] » .

واقتصار بعض رحالة القرنين : الخامس عشر والسادس عشر من الأجانب على ذكره يجعلنى أرجح أنهم زاروا ضريح الإسكندر الموجود حتى الآن بشارع مشمش البصل قسم اللبان بتضايل من عوام الإسكندرية ، وهذا ليس بمستغرب ، فاننا حتى اليوم نجد من يقول على جوهر القنقبائى المدفون بمدرسته بالأزهر أنه جوهر الصقلى ، وإن عبد الله بن عمرو بن العاص مدفون فى جامع عمرو ، وكالأضرحة المزعومة فى المساجد مثل سيدى محمد الأقمر فى الجامع الأقمر الذى أنشأه الآمر بأحكام الله ، وغير هذا كثير ، وكلها أضرحة مفتعلة ومكذوبة للاستجداء عليها .

وإنى أكتفى بهذا القدر من الناحية التاريخية ، منتقلا إلى الناحية الفنية .

البحث فى مقبرة النبى دانيال — على هدى المغفور له سمو الأمير عمر طوسون وإرشاداته القيمة بدأت أعمال الفحص والتنقيب بمقبرة النبى دانيال ، وقد تفضل سموه وأرشدنى إلى أن العمود القائم بجوار مسجد عبد الرزاق تجاه مسجد النبى دانيال قائم على منسوب الإسكندرية القديم ، وهو ينخفض عن شارع النبى دانيال بمقدار ستة أمتار .

وأول شىء قمت به هو فحص طراز البناء فى عقود الممر الموصل لمقبرة النبى دانيال ومقرنصات المنور المثمن أعلى القبر المزعوم ، وعقود الإيوانات حوله والقبة القديمة التى كانت تعلوه ، وانتهيت إلى أن مجموعة هذه المبانى لا يزيد عمرها على مائتين وخمسين عاما تقريبا .

(١) الإسكندرية ص ٤١ . (٢و٣) الخطط الجديدة ج ٧ ص ٤٢ .

(٤) الخطط الجديدة ج ٧ ص ٣١ .

وقد تبين أن الأرضية الخشبية للضريح على عمق ٢٫٣٦ مترا من شارع النبي دانيال، وأن الدهليز مكون من أربعة عقود مصلبة، تنتهى إلى مربع يحيط به ثلاثة إيوانات معقودة، بالشرقى منها محراب على سمت محراب المسجد، ويعلو المربع مثمن به مقرنصات متأخرة الصناعة، كانت تعلوه قبة لم يبق سوى قاعدتها بالمقرنصات .

أما القبة فقد هدمت منذ زمن غير بعيد، ويتوسط هذا المربع تابوت خشبي، يجاوره فى الناصية القبلية الغربية تابوت آخر أصغر منه كتب عليه أنه قبر الحكيم لقمان، كما كتب على ستر التابوت الكبير « قبر النبي دانيال » .



عمودان قبل استخراجهما من مقبرة الحكيم لقمان

بدأت برفع الستر ثم الصندوق الخشبي الموضوع على قبر النبي دانيال، فوجدت تركيبة حديثة مبنية بالطوب، مسنمة على مثال القبور المحدثة بالإسكندرية، وعلى غير اتجاه القبور الإسلامية، كما لاحظ حضرة صاحب السمو الأمير، ولا توجد عليها نصوص تاريخية .

ثم اختبرت تربة الأرض، فسمعت لها رنينا يؤكد أنها مردومة وليست طبيعية؛ ثم رفعت الستر والصندوق عن قبر الحكيم لقمان، فلم أجد تركيبة، بل وجدت رأسى عمودين مطمورين متجاورين فى وضع غير مألوف فى القبور كما هو واضح فى الصورة الفتوغرافية، وكان ظاهرا من أحدهما ٣٢ سم، ومن الآخر ٥٠ سم . وبالحفر حولهما فى حفرة مساحتها ١ × ١ × ٢ متر استخرجت أولهما وطوله ٦٥ سم . ومكتوب عليه بالخط الكوفى آية من القرآن وقد تشوه، فقرأت تاريخه بما نصه : ... ... « الجمعة مستهل ربيع الآخر سنة عشرين وخمسمائة هـ » .

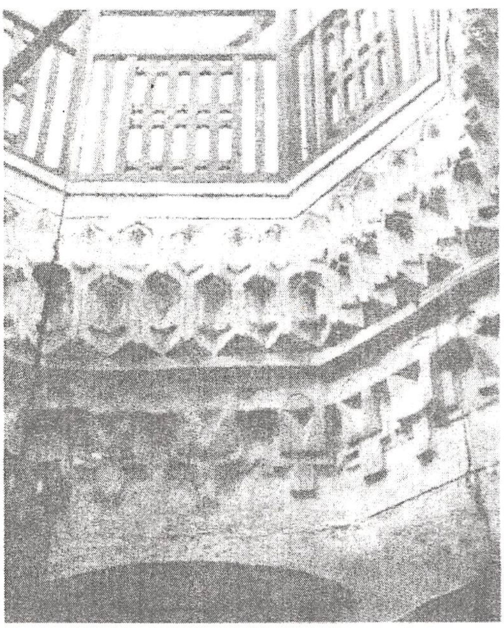
ثم استخرجت العمود الثانى وطوله ١٫٣٢ متر وقطره ٢٦ سم، فإذا به شاهد مكتوب عليه بالخط النسخ أحد عشر سطرا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله ... ... يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم » . إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . توفى الشيخ أبو القاسم بن أبو الحسن بن أبو القاسم الباجى فى شهر جمادى الآخر من سنة إحدى وستين وخمسمائة رحمة الله عليه وعلى جميع المسلمين آمين وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

ولهذا الشاهد أهمية كبيرة لدى الأثريين ، إذ أنه يعد من بواكير استعمال الخط النسخ فى كتابة النصوص التاريخية بمصر . ثم واصلت الحفر الى نحو ١,٦٠ متر تقريبا فوجدت الأرض مردومة بأنقاض مختلفة وبها بقايا جدار معلق ؛ ثم استخرجت منها جزءا من شاهد مكتوب عليه بالخط الكوفى ما نصه :

« ... الحساب — ابنة نصر مولى عبدالله بن محمد تشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك ... ... »

وقاعدة كتابة هذا الشاهد ترجع الى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ثم واصلت الحفر الى نحو مترين فلم أجد سوى ردم . وفى الواقع فإن هذه الحفرة كانت بمثابة مجس للمقبرتين المزعومتين لأنهما متجاورتان .



مقرنصات المنور

ثم اتجهت لفحص الصهريج الملاصق للإيوان الغربى للمقبرة فوجدت بأرضيته بخوة توصل الى الطابق الأسفل له ، ووصلنا فى الحفر فيه الى عمق ثمانية أمتار ، أى أعمق من مستوى العمود أمام مسجد عبد الرزاق بمترين واستخرجنا من أعمق نقطة فيه بقايا عمودين من الرخام الأخضر الداكن مقاس أحدهما ١٧ سم ، والآخر ٤٠ × ٩ سم .

ثم فتحت بخوتين فى الجدار الشرقى للصهريج متجها لمقبرة النبى دانيال ، فاتضح أن ما خلفهما ردم ، كما استخرجت قطعة صغيرة من الرخام بها حروف كوفية وزخارف فاطمية .

وقد تحقق ما ذهبت اليـه من أن هذا الصهريج أجريت فيه أبحاث، فقـد نشر مسيو بريشيا نتيجة لخصه له وللجسات التى أجراها خارج الصهريج . غير أنى خرجت من لحص هـذا الصهريج بنتيجة ثابتة عن تطورات آرتفاع الأرض فى هـذه المنطقة ، لوجود ثلاث فتحات لهـذا الصهريج بعضها فـوق بعض : العليا مع مستوى شارع النبي دانيال ، والوسطى مع مستوى الأرض الخشبية للقبرة ، والسفلى — وهى أقدمها — على عمق نحو مترين تقريبا من الوسطى .

وبعد التحقق من أن أرضية المقبرة المزعومة ردم لا قبور فيها، قمنا بحفر فى الإيوان الغربى من الصهريج على مقربة من تربة النبي دانيال ، وواصلت الحفر إلى منسوب الإسكندرية، فاتضح أن الأرضيـة مردومة ، وبهـا بقايا جدران علقت أسسها على آرتفاعات مختلفة ، كما وجدت أرضية فى جزء منها وعظاما قليلة مبعثرة فى الردم .

وعلى عمق مترين استخرجت عمودا من الرخام مطموزا مقاس ٧٠ × ١٤ سم مشوها مكتوبا عليه بالخط النسخ :

«بسم الله الرحمن الرحيم، كل من عليها فان ... الآية ... توفى العبد الفقير إلى رحمـة الله ... ... عبد الـ ... الجمعة مستهل شهر ... سنة أربعة عشر وسبعمائة » .

وفى هذه الحفرة وعلى عمق ٢,٢٠ متر اتجهت مشرّقا إلى أن وصلت تحت القبر المزعوم بعد أن آستخرجت كثيرا من الدبش المرصوص بدون مونة ، إلى أن تحققت من عدم وجود قبور، لا قديمة ولا جديدة .

وعلى عمق ٣,١٠ متر ظهرت بقايا أبنية مستديرة لعلها بقايا بئر مطمورة فيهـا عمود من الرخام على غير آستقامته ، وقد دل هذا الحفر بوضوح على أن هذه المنطقة نبشت عند تشييد هذا المسجد، لأن جدران الضريح الحالى علقت على عمق بسيط ، ومن المحقق أنه عند حفر الأساس عثر على قبور وشواهد، فطمرت على آرتفاعات مختلفة، وهـذا يدل دلالة قاطعة على أن هـذه البقعة آستعملت مقبرة إسلامية منذ ألف سنة على الأقل بدليل :

(١) العثور على شاهد قبر مكتوب بالخط الكوفى فى القرن الرابع الهجرى .

(٢) العثور على شاهد قبر مؤرخ سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) .

(٣) العثور على شاهد قبر مؤرخ سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م) .

(٤) الشاهد المودع بالمسجد المؤرخ سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) باسم ظافر بن جماعة بن شعيب . ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد كل نفس ذائقة الموت — الى — فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . توفى سيدى ظافر ابن جماعة بن شعيب فى العشر الآخر من ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وخمسمائة رحمه الله وإيانا وجميع المسلمين آمين » .

(٥) الشاهد المودع بالمسجد المؤرخ سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) باسم أبو الفقرى الفاسى . ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم كل من ... ويبقى وجه ربك ذو الجلال وا ... الصالح أبو الفقرى أبو ب ... الفاسى توفى فى شهر محرم سنة ثلاث وثلاثين وستمائة قدس الله روحه ونفع به حيا وميتا » .

(٦) العثور على شاهد قبر مؤرخ سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) . هذا عدا شواهد أخرى مكتوبة بالخط الكوفى نقلت الى دار الآثار العربية سنة ١٩٠٢

فان جاز القول بأن بعض هذه الشواهد مثل القطع الصغيرة نقل وطمر للردم فانه لايجوز مطلقا أن يقال ذلك على العمد الضخمة الثقيلة .

ويؤيد آستعمالها مقبرة إسلامية عدا الشواهد المستندات التاريخية الجديدة التى استخرجتها من معجم السلفى الذى قدم الإسكندرية سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) وأقام بها إلى أن توفى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) ، فقد ذكر فيه من لقيه من علماء الإسكندرية وغيرها ، وتاريخ وفاتهم ، ومنهم من دفن فى مقبرة وعلة [١] ، ومنهم من دفن فى مقبرة باب البحر [٢] ، ومنهم من دفن فى مقبرة الديماس (هذه المنطقة) ، وهم [٣] :

(١) الفقيه هبة الله بن المحسن المتوفى سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) دفن بالديماس .

(٢) أبو الحسين يحيى بن عبيد بن سعادة الحضرمى المعروف بالعداس وبالجلبانى . توفى فى آخر صفر سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ودفن بمقبرة الديماس .

(٣) القاضى أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن حديد قاضى الاسكندرية المتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) صلى عليه فى مقبرة الديماس .

---

(١) مقبرة وعلة : كانت داخل السور قبلى الباب الأخضر ، وهى المنطقة الموجود فيها الآن مسجد الطرطوشى فى حى باب الكراسته .

(٢) مقبرة خارج باب البحر — المنطقة الموجود فيها مسجد أبو العباس المرسى .

(٣) هذه التراجم مستخرجة من نسخة مأخوذة بالفتوغراف من كتاب معجم السلفى تنقص الأول والآخر ومحفوظة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٢٢ تاريخ فى مجلدين .

(٤) أبو الحسن على بن يحيى الكتامى الجلالى المعروف بالناهض المتوفى فى آخر المحرم سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨ م) دفن بمقبرة بالديماس .

(٥) العلامة ابن العريف المتوفى فى المحرم سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) دفن بمقبرة الديماس .

(٦) ياقوت مولى أبى طالب الهيتى التاجر المتوفى فى رجب سنة ٥٣٩ هـ (ديسمبر سنة ١١٤٤م) دفن بمقبرة الديماس .

وممن دفن بالديماس أيضا الشيخ المعتقد المجذوب نهار المغربى الإسكندرى المتوفى يوم الاثنين ٢٦ جمادى الأولى سنة ٧٨٠هـ (١٣٧٨ م) فانه دفن بتربة بالديماس[(١)] .

والآن وقد أثبت التاريخ والحفريات أن الديماس أو على الأصح هذا الجزء منه استعمل مقبرة إسلامية منذ ألف سنة ما زالت موجودة ، كما أنشئ به غير مسجد ، وأن الحفريات أثبتت أن الجزء الموجود فيه المقبرة المنسوبة خطأ إلى النبي دانيال نبش وطمرت شواهده وعظامه عند تشييد البناء الحالى .

فاذا صح أن الإسكندر دفن بالسوما[(٢)] فيكون فى نقطة أخرى منها غير مسجد النبي دانيال .

(١) المنهل الصافى لابن تغرى بردى ، خط ، النجوم الزاهرة ج ٥ قسم ٢ ص ٣٣٦ طبع كلفرنيا .

(٢) السوما — أى الجسد قسم من السرايات الملوكية . قال استرابون : وهو عبارة عن سور يحيط بقبور الملوك وبقبر الإسكندر .

ومما قاله بعض المؤرخين . إن موضع سوما هو فى أسفل التل المشيد فوقه حصن كوم الديماس .

ويرى المرحوم محمد بك مسعود أن لفظة سوما أو سوماس اليونانية تشبه فى النطق تقريبا لفظة ديماس العربية التى أغلب حروفها مثل أغلب حروف الأخرى ، وكانت لفظة سوماس تطلق على هذا المحل نفسه ، إلى أن دخلت العرب مدينة سكندرية فتحرفت هذه الكلمة وصارت ديماس (ص ١١٥ المنحة الدهرية) .

مسجد كريم الدين الخلوتى

هذا المسجد بشارع البرمونى عند تلاقيه بشارع[*] الخليج المصرى عند قنطرة سنقر .

الخلوتى — هو الشيخ محمد بن أحمد بن محمد كريم الدين الخلوتى . ولد سنة ٨٩٦ ﻫ (نوفمبر سنة ١٤٩٠ م) ونشأ نشأة صوفية فصار يحضر مجالس الذكر لينشد فيها ، إذ كان حسن الصوت ، وقد أخذ عن الشيخ دمرداش الذى عطف عليه وقربه منه وتلقى عنه علوم الأوفاق والحرف والزايرجة والرمل ، فأتقنها وتألق نجمه ، حتى انتهت اليه الرياسة فى طريق الخلوتية ، وكثر تلامذته ، وحسن اعتقاد الناس فيه ، وأقام فى زاوية بالقرب من قنطرة سنقر إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى فى جمادى الآخرة سنة ٩٨٦ﻫ (١٥٧٨ م) عن نحو تسعين سنة ، وكثر أسف الناس عليه ، وبعد الصلاة عليه فى الجامع الأزهر دفن[1] بهذا المسجد .

وقد اتخذت زاويته مقرا للخلوتية ، ومدفنا لبعض مشايخها ، فقد زارها سنة ١١٠٥ ﻫ (١٦٩٤ م) الرحالة عبد الغنى النابلسى ، وذكر من دفن بها بقوله :

« ... مررنا على جامع الخلوتية ، فدخلنا إليه ، وزرنا هناك قبور الخلوتية الدمرداشية وهم : الشيخ كريم الدين ، والملقب بكوز[2] البغا ، والشيخ عبد الجواد ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد ، والشيخ محمد ماميه والد الشيخ عبد الرحمن الخلوتى ، فقرأنا لهم الفاتحة ، ودعونا الله تعالى » .

ووجود اسم « كوزلبغا » ضمن من ذكر فى هذه الأسماء له أهمية كبيرة ، فقد لفت النظر الى أن جامع الخلوتية هو الجامع الذى أنشأه فى هذه المنطقة كوزلبغا فى دولة الظاهر چقمق ، فقد ترجمه السخاوى وقال عنه :

« وخدم عند فيروز الساقى ، ثم توجه للعبادة والتلاوة ، و بنى جامعا على الخليج الحاكمى بالقرب من شق الثعبان ، وقنطرة سنقر وانقطع به إلى أن مات فى أيام[3] الظاهر چقمق » وهذا التحديد ينطبق على الموقع الموجود فيه المسجد الحالى .

(*) انظر الصور من رقم ٢٤٧ — ٢٤٨ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الخطط الجديدة ، ج ٤ ص ١١٠ (٢) الحقيقة والمجاز ، ص ١٤٩ ، (٣) الضوء اللامع ، ج ٦ ص ٢٢٧ ، والمقريزى ، ج ٢ ص ٣٣١

وفى سنة ١١٧٣ هـ (١٧٥٩م) جدّد المسجد الأمير إيواز بك، ولم يبق من المسجد القديم الذى أنشأه كوزلبغا إلا الجزء الأسفل من المنارة حتى الدورة الأولى .

ومكتوب بحزامها : « بسم الله الرحمن الرحيم، يأيها الذين آمنوا آذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا (الآية) . صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم » .

وباقى المنارة يرجع الى تجديد إيواز بك ، كما أن الباب الخارجى للمسجد والوجهة المتصلة به أحدث عهدا من عمارة إيواز بك، وقد عنى إيواز بك بزخرفة بابه الأوسط بالنقوش والكتابات، والقاشانى ومكتوب عليه :

بالحسنين آل بيت طاهر * لذ تعط ما ترجوه من مفاخر
فالخلوتى ذو التقى لما بهم * لاذ آرتقى فى كل سر باهر
مسجده قد زاد فى إشراقه * نورا بديعا حسن المآثر
جدّده من قد أنير قلبه * فقلت منشدا بقول ظاهر
يا سعد إيواز فقد أرّخته * أبشر بعفو من معز قادر

(١١٧٣)

وداخل المسجد يتكون من ثلاثة إيوانات تحدق بصحن مكشوف ، أكبرها الإيوان الشرقى المشتمل على ثلاثة أروقة بها ستة عمد رخامية والجانبين القبلى والبحرى من رواق واحد ، وداخل هذا المسجد تسوده البساطة ، شأن مساجد ذلك العصر ، ويسترعى النظر فى هذا الإيوان آشتماله على محرابين : أحدهما يمين المنبر، ويتألف من قطعة واحدة من حجر البازلت الأسود ، لعلها كانت غطاء لتابوت مصرى . ويعلوه تربيعة حديثة من القاشانى، منقوش بها بيت ريفى وشجرة وحولها ترابيع صغيرة من القاشانى .

أما الإيوان الغربى فقد حل فى قسم منه باب يوصل الى باب المنارة والى قبة كبيرة أقيمت على عقود حليت أركانها بمقرنصات . وتحت هذه القبة وفى الحجرة غربيها قبور كريم الدين الخلوتى، والشيخ عبد الجواد، والشيخ عبد الرحمن الخلوتى وغيرهم ولا شك أن كوزلبغا مدفون مع هؤلاء على ما رواه النابلسى الرحالة .

مسجد السيدة عائشة

بشارع السيدة عائشة

السيدة الشريفة عائشة بنت جعفر الصادق آبن الإمام محمد الباقر آبن الإمام على زين العابدين آبن الإمام الحسين آبن الإمام علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وهى أخت الإمام موسى الكاظم رضى الله عنه .

كانت رضى الله عنها من العابدات القانتات المجاهدات ، ويؤثر عنها أنها كانت تقول مخاطبة المولى جلّ شأنه : وعزتك وجلالك لئن أدخلتنى النار لآخذن توحيدى بيدى وأطوف به على أهل النار وأقول لهم : وحّدته فعذّبنى . وقد تُوفيت الى رحمة الله تعالى سنة خمس وأربعين ومائة[1] .

هذه ترجمة موجزة لسيدة من آل البيت النبوى الكريم، شرف جثمانها الطاهر أرض مصر، ووجدنا منذ ستمائة سنة شبه إجماع على وجودها بمصر، فنرى آبن الزيات وهو خير من ألف فى أعلام القرافتين الكبرى والصغرى يقول عند ذكره مشاهد باب القرافة : « وأصح ما بالحومة مشهد السيدة عائشة لها نسب متصل بالإمام الحسين بن علىّ بن أبى طالب[2] » .

وتبعه السخاوى فى كتابه « تحفة الأحباب » فى التصديق على أنها بمصر، وأنه عاين قبرها فى تربة قديمة على بابها لوح رخامىّ مكتوب عليه : «هذا قبر السيدة الشريفة عائشة من أولاد جعفر الصادق آبن الإمام محمد الباقر آبن الإمام على زين العابدين آبن الإمام الحسين آبن الإمام على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه . توفيت سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة[3] » .

وتبعهما الإمام الكبير الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فذكرها ضمن عباد النساء بقوله : « ومنهنّ السيدة عائشة بنت جعفر الصادق رحمها الله المدفونة بباب القرافة بمصر رضى الله عنها[4] .

وقد لخص المرحوم على باشا مبارك مجموعة من آراء المؤرخين، وسردها بقوله : « قال الشعرانىّ فى منته : « أخبرنى سيدى على الخوّاص رضى الله عنه أن السيدة عائشة رضى الله عنها آبنة جعفر

---

(١) طبقات الشعرانى، ج ١ ص ٧٦ ، العدل الشاهد ص ٩٤ ، مشاهد الصفا فى المدفونين بمصر من آل المصطفى ، الإتحاف بحب الأشراف للشبراوى ص ٩٧ (٢) الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة، ص ١٨٥

(٣) ورقة ٤٢ تحفة الأحباب للسخاوى نسخة المرحوم أحمد زكى باشا التى أشار اليها فى بحثه المنشور فى الأهرام يوم ٣ أغسطس سنة ١٩٢١ وهى نسخة صحيحة . (٤) طبقات الشعرانى، ج ١ ص ٧٦

الصادق فى المسجد الذى له المنارة القصيرة على يسار من يريد الخروج من الرميلة إلى باب القرافة » وهى السيدة عائشة بنت جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين وأخت موسى الكاظم، قال المناوى كانت من العابدات : ماتت سنة خمس وأربعين ومائة[1] .

ومن هـذا نرى أن مؤرخى مصر ممن عنوا بهـذه الناحية أجمعوا تقريبا على أنها شرفت مصر وتوفيت سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) .

تاريخ المسجد — أنشأ هـذا المسجد الأمـير الكبير عبد الرحمن كتخدا سـنة ١١٧٦ هـ (١٧٦٢ م) .

والأمير عبد الرحمن كتخدا هو ابن الأمير عثمان كتخدا تابع حسن جاويش القازدغلى، آلت اليه ثروة والده وكانت شيئا كثيرا، ثم سافر الى الحج سنة ١١٥٥ هـ (١٧٣٩ م) .

وفى سـنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨م) عين كتخدا بمصر وبقى فى هذه الوظيفة سنتين سار فيها سيرة حسنة فأبطل المنكرات . وكان محبا للخـير رصد الكثير من ثروته على الفقراء للنفقة عليهم وكسوتهم صـيفا وشتاء ، وكانت له عناية كبيرة بالجامع الأزهر وطلبته، فقد زاد فيه وأصلحه ووقف عليه خيرات كثيرة، كما أعد به مدفنا له ، دفن فيه لما توفى فى صفر سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) .

وكان مغرما بالعمارة خبيرا بالهندسـة فأنشأ القناطر والدور والمساجد والزوايا والربط والأسبلة والأحواض والرباع والأسواق فى أنحاء القاهرة، ما زال اسمه مسطورا على مجموعة كبيرة منها .

وكان يعتمد على خبرته فى مواصفة وتنفيـذ منشآته المعمارية التى امتازت بالقـوة والجمال وكثرة الزخارف ودقتها بحيث ميزتها على جميع منشآت عصره . وكانت له عناية خاصة بالمشاهد المنسوبة الى أهل البيت وتجديده لها، فقد جدد المسجد الحسينى ومشاهد السيدة زينب، والسيدة سكينة، والسيدة نفيسة ، والمشهد المعروف بالسيدة عائشة ، وغيرها من المزارات. والمساجد الكبيرة[2]، وقد كان لهذا المشهد نصيب من عنايته ، ولا تزال أعماله باقية حتى الان .

ولهذا المسجد وجهة غربية اشتملت على بابين تقوم بينهما المنارة، والباقى منها دورتها الأولى . وقد كتب على عتب الباب البحرى ما نصه :

(١) الخطط الجديدة، ج ٥ ص ٤٣ — ٤٤ ، إسعاف الراغبين ص ٨٦

(٢) الجبرتى، ج ٢ ص ٦

مسجد أسسه التقى فتراه * كبدور تهدى بها الأبرار

وعباد الرحمن قد أرّخوه * تتلالا بجيده الأنوار

١١٧٦



باب المسجد الموصل للقبة

ومن هذا الباب يتوصل الى داخل المسجد، وقد عمّر سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م).

أما الباب الثانى فتوجد على يساره المنارة، ومكتوب عليه :

بمقام عائشة المقاصد أرّخت * سل بنت جعفر الوجيه الصادق

١١٧٦

وهذا الباب يؤدّى إلى طرقة على يسارها باب له عقد تحيط به كرانيش متعرجة يؤدّى إلى المسجد وبصدرها باب القبة مكتوب عليه :

لعائشة نور مضىء وبهجة * وقبتها فيها الدعاء يجاب

وهى من القباب البسيطة تسودها البساطة من الداخل والخارج ، فرشت أرضيتها بالرخام الملوّن، وتتوسطها مقصورة خشبية حول القبر الشريف .

ومن المرجح وجود حجرة تحت أرضية هذه القبة تضم تابوتا أثريا، كما هو مألوف فى كثير من المشاهد ففى سنة ١٩١٣ قامت لجنة حفظ الآثار العربية بفحص قبة محمد الأنور بشارع الخليفة ، وكانت من القباب الفاطمية، وقد تبين أنها لما جدّدت سنة ١١٩٥ هـ (١٧٨١ م) احتفظ بقاعدة القبة القديمة وبالقبر بها ؛ وعملت أرضية جديدة ، وجد الفرق بين الأرضيتين ٣٫٠٠ متر وكذلك الحال فى المشهد الحسينى كما سبق شرحه . ولعل الظروف تساعد على التحقق من ذلك .

ورحم الله أحمد زكى باشا فقد سبقنا إلى تحقيق هذا المشهد ؛ ونادى على رءوس الأشهاد بقوله : إن المشهد القائم فى جنوبى القاهرة باسم السيدة عائشة النبوية هو حقيقة متشرف بضم جثمانها الطاهر، وفيه مشرق أنوارها ومهبط البركات بسببها .

عناية الملك الصالح فاروق الأول بالمسجد — ولما أدّى فيه حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأوّل فريضة الجمعة يوم ٨ المحرّم سنة ١٣٥٩هـ (١٦ فبراير سنة ١٩٤٠ م) أمر بإصلاح المسجد والعناية به ، فنفذت رغبة جلالته السامية .

وقد تناولت أعمال الإصلاح إصلاح الأبواب ودكة المبلغ ، وعمل منبر له ، ونقشت سقوفه بزخارف عربية ملوّنة ، وأحيطت جدران المسجد بوزرة خشبية ملوّنة تقليدا للرخام ، كما نقش المحراب بالبوية الملوّنة محاكاة للمحاريب الرخامية . وكتب بوسطه قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » .

مسجد البيومى

بشارع البيومى (*)

الشيخ علىّ البيومىّ — هو الإمام الولىّ الصالح المعتقد العالم العامل الشيخ على بن حجازى ابن محمد البيومى الشافعى الخلوتى، ثم الأحمدى، ولد تقريبا سنة ١١٠٨ هـ (١٦٩٦ م) وحفظ القرآن وطلب العلم، وآستمع إلى دروس علماء وقته، وأخذ طريقة الخلوتية عن السيد حسين الدمرداشى العادلى، وسلك بها مدة، ثم أخذ طريق الأحمدية، وكثر تعبّده، فصار للناس فيه اعتقاد عظيم، وآتبع كثير من الناس طريقته وأذكاره .

وكان يعقد حلقات الذكر هو وأتباعه فى جامع الظاهر بيبرس بميدان الظاهر لقربه من داره بالحسينية، ثم أخذ يعقدها فى المشهد الحسينى كل ثلاثاء من كل أسبوع، ولم يصرفه سلوك هذا الطريق عن العلم، بل واصل الآشتغال به، وترك مؤلفات منها : شرح الجامع الصغير، وشرح الحكم لآبن عطاء الله السكندرى، وشرح الإنسان الكامل للجيلى، وله مؤلّف فى طريق الخلوتية الدمرداشية ألّفه سنة ١١٤٤ هـ (١٧٣١ م)، وشرح الأربعين النووية، ورسالة فى الحدود وشرح على الصيغة الأحمدية وعلى الصيغة المطلسمة .

ومما يؤثر عنه أنه كان إذا تكلم فى التصوّف أفصح فى البيان، وآستحوذ على أذهان سامعيه، وكان ملبسه صيفا وشتاء لا يعدو جلبابا أبيض وطاقية بيضاء يعتم عليها بشملة حمراء، وإلى الآن نرى أتباع طريقته يتسمون بهذه العمائم (١) .

وقد بلغ من حسن آعتقاد الناس فيه أن تاب كثير من العصاة واللصوص على يديه، وآتبعوا طريقته، فكان إذا قدم إلى المشهد الحسينى يثور فى الذكر حتى يصير كالوحش، وفى غاية القوة، فاذا جلس بعد الذكر عاد إلى حالته هادئا رزينا .

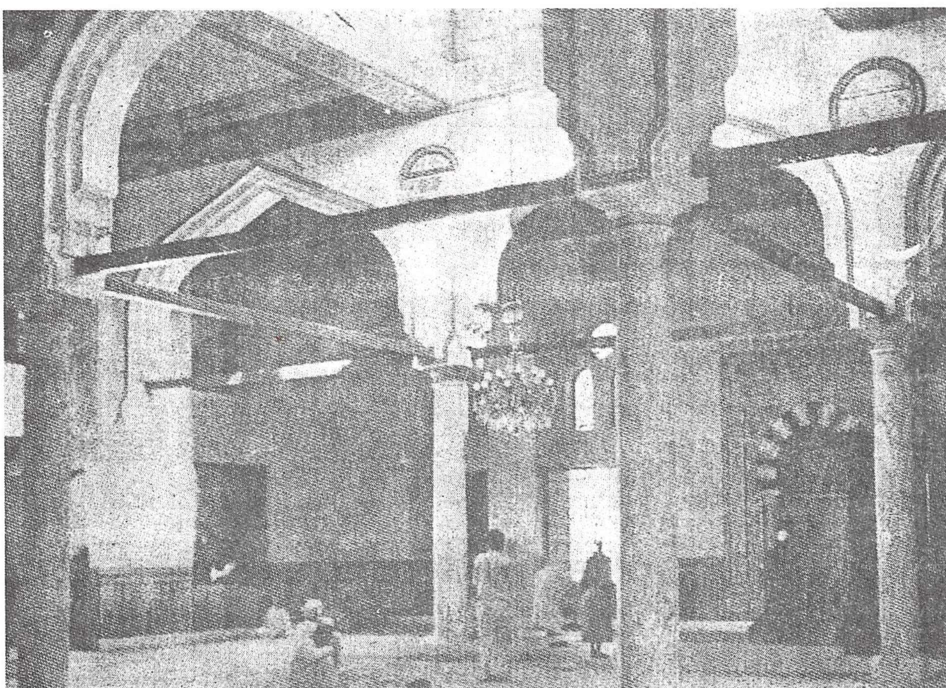
وكان الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر يعتقد فيه، ويرى أنه من كبار العلماء والأولياء، ولذلك عهد اليه بأن يلقى درسا فى الجامع الأزهر، فقرأ فى المدرسة الطيبرسية الأربعين النووية، وحضر عليه أكثر علماء وقته، فبهرهم بعلمه .

(*) انظر الصورة رقم ٢٤٩ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الجبرتى، ج ١ ص ٣٣٧

وقد أنتقل الى رحمة الله تعالى فى ســنة ١١٨٣ هـ (١٧٦٩ م) ، وصلى عليه فى الجامع الأزهر ثم دفن بهذا المسجد .

تاريخ إنشاء المسجد — روى الجبرتى المؤرخ[1] أنه لما كان مصطفى باشا واليا على مصر من قبل الدولة العثمانية أحب الشيخ البيومى وآعتقد فيه ، فتنبأ له الشيخ بأنه سيكون صدرا أعظم ، فلما تحققت نبوءته أرسل إلى عثمان أغا فى مصر وأمره ببناء مسجد للشيخ البيومى ، يُلحق به قبة وسبيل وكتاب ، فنفذ ما أمره به سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م) .



داخل المسجد بعد تجديده

هــذه هى رواية الجبرتى ، غير أن الكتابة التاريخيــة التى بالمسجد لا تتضمن الإشارة إلى شىء من ذلك ، إذ كتب على بابيه الشرقى والقبلى ما نصه :

«صاحب الخيرات عثمان أغا الوكيل تابع المرحوم الحاج بشير أغا دار السعادة كان سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦م) » .

(١) الجبرتى ج ١ ص ٣٣٨

وعندى أن خلو هذه الكتابة من اسم مصطفى باشا يبعث على الشك فى صحة الرواية التى تقدم ذكرها ، ويجعلنى أعتبر عثمان أغا هو المنشئ ، لأن حالات كثيرة مثل هذه كتب فيها اسم الآمر بالإنشاء والمشرف على التنفيذ، كما هى الحال فى تكية السلطان محمود بالحبانية المنشأة فى سنة ١١٦٤هـ(١٧٥١ م)، فقد أمر بإنشائها السلطان محمود خان ونفذ أمره بشير أغا دار السعادة فأثبت ذلك فى الكتابات التاريخية بها .

وصف المسجد — يقوم هذا المسجد فى الحسينية، وله وجهتان : إحداهما الشرقية تشرف على شارع البيومى، وبها الباب ، وقد ألحق بها حوض لشرب الدواب ، مكون من عقدين، يتوسطهما عمود رخامى، به من الداخل صفف مقرنصة . والوجهة الثانية القبلية على شارع السبع والضبع ،وبها الباب والمنارة والقبة،ويعلو هذا الباب لوح تاريخى مكتوب عليه : «صاحب الخيرات عثمان أغا الوكيل تابع المرحوم الحاج بشير أغا دار السعادة كان سنة ١١٨٠ هـ» .

وأمام هذه الوجهة سبيل وكتاب من إنشاء عثمان أغا أيضا ، طرأ عليه تغيير، و باب السبيل مكتوب عليه أبيات من الشعر تضمنت اسم عثمان أغا وتاريخ سنة ١١٨٠ هـ .

وكان داخل الجامع يتكون من عمد تحمل عقودا فوقها سقف حافل بالنقوش ، وقد أقيمت فى الجهة الغربية منه دكة المبلغ ، وخلفها طرقة بها مقصورة خشبية بداخلها قبر الشيخ محمد نافع أحد مشايخ الطريقة البيومية ، ويجاورها باب القبة وقد كتب عليه قوله تعالى : « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» . ويتوسط هذه القبة مقصورة نحاسية مصبوبة بزخارف جميلة، أمر بعملها المغفور له عباس باشا الأول سنة ١٢٦٨هـ (١٨٥١ م) بداخلها قبران : أولها الكبير قبر الولى الصالح الشيخ على البيومى،والثانى قبر العالم العامل شيخ الإسلام السيد حسن القويسنى الشافعى شيخ الجامع الأزهر، المتوفى سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨م)[(١)] .

عناية جلالة الملك فاروق بالمسجد — لما طرأ خلل على المسجد، تعطلت فيه الشعائر الدينية،وبقى إلى أن أمر حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول بإزالة هذا الخلل و إصلاحه من الداخل، فقامت وزارة الأوقاف بترميم الوجهات، وهدمت عقوده الداخلية، وأعيد بناؤها ، وأقيم سقف بالأسمنت المسلح، حفل بشتى النقوش الملونة والمذهبة وعملت له ثريا نحاسية، أما القبة والمنارة والمنبر والأبواب فقد ظلت كما هى .

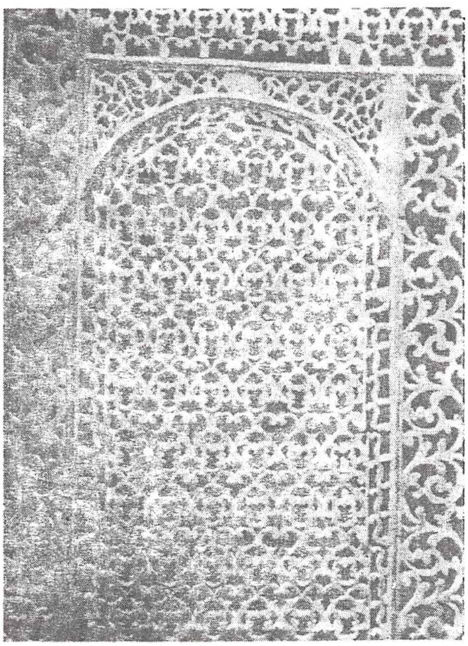
وقد تفضل حفظه الله بافتتاحه صباح يوم ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٨ هـ (٩ نوفمبر سنة ١٩٣٩ م) باستماع الحديث الدينى فيه . أمد الله فى عمره السعيد .

(١) الخطط الجديدة، ج ٤ ص ١٢٠ .

مسجد محمد بك أبى الذهب

بميدان الأزهر (*)

أبو الذهب — الأمير الكبير محمد بك أبو الذهب ؛ أحد أمراء مصر وولاتها الذين قاموا بدور خطير فى سياستها ، فقد كان مملوكا للأمير على بك الكبير ، إذ اشتراه سنة ١١٧٥ هـ (١٧٦١ م) وعُنِى بتعليمه ، ثم عيّنه خازندارا له ، وجعله فى صحبته حينما سافر إلى الحج حتى إذا عادا سنة ١١٧٨ هـ (١٧٦٤ م) قلده الصنجقية ، وألبسه الخلعة فى حفلة أقيمت بالقلعة ؛ فسر بذلك محمد بك ، وصار يوزع هبات ذهبية ، وينثر الذهب على الفقراء فعرف بأبى الذهب (١) . ولما أعلن على بك الكبير فصل مصر من الدولة العثمانية وتأسيس مملكة مستقلة كان محمد بك من أمرائه الموثوق بهم ومن أركان دولته .



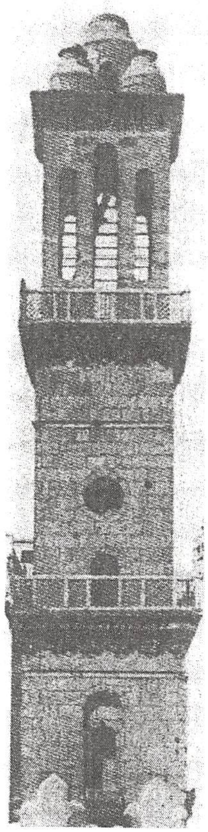
تفاصيل من المقصورة النحاسية

وفى سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) عهد إليه على بك بقيادة جيش كبير لفتح سوريا باسمه ، فاستولى على كثير من بلاد الشام ، وما إن تم له فتح دمشق حتى تفاوض سرا مع رجال الدولة العثمانية وتعاهد معهم على الغدر بولى نعمته و بسط النفوذ العثمانى على مصر من جديد ، ثم عاد بجيشه الذى فتح به سوريا إلى مصر سنة ١١٨٦ هـ (١٧٧٢م) وقامت الحرب بينه وبين على بك وانتهت بقتل على بك سنة ١١٨٧هـ (١٧٧٣ م) وعادت مصر ولاية عثمانية ، وخلصت إمارتها لمحمد بك أبى الذهب وتولى حكمها ووصلت إليه التقاليد فى ٢ ربيع الثانى سنة ١١٨٨ هـ (١٧٧٤ م) .

(*) أنظر الصور من رقم ٢٥٠ — ٢٥٢ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) الجبرتى ، ج ١ ص ٤١٧ ، حقائق الأخبار ، ج ٢ ص ٢٠٦

وفى أوائل سنة ١١٨٩ هـ (١٧٧٥ م) غادر مصر على رأس جيش قاصدا الشام لمحاربة الظاهر عمر ، فتوفى فى عكا فى ٨ ربيع الثانى سنة ١١٨٩ هـ (١٧٧٥ م) ثم نقلت جثته إلى مدفن أعدّ له فى هذا المسجد فى ٢٤ ربيع الثانى من السنة المذكورة . و يصفه أحد معاصريه بأنه كان شهما حازما محبا للخير يحترم العلماء و يقربهم من مجلسه . ولم يعرف عنه ما يشينه فى دينه ، وكان يباشر الأحكام بنفسه . رحمه الله وعفا عنه .



المنارة

و يقوم المسجد بميدان الجامع الأزهر، وهو رابع مسجد بمصر وضع تصميمه على طراز الجوامع العثمانية فى مدينة استامبول ، فأولها مسجد سليمان باشا بالقلعة ، وثانيها مسجد سنان باشا ببولاق، وثالثها مسجد الملكة صفية بالداودية، غير أن هذا المسجد يتفق مع سنان باشا فى تصميمه .

وكان الشروع فى إنشائه سنة ١١٨٧ (١) هـ (١٧٧٣ م) والفراغ منه سنة ١١٨٨ هـ (١٧٧٤ م) وقد أنشئ ليكون مدرسة تعاون الأزهر فى رسالته العلمية واختار للتدريس فيه أجلة العلماء أمثال الشيخ على الصعيدى ، والشيخ أحمد الدردير، والشيخ محمد الأمير، والشيخ الكفراوى وغيرهم؛ وخصص وقتا ومكانا بالمسجد للافتاء، فقرر الشيخ أحمد الدردير مفتيا للمالكية والشيخ عبد الرحمن العريشى مفتيا للحنفية والشيخ حسن الكفراوى مفتيا للشافعية. كما ألحق به مكتبة تضم نحو ٦٥٠ كتابا فى شتى الفنون عُنى بتكوينها واشترى لها مكتبة العلامة الشيخ أحمد بن محمد ابن شاهين الراشدى الذى كان خطيبا للمسجد . و بلغ من اهتمامه بها وتزويدها بالمؤلفات القيمة شراؤه من السيد مرتضى الزبيدى شرحه للقاموس (٢) بمبلغ مائة ألف درهم فضة، وكان من بينها كتاب المنتظم فى أخبار الأمم لابن الجوزى، وروضة الأخيار . فى علم التاريخ، وتحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء للصابى . وأكثرها كتب نادرة بلغ عددها فى القرن الثالث عشر ١٢٩٢ (٣) مجلدا . هذا عدا المصاحف المذهبة القيمة.

واحتفل بافتتاحه بصلاة الجمعة فى شهر شعبان سنة ١١٨٨ هـ (١٧٧٤ م) وألحق بالمسجد تكية لمتصوفى الأتراك ، وسبيلا وحوضا لشرب الدواب . وهذه الملحقات تشغل الوجهة القبلية، وقد جدّدت وزارة الأوقاف التكية وخصصتها لاقامة طلبة العلم من الأتراك .

(١) الجبرتى، ج ١ ص ٤١٩ (٢) الجبرتى ج ١ ص ٤٠٩ ، ج ٢ ص ١٩٩ (٣) ذيل المقريزى (خط) .

وقد أقيم المسجد على قسم كبير من أرض خان الزراكشة، الذى اشتراه أبو الذهب وترك مدخله الملاصق للوجهة البحرية عند نهايتها الغربية، ثم أنشأ المسجد على باقى مساحته .

وهو مرتفع عن الشارع ، وأسفل وجهتيه الشرقية والبحرية حوانيت ، وكان أمام الباب البحرى سلم مزدوج من الرخام الملون[1] ، وأمام الباب الشرقى سلم مستدير، وكلاهما استبدل به غيره، وهما يؤديان إلى طرقة مكشوفة تحيط بالمسجد من جهاته الثلاث .

وقد حليت الأبواب بالمقرنصات ، وكسيت أعتاب الشبابيك وجلساتها بالمزررات الرخامية وغطيت بمصاريع النحاس المصبوب بأشكال زخرفية ، ومكتوب على الباب الشرقى ما نصه :

أنشأت يا مولى الأكابر مسجدا * ولواء نصرك فى البرية يسعد
ولك العناية بالسعادة أرخت * حاز الفضائل والكمال محمد

وعلى الباب البحرى :

أمير اللوا الأكرمين محمد * بمسجده حاز الفضائل والأدب
عليه ضياء للقبول مؤرخ * بسعد دام العزيز أبو الذهب ١١٨٧

والباب الشرقى يؤدى إلى طرقة تنتهى إلى منارة المسجد ، و إلى التكية الملحقة به فى الوجهة القبلية وهى منارة كبيرة مربعة مبنية بالحجر، وقد امتازت عن منارات عصرها بأنها مصرية الطراز ، أقرب إلى طراز منارة مسجد الغورى فهى مكونة من ثلاث دورات تعلوها خمسة رءوس .

وداخل المسجد مربع ضلعه ١٥ مترا يتألف من قبة كبيرة لها ثلاثة أبواب ، يكتنف كلا منها شبأكان من النحاس المفرغ، كسيت جلساتهما وأعتابهما بالرخام. والأبواب تؤدى إلى ثلاثة إيوانات يتألف سقفها من قباب صغيرة محمولة على عقود متكئة على أكتاف وأعمدة من الرخام، حليت طباليها الخشبية بمقرنصات .

وقد كسى ما حول أبواب القبة بالرخام الأسود والأبيض، كما غطيت بمقرنصات مذهبة نقشت تواشيحها وطعمت مصاريعها بالسن ، ومكتوب على الباب البحرى منها ما نصه :

أمير اللوا أنشأت لله مسجدا * عليه بهاء العز جل الذى وهب
لك الفوز فيه بالثواب مؤرخ * لقد حاز ألطاف القبول أبو الذهب

وعلى الباب الغربى :

فريد الآن مسجده تحلى * بما سر النواظر والمسامع
لواء النصر شيده فأرخ * مكان محمد للخير جامع
١١٨٧

(١) جهة الوقف .

وعلى الباب القبلى :

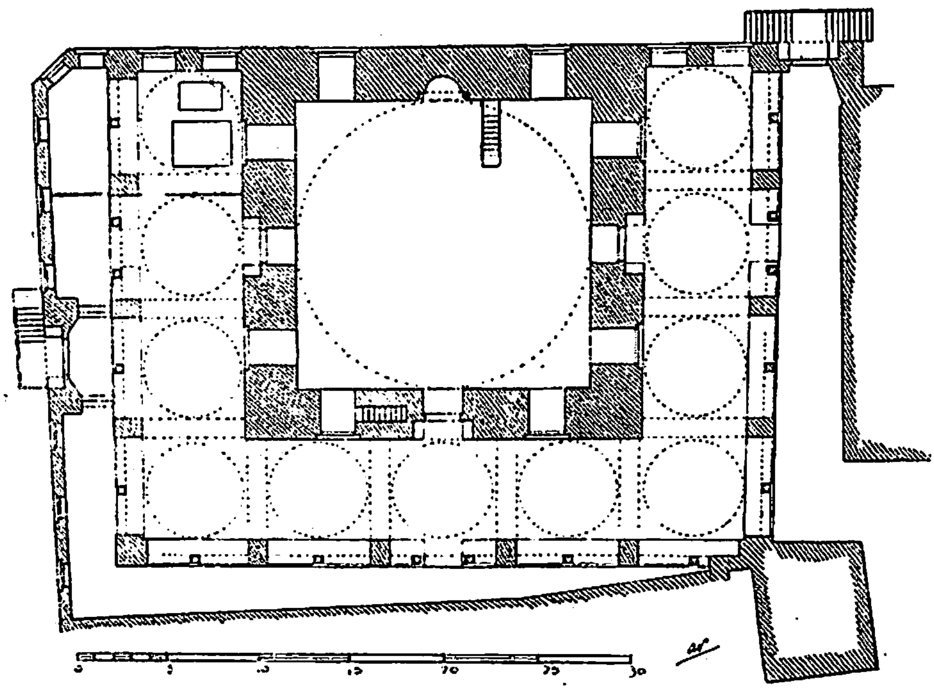
شادت يد العلياء نـور المسجد * لعـزيز مصر نظـيره لا يـوجد

فيـه لـواء النصر لاح مـؤرخا * بمحمـد خير المسـاجد يسـعد

١١٨٧

ولهذه القبـة منظر يملأ النفس روعة ، وذلك لضخامتها والشـبابيك القندلية بهـا ، والدعائم المكتنفة لها ، فهى مبنية بالحجر حتى مبدأ تكويرها الذى بُنى بالطوب .

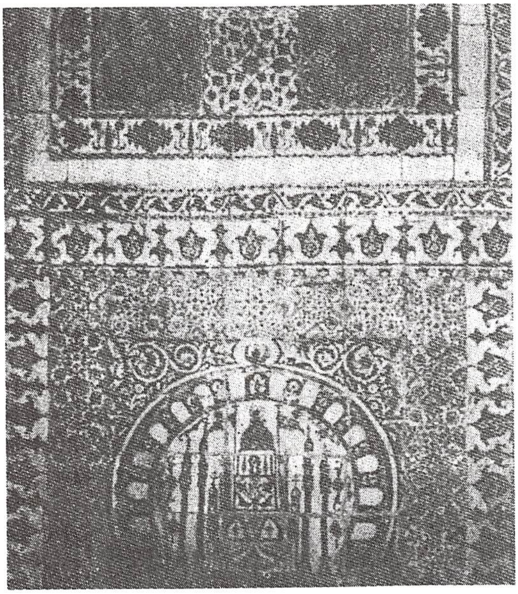
وبكل من زوايا المربع الداخلية عقد به مقرنصات ولفظ الجلالة ، وفوق زوايا المربع إفريز به آيات من سـورة الفتح ، واسم المنشئ بحروف مذهبة على أرضية زرقاء بمـا نصه : «حررت برسم أمير اللواء السلطانى محمد بك أبو الذهب» .



مسـقط أفـقى

ويعلو ذلك دوائر زخرفية ، وشبابيك جصية بالتناوب ، يعلوها مقرنص فالشـبابيك القندلية ، وكانت القبـة حافلة بالنقوش الملونة والمذهبـة والكتابات كما تنبئ بقاياها . والمحـراب من الرخام الدقيق والصدف ، وهو نادر بين المحاريب العثمانية ، فقـد قل التطعيم بالصدف مع الرخام فى عصر المماليك الجراكسة ، وانعدم فى العصر العثمانى ، اللهم إلا نماذج معـدودة ، وقد كتب بتوشيحتيه :

« ما شاء الله لا قوة إلا بالله » ويجاوره منبر خشبى طُعّمت حشواته بالسن والزرنشان . ويعلو الباب الغربى دكة المبلغ ، يتوصل إليها من سلم مسحور فى جدار الشباك الغربى البحرى يصل الى السطح . وكانت الأرضيات مفروشة بالرخام الأبيض والدقيق الملون ، ومنه بقايا فى أرضية الشبابيك وفى الطرقات أمام الأبواب .



تفاصيل من القاشانى

وفى الطرف الشرقى البحرى للرواق الخارجى سياج كبير من النحاس المفرغ بأشكال جميلة ، توجد خلفه تربة المنشئ . وقد كُسيت جدرانها بالقاشانى المغربى والتركى ، وهى مجموعة قيمة تجاورها حجرة المكتبة وعليها سياج نحاسى برسوم تغاير السياج الآخر ، وما زالت محتفظة بأرففها المحلاة بنقوش مذهبة ، ويفصلها عن المدفن سياج نحاسى به باب ، وقد نقشت عقودها بالبوية تقليدا للقاشانى ، ومكتوب حول عقدها آية الكرسى .

وهذا القسم كان كله مخصصا للمكتبة ، ولم تكن بالمسجد مقبرة للمنشئ إلى أن أخذ منها هذا القسم وأعدّ لدفنه . ومكتوب على قبره :

هذا مقام عزيز مصر أميرها * عين الأكابر ذى العلا والسؤدد
أعنى أبا الذهب الذى فى عصره * كانت له الأقطار فى طوع اليد
تجرى على طول المدا صدقاته * بدروس علم أو عمارة مسجد
فسحائب الرحمات يصحبها الرضا * تهمى عليه فى المساء وفى الغد
والحور فى المأوى له قد أرخت * دار الكرامة مسكن لمحمد

وقد دفن فى هذه المقبرة أيضا أخته زليخا هانم زوجة إبراهيم بك الكبير ومكتوب على شاهد قبرها[1] :
« هذا قبر الست المصونة ستى زليخه زوجة أمير اللواء إبراهيم بك شيخ البلد حالا تُوفيت الى رحمة الله تعالى يوم الجمعة ٢٨ شهر محرم سنة ١٢١٦ » .

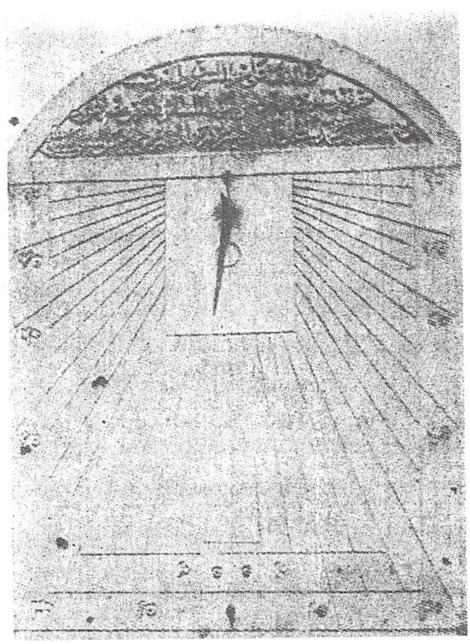
(١) شاهد القبر محفوظ فى دار الآثار العربية . وقد ذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١٢١٦ أنه فى يوم الجمعة ٤ ربيع الثانى نقلت جثتها وعملوا لها قبرا بجانب أخيها .

ويوجد بالسطح مزولة مكتوب عليها :

« مزولة قائمــة على خط المشرق والمغرب منحرفة تسعين درجة وتسمى بالحيط المساتر بعرض مصر المحروسة برسم صاحب الخيرات محمد بيك أبو الذهب دام عزه رسمه الفقير محمـود بن حسن النيشى فى ١٨ جماد سنة ١١٨٨ » .

وللمسجد مزولة أخرى من عمل محمود بن حسن النيشى فى غرة جمادى الأولى سنة ١١٨٨ مودعة بدار الآثار العربية مكتوب عليها : « منحرفة نه شرقى جنوبى بعرض مصر برسم صاحب الخيرات محمد بك أبو الدهب دام بقاه » .

ويلاحظ أن هذا المسجد كان يغلب عليه الزخرف المذهّب ، مما جعل المنشئ يستحق — عن جدارة — تلقيبه بأبى الذهب .



مزولــة بسطح المسجد

مسجد حسن باشا طاهر

ببركة الفيل (*)

طاهر باشا — هو محمد باشا طاهر ، كان قائدا للجنود الألبانيين أثناء ولاية خسرو باشا على مصر . وطاهر باشا والمغفور له محمد على باشا هما اللذان أوعزا إلى جنودهما بالتمرد على خسرو باشا ، والتخلص من مظالمه ، مما اضطر خسرو باشا إلى الهرب هو وعائلته وبقية من جنوده إلى دمياط .

وفى ١٤ المحرم سنة ١٢١٨ هـ (٦ مايو سنة ١٨٠٣ م) عيّن طاهر باشا قائم مقام لوالى مصر ، إلى أن يصدر أمر تعيينه أو تعيين غيره .

على أن طاهر باشا لم يدم له الأمر ، فقد اشتهر بالظلم والجبروت ، فلم يلبث فى منصبه هذا إلا ١٦ يوما ثارت عليه الجند خلالها لطلب مرتباتهم ثم قتلوه فى شهر صفر سنة ١٢١٨هـ(١٨٠٣ م) ودفنوه فى قبة عند بركة الفيل[1] .

وكانت هذه الحركات[2] وما تبعها من تدبير المغفور له محمد على باشا بحكمة وروية هى السبب فى مناداة الشعب به واليا على مصر ، فأنقذها من الفوضى ، وسار بها إلى برّ السلامة .

تاريخ إنشاء المسجد — بعد وفاة محمد باشا طاهر عُنى حسن باشا طاهر وأخوه عابدين بك طاهر ببناء القبة التى دفن فيها وأنشآ بجوارها مسجدا ألحقا به سبيلا وكتّابا .

وكان الفراغ من بناء هذه المجموعة فى سنة ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م) . ويعد هذا المسجد من المساجد القيمة بالنسبة لمساجد عصره إذا استثنينا مسجد المغفور له محمد على باشا المنشأ بعده . فالوجهة القبلية تشتمل على القبة والباب الرئيسى والمنارة والسبيل والكتّاب ، والقبة بنيت بالحجر الى

(*) انظر الصور من رقم — ٢٥٣ — ٢٥٤ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) بركة الفيل ليست بركة بالمعنى المفهوم الآن ، وانما أطلقت على أرض زراعية يغمرها ماء النيل وقت الفيضان ، وكانت تروى من الخليج المصرى وبعد نزول الماء تزرع أنواعا شتوية . ثم تحولت أراضيها تدريجيا من الزراعة الى السكن منذ سنة ٦٢٠ هـ ١٢٢٣ م فأنشئت حولها قصور العظماء ، ولم يبق من أراضيها بغير بناء حتى سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) وهى التى رسمت فيها الحملة الفرنسية خريطة القاهرة إلا قطعة أقيمت عليها سراى الحلمية (رمزى بك) .

(٢) الحركة القومية ، ج ٢ ص ٣٣٩ ، حقائق الأخبار ، ج ٢ ص ٢٢١ ، الجبرتى ، ج ٣ ص ٢٤٧ ، الدول الإسلامية ، ص ١١٥

نهاية الرقبة المنقوشة وأركانها مدرّجة ، ثم بالطوب و بها تضليع بسيط ، ومكتوب على عتب شباكها : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ١٢٢٤ » ؛ يعلوه نفيس من القاشانى ثم نقوش ومقرنصات ، و يكتنف الشباك مربعان حليا بجفوت يتوسط إحدهما مفروكة ودائرة مفرّغة .

و باب المسجد عقده مداينى مخوص يسترعى النظر فيه العمد الصغيرة المفرّغة المكتنفة لشباكه الصغير ، والمعروفة عند المعماريين « بثلاثة ولّيه » ومكتوب على عتبه : « أنشأ هذا المسجد المبارك من فضـل الله سبحانه وتعالى أفندينا حسن باشا طاهر والأمير عبدين بيك طاهر غفر الله لهم فى [سنة أربع وعشرين ومائتين وألف] (١) » . و يعلوه نفيس من القاشانى ونقوش موزّقة .

وعلى يمين الباب سبيل بصنبورين مكتوب عليه « وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، الآية ، ١٢٢٤ » يعـلوه مربع بداخله مثمن كُسيت أضلاعه بالقاشانى ، يجاوره سبيل وكتّاب ، وفى الطرف الشرقى المنـارة ، وهى مكوّنة مرن دورتين ومبنية بالحجـر ، ولهـا مقرنصات متقنة الصناعة متنوعة الأشـكال وشقق درابزين الدورة الأولى مفـرّغة بأشكال زخرفيـة متنوّعة وتنتهى من أعلى بترس أسفل الخوذة .

وامتياز هـذه المنارة غير مقصور على رشاقتها فحسب بل لأنها خالفت طرز المنارات العثمانيـة الأسطوانية ذات المسلّة التى شاع إنشاؤها فى هذه الحقبة ، وأنشئت على طرز منارات مصر المملوكية .

وقد حلّيت الوجهة بإفريز منقوش بزخارف موزّقة كما نقش وجه حوض السبيل .

وتقوم القبة على يسار الداخل من البـاب ، وقد حلّى وجهها بالنقوش والقاشانى والمقرنصات ، ومكتوب على عتب بابها ما نصه : « هذا (٢) مقام الأربعين والنازل بجوارهم أفندينا محمد باشا طاهر ، والأمير يوسـف بيك رحمهم الله تعالى أجمعين سنه ١٢٢٤ » .

---

(١) الزيادة عن على باشا مبارك ج ٤ ص ٨٧

(٢) الأربعين تسمية أطلقت على عدّة زوايا وأضرحة بمصر على غير أساس . وبهذه المناسبة أذكر ما وقع لى من مسميات الأربعين ، فقد كان عدد المماليك الخاصكية الذين يعهد اليهم بتشييع المحمل أربعين .

وبمناسبة وجود هـذه التسمية فى حلب وفى أنحاء الشام ، وإطلاقها على أضرحة وكنائس ، كتب عنها الأستاذ كامل الغزى بحثا طريفا فى مجلة المجمع العلمى بدمشق سـنة ١٩٣٦ إذ يقول ما ملخصه : اختلف المسلمون والنصارى فى هؤلاء الأربعين رجلا ، فالنصارى يقولون : إنهم الأربعون شهيدا . والمسلمون يقولون : إنهم أربعون رجلا من الأبدال المتدركين بالكون ، على ما ذكره الشيخ عبد العزيز الخواص فى كتابه الإبريز .

و يرى حضرته أنها تسمية خرافة لا أصل لهـا ؛ وهذا ما نقر حضرته عليه .

ويوسف بك مدفون مع طاهر باشا فى قبر واحد بداخل هذه القبة ومكتوب عليه :

وزير مصر للاله لقد مضى * لا اعتراض لحكم مولا قاهر
عليه رضا الرحمن قلت مؤرّخا * فى جنة الفردوس محمد طاهر
١٢١٨

وعلى شاهد آخر : « هذا قبر المرحوم يوسف بيك طاهر توفى الى رحمة تعالى يوم الخميس ... شعبان سنة ١٢٢٣ » .

كما توجد مقبرة أخرى مكتوب عليها : « هذا قبر المرحوم إبراهيم بيك آبن أمير اللواء طاب بيك توفى الى رحمة الله تعالى يوم الأحد ٢ شهر جماد آخر سنة ١٢٢٩ » وبها تابوت خشبي باسم الأربعين .

وأمام القبة وعلى يمين الداخل باب المسجد، يصعد إليه ببضع درجات على يمينه باب السبيل، وقد فرشت أرضيته برخام دقيق ، وبه حوض رخامى مستدير من قطعة واحدة وسقفه محلى برسوم وزهور ملونة، ومكتوب على باب المسجد ما نصه : «وكان الفراغ من بنائه ونشوه فى شهر ذى الحجة المبارك من شهور سنة ألف ومايتين أربعة وعشرون من الهجرة الشريفة النبوية سنة ١٢٢٤ » .

ويشتمل من الداخل على ستة عمد من الرخام تحمل سقفا يتوسطه منور ، وحُلّيت جدرانه من أعلى بشبابيك من الجص والزجاج الملون . وزيّن عقد محرابه الحجرى وطاقيته بالزخارف ، كما تعلوه قبة صغيرة منقوشة بها شبابيك جصية، وله منبر خشبي بابه مستدير، وبطرفه البحرى الغربى دكة المبلغ، محمولة على الجدار وعلى عمود رخامى .

وملحق بالمسجد من الجهة البحرية مصلى سقفها قائم على عمود رخامى ، لها محراب منحرف، كما يوجد غربى المدفن حديقة صغيرة .

وقد أنشأ حسن باشا طاهر تجاه الجامع عمارة وقفها للصرف على المسجد باقية بعض دورها وهدم مدخلها وتخلف منه لوحة تاريخية مثبتة بالقبة ونصها :

«وكان الفراغ من العمارة الكائنة بخط بركة الفيل تجديد أفندينا المرحوم الحاج حسن باشا طاهر، حرر ذلك فى يوم الجمعة المبارك ٢٩ خلت من شهر رجب الفرد سنة ١٢٣٨ » .

وكذلك نقل إلى دار الآثار العربية لوحة تاريخية كانت تعلو ربع شيخو بشارع الركبية رقم ٥٣ ونصها :

« وكان الفراغ من تجديد هذا المكان المبارك تجديد أفندينا المرحوم الحاج حسن باشا طاهر يوم الجمعة المبارك فى ٢٩ خلت من شهر رجب سنة ١٢٣٨ من هجرة من له العز والشرف » .

مسجد سليمان أغا السلحدار

بشارع أمير الجيوش

هذا المسجد عند مدخل حارة برجوان بشارع أمير الجيوش (المعز لدين الله) .

ومما يذكر عن الأمير سليمان أغا السلحدار أنه ترقى فى الوظائف على عهد المغفور له محمد على باشا إلى أن وصل إلى وظيفة سلحدار ، وكانت له سطوة كبيرة[1] .

ومما أخذ عليه زيادة على تعسفه أنه استولى على كثير من أنقاض المساجد المتخربة بالصحراء وأدخلها فى منشآته ، كما تعسف فى نزع الملكيات اللازمة لتلك المنشآت ، وكانت وفاته فى سنة نيف وستين ومائتين وألف ، وأنشأ كثيرا من العقارات والوكالات والمساجد .

وأكثر آثاره التى شيدها بمصر موجودة ، ومنها وكالة فى خان الخليلى ، وأخرى بجوار خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية ، والجامع الأحمر بشارع الجامع الأحمر ، ثم مسجده هذا .

وكان البدء فى إنشاء هذا المسجد والسبيل الملحق به فى سنة ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) والفراغ منهما سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩م) طبقا لما جاء فى لوحتين تاريخيتين فوق السبيل و باب المسجد ، مكتوبتين باللغة التركية ، تضمنتا اسم المنشئ ووظيفته .

وقد وُفِّق المهندس فى تنفيذ رغبة منشئه ، فانتهز فرصة رواج التجارة فى هذه المنطقة فأنشأ بها حوانيت ووضع تصميم مسجد معلق فوق مدخل المدرسة والدكاكين . وقد جمعت مشتملات المسجد فى وجهة واحدة ينتهى طرفها القبلى ببوابة كبيرة هى مدخل حارة برجوان ، وإلى باب المدرسة والميضأة . ويجاور هذه البوابة سبيل مستدير مكسو بالرخام المنقوش المذهب ، به أربعة شبابيك نحاسية ، مفرغة بأشكال زخرفية ومكتوب وسط شعاعها : « ما شاء الله كان » . وقد نقشت وجهة السبيل بزخارف مذهبة ، وكتب عليه قوله تعالى : « إن هذا لهو الفوز العظيم » تعلوه لوحات أخرى مكتوبة باللغة التركية بحروف مذهبة على أرضية زرقاء تضمنت مدح المنشئ أيضا وتاريخ سنة ١٢٥٣ ، تجاوره شبابيك المدرسة فالمنارة الأسطوانية فباب المدرسة ثم حوانيت ، فباب المسجد ، وتنتهى الوجهة من أعلاها برفرف خشبى منقوش استغنى به عن الشرفة .

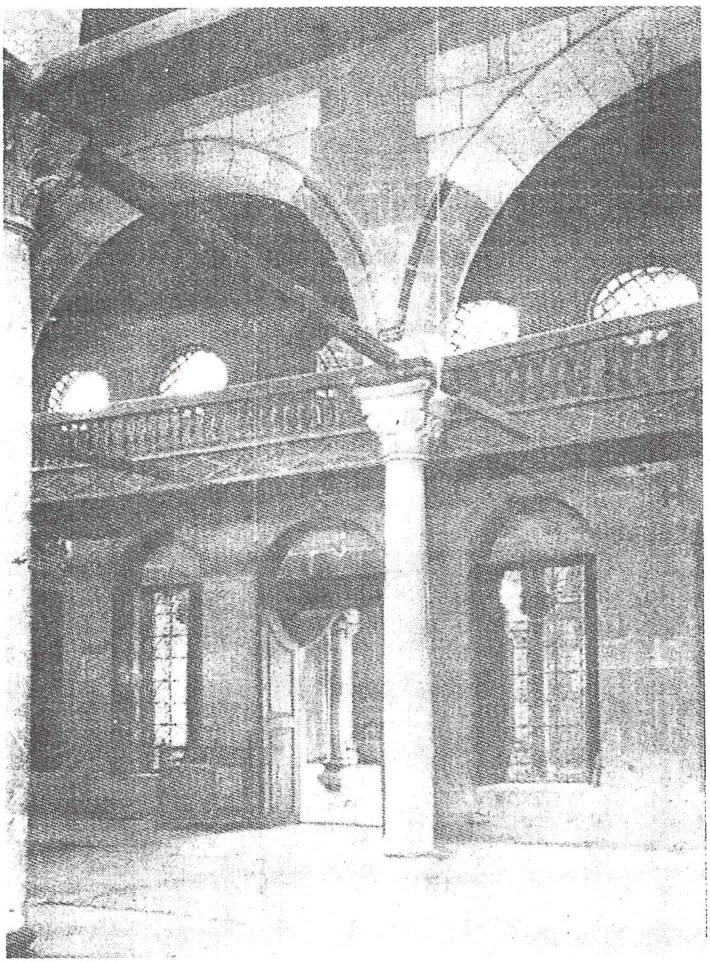
وقد كسى سفل جدران السبيل من الداخل بوزرة من الرخام بها نقوش مذهبة .

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ص ٢١٤ — ٢١٥ ، الخطط الجديدة ، ج ٥ ص ١٥ ، ذيل المقريزى .

ويصعد إلى المسجد بعدّة درجات تؤدّى إلى قسمه الخارجى الغربى ، وقد أحيط بأربعة أروقة لها عمد تحمل قبابا صغيرة نقش قطبها ، وقد غطى الصحن بسقف يتوسطه منور .

وفى الجدار القبلى باب بصدره منزل شيخ المسجد وبه سلم يؤدّى إلى دورة المياه ، ويتوسط الجدار الشرقى باب المسجد ، وقد كسى بالرخام وحليت تواشيحه بزخارف مذهبة ومكتوب عليه بحروف مذهبة قوله تعالى : «ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين» ١٢٥٥ وتعلوه شُرفة رخامية صغيرة .



داخل المسجد

والمسجد يشتمل على ثلاثة أروقة ذات عقود محمولة على أربعة عمد رخامية اتفقت فى المقاس وفى التيجان ، تحمل سقفا بسيطا نقش بالبوية ؛ وبه محراب من الرخام فريد فى نوعه ، فقد اتخذ

القسم المجوّف منه من قطعة واحدة ، وكذلك طاقيته ، ومكتوب بوسطه قوله تعالى : « فلنولينك قبلة ترضاها » وعلى جانبيه أفاريز رخامية بها زخارف بارزة مذهبة ، تعلوه مروحة رخامية مفرغة ذات توريق وتذهيب .

ويجاور المحراب منبر خشبي عارٍ من الزخرف ، تقوم على باب مقدّمه قبة خشبية ، ويقوم على طول الجدار الغربى دكة المبلغ ويتوصل اليها من باب فى الركن البحرى الشرقى للصحن . يؤدى الى سلم فى سمك الجدار ، كما يحيط بجدران المسجد من أعلى شبابيك بيضاوية .

ونظرة إلى الوجهتين الغربية والقبلية للجامع تعطينا فكرة عن نبوغ مهندس هذا الجامع ، فقد عالج بحكمة قيام بارزات فى الوجهة الغربية على كوابيل غريبة محكمة الصناعة كما تلافى ضيق الطريق بإقامة عقود مجوفة كى تحمل بروزا عليها ، كما تورّع عن أخذ العمد وتيجانها من أبنية سابقة ، فأعدّها هى وتيجانها من نوع واحد ، وميز فقط بين تيجان عمد المسجد والصحن .

أعمال الإصلاح — كانت أهم عملية إصلاح أجريت به فى عصر الملك الصالح (فاروق الأول) فقد أصلحت عقود الصحن والقباب فوقها كما أجريت إصلاحات بداخل المسجد وفى مطهرته .



مسجد الرفاعى

بميدان صلاح الدين (*)

موقع المسجد قبل إنشائه — كان يشغل جزءا من أرض هذا المسجد مسجد الذخيرة الذى وصفه المقريزى بأنه كان تجاه شبابيك مدرسة السلطان حسن التى تلى بابها الكبير . أنشأه ذخيرة الملك جعفر متولى الشرطة ، ووالى القاهرة ومحتسبها حوالى سنة ٥١٦ هـ (١) (١١٢٢ م) . وكان هناك أيضا زاوية عرفت بالزاوية البيضاء و بزاوية الرفاعى آشتملت على قبور المشايخ : علىّ أبى شباك (٢) ، ويحيى الأنصارى والسيد مصطفى الغورى ، والشيخ إبراهيم المغربى ، والسيد حسين الشيخونى إمام جامع شيخو وشيخ سجادة الرفاعية سابقا ، والسيد عبد الله المرازيق والسيد حسين الرفاعى .

وفى كتاب وصف مصر للحملة الفرنسية لوحة تمثل زاوية الرفاعى فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى وما جاورها من أبنية يظهر بها مسجد المحمودية حتى شارع سوق السلاح ، كما عثر على لوحة ملوّنة عملها سنة ١٨٦٤ م المصوّر الانجليزى فرنك (٣) ديللون الذى قدم مصر سنة ١٨٥٤ — ٥٥ م . وهى تمثل هذه المنطقة وزاوية الرفاعى وسبيلا تركيا وجهته مستديرة يعلوه كتاب وأبنية أخرى .

وفى سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) أمرت المرحومة دولتلو خوشيار هانم والدة المرحوم إسماعيل باشا بتجديد زاوية الرفاعى ، فآشتريت الأماكن المجاورة لها وهُدمت ، وعهدت إلى المرحوم حسين باشا فهمى وكيل ديوان الأوقاف وقتئذ بإعداد مشروع لبناء مسجد كبير يلحق به مدافن لها ولأسرتها وقبتان للشيخين : علىّ أبى شباك ويحيى الأنصارى ، فصدع بالأمر وأعدّ مشروعا كبيرا عرض على سموها فوافقت عليه وشرع فى العمل ، و باشر تنفيذه المرحوم خليل أغا ، وآستمرّ العمل سائرا حتى آرتفع على وجه الأرض نحو مترين ؛ وفى الوقت نفسه كان العمل سائرا فى القصر العالى فى أعمال النجارة ، كما أمرت بعمل الأبسطة اللازمة لفرش المسجد .

(*) انظر الصور من رقم ٢٥٥ — ٢٥٩ ضمن مجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) المقريزى ، ج ٢ ص ٤١١ .

(٢) الخطط الجديدة ج ٤ ص ١١٤

(٣) La Mosquee el-Rifai. P. 9

ولضرورة إدخال تعـديلات على المشروع وقفت العمارة ، وعُرضت فى خلال ذلك تعديلات اقترحها المهنـدس « جاى » فلم توافق عليهـا الوالدة ؛ فنحّى عن العـمل ثم أُبديت ملاحظـات أخرى لملافاة أخطـاء فى الجامع كان يتولى مناقشتها المرحوم حسـين باشا المعمار ، بدئ فى تنفيذها بعد وفاته . واستمر العمل فيه على الرسم الأصلى .

وحوالى سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨٠ م) أُوقفت العمارة ، ثم توفيت المنشئة سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) وظل العمل موقوفا نحو ربع قرن . وفى سـنة ١٩٠٥ عهـد المرحوم الخديو عباس حلمى الثـانى إلى سعادة أحمد خيرى باشا مدير الأوقاف الخصوصية بإتمام المسجد، فكلّف المرحوم هرتس بك (باشا) باشمهندس الآثار العربية وقتئذ بإعداد مشروع لإصلاح المسجد وتكملته ؛ فأعد المشروع وعرضـه فنال القبول ، وصدر إليه الأمر الكريم فى ١٢ يوليه سنة ١٩٠٦ م بالشروع فى العمل .

ويقـول هرتس باشا : إن تصميم حسين باشا لهذا المسجد من أحسن وأجمل تصميمات المساجد المنشأة فى عصره ؛ أغراه على وضـع تصميمه بهذه العظمة وجودُ مسجد السلطان حسن أمامه . ومع وجود أخطاء فيه وحدوث تصدّع فى عمده وجدرانه فإن هذا لا يقلّل من قيمة عمله العظيم ؛ ولذلك فإنه حرص كل الحرص على ألا يغير كثيرا فى مشروع حسين باشا المعمار، لدرجة أنه لو كان حاضرا لرضى بهذه التعديلات . ثم أخذ فى تقوية الجدران ، وتغيير التالف من الأبنية والعقود ، ممـا يحفظ المسجد من الأنهيار ويساعد على المقاومة ، وهذه التعديلات استلزمت بعض التحوير فى المشروع القديم ، وآستنفذت مجهودا جبـارا للمحافظة على الوضـع الذى كان يريد حسين باشا أن يكون المسجد عليه .(١)

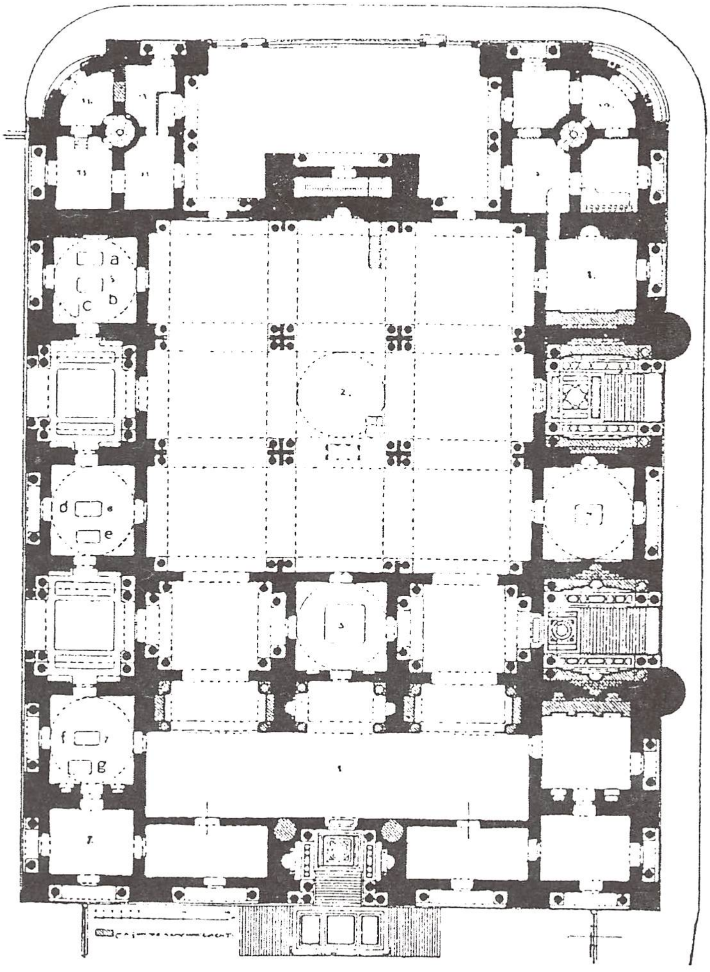
وقد أدخل فى عمارة المسجد ما كان مودعا بمخازنه على ذمة عمارته منذ سنة ١٨٨٠ م ، فآنتفع بالذهب الذى كان مستوردا من إسـتامبول ، وبالنجارة التى تم عملها ، وببعض الكتابات التى كان أعدّها الخطاط المشهور عبـد الله بك زهـدى ، وقام بتكملة الناقص وتغيير التالف من الكتابات المرحوم الشيخ بمصطفى الحريرى الخطاط بالقصر الملكى .

وكانت التكاليف الأصلية المقدرة لهذا الجامع خمسمائة ألف جنيه ، فآستنفد هذا المبلغ فى الأعمال التى أنجزت حتى سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨٠م) . أما المصاريف بعد ذلك فقد بلغت ١٣٢,٥٠٠ جنيه ، مضافا إليها بعض مصاريف أخرى ويدخل فى هذا المبلغ الأبسطة الجديدة التى عملت فى مشاغل هركة بتركيا ، والمشكاوات الزجاجية التى عملت على مثال المشكاوات الأثرية بمساجد مصر فى القرنين الثامن والتاسع

(١) La Mosquee el - Rifai - P 44-47

الهجرى (الرابع عشر والخامس عشر الميلادى) ومنها نحو ٢٤٠ مشكاة مطلية بالميناء عملت فى بوهيميا، وعليها كتابات قرآنية وتاريخية .

وفى ختام سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) تم العمل ، وافتتح المسجد لصلاة الجمعة فى غرة المحرم سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) .



مسقط أفقى   عن هرتس باشا

وقد دوّن تاريخ المسجد والفراغ من عمارته فى نهاية طراز المسجد بالناحية القبلية الشرقية بما نصه :

« وقد تم بعناية الله تعالى هـذا المسجد الشريف مسجد العارف بالله تعالى السيد أحمد الرفاعى رضى الله عنه حسبما صدر به أمر ولى النعم الجناب العالى خديو مصر المعظم الحاج عباس حلمى الثانى

أعز الله دولتـه وأعلى كلمته وذلك فى سنة ثمـان وعشرين وثلثمائة وألف من هجرة من هو للأنبياء والرسل ختام عليه وعلى آله وصحبه أتم الصلاة والسلام » .

الرفاعى — هـذا المسجد وإن كان عرف بالرفاعى إلا أن الرفاعى لم يدفن به بل لم يدفن فى مصر ؛ فقـد ترجمه على بن أنجب المعروف بابن الساعى ، واليافعى[1] وأفاضا فى مناقبـه وكراماته ، ثم ذكرا وفاته بمـا نصه : «ولى الله العارف بالله الزاهد القدوة السيد أحمد بن[2] السيد علىّ أبى الحسن الرفاعى ولد سنة خمسمائة وتفقه على مذهب الشافعى وكان اليه المنتهى فى التواضع والقناعة والتقوى . غير أن أتباعه وجد فيهم من يلعب بالنار والحيات وهذا ما عرفه الشيخ ولا الصالحين من أصحابه . كانت وفاته رضى الله عنه بأم عبيدة قرية من أعمال واسط بالعراق سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) » .

وهـذه النسمية لازمت الزاوية أولا ثم المسجد نسبة إلى الشيخ المدفون به على أبى شباك من ذرية الرفاعى ، ومن أصحاب الشهرة والاعتقاد .

وصف المسجد — حقا إن مسجد السلطان حسن أغرى المهندس الذى وضـع تصميم هـذا الجامع حسين باشا المعمار فأراد أن يجاريه فى العظمة والارتفاع . ولكن مع الأسف لم يوفق فى تصميم الوجهات ، كما أنه لم يوفق فى اختيار الأحجار ، وهـذا ما لاحظه المرحوم على باشا مبارك وانتقده . غير أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأنه من خيرة المساجد التى أنشئت فى القرن العشرين ، وأحفلها زخرفا ، وأتقنها صناعة ، خصوصا وقـد تداركه بخبرته العاليـة هرتس باشا ؛ وقد نجح كل النجاح فى محاكاته للسلطان حسن فى ضخامته وارتفاعه ؛ فالمداخل أحيطت بأنواع العظمة ؛ فقد بنيت شاهقة ، تكتنفها العمد الحجرية والرخامية بتيجانها العربية ؛ وحليت أعتابها بمزررات الرخام ، وغطيت مداخلها بقباب وسقوف أحسن اختيارها ، ووفق فى زخرفها وتلوينها وتذهيبها .

وقد امتازت منارتاه بالرشاقة والجمال ، وأقيمتا على قواعد مستديرة مثل منارتى مدرسة السلطان حسن .

والشبابيك النحاسية بالوجهات وضع لهـا تصميم خاص برسوم جميـلة ، بزت به ما سبقها من قديم وحديث .

والمسجد من الداخل تبلغ مساحته ٦٥٠٠ متر ؛ منهـا الجزء المخصص للصـلاة ومساحته ١٧٦٧ مترا . وخصت المدافن وملحقاتها ببقية المساحة .

---

(١) مرآة الجنان ج ٣ ص ٤٠٩ ، وترجمه الشعراوى وأفاض فى ترجمه وقال توفى سـنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) ، ١٦٩ ج الطبقات الكبرى .

(٢) مختصر أخبار الخلفاء ص ١١٢

ويتوسط الوجهة الغربية المدخل الملكى تكتنفه العمد الحجرية، وقد نقشت قواعدها الرخامية بزخارف متنوعة . وقد حفل بأنواع الرخام والمقرنصات، وله روعة و جمال . وقد كُسيت أعتابه والحنايا بجانبيه بالرخام المختلف الألوان والكتابات الجميلة، منها قوله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر — الآية . وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » ويغطى هذا المدخل قبة حجرية منقوشة لها مقرنصات بدلايات .

وعلى يمين الداخل من هذا الباب مقبرة المغفور له الملك فؤاد الأول تغمده الله برحمته وهى فى الركن الغربى القبلى للسجد . وقد كسيت جدرانها بأنواع الرخام الملون ومكتوب بإزارها آية الكرسى « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه — الى آخر سورة البقرة » وعلى قبره تركيبة رخامية حُلّيت بزخارف مذهبة ، ويجاوره قبر المغفور لها والدته الأميرة فريال المتوفاة سنة ١٣٢٠ هـ . ويلاحظ أن هاتين المقبرتين اتبع فى زخرفهما وتصميمهما قواعد العمارة الإسلامية ، كما اتخذت شواهدهما من عمد قائمة أمامهما مثل الإمام الشافعى والفخر الفارسى والظاهر برقوق، فمقبرة الأميرة فريال من فاخر أنواع الرخام . وقد كتب عليها : « بسم الله الرحمن الرحيم يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

ومكتوب على عمود أمامها : « سبحان من تفرد بالبقاء هذا قبر المغفور لها ربة التقى والكمال الأميرة فريال هانم أفندى والدة مولانا القائم بالعدل بين العباد سلطان مصر المعظم السلطان فؤاد بارك الله فى عمره وأسعد رعيته بدوام أمره المنتقلة لجوار ربها الكريم فى اليوم الحادى والعشرين من شهر رمضان سنة عشرين وثلثمائة وألف هجرية » .

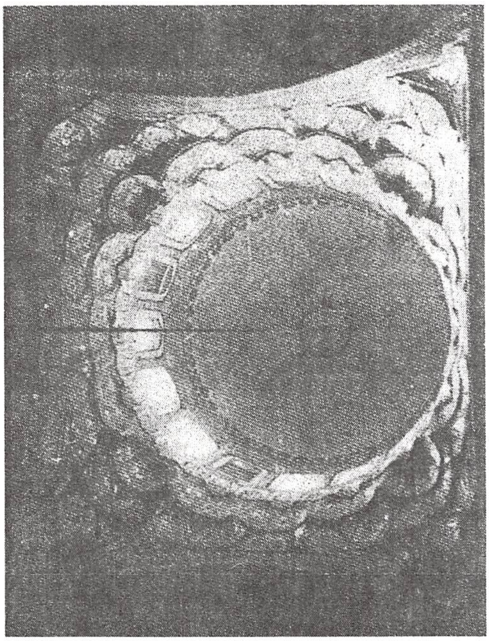
وعلى قبر المغفور له الملك فؤاد تركيبة رخامية لها جلستان إحداهما خضراء داكنة والأخرى صفراء فوقها جلسة بها عقود محارية مذهبة على عمد صغيرة نحاسية مذهبة ، ومكتوب على دائرها قوله تعالى : « ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون — الى قوله تعالى — وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون . صدق الله العظيم ، بسم الله الرحمن الرحيم إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا — الآية .

ومكتوب على عمود رخامى أمام القبر : « الملك فؤاد الأول طيب الله ثراه » انتقل الى الرفيق الأعلى الملك فؤاد الأول بعد الظهر بساعة ونصف الساعة من يوم الثلاثاء ٧ صفر سنة ١٣٥٥ ، وكان مولد جلالته رحمه الله بقصر الجيزة فى ٢ ذى الحجة سنة ١٢٨٤ وارتقى عرش المملكة المصرية فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ أسكنه الله جنات النعيم .

وسقف هذا الجناح وكراديه نقشت باللونين : الأزرق والأبيض تقليدا للخانقاه الشيخونية . وحُلِّيت الجدران بنقوش لونت أرضيتها باللون الأزرق . تتوسطه ثريا نحاسية كبيرة ...

ويقابل الداخل من هذا الباب حجرة طعمت مصاريعها بالسنّ المدقوق أو بمة ، وحُلِّيت أعتابها وما حولها بنقوش ملونة ومطعَّمة بالرخام ، بها قبر الشيخ على أبى شباك . وقد أقيمت فوقها قبة حُلِّيت مقرنصاتها بالذهب والألوان ، وتتوسطها مقصورة خشبية مطعّمة بالسنّ والآبنوس ، لها عمد رشيقة وبها خرط دقيق ، ولا شك أنها من أرقى أنواع المقاصير .

ويسترعى النظر فى هذه القبة أن قطبها مفرّغ بأشكال هندسية غُطِّيت بالزجاج الملوّن ومكتوب برقبتها : «بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا — الآية — وكان تمام هذه القبة سنة ١٣٢٧» . وقد فتح بأجنابها الأربعة أبواب تؤدّى إلى الجامع حُلِّيت أعتابها ومزرراتها بالزخارف الدقيقة وطعّمت مصاريعها بالسن والآبنوس .


مقرنصات القبة بوسط المسجد

وبين البابين القبليين حجرة بسيطة يتوسطها تابوت خشبى بها قبر سيدى يحيى الأنصارى ، تعلوها قبة حجرية عارية من الزخرف ، وهى التى تظهر بين المنارتين .

وقد ارتفعت جدران المسجد وسقوفه ، وحُلِّيت جميعها بوزرات رخامية مختلفة الألوان . ويحيط بها طراز مذهب مكتوب عليه آيات من القرآن ، كما اشتملت الأسقف على ألوان براقة تأخذ بالأبصار ، أحسن اختيارها ، وتنوعت أشكالها ، وبعضها مفرغ ومغطى بالزجاج ، ويتوسطه قبة حُلِّيت مقرنصاتها وما حول شبابيكها بالذهب والألوان .

وإن الزائر لهذا المسجد ليؤخذ بما حواه من فنون جميلة ، وصناعات دقيقة ، فقد وُفِّق «هرتس باشا» لأن يختار له من كل أثر أحسنه ، حتى كوّن منه درة بين المساجد الحديثة ، تنتقل العين فيه من حسن إلى أحسن .

ويتوسـط الجدار الشرقى المحراب ، وهو محراب كبير يكتنف كلا من جانبيه عمودان أحدهما أبيض والآخر أخضر داكن . وقد حُلّى باطنه برخام دقيق، كما حُلّى عقده وتواشيحه بمزررات رخامية ملونة ؛ يحوطه مع الوزرة إفريز ويعلوه سطر مكتوب فيه قوله تعـالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » . فوقه مقرنص مذهب .

وعلى جوانب المسجد وفى وسطه أقيمت أكتاف بنواصيها عمد رخامية ،وكسيت الأكتاف بينها بالرخام الدقيق ونقشت وجوه قواعدها بدوائر رخامية تنـوّعت أشكال زخارفها ونقشت وذهّبت تيجانها كما نقشت أرجل و باطن العقود بزخارف متنوّعة ، وقد أُحضر الرخام اللازم له من بنى سويف وتركيا واليونان و إيطاليا وألمـانيا و بلجيكا ، و يقوم على جانب المحراب منبر كبير ، طُعّمت حشواته بالسنّ والآبنوس وخشب الجوز . وقـد نُقشت خوذته ومقرنصات مقـدّمه بالذهب والألوان . و يحيط بجدران المسجد بخاريات مذهبة منقوشة .

وكرسى المصحف من نوع صناعة المنبر ، وكلاهما قيّم نخم . ودكة المبلّغ من الرخام مقـامة على عمد رخامية ، وقد حفلت بالنقوش المذهبة ومكتوب عليها قوله تعـالى : « بسم الله الرحمن الرحيم إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا — إلى قوله تعالى — نعم الثواب وحسنت مرتفقا » .

كما آختيرت له الثريات النحاسية العربية ، والمشكاوات الزجاجية المشغولة بالمينا .

وقصارى القول أنه مهما أطنب الواصف له ، وصوّر محاسنه ، لا يوفيه حقه من الوصف .

أما الجانب البحرى من المسجد فقد شرعت فيه ستة أبواب ؛ منها أربعة توصّل إلى المدافن ، وآثنان يوصلان إلى رحبتين بين تلك المدافن .

فالحجرة البحرية الشرقية بها أربعة قبور أحدها للرحوم على جمال الدين آبن المغفور له إسماعيل باشا المتوفى سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) ، وعليه تركيبة رخامية آية فى دقة الصناعة والنقوش العربية والتذهيب . والثانى للغفور لهـا السيدة توحيدة هانم ، بنت المغفور له إسمـاعيل باشا ، المتوفاة سـنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) وعليه تركيبة من الخشب المكفت بالفضة ، والمطعم بالسنّ ، ومكتوب عليها آيات من القرآن بحروف فضية وهى طرفة فى صناعة النجارة . والثالث للغفور لهـا السيدة زينب هانم بنت المغفور له إسماعيل باشا المتوفاة سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) . وهى من الرخام ومحلاة بزخارف مورّقة مذهبة . والرابع للرحوم إبراهيم حلمى نجل المغفور له إسماعيل باشا المولود يوم الخميس أوّل شـوّال سنة ١٢٧٦ والمتوفى فى ١٢ رمضان سنة ١٣٤٥هـ ، (١٩٢٦ م) .

وتعلو هذه الحجرة قبة حُلّيت مقرنصاتها بالألوان ومكتوب على رقبتها : « بسم الله الرحمن الرحيم ألم نشرح لك صدرك ــ السورة ــ وكان تمام هذه القبة فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة وألف هجرية » .
وعلى يسار هــذه القبة من الجهة الغربية إحدى الرحبتين ، ومنها يتوصل إلى القبة الثانية وبها قبران أحدهما مدفون فيه المغفور لها السيدة خوشيار هانم والدة المغفور له الخديو إسماعيل ، منشئة المسجد ، وقد توفيت سنة ١٣٠٣ هـ . (١٨٨٥ م) . والثانى قبر المغفور له الخديو إسماعيل باشا خديو مصر ، المتوفى سنة ١٣١٢ هـ . (١٨٩٥ م) . وقد كسيت جدرانها برخام ملون ، ونقشت القبة ومقرنصاتها بالذهب والألوان ومكتوب على رقبتها قوله تعالى : « وسيق الذين آتقوا ربهم إلى الجنة زمرا — الآية » وتاريخ عملها سنة ١٣١٣ هـ برسم الخــديو إسماعيل باشا ووالدته المرحومة خوشيار هانم . ونقشت وطعّمت الأبواب بالسن والأبنوس .

وعلى قبر الخديو إسماعيــل تركيبة رخامية لهــا جلسة مزررة من رخام أسود وأصفر تعلوها جلسة ثانيــة من رخام أبيض وأسود تعلوها عمــد صغيرة خضراء تحمــل عقودا طعمت تواشيحها بالرخام الملون ومكتوب عليهــا آيات من القرآن . ومكتوب عليها بالخط الكوفى : « لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رســول الله صادق الوعد الأمين . إسماعيــل باشا خديوى مصر توفى عام آثنى عشر وثلاثمائة وألف » .

ويلى هذه القبة الرحبة الثانية ، ويتوصل منها إلى القبة الثالثة المشتملة على قبور السيدات زوجات الخديو إسماعيل . وقد حُلّيت مقرنصاتها بالألوان ، وتشمل قبور المغفور لها السيدة شهرت فزا هانم ، المتوفاة سنة ١٣١٣ هـ ، ١٨٩٥م والمغفور لها السيدة جنانيار هانم ، المتوفاة سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٢م) والمغفور لها السيدة چشم آفت هانم المتوفاة سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧م) . ومكتوب على دائرة الرقبة : « بسم الله الرحمن الرحيم إنا أنزلناه فى ليلة القدر ــ السورة » وكان تمــام هذه القبة فى شهر رجب سنة ثمان وعشرين وثلثمائة وألف هجرية .

ويتصل بهــذه القبة حجرة ، بهــا قبر المغفور له السلطان حسين كامل بن إسمــاعيل ، المتوفى سنة ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م) ، يعلوها سقف ملون ، وكسيت جدرانها بأنواع فاخرة من الرخام . وعلى قبره تركيبة رخاميــة كبيرة مكوّنة من ثلاث حطات تجلّت فيها دقة صناعة الرخام ونقشــه وتذهيبه ومكتوب عليها :

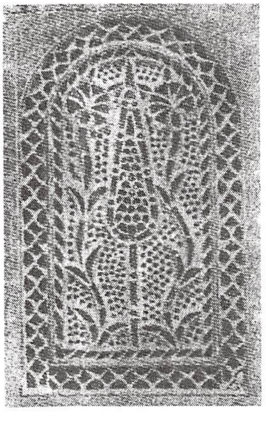
« هذا ضريح حسين كامل بن إسماعيل بن الحاج إبراهيم بن الحاج محمد على الكبير . ولد فى ١٩ شهر صفر سنة ١٢٧٠ وتوفى إلى رحمة الله تعالى فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ » .

و يلاحظ فى هذه التراكيب أن صناعة الرخام فيهـا بلغت شأوا بعيدا فى الرقى ، وقـد انفردت بمميزات فنية لا تتوفر فى غيرها ؛ كما فرشت تلك المقابر بالسجاد الفاخر، وعلقت بها الثريّات النحاسيّة والمشكاوات و بها كراسى المصاحف المطعمة بالسنّ ، والمكفّتة بالفضة، و بها المصاحف المذهّبة ، والمباخر والشمعدانات الفضـية ، و يتناوب القرّاء قراءة القرآن بها يوميا . وفى هـذه المدافن تحيي ذكرى وفيات المغفور لهم المدفونين فيها وتوزّع الصدقات .

عناية حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق بالمسجد :

إن العناية التى يلحظ بها مولانا الملك هذا المسجد فاقت كل عناية، فرعايته له متلاحقة ودائمة ؛ فقد أمر — حفظه الله — بكتابة وتذهيب دكة المبلغ ، وعنى بمقبرة والده المغفور له الملك فؤاد الأوّل — رحمه الله — فكسى جدران مدخلها بأنواع الرخام الفاخر وكتب بإزاره آيات من القرآن الكريم ؛ كما أمر بإصـلاح الرخام أعلى المحراب وفى جوانب المسجد، وفى عهده السعيد أصلحت الوجهات وغُيّر التـالف من أحجارها وأحجار المنارتين، وكلها أعمال كان لها أكبر الأثر فى صيانة هذا المسجد العظيم بل زادته بهاء على بهائه .

أمدّ الله فى عمره السعيد وأبقاه ذخراللإسلام والمسلمين .



مسجد الفتح الملكى

بشارع جامع عابدين(*)

قبل التحدث عن تاريخ هذا المسجد أستمطر الرحمات على جدث المغفور له حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول عاهل مصر وزعيم نهضتها وواضع دعائم عمرانها ، فإليه الفضل فى تعمير هذا الجامع وزيادة مساحته .

وكان لتوجيهاته العالية أحسن الأثر فى وضع تصميمه واختيار زخارفه حتى جاء تحفة فنية رائعة ، رحمه الله وأحسن إليه بقدر ما أسدى إلى مصر من خير ، وأسكنه فسيح جناته

هذا الجامع بشارع جامع عابدين ، ويلاصق قصر عابدين العامر من الجهة الشرقية . وقد عُرفت هذه المنطقة كما عرف المسجد بعابدين ، وهو أمير اللواء السلطانى عابدين بك ، الذى كان يسكن بجهة سويقة صفية بالقرب من الزير المعلق . ومن مآثره تجديد جامع الفتح الذى كان يجاور داره فعرف به ، ورصّد عليه أعيانا مبينة فى حجة وقفه المؤرخة ١١ جمادى الأولى سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣١ م) .

ولما أنشأ المغفور له الخديو إسماعيل باشا قصر عابدين العامر ترك الجامع متداخلا فى حدود القصر .

وقد كان الجامع قبل تجديده الحالى يشغل مسطحا(١) قدره ٦٤٠ مترا ، وهو عبارة عن قاعة ذات أعمدة تحمل عقودا يرتكز عليها سقفه الذى يتوسطه منورا كبير . وكانت وجهته الشرقية بسيطة جدا وتحت قسم منها حوانيت ، وبأعلاها مناور دائرية .

وكان بابه فى هذا الشارع بارزا فيه ، يفتح إلى الجهة البحرية . وله عقد مدايني مقرنص . وكان الباب مع امتداد الوجهة إلى الجهة القبلية يكوّن زاوية قائمة توجد المنارة على ضلعها الآخر مع بروز قليل فى الشارع .

أما وجهته البحرية فكانت تشرف بمناورها على حارة سويقة صفية التى صارت جزءا من مدخل السراى الشرقى .

وفى أوائل سنة ١٩١٨ أمر المغفور له الملك فؤاد الأول بتجديده ، فعهدت وزارة الأوقاف إلى لجنة حفظ الآثار العربية بذلك . وبناء على رغبة جلالته احتفظ بالمدخل القديم وبالمنارة ، وقد أعدّ له مشروع عظيم روعى فيه أن يكون على مثال المساجد العثمانية . وأضيف إلى مساحته ضعفها من أرض السراى حتى بلغت ١٢٤٦ مترا .

(*) انظر الصورة من رقم ٢٦٠ — ٢٦٢ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١) مذكرة افتتاح المسجد .

والمسجد الحالى مكوّن من المدخل العام بشارع جامع عابدين الذى يرتفع عن مستوى الشارع بدرجات . والباب والمنارة فى الطرف الشرقى القبلى للوجهة الشرقية وهما بارزان عنها ، وهو باب مبنى بالحجر كبقية المسجد ، وله عقد مدايني به مقرنصات وبزواياه مقرنصات أيضا وأعتابه وجانبا مدخله من أحجار مزررة ملونة . والداخل من الباب العمومى يمر فى طرقة تحت مجموعة من القباب الصغيرة المنقوشة زواياها ؛ وبهذه الطرقة أبواب تؤدى الى المنارة والى السطح والى دورة المياه والى المسجد، وبصدرها لوحة رخامية مكتوب عليها بالخط الكوفى المربع : « الله محمد وأسماء العشرة المبشرين بالجنة » .

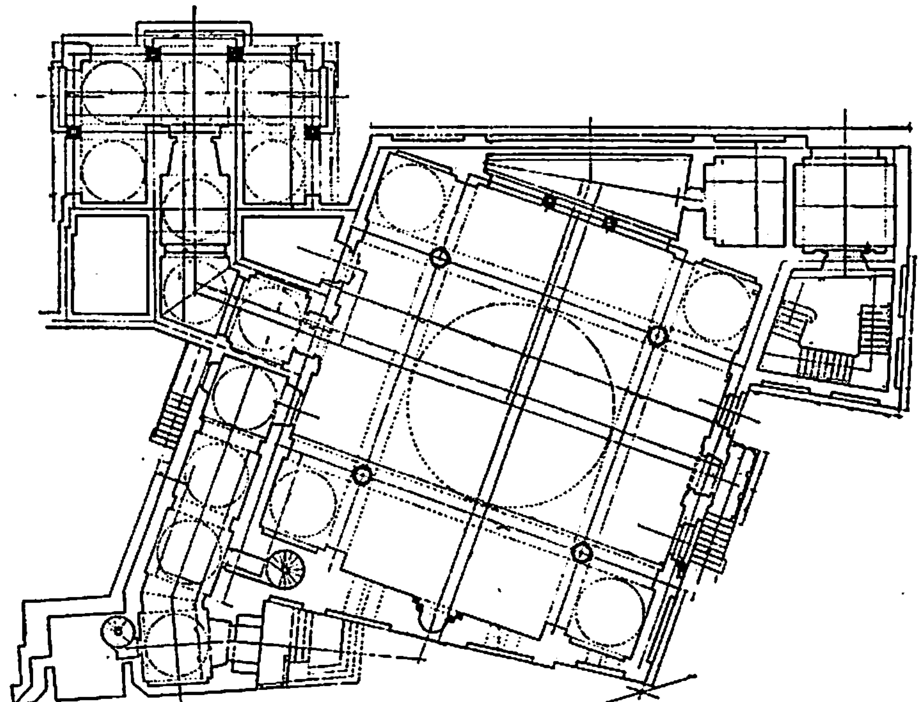
وللمسجد ثلاث وجهات : الغربية تشرف على حديقة قصر عابدين ، ويبلغ ارتفاعها ١٥,٧٠ وبها المدخل الملكى . والبحرية بها باب يؤدى الى فضاء بسيط والشرقية ويبلغ ارتفاعها ١٤,٣٠ وبها القبة والباب والمنارة .

ويبلغ ارتفاع المنارة لغاية الهلال ٤١,٠٠ مترا ، ولا أكون مغاليا إذا قلت إنها أجمل منارة من نوعها ؛ فإنها حُلِّيت بخطوط رأسية ومتقاطعة .

ويشتمل المسجد على قبة كبيرة ارتفاعها ٢٢,٦٠ مترا، محمولة على عقود حجرية مرتكزة على أربعة عمد ضخام من الجرانيت الأحمر ، وقد موّهت تيجانها بالنقوش والزخارف الذهبية ، وكتب حول رقبتها ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال الى قوله تعالى والله يرزق من يشاء بغير حساب . صدق الله العظيم . أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك حضرة صاحب العظمة مولانا السلطان فؤاد الأول سلطان مصر أدام الله أيامه . وكان الفراغ من بنائه فى سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة وألف هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية » .

ويعلو هذا الطراز شبابيك من الجص والزجاج الملوّن . وقد نقشت القبة بالذهب والألوان ومكتوب على قطبها سورة الأخلاص وحوله مصابيح ، ويحيط بهذه القبة أربعة إيوانات ذات سقوف معقودة حافلة بالزخارف الملونة ؛ تنتهى أطرافها بقباب صغيرة تشغل أركان الجامع الأربعة . وكانت القبة الكبيرة والقباب الصغيرة من الخارج مكسوّة بقاشانى أخضر جميل ، ثم استبدل بكسوة نحاسية ، وكُسيت الجدران من الداخل الى ارتفاع ٢,٥٠ مترا بوزرة من الرخام تنتهى بإفريز دقيق يحيط بالأبواب أيضا ؛ اقتبس الى حدّ كبير من افريز وزرة مسجد البرديني . كما كُسيت أعتاب الأبواب بالرخام .

وفى صدر الجدار الشرقى المحراب ، يعلوه مستطيل ؛ كتب عليه بخط جميل قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبـلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحـرام » وهذا المحراب من الطُـرَف القيمة فقد كُسِى أسـفله بأشرطة رخامية بهـا جامات زرقاء ، وآشتمل تجـويفه على مستطيلات من الرخام الدقيق الملون وأخرى بهـا زخارف موزقة مذهبة ثم خورنقات صغيرة محمولة على عمـد زرقاء ، وطاقيته من رخام على شكل دالات تنتهى بلفظ الجـلالة . ويجاور المحراب منبر من الرخام المحلى بنقوش ذهبية ؛ مقتبس من منـبر مسـجد سليمان باشا بالقلعة .



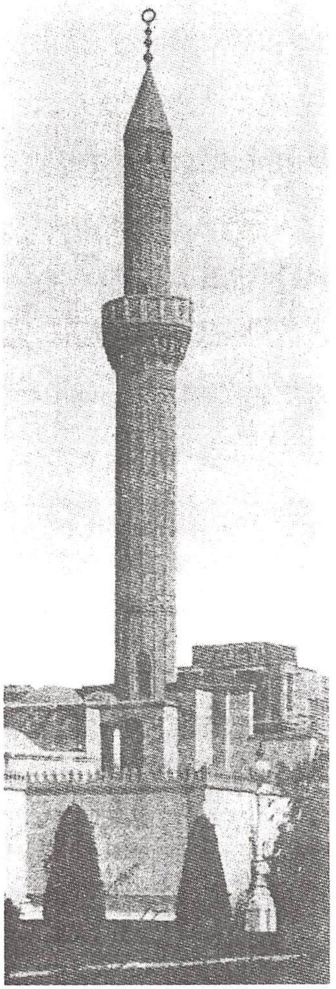
مسـقط افـقى

وقد حُلِّيت الجدران بخاريات مذهبة مكتوب عليها « الله » « محمد » ثم أسماء الخلفاء الراشدين .

ويحيط بالجامع من أسـفله وأعلاه شبابيك جصية تنوعت أشكالهـا نُقشت وذُهبت أطرها الخارجية . كما نقش ما حولها .

وجميع الأرضيات مفروشة بالرخام الدقيق المكون من دوائر ومثمنات ومستطيلات على شـكل دالات ؛ مقتبسة من أنفس النماذج بالآثار الإسلامية بمصر .

وتوجد بالجهة الغربية دكة المبلغ ، وهى محمـولة على ثمانية عمد رخامية ، ولها درابزين خشب خرط . ويعلوها مقصورة أعدّت لصلاة السيدات ، غطيت فتحاتها بشبابيك من الخرط الدقيق . ولعلها المقصورة الوحيدة المخصصة للنساء فى المساجد بمصر ، ومدخلها من حديقة القصر العامر .



المنارة

وفى الجدار القبلى باب خاص يوصل الى المدخل الملكى ، كتب على الطراز الذى يعلوه قوله تعالى : « وقل ربِّ أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » .

وهو يؤدّى الى ممر معقود بقباب صغيرة محلاة بنقوش .

ويقع المدخل الملكى فى حديقة السراى ، وفى الجدار الغربى للجامع وهو مكوّن من سقيفة ترتكز على عقود محمولة على أعمدة من الحجر والرخام ، وله باب مكسو بالرخام وقد كُتِب عليه ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم بفضل الله تعالى وحسن توفيقه تم تجديد هـذا الجامع المبارك وأذن بالصلاة فيـه فى يوم الجمعة السادس من شهر رجب سنة ثمـان وثلاثين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية وهى السنة الثالثة من عهد مولانا السلطان فؤاد الأول سـلطان مصر المعظم وقد وافق ذلك مبدأ السنة الثالثة والخمسين من عمره السعيد بارك الله فى عمره وأعزه بنصره » .

وقد روعى فى إضاءة المسجد أن تكون على شكل عربى بديع ، فصنعت له ثريات من النحاس الأصفر ، عُلِّق أكبرها بقطب القبة الكبيرة ، وتتكوّن من ثلاث طبقات دائرة ؛ قطر الطبقة الأولى ٢,٤٠ مترا . وتشتمل على ٩٦ مصباحا أما الثريات الصغرى فمعلقة بأوتار العقود وغيرها بكلّ منها تسعة مصابيح . ولا شك فى أنه من أجمل المساجد المنشأة حديثا ، فقد روعيت فيه أصول العمارة العثمانية .

وبعد الفراغ من العمارة تفضل المغفور له الملك فؤاد الأول بأداء صلاة الجمعة فيه يوم ٦ رجب سنة ١٣٣٨ هـ (٢٦ مارس سنة ١٩٢٠ م) .

وقـد بلغت نفقات إنشائه ، مبلغ ٢٥٠٠٠ جنيـه ، صرفت من ريع وقف ساكن الجنان إسماعيل باشا .

مسجد محمد على باشا الكبير

بالقلعة (*)

إلى روح محمد على باعث النهضة ومحيي مصر، ومؤسس البيت العلوى الكريم .

إلى منقذ مصر من الفوضى، وواضع دعامة استقلالها ونهضتها .

إلى روحه الطاهرة نبعث بأخلص الدعوات، ونسأل الله القدير أن يغمره بفيض الرحمات .

ولد محمد على سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨م) بمدينة قوله من ثغور مقدونية، وقد تركه أبوه إبراهيم أغا رئيس الحرس وهو فى حداثة سنه فكفله عمه طوسون أغا ثم توفى عمه فكفله حاكم المدينة (الشوربجى) وكان صديقا لوالده .

ولما بلغ أشده التحق بالجهادية زمنا، وسرعان ما تجلت شجاعته ورقى الى رتبة بلوك باشى (قومندان فرقة) ثم زوجه متصرف قوله بقريبة له، ثم اشتغل بالتجارة [1] إلى سنة ١٨٠١ م . وقد قرر الباب العالى وقتئذ إرسال حملة تركية لطرد الفرنسيين من مصر بمساعدة انجلترا؛ فانتظم محمد على فى سلك القوة البحرية التى اشتركت فى واقعة أبى قير وظهر اسمه فى هجوم الجيش التركى على الرحمانية فقد أخذها من الفرنسيين، ولما خرج الفرنسيون من مصر رقى الى رتبة لواء وعين قائدا على أربعة آلاف جندى ألبانى. ثم أرسله خسرو باشا الوالى العثمانى الجديد إلى الصعيد لمحاربة المماليك، ولكن محمد على وصل متأخرا ففكر خسرو فى الغدر به؛ فتحالف محمد على مع عثمان البرديسى زعيم المماليك وتمكن من عزل الوالى سنة ١٨٠٣ م . وبحكمته وحسن سياسته تحبب الى الشعب واستمال إليه زعماءه .

وفى أثناء ذلك كان محمد الألفى زعيم المماليك الثانى قد سافر إلى انجلترا، فأكرم الإنجليز وفادته، وقدموا له الهدايا الثمينة . وكان غرضهم الاستيلاء على سواحل مصر الشمالية فى مقابل تعضيدهم للماليك، وتوطيد شوكتهم بمصر . وقد عاد محمد الألفى وتحصن بالصعيد، فعمل محمد على، على الإيقاع بينه وبين البرديسى . لأن الألفى كان يمثل الحماية الانجليزية فقضى عليه .

وازدادت جرأة الألبانيين، وكان محمد على يعضدهم [2] سرا، فأخذوا يطالبون البرديسى بمتأخر مرتباتهم؛ ففرض الضرائب الفادحة على سكان القاهرة، فثاروا عليه وألجأوه إلى الهرب .

(*) انظر الصور من رقم ٢٦٣ — ٢٧٥ بمجموعة الصور الفوتوغرافية .

(١ و ٢) تاريخ العصر الحديث ص ٣١ و ٣٢، الحركة القومية ج ٢ ص ٣١١ و ٣٥٩، البهجة التوفيقية ص ٣ و ٤

خلا الجو لمحمد على فى القاهرة، وبحسن سياسته أشار على العلماء والمشايخ بتولية خورشد باشا محافظ الإسكندرية واليا على مصر فآجتمع الشيوخ وزعماء الجند وأجمعت آراؤهم على تعيين خورشد باشا واليا وتعيين محمد على قائمقاما ، وأوفدوا الى الإسكندرية رسولا يدعو خورشد باشا الى الحضور للقاهرة ليتولى منصب الولاية فقدم اليها فى أواخر مارس سنة ١٨٠٤ م .

ولكن الوالى الجديد لما رأى جند محمد على الألبانيين خاف على نفوذه، فاستقدم جندا من (الدلاة) فأساءوا معاملة الأهالى ، وأوسعوهم نهبا وقتلا، فآزداد المصريون كراهية للوالى، وكان الباب العالى فى هذه الفترة بناء على مساعى خورشد باشا قد عيّن محمد على واليا على جدّة لإبعاده عن مصر.

ولكن محمد على أدرك ما فى هذا التعيين من الدسيسة فلم يذهب إلى جدّة ثم آستغلّ الظروف، وحرّض الجند على مطالبة الوالى برواتبهم ، وتحالف مع نقباء الصناع والعلماء — وكانوا قد سموا هذه الفوضى — فحاصروا خورشد باشا فى القلعة، ونادوا بمحمد على باشا واليا على مصر، وألحّوا على الباب العالى بتوليته، فصدر الفرمان بولايته فى ١٧ صفر سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) .

وكان من فضل الله على مصر والمصريين[1] أن عنى المغفور له محمد على باشا بتثبيت حق الوراثة من بعده فى ذرّيته ، وكانت من أمهات المسائل التى أثارها محمد على الكبير بعد آنتصاره على جيوش السلطان محمود فى المعارك التى دارت رحاها فى عكا وفى حمص وحماة وحلب وبيلان وقونية ونزيب، وآنتهت بقبول السلطان تثبيت محمد على وأسرته على عرش مصر، ففى يوم ١٣ فبراير من سنة ١٨٤١ صدر الخط الشريف الهمايونى من السلطان عبد المجيد الى محمد على باشا الكبير بتثبيته على عرش مصر مع إقرار حقوق الوراثة فى ذرّيته من بعده ، ولولا هذا الفرمان الذى ظفرت به مصر بفضل حكمة محمد على وحسن سياسته وقوة جيوشه لبقيت مصر ولاية عثمانية كسائر الولايات ، يتعاقب عليها الولاة الأتراك، وهى مدينة بهذا إلى عبقرية محمد على صاحب الفضل الكبير فى تنظيم ذلك الجهاد وآستثماره وتوجيهه إلى خير مصر وعظمتها ؛ ففى عهده الزاهر نشأت الدولة المصرية الحديثة ، وفيه تحقق الآستقلال القومى ، وشيدت الدعائم الكفيلة بالقيام به ، فيه تأسس الجيش المصرى، والأسطول المصرى، والثقافة المصرية ، وفيه وضعت أسس النهضة العلمية والآقتصادية فى البلاد، فهو عصر آستقلال وحضارة وعمران .

ولا شك أن هذا يعدّ بحق فاتحة عهد جديد، وهو عهد نهضتها السياسية والمالية والآجتماعية، التى نرى آياتها الآن فى جميع المرافق والشؤون .

(١) الذكرى المئوية لتثبيت محمد على باشا الكبير وأسرته على عرش مصر ص ١ .

بعث هـذا العاهل الكبير فى مدّة الخمس والأربعين سـنة التى حكمها روحا جديدة فى مصر، ونهض بهـا فى شتى نواحيها ومرافقها ، فعنى بالرى والتعليم والجيش والمـالية والتجارة والصـناعة والهندسة والموسيقى والطب، وأنشأ لها المدارس والمصانع، وأوفد الوفود إلى أوروبا، كما آستقدم إليها خيرة العلماء والفنيين، فكانت أعماله أنوارا لا تطفأ .

وقد أمدّ الله فى حياته، فتوالت أياديه البيضـاء على مصر، وآنتشرت فى البلاد آثاره الصالحة الخالدة، حتى رأى ثمرات غرسه يانعة زاهرة، وأتم أحفاده العظماء البناء الذى أسسه جدّهم العظيم، وقادوا الأمة إلى مدارج الكمال .

و إن الآثار الإسلامية لتزدان بجملة منشآت عمارية تحمل آسمه الكريم فى شتى نواحى القطر، من مساجد وأسبلة ومصانع وحصون[1] إلى قصور فقناطر فدار محفوظات فدار ضرب . ودرّتها مسجده العظيم الذى يضم جثمانه الطاهر فى القلعـة ، ويشرف على قاهرة الفاروق من عليائه ، فتقرّ عينـه بما وصلت إليه من نهوض ومدنية فى عهد حفيده الفاروق .

بعد أن أتم محمد على إصلاح القلعة، وفرغ من بناء قصوره ودواوين المـالية والجهادية، وعموم المدارس ودار الضرب بها، رأى أن الحاجة ماسة الى إنشاء مسجد لأداء الفرائض، وليكون مدفنا له ، فعهد الى المهندس التركى[2] (يوسف بشناق) بوضع تصميم له ، فوقع آختياره على مسجد السلطان أحمد بالآستانة، فآقتبس منه مسقطه الأفقى بمـا فيه الصحن والفسقية مع تحويرات طفيفة .

الهيئة الفنية للمسجد ــ نأسف لعدم العثور على وثيقة رسمية بآسم مهندس المسجد، ولكنى عثرت على آسم مساعد له آسمه على حسين (التلميذ المهندس) فقد ألحق بعمارة المسجد سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) بوظيفة منظم أحجار[3] .

وكذلك عرفنا من بين رسامى هذا المسجد على أفندى موسى والسيد أفندى حمد والمعلم ابرام وحكا كيان أفندى ، ولعله يوسف هكا كيان الذى تولى نظارة مدرسـة المهندسخانة وأحد خريجى البعثات، وبعض المهندسين المصريين[4] . وأن من قام بعمل رسم الشبابيك النحاسية أسطى رومى[5] .

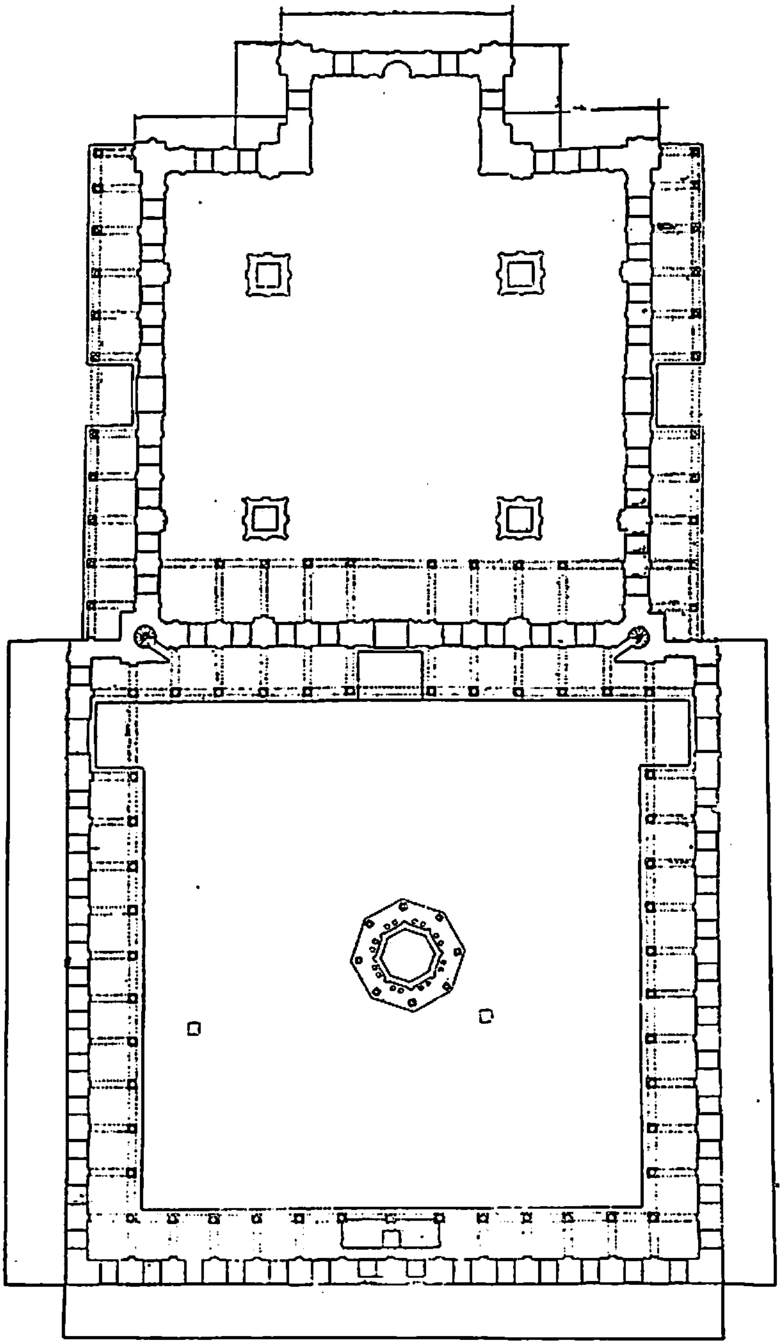
(١) انظر ما كتبته عن العمارة فى «عصر محمد على باشا» فى العدد الذى أخرجته مجلة العمارة سنة ١٩٤١ بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس ملكه السعيد وقد أحصيت ووصفت فيه منشآته العمارية وصوّرتها .

(٢) ذكر جناب مسيو فييت مدير دار الآثار العربية فى كتاب مساجد القاهرة، أن آسمه يوسف بشنا ، ص ٣٤٤ ج ١

(٣) سجل ٣ ج ٣ ق ٢٦ صفر سـنة ١٢٦١ ، الوثيقة العربية رقم ٣٣٥٢ المؤرخة ٧ جمادى الثانية سنة ١٢٦٣ هـ .

(٤) دفتر ١٤ ج ١ وثيقة عربية رقم ٩٠ ، دفتر ٧٤ معية تركى بتاريخ ١٦ ربيع الآخر سنة ١٢٥٢ هـ . ، البعثات العلمية ص ١٠٦

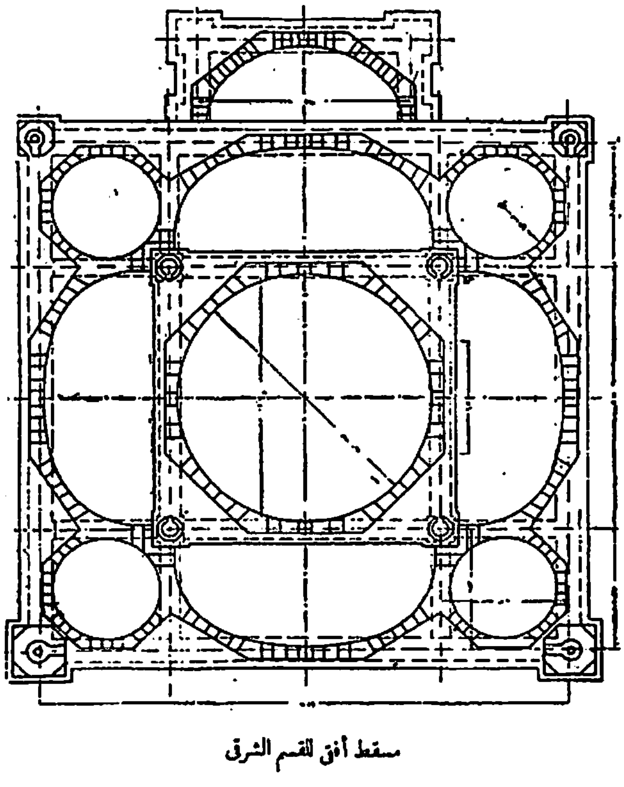
(٥) دفتر ٤٩ معية تركى ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٤٨ هـ .



مسقط أفقي للمسجد

أما النحاتون والنجارون فقد كانوا مصريين . عرفنا من النحاتين آثنين هما حسين محزم ، وإبراهيم حسن ، وقد كان مقترا على عمد النحاتين المصريين، أن يورد كل منهم ثمانية نحاتين يختارهم بنفسه من مهرة الصناع، وتدفع لهم أجورهم حسب تقديرهم، كما عرفنا من النجارين آثنين هما الأسطى حسين، والحاج إبراهيم الأنبعاوى .

وقد قام بأعمال الرخام عمال مصريون ، بمقاولة الخواجه سيمون ، وتحت مباشرة يوسف ضيا أفندى وشاكر أفندى والقبطان هدايت والمعلم يوسف، كما عهد بأعمال الأهلة النحاسية وطلائها بالذهب الى الخواجا بيرون وكرابيت النحاسين بالموسكى (وثيقة رقم ٤٥٢ دفتر ١٦ بتاريخ ٢ رجب سنة ١٢٦١ هـ) .



مسقط أفقي للقسم الشرقي

أما عمال تكسية الرصاص لقباب المسجد ومسلة المنارتين، فقد أحضر لها عمال من الآستانة.(١)

هذه هي الهيئات الفنية التي آستطعنا الحصول عليها .

(١) وثيقة رقم ٣١٦ بتاريخ ٥ ربيع الثاني سنة ١٢٦١

تاريخ إنشاء المسجد — كان الشروع فى إنشائه سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) واستمر العمل سائرا فيه بلا انقطاع حتى توفى محمد على الى رحمة الله تعالى سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٨ م) فدفن فى المقبرة التى أعدها لنفسه بداخل هذا المسجد .

انتقل محمد على الى رحمة الله تعالى ، وكان بناء المسجد كاملا من أسوار وقباب ومنارات وكتابات تعلو الشبابيك الخارجية والداخلية ، بما فيها كسوتها الرخامية على ما هى عليه الآن .

أما كسوة الرخام بالوجهات فلم يتم منها إلا القسم الأسفل حتى الباب القبلى للصحن ، وكان التصميم يشمل كسوة القسم أعلى المربع أيضا ، فلم يعمل منه سوى الأفاريز حول الشبابيك النحاسية .

ولما تولى المرحوم عباس باشا الأول فى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٤هـ (١٨٤٨م) أمر بإتمامه . وقد تناولت أعماله النقش والتذهيب وبعض أعمال الرخام[1] ، ثم أمر بعمل تركيبة رخامية ومقصورة نحاسية وضع بداخلها شمعدانات فضية ومصاحف مذهبة ، كما أمر بفرشه وإضاءته بالنجف ، ثم أمر بتعيين القراء ورصد الخيرات على هذا المسجد بمقتضى وقفية مؤرخة ٩ رجب سنة ١٢٦٩

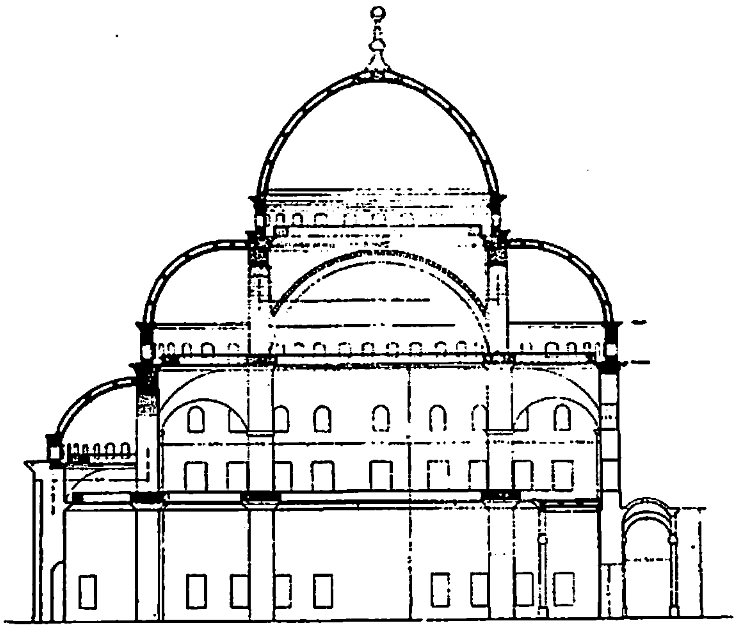
ولما تولى المرحوم محمد سعيد باشا سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٤ م) رصد له خيرات كثيرة ، وقرر احتفالات رسمية لخمس ليال من السنة ، هى ليلة المعراج ، وليلة نصف شعبان ، ثم ثلاث ليال فى رمضان ، منها ليلتا ١٣ و ١٤ ، الأولى ذكرى وفاة محمد على بالإسكندرية ، والثانية لذكرى إيداعه مقره الأخير بمصر ، ثم ليلة القدر ، وما زالت هذه الحفلات تقام حتى الآن . وكذلك أمر بطلاء المقصورة النحاسية وأحدث بعض تغييرات فى كتاباتها .

كذلك عنى به المغفور له إسماعيل باشا سنة ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م) فعمل له أبوابا جديدة بسماعات نحاسية وأهداه مصحفين مذهبين بخط إبراهيم أفندى رشدى وأعد به مقصورة بجوار المنبر كى يصلى فيها السلطان عبدالعزيز لما حضر إلى مصر وصلى بالمسجد ، وأحاطه بأسوار وأنشأ له دورة مياه ، ثم عنى به المغفور له توفيق باشا سنة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩م) ، فأمر بإصلاح رخام الصحن ، وأعاد رصاص القباب . وأهدى اليه مصاحف مذهبة .

عناية المغفور له الملك فؤاد بالمسجد — وكانت أكبر عناية نالت هذا الجامع ، هى التى وجهها اليه المغفور له الملك فؤاد الأول ، فما إن وصل الى مسامعه نبأ الخلل الجسيم الذى تطرق اليه ، والذى اكتشفه المغفور له محمود باشا أحمد مدير إدارة حفظ الآثار العربية السابق ، حتى أصدر أمره

(١) الخطط الجديدة ج ٥ ص ٨٤

بتكوين لجنة من كبار المهندسين وطنيين وأجانب لفحصه ، ووضع مشروع لإصلاحه ، فتكونت هذه اللجنة فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ ، وكانت نتيجة الفحص ضرورة إزالة قبته الكبيرة ، وما حولها من أنصاف القباب ، وقباب صغيرة . وإعادة بنائها بعد عمل شدّة ، وهى هيكل من الصلب المجمع يكوّن فى مجموعه عدّة أبراج مستقلة وعقودا تشيّد بنسب معينة لتحمل القباب والعقود ، عند الهدم والبناء وقد بلغ وزنها ٦٥٠ طنا ؛ قدرت تكاليفها بمبلغ ١٦١١٠ جنيه[١] . ولما تم عمل الصلب ، ضرب أوّل معول فى القبة الكبيرة فى ١١ فبراير سنة ١٩٣٥ وما حولها من قباب وأنصاف القباب .



قطاع رأسى

ويرى المغفور له محمود باشا أحمد أن الأسباب التى أدّت الى هذا الخلل هى ضعف[٢] الأجزاء التى تقوم بأخذ وتوزيع الأحمال فى المبنى ، ومنها العقود والأكتاف الحاملة لها ، وكان العامل الأوّل فى حصول الخلل هو عدم كفاية تثبيت أطراف الشدّادات الحديدية الرابطة لأرجل العقود الأربعة الحاملة للقبة الكبيرة وعدم وجود شدّادات للعقود الصغيرة مما ترتب عليه تفتت أحجار أرجل العقود تحت حمل القبة الكبيرة ودفع العقود لجدران الخارجية للمسجد فأمالها ، هذا عدا شروخ أخرى محلّية كانت نتيجة تأكسد « الكانات » الحديدية الرابطة لقطع الأحجار المبنى بها المسجد .

(١) إصلاح مسجد محمد على . رسالة لصاحب العزة سرج للبافزكى بك تلخيص الأستاذ محمود زكى الطويل نشرت بعدد يناير سنة ١٩٣٧ من مجلة الموظف . (٢) مذكرة المرحوم محمود باشا أحمد عن المسجد بمناسبة إتمام إصلاحه .

وقد كشفت عملية الهدم عن كثير مما كان مستترا من عيوب وتكسيرات داخل الحوائط، كما وجدت قطع كبيرة من الخشب مبعثرة هنا وهناك فى وسط المبانى، وهى فى حالة عطب شديد، كما وجدت قضبان حديدية علاها الصدأ، فأحدث تمددا فى أليافها نتج منه ضغط كبير على أجزاء البناء، نشأ عنه فى النهاية التصدع، كما ظهر أيضا خلل الدعامات الرئيسية .

وقد استخرجت من أركان القباب التى هدمت زلع كبيرة من الفخار لم يعد استعمالها . وقد لفت نظرى ما جاء فى بحث عن القباب لمسيو شيدان (Chedanne) ضمن تقريره المرفوع فى يونيه سنة ١٨٩٢، لأكاديمية الفنون الجميلة بفرنسا عن نظريات الصوت «ويظهر أن نظريات الصوت فُكِّر فيها منذ القدم، فقد وجدت بقبة كنيسة القديسة هيلانة بالقرب من روما، (تورى بنياتارا)[1] (Torre Pignàttara) قدور من الفخار من داخل البناء، صوبت فوهاتها نحو الداخل، وذلك إبان القرن الرابع » .

ولا شك أن الزلع التى وجدت فى زوايا قباب مسجد محمد على ولم تُعد الى أماكنها، كانت لهذا الغرض، وقد روعى فى تصميم إعادة العقود وغيرها أحجامها وأبعادها المعمارية الأصلية واستدعى ذلك تسليحا خاصا للعقود؛ كما أن القباب القديمة وقد كان سمكها نحو ٠٫٨٠ مترا احتفظ فيها بهذا البعد، وذلك بعمل قباب مفرّغة بالبعد المطلوب بحيث تحتفظ بشكلها القديم تماما، وكذلك روعى عند إعادة الزخارف أن تكون طبق الأصل، فقد احتفظ بنماذج متعددة من الزخارف القديمة؛ كما عملت نماذج جديدة ملونة قبل الهدم، وأُخذت رسوم وصور فوتوغرافية لشتى أنواع الزخارف والخطوط، مما ساعد على إعادة هذه الزخارف طبقا لأصلها . وكان لحضرات أعضاء القسم الفنى لجنة حفظ الآثار العربية نصيب موفور من العناية باصلاح هذا المسجد وتتبع خطوات الإصلاح والمحافظة على نقوشه وكتاباته و إعادة عملها طبقا لنماذجها القديمة .

وقد بلغت تكاليف أعمال الهدم والبناء ٦٠٠٠٠ جنيه . ونفقات البياض والزخرفة والتذهيب ٤٠٠٠٠ جنيه بخاء من أجلّ الأعمال المعمارية التى عملت فى مصر .

وصف المسجد — إن موقع هذا المسجد من أجمل المواقع إذ يشرف على القاهرة مطاولا السماء بمنارتيه الرشيقتين وقبته الكبيرة، ترمقه العيون من جميع نواحيها، فكما أن الأهرام رمز مصر القديمة فهذا المسجد رمز مصر الحديثة، وهما صنوان يقصدهما كل زائر أجنبى يهبط أرض مصر وكثيرا ما يقنع بعض زائرى مصر فى الفترات القصيرة بهاتين الزيارتين .

---

(١) هذا البحث مترجم ومنشورة خلاصته فى ص ٤٦٢ — ٤٦٤ ج ٢، كتاب هندسة المبانى والإنشاء للأستاذين حسين صالح، أحمد حسن عمر .

والمسجد فى مجموعه مستطيل البناء، وينقسم إلى قسمين : القسم الشرقى وهو المعد للصلاة، والغربى وهو الصحن تتوسطه فسقية للوضوء ، ولكل من القسمين بابان متقابلان : أحدهما قبلى، والآخر بحرى ؛ فالقسم الشرقى مربع الشكل طول ضلعه من الداخل ٤١ مترا، تتوسطه قبة مرتفعة، قطرها ٢١ مترا وارتفاعها ٥٢ مترا عن مستوى أرضية المسجد ، محمولة على أربعة عقود كبيرة متكئة أطرافها على أربعة أكتاف مربعة يحوطها أربعة أنصاف قباب ، ثم نصف خامس ليغطى بروز المحراب، وذلك خلاف أربعة قباب أخرى صغيرة بأركان المسجد .

وسمك الجدران فى الأساس ٢,٢٠ مترا ، ثم يتناقص هذا السمك حتى يصل إلى ١,٩٠ مترا فى أجزائه العلوية ، وقد كُسيت جدران المسجد من الداخل والخارج بالرخام الألبستر المستورد من محاجر بنى سويف، وكذلك الأكتاف الأربعة الداخلية الحاملة للقبة إلى ارتفاع ١١ مترا .



بسملة بخط سنكلاخ

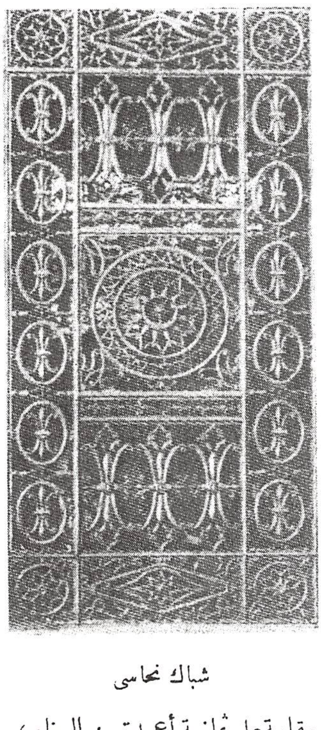
وتشغل الجدار الغربى ، دكة المؤذنين وهى بعرض المسجد، مقامة على ثمانية أعمدة من الرخام فوقها عقود وبها سقوف ملونة ، ولها سياج من نحاس يتوصل إليها وإلى الممر العلوى المحيط بالمسجد من سلمى المنارتين ، وبدائر المسجد من أسفل شبابيك كُتب على أعتابها من الداخل أبيات من قصيدة البردة . والمحراب من الرخام الألبستر، يجاوره المنبر الرخامى الجديد الذى أمر بعمله حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول أعزّه الله، وبالقرب منه المنبر الخشبى القديم بالمسجد، وهو أكبر منبر فى الآثار الإسلامية وقد حُلِّى بنقوش مذهبة .

وكُسيت جميع جدران المسجد أعلى الكسوة الرخامية من الداخل ببياض حُلِّى بنقوش ملونة مذهبة، أما القبة الكبيرة وأنصاف القباب فقد حُلِّيت بزخارف بارزة ملونة مذهبة ، تمثل عقودا وزهورا يتوسطها هلال . وكتب فى أضلاع القبة بالتناوب . بسم الله . ما شاء الله . تبارك الله .

ومهندس الجامع ، وإن كان اقتبس من مسجد السلطان أحمد بالآستانة التصميم والوجهات وشكل المنارات ـ إلا أنه لم يقتبس منه زخارفه ، ولا زخارف عصره؛ بل اقتبس زخارف المسجد

من تلك الزخارف التى راجت فى تركيا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وهى تمثل جدائل مخضرة بزهورها الملونة وبعض الفواكه ، ولذا اشتملت مجموعة زخارف المسجد على أوراق نباتية وزهور ملونة وعناقيد عنب ، تكاد تكون وحداتها مكررة . وقد حليت زوايا القباب والعقود بلفظ الجلالة ، محمد رسول الله ، وأسماء الخلفاء الراشدين ، بخط الخطاط المشهور (أمين أزميرى) .

وفى الركن الغربى القبلى قبر المغفور له محمد على باشا ، وضعت عليه تركيبة رخامية حولها مقصورة نحاسية مذهبة ، جمعت بين الزخارف العربية والتركية والمصرية ، وثبت على جدارها القبلى لوحة رخامية مكتوبة باللغة التركية تضمنت مدح محمد على باشا وعددت مواهبه وخدماته للقطر المصرى ومدة حكمه وتاريخ وفاته ، وعلى طرفى الوجهة الغربية للصحن منارتان رشيقتان ، بارتفاع ٨٤ مترا عن مستوى أرضية الصحن ، بكل منهما ٢٥٦ درجة إلى نهاية الدورة الثانية ، خلاف درج المسلة .



شباك نحاسى

ومن الباب الذى يتوسط الجدار البحرى للمسجد يتوصل إلى الصحن ، وهو فناء كبير مساحته ٥٣ × ٥٤ مترا ، تحته صهريج كبير ويحيط به أربعة أروقة ذات عقود محمولة على أعمدة رخامية ، تحمل قبابا صغيرة منقوشة من الداخل ، ومغشاة من الخارج بألواح من الرصاص مثل القبة الكبيرة وبها أهلة نحاسية .

وبدائر الإيوانات المذكورة ٤٦ شباكا تشرف على خارج الجامع من الجهات الثلاث : البحرية والغربية والقبلية .

أما الجهة الشرقية فتشرف على الجامع ، وبها ثمانية شبابيك . يعلوها إفريز رخامى مكتوب عليه آيات من سورة الفتح بالخط الفارسى الجميل ، بقلم الخطاط المشهور (سنكلاخ) سنة ١٢٦٢هـ . وبهذا الإفريز أعلى المدخل إسم السلطان عبد المجيد .

وبوسط الصحن قبة للوضوء أنشئت سنة ١٢٦٣هـ (١٨٤٤ م) . مقامة على ثمانية أعمدة من الرخام ، تحمل عقودا تكون منشورا ثمانى الأضلاع ، فوقه رفرف به زخارف بارزة ، وباطن هذه القبة محلى بنقوش تمثل مناظر طبيعية . وبداخل هذه القبة قبة أخرى رخامية ثمانية الأضلاع ، لها هلال رخامى نقش عليها بزخارف بارزة عناقيد عنب ، وبها طراز منقوش ملون مكتوب عليه بالخط الفارسى بقلم "سنكلاخ"

قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فآغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وآمسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين» . وقال صلى الله عليه وسلم : «الوضوء سلاح المؤمن» سنة ١٢٦٣هـ.

ويتوسط الرواق الغربى بالصحن برج من النحاس المخرم والمحلّى بالنقوش و بالزجاج الملون ، بداخله الساعة الدقاقة التى أهديت الى المغفور له محمد على باشا ، من ملك فرنسا لويس فيليب سنة ١٢٦٢ هـ . (١٨٤٥ م) فقد جاء ضمن الوثائق الرسمية : أمر صادر من محمد على باشا ، إلى ديوان المبيعات والتجارة ، فى ٢٧ رمضان سنة ١٢٦٢ هـ بصرف مبلغ من المال إلى الأسطى الذى أحضر الساعة المهداة من ملك فرنسا اليه .

وقد ظلت هذه الساعة معطلة زمنا كبيرا الى أن عنى بإصلاحها حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك كما أمر بإصلاح برجها ، وثبتت على قاعدته لوحة تذكارية نصها :

« فى عهد الفاروق و بأمره الملكى الكريم تم ترميم هذا البرج وأصلحت الساعة المهداة الى محمد على باشا الكبير من ملك فرنسا لويس فيليب عام ١٨٤٥ م (١٣٦٢ هـ ١٩٤٣)

وأمام الوجهتين : القبلية والبحرية للقسم الشرقى رواقان ، بهما عمد رخامية تحمل قبابا صغيرة ، و بدائر المسجد والصحن شبابيك نحاسية مفرغة بأشكال زخرفية ، ومكتوب على أعتاب الشبابيك من الخارج قصيدة من نظم الشيخ محمد شهاب الدين ، ابتدأت من يسار الباب البحرى للصحن وأولها (١) :

عروس كنوز قد تحلّت بمسجد * مكللة تيجانها بالزبرجد
أم الجنة المبنىّ عالى قصورها * بأبهج ياقوت وأبهى زمرّد

ومنها :

وهل أثر يا صاح يعرب عن حلى * مؤثره دون البناء المشيد
فدع قصر غمدان وأهرام هرمس * و إيوان كسرى إن أردت لتهتدى
ودع إرما ذات العماد ونحوها * وعرشا لبلقيس كصرح ممرّد
ودع أموىّ الشام وآنزل بمصرنا * و بادر الى هذا بإيماء مرشد
فلو عدّدت فى الكون بدء بدائع * لكان به ختم لذاك التعدّد

وكم منشآت كالرواسى تخالها * حصونا جرت فى البحر ذات تشيد
وكم مسجد ميناه يشهد أنه * على وفق معنى إنما يعمر آبتدى

(١) ديوان السيد محمد شهاب الدين ص ٢١

وزر حرما مهما تشاهد جماله * نظرت بديع الصنع فى كل مشهد

وانتهت القصيدة على الشباك الأيمن للباب الذى بدأت منه بما نصه :

مبانٍ إذا أمعنت فيها مؤرخا * تريك على قـدر العزيز محمد ١٢٦١

وقد ساير هـذا الشاعر باعتباره شاعر القصر خطوات بناء الجامع وأرخ الكثير من أجزائه بمناسبة الفراغ منها ، ومنه علمنا أن سلامة أفندى المهندس عمل مزولة للجامع ، وأن الأبواب انتهت سنة ١٢٦١ هـ ١٨٤٥ م وأن القبة الكبيرة انتهت سنة ١٢٦٢ هـ ١٨٤٦ م .

أما الآيات القرآنية التى كتبت على أعتاب الأبواب الأربعة فقد كتبها الخطاط (أمين أزميرى) سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥١ م .

عناية حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق بالمسجد — فى عهده الزاهر تمت أعمال الإصلاح ، وتفضل حفظه الله بافتتاحه بأداء فريضة الجمعة فيه يوم ٥ المحرم سنة ١٣٥٨ هـ . ووضعت على الباب البحرى للمسجد لوحة تذكارية نصها :

بدأت إدارة حفظ الآثار العربية بعمارة وتجديد مسجد محمد على باشا الكبير فى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول وتم افتتاحه فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول وذلك بأداء جلالته فريضة الجمعة فى خامس شهر المحرم سنة ١٣٥٨ هـ ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٩ م

ولما رأى حفظه الله أن المنبر القديم يبعد كثيرا عن المحراب أمر بعمل منبر[1] رخامى يتفق ورونق المسجد . فنفذت رغبة جلالته السامية ، وتم عمل المنبر من رخام الالبستر المطعم بالرخام الأحمر ، وكتب على جانبيه اسم جلالة الملك . وله باب نحاسى مفرغ بزخارف متقنة ومكتوب أعلاه :

«أمر بعمل هذا المنبر المبارك حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك الصالح فاروق الأول فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة» . كما أمر بسد الشبابيك الموجودة فى بارزة المحراب برخام الألبستر على أن تكون متمشية مع باقى الكسوة الرخامية حولها ، وأمر حفظه الله بتجميل المحراب وكتابته وكتابة التركيبة الرخامية على قبر جده العظيم ، فكتب على أجنابها ورءوسها تلك الآيات الشريفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار — إلى قوله تعالى ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » . « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة — الآية » . « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا — الآية » . وكتب على شاهد القبر :

(١) نقل البدرى فى كتاب محاسن الشام عن اليعقوبى أنه عاين فى الجامع الأموى ثلاثة منابر ، ص ٥٢ .

« بسم الله الرحمن الرحيم إن الله مع الذين آتقـوْا والذين هم محسنون — هنا مثوى والى مصر ومنقـذها و رأس أسرتها المالكة ، المغفور له محمـد على باشا . ولد نضر الله وجهه بمدينـة قوله سنة ١١٨٢ للهجرة النبوية وولى مصر فى ١٧ من صفر سنة ١٢٢٠ ، ولحق بربه فى ١٣ رمضان من سنة ١٢٦٥ رحمه الله وطيب ثراه و بارك فى أسرته الزكية وسلالته العلوية » .

لم تقف عناية الفاروق بالمسجد عند هذا الحـد ، فقد أمر حفظه الله بإعداد مشروع لتكسية باقى الوجهات برخام الألبستر . وقد أعدّ فعلا . و يشمل هذا المشروع أيضا جعل الساحتين أمام وجهتى المسجد القبلية والبحرية حرما له ، وتجميل ما حوله . وقد بدئ بالساحة الواقعة بين المسجد وكوشك محمـد على (المعروف بقصر الجوهرة) وكانت عناية جلالته بهـذا القصر عظيمة ، فقد تم إصلاحه وأعيدت إليه نقوشه طبقا لأصلها تنفيذا لرغبته السامية التى شملت جميع قصوره . وبذلك أصبحت هذه المنطقة من أجمل بقاع العالم بحسن موقعها و بمـا حوته من آثار خالدة .

وهكذا نرى الفاروق العظيم يعنى بإصلاح وتميم ما شيده جدّه العظيم .

حفظ الله لمصر ملكها الصـالح ملاذ المسلمين وقبلة آمالهم ومعقل رجائهم وأعزّ بحياته العلوم والفنون .



اعتراف بالفضل

إلى العالم الجليل المتواضع حضرة صاحب السعادة يوسف فيليب جلاد باشا مدير الإدارة الأوروبية بديوان حضرة صاحب الجلالة الملك . أتقدم بأجزل الشكر على ما أولانيه من مساعدات جليلة . فقد كان لمعاونته وحسن توجيهه و إرشاداته القيمة أحسن الأثر فى إخراج هذا السفر . جزاه الله خيرا بقدر ما يسدى الى العلم . و بقدر إخلاصه وتفانيه فى خدمة المليك المفدّى أعزه الله .

وأقدم جزيل شكرى إلى الأستاذ الكبير حضرة صاحب السعادة أنطون الجميل باشا الذى أفسح صدر الأهرام لنشر الكثير من هذه الأبحاث قبل إخراجها فى ثوبها الجديد .

وأشكر أصدقائى الأجلاء : حضرة الأستاذ محمود حسن زناتى الذى تفضل بقراءة أصول الكتاب وتصحيحها ، وحضرتى الأستاذين أحمد زكى العدوى رئيس القسم الأدبى بدار الكتب المصرية ووكيله الشيخ محمد البرهامى منصور على تفضلهما بترقيم الكتاب وتصحيحه ومراجعة فهارسه ، وحضرة محمد أفندى نديم مدير مطبعة دار الكتب المصرية ومعاونيه على ما بذلوه من جهد وعناية فى طبع هذا الكتاب .

إلى حضراتهم جميعا و إلى كل من تفضل بمعاونتى أزجى أجمل الشكر وجميل العرفان ما

القاهرة فى { رجب سنة ١٣٦٥ / يونيه سنة ١٩٤٦ }

حسن عبد الوهاب

المراجـع العربيـة

آثار الأول فى ترتيب الدول — للحسن بن عبد الله — (طبع بولاق سـنة ١٢٩٥) .

آثار البلاد وأخبار العباد — لأبى يحيى زكريا القزوينى — (طبع أوروبا سنة ١٨٤٨) .

الآثار النبوية — لأحمد تيمـور باشا — (مجلة الهداية سنة ١٣٤٨) .

اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا — لأحمد بن على بن عبد القادر المقريزى — (طبع دار الأيتام السورية بالقدس سنة ١٩٠٩) .

أخبـار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول — لمحمد بن عبـد المعطى الإسحاقى — (طبع العثمانية سنة ١٣١٥) .

الأخبار الطوال — لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى — (طبع السعادة سنة ١٣٣٠) .

أخبـار مصر — لمحمـد بن على بن يوسف المعروف بابن ميسّر — (طبع المعهد العلمى الفرنسى سنة ١٩١٩) .

الأزهر — لمحب الدين الخطيب — (طبع السلفية سنة ١٣٤٥) .

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى — لأحمد بن خالد الناصرى —(طبع مصر سنة ١٣١٢) .

أسـد الغابة فى معـرفة الصحابة — لعز الدين أبى الحسن المعروف بابن الأثير — (طبـع الوهبية سنة ١٢٨٠) .

إسعاف الراغبين فى سـيرة المصطفى وفضائل أهـل بيته الطاهرين — للشيخ محمـد الصبان — (طبع الوهبية ١٢٩٠) .

الأعلاق النفيسة — لأبى على أحمد بن عمر بن رسته — (طبع ليدن سنة ١٨٩١) .

أعمال مجلس إدارة الأزهر — (طبع مصر سنة ١٣٣٣) .

ألف باء — لأبى الحجاج يوسف البلوى — (طبع الوهبية سنة ١٢٨٧) .

الألفاظ الفارسية — لأدى شير الكلدانى — (طبع المطبعة الكاثوليكية، بيروت سنة ١٩٠٨) .

الانتصار لواسطة عقد الأمصار — لابراهيم بن محمد الشهير بابن دقماق —(طبع بولاق سنة ١٣٠٩) .

بأى شرع نحكم — لمحمد سليمان — (طبع بولاق سنة ١٩٣٦) .

البداية والنهاية — لأبى الفدا اسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير — (طبع مصر) .

بدائع البـدائه — لعلى بن ظافر الأزدى — (طبع بولاق سنة ١٢٧٨ هـ) .

بدائع الزهور فى وقائع الدهور — لمحمد بن احمد بن اياس المصرى — (طبع بولاق سنة ١٣١٣ واستامبول سنة ١٩٣١) .

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع — لمحمد بن على الشوكانى — (طبع السعادة سنة ١٣٤٨) .

البرق اليمانى فى الفتح العثمانى — لقطب الدين محمد بن أحمد — (خط) .

البعثات العلمية فى عهد محمد على — للامير عمر طوسون — (طبع بمطبعة صلاح الدين بالاسكندرية سنة ١٩٣٤) .

بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس — لأحمد بن يحيي الضبي — (طبع مدريد سنة ١٨٨٤) .

بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة — بلجلال الدين السيوطى — (طبع السعادة، ١٣٣٦) .

بيت السادات الوفائية — للسيد محمد توفيق البكرى — (طبع المؤيد سنة ١٣٢٣) .

تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق — لخالد بن عيسى بن أحمد البلوى — (خط) .

تاريخ ابن الفرات — لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات — (طبع المطبعة الأمريكية، بيروت سنة ١٩٣٩) .

تاريخ أبى الفدا، المختصر فى أخبار البشر — للملك المؤيد عماد الدين اسماعيل أبى الفدا — (طبع الحسينية سنة ١٣٢٥) .

تاريخ الإسرائيليين — لشاهين مكاريوس — (طبع المقتطف سنة ١٣٠٤) .

تاريخ بغداد (أو مدينة السلام) — للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى — (طبع السعادة سنة ١٩٣١) .

تاريخ البيمارستانات فى الإسلام — للدكتور أحمد عيسى — (طبع الهاشمية بدمشق سنة ١٩٣٩) .

تاريخ جامع السلطان حسن — لهرتس باشا — (طبع بولاق سنة ١٩٠٢) .

التاريخ الحسينى — للسيد محمود البيلاوى — (طبع التقدم العلمية سنة ١٣٢٤) .

تاريخ دولة المماليك — للسير وليم موير — تعريب الأستاذين محمود عابدين وسليم حسن — (طبع المعارف سنة ١٣٤٢) .

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية — لأبى عبد الله محمد بن ابراهيم المراكشى — مطبعة الدولة ، تونس سنة ١٢٨٩) .

تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية — للسيد أحمد زينى دحلان — (طبع البهية سنة ١٣٠٦) .

تاريخ الرسل والملوك — لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى — (طبع الحسينية سنة ١٣٢٦) .

تاريخ سلاطين المماليك — للمفضل بن أبى الفضائل — (طبع أوروبا) .

تاريخ سلاطين المماليك — لابراهيم بن مغلطاى — (طبع باريس ١٩١٩) .
تاريخ العصر الحديث — للدكتور محمد صبرى — (طبع دار الكتب سنة ١٩٢٦) .
تاريخ الكامل — لأبى الحسن المعروف بابن الأثير (طبع بولاق سنة ١٢٩٠) .
تاريخ مختصر الدول — لأبى الفرج بن هارون المعروف بابن العبرى — (طبع الكاثوليكية ببيروت سنة ١٨٩٠) .
تاريخ مدينة دمشق — للامام الحافظ ابن عساكر — (خط) .
تاريخ مساجد بغداد وآثارها — للسيد محمود شكرى الألوسى — (طبع دارالسلام ببغداد سنة ١٣٤٦) .
تاريخ ووصف الجامع الطولونى — لمحمود عكوش — (طبع دار الكتب سنة ١٩٢٧) .
تاريخ اليعقوبى — لأحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب — (طبع النجف سنة ١٣٥٨) .
التبر المسبوك فى ذيل السلوك — لمحمد بن عبد الرحمن السخاوى — (طبع بولاق سنة ١٨٩٦) .
تحفة الأحباب وبغية الطلاب — للسخاوى — (خط) .
تحفة الأنام مختصر تاريخ الإسلام — لعبد الباسط فاخورى — (طبع بيروت سنة ١٣٢٠) .
التنبيه والأشراف — لأبى الحسن على المسعودى — (طبع ليدن سنة ١٨٩٣) .
تهذيب الأسماء واللغات — للامام محيي الدين أبى زكريا يحيى النووى — (طبع جوتجن سنة ١٨٤٢ — ٤٧) .
جامع عمرو بن العاص — لمحمود أحمد باشا — (طبع بولاق سنة ١٩٣٨) .
جوار الأخيار فى دار القرار — لابن أبى حجلة التلمسانى — (خط) .
جوامعنا — لخليل أدهم — (طبع استامبول سنة ١٩٣٣) .
جواهر البحور — لإبراهيم بن وصيف شاه — (خط) .
الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين — لصارم الدين ابراهيم المعروف بابن دقماق — (خط) .
حجة وقف الأشرف برسباى — (خط) .
حجة وقف السلطان قايتباى — (خط) .
حجة وقف زين الدين يحيى — (خط) .
حجة وقف السلطان الغورى — (خط) .
حجة وقف المؤيد شيخ — (خط) .
حجة وقف عبد الباقى جوربجى — (خط) .
حجة وقف يوسف الحين — (خط) .

حدائق القاهرة ومتنزهاتها — تأليف ج . دلشيفالرى — (مطبعة المدرسة الإلهامية سنة ١٩٢٤) .
الحركة القومية — لعبد الرحمن الرافعى بك — (طبع النهضة سنة ١٩٣٠) .
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة — لجلال الدين السيوطى — (طبع الوطن سنة ١٢٩٩).
حقائق الأخبار فى دول البحار — لاسماعيل سرهنك — (طبع بولاق سنة ١٣١٤) .
الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز — لعبد الغنى النابلسى — (خط) .
حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور — لأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى — (طبع كاليفورنيا سنة ١٩٣٠) .
الخطط التوفيقية الجديدة — لعلى مبارك باشا — (طبع بولاق سنة ١٣٠٥) .
خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر — لمحمد المحبى — (طبع الوهبية سنة ١٢٨٤) .
الدر المنتخب فى تاريخ حلب — لمحمد بن الشحنة الحلبى — (طبع الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٠٩).
درة الأسرار وتحفة الأبرار — لمحمد بن أبى القاسم الحميرى المعروف بابن الصباغ — (طبع الاسكندرية).
درر التيجان وغرر تواريخ الزمان — لأبى بكر عبدالله بن أيبك — (خط) .
درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة — لعبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصارى الحنبلى — (خط) .
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة — لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى — (طبع الهند سنة ١٣٤٩).
دليل دار الآثار العربية — لمكس هرتس باشا — ترجمة على بهجت بك — (طبع بولاق سنة ١٣٢٧).
ديوان أيدمر المحيوى — لأيدمر المحيوى — (طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١) .
ديوان السيد محمد شهاب الدين — (طبع مطبعة السيد محمد چاهين سنة ١٢٧٧) .
ديوان الشبراوى — للشيخ عبدالله الشبراوى — (طبع الكاستلية سنة ١٢٩٣) .
ديوان ابن نباتة المصرى — لجمال الدين أبو بكر محمد — (طبع مصر، سنة ١٢٨٨) .
الذكرى المئوية لتثبيت محمد على باشا الكبير وأسرته على عرش مصر — لجميل خانكى — (طبع العصرية).
ذيل المقريزى — لعبد الحميد نافع — (خط) .
رحلة ابن بطوطة — لأبى عبد الله محمد المعروف بابن بطوطة — (طبع وادى النيل، سنة ١٢٨٧) .
رحلة ابن جبير — لأبى الحسن محمد بن جبير — (طبع مصر) .
الرحلة الحجازية — لمحمد لبيب البتانونى — (طبع مصر سنة ١٣٢٩) .
رسائل تاريخية — لشمس الدين محمد بن على بن أحمد بن طولون — (طبع السعادة سنة ١٣٤٨) .
الروضتين فى أخبار الدولتين — لشهاب الدين أبى محمد المقدسى — (طبع وادى النيل سنة ١٢٨٨).

الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة — لمحمد بن أبى السرور البكرى — (خـط) .
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك — لغرس الدين خليل بن شاهين — (طبع باريس سنة ١٨٩٤) .
زهر الآس فى بناء مدينة فاس — لأبى الحسن الجزنائى — (طبع باستيد بالجزائر سنة ١٩٢٢) .
سفر نامه — لناصر خسرو علوى — ترجمة الأستاذ يحيى الخشاب — (طبع لجنة التأليف بمصر سنة ١٩٤٥) .
سكردان السلطان — لأحمد بن يحيى التلمسانى — (طبع مصر سنة ١٣١٧) .
السلوك لمعرفة دول الملوك — لتقى الدين أحمد بن على المقريزى — بتحقيق الأستاذ محمد مصطفى زيادة — (طبع مصر) .
سيرة أحمد بن طولون — لأبى محمد عبدالله البلوى — (طبع الترقى بدمشق سنة ١٣٥٨) .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — لأبى الفلاح عبد الحى بن العماد — (طبع مصر سنة ١٣٥١)
صبح الأعشى — لأبى العباس أحمد القلقشندى — (طبع بولاق سنة ١٩١٤) .
صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان — لمصطفى الصفوى الشافعى القلعاوى — (خط) .
ضوء الصبح المسفر — لأبى العباس أحمد القلقشندى — (طبع الواعظ سنة ١٩٠٦) .
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — لشمس الدين محمد السخاوى — (طبع مصر سنة ١٣٥٤) .
الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد — لكمال الدين الأدفوى — (طبع الجمالية مصر سنة ١٩١٤) .
طبقات الشافعية — لتاج الدين عبد الوهاب السبكى — (طبع الحسينيّة سنة ١٣٢٤) .
طبقات القراء — لابن الجزرى — (طبع مصر سنة ١٩٣٢) .
الطبقات الكبرى — للامام عبد الوهاب الشعرانى — (طبع بولاق سنة ١٢٧٦) .
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — لعبد الرحمن بن حسن الجبرتى — (طبع بولاق سنة ١٢٩٧) .
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان — لبدر الدين العينى — (خـط) .
العقد الفريد — لشهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه — (طبع بولاق سنة ١٢٩٣) .
العمارة فى سوريا الوسطى — لماركى دى ڤوكويه وتعريب الأستاذ محمود فؤاد مرابط — (طبع الاعتماد سنة ١٩٤٤) .
عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف — لأبى عبدالله محمد بن سلامه المعروف بالقضاعى — (خط) .
العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، — (طبع ليدن سنة ١٨٥٣) .
فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان — لأبى عبد الله محمد الواقدى — (طبع المحروسة مصر سنة ١٨٩١) .
فتوح البلدان — لأبى العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى — (طبع ليدن سنة ١٨٦٦) .

فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر — لمحمد بن محمد المعروف بابن بهادر المؤمنى — (خــط) .
الفخرى فى الآداب السلطانية — لمحمد بن على بن طباطبا المعروف بالطقطق — (طبع الموسوعات سنة ١٣١٧) .
الفضائل الباهرة — لابن ظهيرة — (خــط) .
فضائل الإسكندرية، — (خــط) .
فضائل مصر وأخبارها — للحسن بن زولاق — (خــط) .
الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة — لنجم الدين الغزى — (خــط) .
الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة — لشمس الدين محمد بن الزيات — (طبع بولاق سنة ١٩٠٧).
كنوز الذهب فى تاريخ حلب — لموفق الدين أبى ذر الشهير بسبط ابن العجمى — (خــط) .
فوات الوفيات — لمحمد بن شاكر الكتبى — (طبع بولاق سنة ١٢٩٩) .
الفوائد البهية فى تراجم الحنفية — لمحمد عبد الحى اللكنوى — (مطبعة السعادة ١٣٢٤) .
قطف الأزهار من الخطط والآثار — لمحمد بن أبى السرور البكرى — (خــط) .
الكشكول — لمحمد بن حسين بن عبد الصمد الملقب بهاء الدين العاملى — (طبع بولاق سنة ١٢٨٨) .
كوكب الروضة — لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى — (خــط) .
لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن الشاذلى — لأبن عطاء الله السكندرى — (طبع تونس سنة ١٣٠٤) .
مجلة المجمع العلمى العربى — (طبع دمشق سنة ١٩٣٦) .
محاضر وتقارير لجنة حفظ الآثار العربية .
مختصر أخبار الخلفاء — لعلى بن أنجب الساعى = (طبع بولاق سنة ١٣٠٩) .
مخطوطات الموصل وفيه بحث عن مدارسها — لداود الحلبى الموصلى — (طبع بغداد سنة ١٩٢٧).
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان — لشمس الدين أبى المظفر سبط ابن الجوزى — (طبع شيكاغو سنة ١٩٠٧) .
مرآة الزمان وعبرة اليقظان — لأبى محمد عبدالله اليافعى — (طبع الهند سنة ١٣٣٩) .
مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع — لشرف الدين أبى عبدالله ياقوت الحموى — (طبع لبدن سنة ١٨٧٩) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر — لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى — (طبع بولاق سنة ١٢٨٣) .

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار — لابن فضل الله العمرى — (طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٤) .

مسالك الممالك — لأبى إسحاق إبراهيم بن محمد الاصطخرى — (طبع ليدن سنة ١٩٢٧) .

مشاهد الصفا فى المدفونين بمصر من آل المصطفى — للعلامة الصفوى — (خط) .

المشتهى — لأحمد تيمور باشا — (الزهراء ج ٥ مجلد ٥ ذو القعدة سنة ١٣٤٨) .

مصابيح السنة — للامام البغوى (الحسين بن مسعود) — (طبع بولاق سنة ١٢٩٤) .

المعارف — لابن قتيبة الدينورى — (طبع الرحمانية سنة ١٩٣٥) .

معجم البلدان — لأبى عبد الله ياقوت الحموى — (طبع السعادة سنة ١٩٠٧) .

معجم السلفى — للحافظ أبى طاهر أحمد السلفى — (خط) .

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب — لجمال الدين بن واصل — (خط) .

المغرب فى حلى المغرب — لابن سعيد — (طبع ليدن سنة ١٨٩٨) .

منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماه — لتاج الدين شاهنشاه — (طبع الآداب والمؤيد، سنة ١٣١٧) .

المنتظم فى أخبار الأمم — لجمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن المعروف بابن الجوزى — (خط).

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى — لأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى — (خط) .

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — لتقى الدين أحمد بن على المقريزى — (طبع بولاق سنة ١٢٧٠) .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى — (طبع دار الكتب المصرية، سنة ١٩٤٢) .

نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار، المشهورة بالرحلة الورثيلانية — للحسن بن محمد الورثيلانى — (طبع الجزائر سنة ١٩٠٨) .

نزهة الأنام فى محاسن الشام — لأبى البقا محمد بن البدرى — (طبع السلفية ١٣٤١) .

النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية — للسيد محمد بن أبى السرور البكرى — (خط) .

نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس — للعباس بن على الموسوى — (طبع الوهبية سنة ١٢٩٣) .

نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان — لعلى بن داود الخطيب الجوهرى — (خط) .

نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة — لأحمد تيمور باشا — (طبع السلفية) .

نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب — لأبى العباس أحمد المقرى — (طبع مصر سنة ١٣٠٤) .

نهاية الأرب فى فنون الأدب — لشهاب الدين أحمد النويرى — (خـط) .

هندسة المبانى والإنشاءآت — لحسين محمد صالح وأحمد حسنى عمر — (طبع الاعتماد سنة ١٩٢٨) .

الولاة والقضاة — لأبى محمد بن يوسف الكندى — (طبع بيروت سنة ١٩٠٨) .

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى — لنور الدين على السمهودى — (طبع الآداب والمؤيد ، سنة ١٣٢٦) .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان — للقاضى أحمد الشهير بابن خلكان — (طبع بولاق سنة ١٢٧٥).

Bibliographie

Comité de Conservation des Monuments de l'Art Arabe. (Comptes Rendus).

Coste, Pascal. — Architecture Arabe ou Monuments du Kaire. Paris. 1839.

Creswell, K.A.C.— Early Muslim Architecture. (2 vols.) Oxford, 1932, 1940.

Devonshire, Mrs R. L.—L'Egypte Musulmane et les fondateurs de ses monuments. Paris 1926.

Ethem. Halil—Camilerimiz. Istanbul 1933.

Falaki, Mahmud Bey.—Mémoire sur l'Antique Alexandrie. Copenhague 1872.

Hautecoeur, L., & Wiet, G.—Les mosquées du Caire. Paris 1932.

Hay, Robert. — Illustrations of Cairo. London 1840.

Herz, Max. — La mosquée du sultan Hassan au Caire. Caire 1899.

—— La mosquée el-Rifâi au Caire. Milan 1906.

Prisse d'Avennes.—L'Art Arabe dans les monuments du Kaire (3 vols) Paris 1873.

Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. (Inst. Fr. Arch. Orien.) Caire 1931-1944.

Roberts, David. — Egypt & Nubia. London 1896.

Van Berchem, Max. — Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. (Mémoires Mission Archéologique Française du Caire. Tome XIX, fasc. I-IV). 1903.

Wiet, Gaston. — Lampes et bouteilles en verre émaillé. (Catalogue Général du Musée Arabe) Caire 1929.

—— Objets en cuivre. (Catalogue Général du Musée Arabe) Caire 1932.

—— L'Exposition Persane de 1931. Le Caire 1933.

—— et Hautecoeur, L. — Les mosquées du Caire. Paris 1932.

فهـــرس الموضـــوعات

فهرس اللوحات بالجزء الأول

فهــــرس الأعـــــلام

(غ)

(ف)

فهـــرس الأماكـــن

(ك)

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موريفيتلي سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496